الألف كتاب
الثانى
٢١٧

الفين توفلر

تحوّل السّلطة

ترجمة : لبنى الريدى

الجزء الثانى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تحوّل السلطة

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

تحوّل السّلطة

المعرفة والثروة والعنف على أعتاب القرن الحادى والعشرين

الجزء الثانى

تأليف

ألفين توفلر

ترجمة

لبنى الريدى

تعقيب

محمد سيد أحمد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

فهـــــرس

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس

السلطات الجديدة والسياسة

الفصل العشرون

العقــود الحاســمة

فى يوم ٩ نوفمبر ١٩٨٩ بمدينـة بلوفيلد (فرجينيا الغربيـــة) أجهشت مدرسة بالبكاء وشاركها ملايين الرجال والنساء فى العالم كله دموع الفرحة تلك وهم يشاهدون انهيار سـور برلين على شاشـات التليفزيون . طوال جيل كامل تعرض الألمان الشرقيون للسجن والرصاص بل والقتل لمحاولتهم اجتياز هذا السور الذى يبلغ طوله ٤٥ كيلومتراً . أما الآن فالجمـــاهير تجتازه وعيونهم تبرق ووجوههم تشى بتعبيـرات شتى من الفرحة التى لا تشوبها شائبة الى ذهول الصدمة الثقافية . وسرعان ما بدأت المعاول العمل ولم يعد باقيا من هذا الحائط الذى قسم حتى وقت قريب برلين ، بل وألمانيا كلها ، الى نصفين الا قطع من الحجر والأسمنت يحتفظ بها للذكرى عدد لا حصر له من الأسر الألمانية عـلى المدافىء حيث تتراكم الأتربة .

ولأن سقوط سور برلين كان يجسد نهـاية النظام الشمولى الذي فرضه السوفيت على أوروبا الشرقية والوسطى فلقد أثار موجة شديدة من الحماس فى الغرب . وعزف مثقفون وساسة قصيرو النظر نشيـد ابتهاج جديد بمباركة بيتهوفن ، وغنوا معا لمستقبل الديمقراطية الذى أصبح مضمونا بعد أن باتت الماركسية في وضـع ميئوس منه وانتهت الأيديولوجية ودفنت .

غير أنا نرى اليوم أوروبا الشرقية تعـانى من عـدم الاستقرار : فبولندا على شفا انهيار اقتصادى كامل ، وفى رومانيا تتقاتل الجموع فى الشوارع كما يحذر رئيس يوجوسلافيا من « اشتعال حرب أهلية مع احتمال تدخـل أجنبى مسلح وذلك نتيجة لتجاوزات الأحزاب اليمينيـة والقوى الانفصالية الموتورة » . وانطلقت من عقالها الأحقاد العرقيـة

القديمة وكذلك معاداة السامية · وأصبحت الحدود المتفق عليها بعد الحرب العالمية الثانية مطروحة ثانية للبحث فى العديد من المناطق · ان انهيار السلطة السوفيتية فى أوروبا الشرقية بدلا من أن يؤمن الديمقراطية خلق فراغا متفجرا ، قد يندفع اليه الحمقى ومحترفو اثارة الفتن ·

وفى غضون ذلك يهدد الارتباك والفوضى حركة التوحيد الجارية فى أوروبا الغربية ·

وفيما وراء المسرح الأوروبى الواسع ترتسم امكانية تمزق الاتحاد السوفيتى الذى قد يشعل حروبا جديدة تستمر لسنوات وتجدد مخاطر الحرب النووية بعد أن ساد الاعتقاد بأنها أصبحت مستبعدة نسبيا ·

ويواجه البشر سخرية جديدة من سخريات التاريخ · فبينما يطمح بشغف ملايين البشر الى حرية لم يملكوها قط تواجه الديمقراطيات القديمة فى كل من أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان أزمة داخلية بدأت تتجمع خيوطها منذ وقت طويل ، اذ نصل الى نهاية عصر ديمقراطية الجماهير – وهى النوع الوحيد من الديمقراطية الذى عرفه العالم الصناعى ·

الأسر الحاكمة والديقراطيات :

يتطلب أى نظام – سواء أكان ديمقراطيا أم غير ديمقراطى – درجة من التوافق بين الطريقة التى ينتج بها الشعب ثروته والطريقة التى يحكم بها نفسه · لأنه اذا تنافر النظام السياسى تنافرا شديدا مع النظام الاقتصادى فسينتهى الأمر بأن يحطم أحدهما الآخر ·

وعلى امتداد التاريخ لم يحدث سوى مرتين أن اخترعت البشرية نظاما جديدا كليا لانتاج الثروة · وفى المرتين اخترعت البشرية أيضا أشكالا جديدة للحكم لتتماشى معه ·

فانتشار الزراعة وضع نهاية للتجمعات القبلية ولجماعات الصيادين وغيرها من التكوينات الاجتماعية – السياسية الأخرى · وأحل محلها المدن – الدول – أى المدن ذات السيادة – والممالك الأسرية والامبراطوريات الاقطاعية · وأزاحت الثورة الصناعية الكثير من هذه التكوينات ، وفى العديد من البلدان واكب نظام الانتاج بالجملة والاستهلاك بالجملة ووسائل الاعلام الجماهيرية نظام « الديمقراطية الجماهيرية » ·

غير أن هذه الديمقراطية اصطدمت بمقاومة مستميتة • لقد اتحدت قوى الاقطاع الزراعى القديمة ـ الأرستقراطية الزراعية والكنيسة ودعائمهما الثقافية والفكرية ـ ضد حركة التصنيع الجديدة وشنت حربا ضارية ضد ديمقراطية الجماهير التى تلازمت فى كثير من الأحيان مع حركة التصنيع • ففى كل المجتمعات الصناعية لم يكن الصراع الرئيسى، كما يتصور الكثيرون ـ بين اليمين واليسار ولكنه كان فى الواقع بين المعجبين بمجتمع الموجة الأولى الزراعى « وبالتقليدية والسلفية » من ناحية وأنصار « التصنيع » المميز لاقتصاد الموجة الثانية و « التحديث » من ناحية أخرى •

وكثيراً ما يدور هذا النوع من الصراع من أجل السلطة تحت مسميات أخرى كالقومية أو الدين أو الحقوق المدنية • وتؤثر هذه الانقسامات فى الحياة الأسرية والعلاقات بين الرجل والمرأة والمدارس والمهن الحرة وعالم الفنون • غير أن أهمية هذا الصراع التاريخى الذى لا يزال محتدما تتضاءل أمام اندلاع صراع آخر جديد ، صراع يدور هذه المرة بين مدنية الموجة الثالثة أى مدنية ما بعد العصرية من جهة وبين « العصرية » و « التقليدية والسلفية » من جهة أخرى •

واذا صح أن اقتصادا جديدا قائما على المعرفة فى طريقه لأن يحل محل الانتاج المصنعى فعلينا أن نتوقع صراعا تاريخيا جديدا لاعادة بناء مؤسساتنا السياسية حتى تتوافق مع الاقتصاد الثورى الجديد ، اقتصاد ما بعد الانتاج بالجملة •

وتواجه اليوم المجتمعات الصناعية مجموعة من الأزمات المتراكمة والتى تؤثر على نظمها الأساسية : النظم الحضرية والنظم الصحية ونظم الضمان الاجتماعى وشبكات النقل والتوازن البيئى • غير أن ساسة العصر المصنعى مستمرون فى التصدى لهذه الأزمات بسياسة ردود الأفعال ويكتفون بتقديم بدائل لطرق التناول القديمة • الا أن هذه الأزمات قد تكون غير قابلة للحل فى اطار المؤسسات القائمة التى تم ابتكارها وصياغتها للمجتمع الجماعى •

بالاضافة الى ذلك ، فان الاقتصاد الجديد الذى يتكون حاليا يطرح تحديات غير مسبوقة ويخلق ازمات أخرى تقلب الافتراضات التقليدية لعصر ديمقراطية الجماهير والتحالفات التى تنبع منها رأسا على عقب •

انتقالات مستويات السلطــة :

تلازمت ديمقراطية الجماهير مع تركيز ضخم للسلطة على الصعيد القومى ـ تركيز يعكس ازدهــار تقنيــات الانتــاج بالجملة والأســواق الوطنية • أما اليوم فلقد غيرت تقنيات الانتاج فى مجموعات صغـــيرة الموقف تماما •

ولنأخــذ مثال الخبز •

كان الخبز والمنتجات المماثلة تأتى أصلا من المخابز المحلية • ثم عقب التصنيع طغت محلات السوبر ماركت التى تتزود من شركات عملاقة مثل نابيسكو فى الولايات المتحدة على الشركات الأسرية الصغيرة • أما الآن فمن المدهش أن نرى العديد من محلات السوبر ماركت وقد بدأت فى تصنيع الخبز فى منشآتها الخاصة ، مع الاستمرار فى بيع الأنــواع القومية منه • اذن فالدائرة تنغلق على نفسها ولكن مع استخدام تقنيات أكثر تطورا ••

فى الماضى كانت بكرات الأفلام الفوتوغرافية ترسل الى روشيستر بولاية نيويورك كى يتم معالجتها فى المصنع المركزى لكوداك ، أما الآن فان تحميض وطبع هــذه الأفلام يتم فى محلات صغيرة وأكشــاك عنــد ناصية أى شارع • كما كانت الطباعة التجاريـــة تتطلب استثمارات ضخمة وآلات معقدة ، أما الآن ففى كل الأحياء معدات نسخ صغيرة وفعالة • وهكذا ، فان التكنولوجيات الجديدة تجعل الانتاج المحــلى قادرا على المنافسة مرة أخرى •

ولكن فى الوقت نفسه ، ينقل الاقتصاد المتقدم بعض أشكال الانتاج الى مستوى عالمى • فالسيارات وأجهزة الكمبيوتر والعديد من المنتجات الأخرى لم تعد تصنع فى بلد واحد ، فمكونات هذه الأجهزة والمنتجات يتم انتاجها جزئيا فى الخارج كما يتم تجميعها فى العديد من الأماكــن المتباعدة • هذان التطوران المتلازمان اللذان « يخفض » أحدهما الانتاج فى حين « يرفعه » الآخر لهما مقابلهما المباشر فى النظام السياسى •

انهما يفسران سبب الضغوط التى نراها فى كل من اليابان وأوروبا والولايات المتحدة وكل البلدان ذات التكنولوجيا المتقدمة من أجل اللامركزية السياسية ، وكذلك الاتجـاهات المتزامنة الراميـة الى نقـل السـلطة الى هيئات فوق قومية •

ومن أهم هذه الاتجاهات ما تقوم به المجموعة الأوروبية التى تتجه نحو سلطة مركزية على مستوى أعلى عن طريق خلق سوق واحدة متكاملة وعملة مشتركة وبنك مركزى واحد .

غير أنه فى اللحظة نفسها التى تحاول فيها الأسطوانة الضاغطة للمجموعة الأوروبية محو الاختلافات وتركيز آليات اتخاذ القرار السياسى والاقتصادى فان مناطق متعددة تستفيد مما ينجم عن ذلك من اضعاف للسلطات الوطنية لشن هجوم من أسفل . فعلى سبيل المثال يعلن رئيس وكالة التنمية الاقتصادية لمنطقة ليون أن « السوق الأوروبية الموحدة تتيح لنا فرصة عظيمة لتحطيم المركزية الباريسية » . وبالفعل تقيم منطقة الرون ـ الألب بأكملها ، والتى يمثل تجمع ليون جزءاً منها ، علاقات مع مثيلاتها من المناطق فى بلدان أخرى مثل منطقة كاتالونيا ولمباردى وباد فورتمبرج بهدف تشجيع المصالح المشتركة .

وكلما انتشر الاقتصاد فائق الرمزية فانه يخلق جماعات ناخبين كفيلة بمساندة العديد من التحولات الجذرية في السلطة على الصعيد المحلى والاقليمى والوطني والعالمى . وبالتالى فمن المتوقع أن يتم تقسيم الناخبين طبقا « لسياسات المستويات » تلك الى أربع مجوعات متميزة هى : « العالميون » و « الوطنيون » و « الاقليميون » و « المحليون » . وستدافع كل مجموعة بشراسة عن هويتها (والمصالح الاقتصادية المقابلة لهذه الهوية) وستبحث جميعها عن حلفاء لها .

وستحصل كل مجموعة على دعم مالى وصناعى من جهات مختلفة كما ستجذب الموهوبين من الفنانين والكتاب والمفكرين الذين سيقدمون لها المبررات الأيديولوجية الملائمة .

فضلا عن أن الأقاليم والمحليات مقدر لها أن تكون اكثر تنوعا على نقيض الرأى السائد القائل بأنها ستصبح اكثر تجانسا . ويؤكد جيمس كروبى رئيس المركز الدولى للقيادة (International Leadership Center) بمدينة دالاس « انكم تقعون فى خطأ خطير اذا ما اعتبرتم الولايات المتحدة كيانا متجانسا ، اذ يوجد فى البلاد مناطق متناقضة فيما بينها كتناقض الليل والنهار » .

ودون الوصول بالضرورة الى ما ذهب اليه كروبى من « أن الولايات المتحدة فى طريقها لأن تصبح أمة تتألف من مدن ـ دول » ،

أى مــدن ذات سـيادة ، فان دراســة فاحصة لاحصائيــات الثمانينيات توضح وجود اختلافات متزايدة بين الساحلين الشرقى والغربى وبين منطقة وسط الغرب والمنطقة البترولية أو بين المراكز الحضرية الكبرى وضواحيها • وسواء تم قياس هذه الاختلافات بمقياس نشاط التشييد العقارى أو بمؤشرات النمو أو مستويات العمالة أو الظروف الاجتماعية فمن المرجح أنها ستتسعوتزداد عمقاً بدلا من أن تقل تحت تأثير الاقتصاد الجديد الذى يدير ظهره للتجانس الذى ميز العصر المصنعى •

وبتأكيــد الأقــاليم والمحليــات لأصالتهــا الثقــافية والتكنولوجية والسياسية سيكون من الأصعب على الدول أن توجه اقتصادات هــذه المناطق بواسطة أدوات التنظيم التقليدية أى عن طريق البنك المركزى والضرائب وطرق المراقبة المالية • اذ سينجم عن رفع أو خفض سعر الفائدة أو تغيير نسبة الضرائب نتائج مختلفة تماما بالنســبة لمختلف مناطق البلد الواحد •

ويمكن أن يؤدى اتساع هذا التفاوت الى نشأة الحركات المتطرفة أو تدعيمها بشكل متفجر • تلك الحركات التى ستطالب بالحكم الذاتى أو الاقليمى أو المحلى بل وقد تطــالب بالانفصال التــام • ومن ثم فــان قنابل التطرف موجودة فى كل الاقتصادات المتقدمة تنتظر من يفجرها •

اذ توجد فى كل بلد مناطق تعتبر أنها تلقى معاملة ظالمة من قبل السلطة المركزية • ان أى مواطن من سكان جلاسجو سيقــــول لك ان الوعود بتقليل التفاوت بين المناطق لم تحقق شيئا يذكر • (وطبقا لبعض ما ورد فى الصحافة فان تجدد الشعور الانفصالى فى اسكتلندا أثار قلق الملكة الى حد أنها أعربت فى أحاديثها الخاصة عن مخاوفها من احتمال تفكك المملكة المتحدة) •

وبالاضافة الى التفاوت الاقتصادى ، فهناك الجيوب الانفصالية الملتهبة ذات الأصل اللغوى والعرقى التى تقيحت منذ زمن طويــل كما فى التيرول الجنوبى وبريتاني والالزاس وفلاندرز وكاتالونيا ومنــاطق أخرى • وبالتالى سيتعين على أوروبا الغربية الموحدة أن تمنح قدراً أكبر من الحكم الذاتى الاقليمى والمحلى أو أن تسحق كل هــذه الحركات بقبضة من حديد •

لقد تمكنت السلطة المركزية فى أوروبا الوسطى طيلة حــكم أسرة هابسبرج ، أى على امتداد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ،

من احتواء النزاعات العرقية بين رعاياها من الألمان والايطاليين والبولنديين والماجيار والسلوفاك والنمساويين وآخرين • ولكن بمجرد أن تفككت امبراطورية النمسا ـ المجر ، غداة الحرب العالمية الأولى لم تتوقف هذه الجماعات عن التقاتل فيما بينها • ويوقظ انهيار السيطرة السوفيتية فى أوروبا الوسطى حاليا هذه الشياطين القديمة • اذ بدأنا نرى بالفعل تزايد حدة مشكلة الأقلية المجرية فى رومانيا والأقلية التركية فى بلغاريا •

واذا انتقلنا غربا ، نجد أن التقاتل بين الصرب والألبان والكروات والقوميات الأخرى قد يؤدى الى تفكك يوجوسلافيا • وذلك بغض النظر عن القوى المركزية الطاردة المهولة التى تهدد وحدة الاتحاد السوفيتى ذاته •

لقد كان العصر المصنعى هو الحقبة الكبرى للكيانات القومية التى فرضت السيطرة المركزية على التجمعات الصغيرة والمدن ذات السيادة (المدن ـ الدول) والمناطق والأقاليم والتى نجم عن تدعيمها جعل العواصم مراكز للسلطات الضخمة للدولة • ان أفول الاقتصاد القديم وما يترتب عليه من انتقال لمراكز السلطة الحقيقية يطلق ويحرر ضغائن وعداوات متأصلة وموجات انفعالية عميقة وعنيفة • وفى أركان كثيرة من العالم سيضاعف الموقف الجديد من عدد الجماعات المتطرفة التى تمثل الديمقراطية بالنسبة لها عائقا يتعين ابعاده اذا ما عرقل اشباع أهوائها المتعصبة •

سياسة البيئة الأرضية :

أثناء حقبة ديمقراطية الجماهير كان يتم عادة تصنيف الناس والأحزاب والاتجاهات السياسية الى « يمين » أو « يسار » ، وكانت المشكلات اما « داخلية » أو « خارجية » • كان كل شىء يتم تصنيفه فى فئات واضحة تماما •

ولكن النظام الجديد لخلق الثروة يجعل كل هذه المسميات السياسية باطلة وكذلك التكتلات المقابلة لها • فالكوارث البيئية لا تنتمى ليمين أو يسار كما أن بعضها يكون محليا ودوليا فى آن واحد •

ان الكثير من أخطر مشكلاتنا البيئية ، مثل تلوث الهواء والنفايات السامة ، هى نواتج ثانوية للطرق الصناعية القديمة •

وعلى النقيض من ذلك ، فان النظام الجديد يبشر بالأمل في امكانية الجمع بين التقدم الاقتصادي والسلامة البيئية وذلك باحلاله المعرفة محل الموارد المادية وبتوزيعه للانتاج بدلا من تركيزه وباستخدامه الأكثر كفاءة للطاقة فضلا عما يسمح به التقدم المذهل فى تقنيات اعادة استخدام النفايات الصناعية ·

وان كان محتملا أن تحدث خلال العشرة أو العشرين عاما القادمة كوارث بيئية جديدة من طراز تشرنوبل أو بوهال أو بقع زيت أخرى ، وهى تمثل مواريث العصر الصنعى ، فان هذه الكوارث ستغذى نزاعات عنيفة بشأن التكنولوجيات الجديدة وعواقبها المحتملة · وفى كل بلد ستطلب الجماعات الاجتماعية من بعضها البعض « تعويضات بيئية » وستتقاتل من أجل توزيع تكاليف « التنظيف » · وعلى الصعيد الدولى ستتصرف بلدان كاملة بنفس الطريقة · كما ستقوم بعض البلدان فى حالات أخرى بنوع من « الابتزاز البيئى » وذلك بأن تطالب « بفدية » مقابل امتناعها عن مزاولة أنشطة قد تؤدى الى ارسال غبار اشعاعى أو أمطار حمضية أو نفايات سامة أو أى نواتج خطيرة عند جيرانها عبر الحدود و احداث تغيرات مناخية فى البلدان المجاورة لها ·

هل الاقتصادات المتقدمة مستعدة لدفع « اعانات بيئية » للبرازيل والهند وبلدان أخرى لصرفها عن قطع الغابات الاستوائية والأدغال والموارد الطبيعية الأخرى ؟ وماذا عن الكوارث الطبيعية فى اقتصاد عالمى تتحكم فيه حاليا الشبكات ؟ ان حدوث هزة أرضية فى طوكيو قد يقذف الرعب والفوضى فى وول ستريت ، فهل معنى ذلك أنه يتعين على وول ستريت أن تدعم ماليا البرامج اليابانية للوقاية من الزلازل ؟ وهل هذه المشكلات يسارية أم يمينية ؟ وهل هى محلية أم دولية ؟ ·

ان محاولة حل هذه المشكلات بالطرق السياسية التقليدية لن تؤدى فحسب الى تحطيم تحالفات قديمة بل ستضاعف عدد « منقذى العالم » المؤمنين بالعنف للدفاع عن قضيتهم وبأن لمتطلبات البيئة (كما يحددونها) الأسبقية على مقتضيات الديمقراطية وأحكامها ·

انفجار المشكلات العرقية :

يصاحب تطور الاقتصاد فائق الرمزية تحولات ديموغرافية وهجرات سكانية · وستتم مناقشة سياسات الهجرة ـ المثيرة دائما

لنزاعات عنيفة ـ فى ظل خلفية مدموغة بمواقف قومية وعرقية متأصلة · ولن يقتصر ذلك على مناطق بعيدة مثل أرمينيا وأذربيجان وألبانيا وصربيا وانما سيمتد الى نيويورك وناجويا (اليابان) وليفربول وليون ·

فى المجتمعات الصناعية الجماعية ، كانت العنصرية تأخذ عامة شكل اضطهاد الأغلبية لأقلية · ولا يزال هذا النوع من المرض الاجتماعى يمثل تهديداً للديمقراطية · ان مشاغبى الشوارع وحليقى الرؤوس والمعجبين بالنازية من البيض « فى طريقهم لأن يصبحوا [······] ارهابيين محليين » ، على حد قول موريس دين من مركز دراسات قوانين الفقر ·

غير أن النظام الجديد لخلق الثروة وما يصاحبه من تحولات من اقتصاد الجملة الى اقتصاد أكثر تنوعا وتخصصا سيؤدى الى تنوع اجتماعى متزايد ، وبالتالى فبالاضافة الى النزاع التقليدى بين الأغلبية والأقليات يتعين حاليا على الحكومات الديمقراطية أن تواجه حروبا مفتوحة بين جماعات الأقليات المتنافسة ، كما حدث فى ميامى بين المهاجرين من كوبا والمهاجرين من هاييتى ، وكما يحدث فى أماكن أخرى من الولايات المتحدة بين الأمريكيين من أصل أفريقى والأمريكيين من أصل أسبانى · ففى لوس انجلوس يتصارع الأمريكيون من أصل مكسيكى على الوظائف مع الأمريكيين من أصل كوبى ، وفى مدينة جريت نك الغنية بمنطقة لونج آيلاند القريبة من نيويورك يتصاعد التوتر بين اليهود الذين ولدوا فى الولايات المتحدة واليهود المهاجرين من ايران الذين يرفضون التخلى عن عاداتهم القديمة · وتقوم جماعات موسيقى الراب الأفرو أمريكية ببيع أسطوانات مناهضة للسامية · وفى المدن الداخلية يهاجم الزنوج التجار الكوريين ·

اذن ، تحت تأثير النظام الجديد للانتاج تتزايد المقاومة « لبوتقة الانصهار » الامريكية فى كل مكان · وبدلا من الانصهار ، تطالب الجماعات العنصرية والعرقية والدينية بحقها فى الوجود والبقاء مختلفة بكل اعتزاز وفخر · كان المثل الأعلى بالنسبة للمجتمع الصناعى هو انصهار الجماعات المتباينة وامتزاجها ، نظرا لحاجة هذا المجتمع الى قوة عمل متجانسة ، أما المثل الأعلى الجديد ، وهو التنوع ، فيتفق مع سمة عدم التجانس التى تميز النظام الجديد لخلق الثروة ·

وفى ظل هذا المناخ المفعم بالكراهية قد تضطر الدول الى ارضاء بعض المجموعات المعنية بالحفاظ على هويتها ، مثل الأتراك فى المانيا

والكوريين والفليبينيين وأبناء جزر جنوب الباسفيك فى اليابان والشمال أفريقيين فى فرنسا · لكن فى الوقت نفسه ، سيتعين على هذه الدول أن تعمل على حفظ السلام بين جماعات المهاجرين المختلفة ·

الا أن صعوبة القيام بهذا الدور ستزداد باطراد لأن نموذج التجانس (اليابان) أو بوتقة الانصهار (الولايات المتحدة) يحل محله تدريجيا نموذج « طبق السلطة » حيث تحتفظ مختلف المكونات بتفردها ·

وتقدم مدينة لوس أنجلوس مثالا حيا للتنوع الجديد بحيها الكورى وضواحيها الفيتنامية والعدد الكبير من سكانها المنحدرين من أصل مكسيكى ومطبوعاتها المعبرة عن الأصول العرقية المختلفة والتى يصل عددها الى ٧٥ مطبوعة · وذلك بالاضافة الى اليهود والأمريكيين الأفارقة واليابانيين والصينيين وجاليتها الايرانية الكبيرة · غير أن نموذج « طبق السلطة » يستتبع توفر أدوات قانونية واجتماعية لدى الحكومات لكى تتمكن من القيام بدور الحكم فى التناقضات المتزايدة التعقيد والمشحونة بالعنف ، وهى أدوات تفتقر اليها حاليا · وبينما تتناضل الأقاليم والدول والقوى الدولية فوق الوطنية من أجل الحصول على السلطة فان الطاقة الكامنة للتطرف المعادى للديمقراطية لا تكف عن النمو ·

ديمقراطية الفسيفساء :

ان ديمقراطية الجماهير تعنى وجود « جماهير » ، فهى تعتمد على الحركات الجماعية للجماهير والأحزاب السياسية الجماهيرية ووسائل الاعلام الجماهيرية · ولكن ما الذى يحدث عندما يبدأ المجتمع الجماهيرى فى التفكك الى فئات وطوائف وجماعات متزايدة التنوع ويفقد بالتالى صفته الجماعية ،وعندما تتجزأ الحركات والأحزاب ووسائل الاعلام ؟ واذا كنا نتحول الى اقتصاد قائم على عمالة غير قابلة للاستبدال ، فبأى معنى نستطيع الاستمرار فى الحديث عن « الجماهير » ؟·

واذا كانت التكنولوجيا تتيح صنع المنتجات وفقا لمتطلبات العميل ، واذا كانت الأسواق تتجزأ الى منافذ بيع متخصصة ، واذا كانت وسائل الاعلام تتضاعف لكى يخدم كل منها جمهورا أقل اتساعا باطراد ، واذا كانت البنية الأسرية ذاتها والثقافة تمثلان عدم تجانس متزايد ، فلماذا يصر النظام السياسى على افتراض وجود جماهير متجانسة ؟ ·

ان تأكيد الخصوصية المحلية ومقاومة الاتجاه الى العالمية والتطرف البيئى والوعى العرقى ، كل هذه الاتجاهات الجديدة تجسد التنوع الاجتماعى المتزايد للاقتصادات المتقدمة كما أنها تعلن اختفاء المجتمع الجماهيرى ٠

ومع اختفاء المجتمع الجماهيرى تتنوع الاحتياجات البشرية وينطبق الشىء نفسه على التطلعات السياسية ٠ وكما يكتشف أخصائيو التسويق مزيدا من الشرائح التسويقية المتمايزة و « الأسواق المصغرة »، نظرا للتنوع المتزايد لأساليب الحياة ، فان السياسيين يستمعون الى ما يعرب عنه ناخبوهم من اهتمامات متزايدة التنوع ٠

لازالت الحركات الجماهيرية الكبيرة تستطيع أن تملأ ميدان « تيان انمين » فى بكين أو ميدان « ونسيسلاس » فى براغ ٠ ان هذه المظاهر لم تختف بالطبع ولكنها تميل بدرجة متزايدة الى التجزؤ فى بلدان التكنولوجيا المتقدمة ، بحيث أصبح تحقيق اجماع جماهيرى حول قضية ما أمرا متزايد الصعوبة ، فيما عدا بعض المشكلات الرئيسية النادرة ٠

وبالتالى يأتى فى مقدمة نتائج تفكك المجتمع الجماهيرى أن تغدو الحياة السياسية فجأة أكثر تعقيدا ٠

لقد كانت مهمة كبار زعماء العصر الصناعى فى الانتخابات أبسط نسبيا ٠ فقد استطاع فرنكلين روزفلت فى عام ١٩٣٢ تجميع ائتلاف ضم ست جماعات أهمها عمال المدن وفقراء الفلاحين والمهاجرين والمثقفين ٠ وبذلك تمكن الحزب الديمقراطى أن يحتفظ بالسلطة فى واشنطن طوال ثلث قرن ٠

أما اليوم ، فلا يستطيع أى مرشح للرئاسة أن يكتفى بتجمع يضم أربعة أو ستة تكتلات كبرى فقط وانما عليه أن يضم اليه مئات من التجمعات الصغيرة التى لكل منها برنامجه الخاص ، وهى تجمعات فى حالة تغير مستمر بل ان الكثير منها لا يستمر الا لبضعة شهور أو بضعة أسابيع (بالاضافة الى تكلفة استخدام البث التليفزيونى فى الحملات الانتخابية ، الأمر الذى يسهم فى تفسير زيادة تكاليف الحملات الانتخابية فى الولايات المتحدة) ٠

ان ما يتأكد اليوم ـ كما سنرى ـ لم يعد ديمقراطية الجماهير وانما « ديمقراطية فسيفسائية » تضم عناصر شديدة التنوع والتعقيد

وفى حالة تحول سريع ⋅ ويتطابق هذا النوع من الديمقراطية مع بزوغ الفسيفساء فى الاقتصاد ، وهى تعمل طبقا لقواعد خاصة بهـــا بحيث سنضطر الى اعادة تعريف حتى أكثر الافتراضات الديمقراطية أساسية٠

لقد صممت ديمقراطية الجماهير لتستجيب أساسا لكل ما هو جماعى ـ حركات ، أحزاب ، وسائل اعلام ٠ وهى لا تعرف بعد كيف تعالج أمر الفسيفساءات ، مما يجعلها معرضة مرتين لهجمـــات ما يمـــكن تسميته بـ « الأقليات المحورية » ٠

الأقليات المحـــورية :

يعرف العلماء الذين يدرسون حالات الاضطراب وعــدم الاستقرار والفوضى فى الطبيعة أو فى المجتمعات أن نفس النظـام ـ ســواء أكان نظاما كيمائيا أم مجتمعيا ـ يتصرف بشكل مختلف فى حالة الاتزان عنه فى حالة عدم الاتزان ٠اذا دفعت أى نظام ـ هضمى أو اعلاماتى أو مرورى أو سياسى ـ لا يهم نوع النظام ـ الى حد أكثر من اللازم فانه سيخرق قواعده التقليدية ويسلك مسلكا شاذا ٠

عندما تصبح بيئة ما شديدة الاضطراب تفقد النظم نسقها الخطى ، وهو ما يمنح المجموعات الصغيرة امكانات عمل واسعة ٠ اننـا نقترب فى الواقع من مرحلة جديدة للحياة السياسية يمكن الاشارة اليهـا على أنها « زمن فرص » الأقليات المحورية ٠

بعد تحول المجتمع الجماهيرى وتفككه يجد الزعماء السياسيون أنفسهم فى مواجهةعدد لا حصر له من المجموعات الصغيرة المتجمعـة مؤقتا حول هدف وحيد والتى لا تنفك تعقد التحالفات وتفصمها بمجرد تكوينها تقريبا لتكون تحالفات جديدة ٠ وذلك بعد أن كان هؤلاء الزعماء يتعاملون فى السابق مع عدد قليل من التجمعات الكبيرة للناخبين والتى كان يمكن التنبؤ بدرجة أو أخرى باتجاهاتها ٠

ان أية مجموعة من هذه المجمـوعات الصغيرة تستطيع أن تمارس تأثيراً لا يتناسب اطلاقا مع قوتها الذاتية اذا احتلت نقطة استراتيجيـة حاسمة فى اللحظة المناسبة ٠ ففى عام ١٩١٩ كان انطون دريكسلر ـ وهو ميكانيكى فى السكك الحديدية ـ يتزعم جماعة سياسية صـــغيرة فى ميونخ ، ولم يكن هذا التجمع يمثل سوى اقلية الأقلية ، فلم يجذب أول

اجتماع عام له سوى ١١١ مستمعا · وكان اسم أحد المتحدثين فى هذا الاجتماع والذى ظل يتحدث من على المنصة لمـدة نصف ساعة ·· أدولف هتلر ·

لقد ساهم العديد من العوامل بالطبع فى صعود هتلر للسلطة غير أن علم النظم غير المتزنة الجديد يقدم ، على أية حال ، عنصراً من عناصر التفسير · فهذا العلم يوضح فى الواقع أنه فى لحظات عدم الاستقرار القصوى ، مثل تلك التى كانت عليها ألمانيا فى تلك الفترة ، تحدث ثلاث ظواهر : أولا ·· تلعب الصدفة دورا متناميا · ثانيا ·· تكتسب ضغوط العالم الخارجى وزنا أكبر · وأخيرا تولد التغـذية الارتجاعية الايجابية تأثيرات ضخمة تتزايد بشكل مطرد مثل كرة الثلج ·

ان ما تقدمه وسائل الاعلام لأفضل مثال لـ « تأثير كرة الثلج » ، اذ يكفى أن يصوب مراسل آلة تصويره على أصغر زمرة من المهووسـين السياسيين أو الارهابيين لكى يفرض على العالم كله صورتهم المباشرة ويعطى بذلك هذه الزمرة أهمية أكبر بكثير من التى كانت تستطيع الحصول عليها بمفردها ·· ومنذ تلك اللحظة تصبح هذه المجموعة من « أحداث الساعة » ، وتغطى وسائل الاعلام الأخرى أنشطتها مما يدعم تأثيرهـا على الرأى العام : وبذلك تتكون « حلقة تغذية ارتجاعية موجبة » ·

ويمكن أن تؤدى آليات أخرى الى نفس النتيجة · ففى ظل الروابط العالمية التى تربط كل أجزاء الكرة الأرضية ببعضها تستطيع المصالح الأجنبية بسهولة أن تمد جماعة صغيرة بالمال أو بأى شكـــل آخر من المساعدة بحيث يتضخم حجمها بدرجة هائلة ، وبالتالى تجتذب مزيدا من المـــوارد ·

وتساهم هذه العوامل الثلاثة : الصدفة والمساعدة الخارجية والأثر الارتجاعى الموجب ، فى تفسير ازدهار أنواع متعددة من التعصب فى فترات الاضطرابات الصاخبة على امتداد تاريخ الديمقراطية الجماهيرية ابتداء من المؤامرات الثورية والمجالس العسكرية الحاكمة الى المكائـد من كل نوع · كما أنها تفسر لماذا تستطيع جماعة غير ذات بال أصلا أن تتحـول فجـأة الى جمـاعة محـورية · ان الوضـع مختلف بالنسـبة للديمقراطيات الفسيفسائية · فمنذ عهد قريب كانت توجد أغلبية تستطيع

أحيانا احتواء أو سحق الحركات المتطرفة الخطرة . ولكن اذا لم تكن هناك ثمة أغلبية متماسكة الآن ؟ .

ان بعض الأقليات المحورية قد تكون مفيدة غير أن أغلبها ضار للديمقراطية ، وهى تتمثل فى أشكال متنوعة ، ففى ايطاليا كان المحفل الماسوني « P2 » يتطلع الى الاستيلاء على السلطة كما تفعل الآن فى اسرائيل رابطة الدفاع اليهودية بمساندة من مواطنين أمريكيين . وتنفث الجماعات النازية ، وبعضها مسلح ، الكراهية العنصرية وبشكل خاص العداء للسامية وتحلم بأن تسيطر على الولايات المتحدة ، ولقد خاض بعض أعضاء هذه الجماعات معارك مسلحة ضد مكتب التحقيقات الفيدرالى (FBI) . وفى الولايات المتحدة أيضا زاد عدد المنضمين الى منظمة من الأمريكيين الأفارقة يقودها أحد المعجبين بهتلر بعد أن حصلت من القائد الليبى معمر القذافى على قرض بدون فوائد قيمته ٥ ملايين دولار . ويضاف الى عصيدة الساحرات تلك حركة لاروش (La rouche) التى تعانى من جنون العظمة ، بـ « عملياتها الاستخبارية » وفروعها ومجموعاتها الهجومية الموجودة فى كل من ألمانيا الغربية والمكسيك والولايات المتحدة .

ويؤكد الدكتور وليم تافويا ، وهو من أكبر خبراء مكتب التحقيقات الفيدرالى فى مجال التوقعات المستقبلية ، أنه خلال العقد القادم سيصاحب تزايد القلق الاجتماعى فى الولايات المتحدة تكاثر الجماعات المحمومة بالكراهية والتى ستحاول التسلل الى أجهزة الشرطة الأمريكية بهدف تسهيل العمليات الارهابية ويتساءل تافويا « اذا كنت عنصريا فهل يوجد غطاء لمشروعاتى السرية أفضل من شارة رسمية ؟ » .

ويعتبر تافويا أن البطالة والفقر والأمية ووضع المشردين بدون مأوى من أهم مصادر القلق الاجتماعى . ولقد توصل ، بناء على احصاء لمعدل تزايد الجرائم والفتن والاعتداءات المرتبطة بالعنصرية ، الى أن الاطار الهادف الى تأمين العدالة الاجتماعية لم يعد حاليا سوى « قشة جافة » قد تكفى شرارة لكى تشتعل .

غير أن الأوضاع الداخلية ليست وحدها المعنية . فلقد جلبت الجاليات المهاجرة معها من « البلد القديم » احساسها بالمظلم وأهواءها السياسية الى موطنها الجديد ، واحتفظت بها سليمة كاملة ، مثل الأكراد فى السويد والسيخ فى كندا . فى الماضى كان المهاجرون منعزلين عن أوطانهم الى حد كبير ، أما الآن فان وسائل الاتصالات الفورية والسفر

بالطائرات تتيح للثقافات السابقة أن تحتفظ بتأثيرها ونفوذها ، ولحركاتهم السياسية أن تستمر بعيداً عن الوطن الأم ٠ ان هذه الجماعات تريد هي أيضا الاستيلاء على السلطة ، ليس في بلدان المهجر ولكن في أوطانها ٠ وينجم عن ذلك تعقيدات جديدة وتوتر في العلاقات الدولية ٠

هذه التجمعات الصغيرة التي لا أهمية لها في الوقت العادي تستطيع أن تبلغ مرحلة « الانطلاق » عندما تكون التربة الثقافية والاجتماعية جاهزة لذلك ، أو عندما تكون الأحزاب الرئيسية في حالة شلل أو حالة اخفاق انتخابي بحيث يكفي انضمام حليف صغير لترجيح ميزان السلطة لصالحها ٠

ان الديمقراطيات المستقرة القوية يجب أن تقبل بالطبع بحد أقصى من التنوع ، ولا يمثل وجود مثل هذه الجماعات الصغيرة أي وضع غير عادي بالنسبة لها كما لا يحمل في طياته أي تهديد طالما يظل النظام السياسي في حالة اتزان ٠ ولكن هل يظل النظام محتفظا بهذه الحالة ؟

اننا نعيش بالفعل في عالم يتمكن بالكاد من احتواء تأثير أشكال التعصب المختلفة ٠ فثمة تنظيمات مصممة على فرض مبادئها الشمولية ، ليس على أمة بعينها فحسب ولكن على العالم كله كما يحث آيات الله على القتل باصدارهم حكم اعدام على سلمان رشدي بسبب جمل في كتابه تبدو لهم مهينة وجارحة ٠ أما المناهضون للاجهاض فيضعون القنابل قرب العيادات التي تزاول هذا النوع من العمليات ٠ وللدفاع عن هويتها القومية ، تترك الحركات الانفصالية وراءها سيارات ملغومة ودما مراقا ٠ كما لا يتردد الارهابيون الدينيون ـ السياسيون في القاء قنبلة يدوية في مقهى أو في اسقاط طائرة بوينج ٧٤٧ ، كما لو كان موت سكرتيرة مسافرة لقضاء عطلتها أو مندوب مبيعات يحمل حقيبة مكتظة بالكاتالوجات سيكسبهم حظوة عند الله ٠

ان ارتباط الكثيرين في الغرب بمفهوم للتقدم تجاوزه الزمن يجعلهم يفترضون أن الأيديولوجيات المتعصبة وغير المنطقية والمحرضة على الحقد والكراهية ستزول من على سطح الأرض كلما أصبحت المجتمعات اكثر « تحضرا » ٠ « لا يوجد ما هو اكثر تضليلا من هذا الاعتقاد المطمئن » على حد قول البروفسير درور يهزكل من الجامعة العبرية بالقدس ـ وهو متخصص في القضايا السياسية والشئون المستقبلية ـ الذي يؤكد أن « النزاعات الطائفية » و « الحروب المقدسة »

و « المقاتلين الساعين للاستشهاد » ظواهر لا تنتمى لماض ذهب ولن يعود وانما ظهورها مرة أخرى هو نذر شؤم لمستقبلنا ٠

وتقدم دراسته عن « الأيديولوجيات العدوانية الشديدة المحددة » تحليلا لما تشكله هذه المعتقدات من تهديد على النطاق الدولى ٠ غير أن هذا التهديد يحمل طابعا محليا أيضا بالنسبة للديمقراطيات ٠ ففى الوقت الحالى حيث الثقافة والحياة الاقتصادية فى طريقهما للانصهار فى اطار الاقتصاد الجديد وحيث يتم طرح قضايا جديدة محملة بشحنات انفعالية قوية ، تتفاقم الأخطار التى تمثلها الأقليات المحورية وكذلك اخطار التعصب الدولى ٠

ان بزوغ اقتصاد جديد تماما ، لم يعرف مثله العالم من قبل ، قد يشكل تهديداً لكثيرين ، فهو اقتصاد يتطلب تغيرات سريعة فى طرق العمل وأساليب الحياة والعادات ٠ ومن ثم فان اعداداً كبيرة من البشر ، تحت تأثير الرعب من المستقبل ، تبحث عن خلاصها من خلال تشنجات ونوبات من ردود الفعل المتصلبة ٠ ويفتح التحول الصدوع التى يتدافع من خلالها المتعصبون كما أنه يعطى أسلحة لكل هذه الأقليات الخطرة التى تكرس حياتها من أجل الأزمة ، على أمل أن تتيح لها هذه الأزمة أن تنطلق على الساحة الوطنية أو العالمية وأن تعيدنا جميعا الى عصور ظلام جديدة ٠

وبدلا من « نهاية الأيديولوجيات » التى يكثر الحديث عنها قد نشهد ظهور عدد كبير من الأيديولوجيات الجديدة سواء على الصعيد الوطنى أو العالمى ٠ وستلهب كل أيديولوجية حماس أنصارها برؤية وحيدة ومتصلبة للحقيقة ، وبدلا من الـ « ألف نقطة من النور » الشهيرة التى قالها الرئيس بوش قد نجد أمامنا « ألف نار عنف وسخط » ٠

وبينما ننشغل بالاحتفال بالنهاية المفترضة للأيديولوجية والتاريخ والحرب الباردة ، ، قد يكون علينا أيضا مواجهة نهاية الديمقراطية كما عرفناها ، أى ديمقراطية الجماهير ٠ ان الاقتصاد المتقدم القائم على أجهزة الكمبيوتر والمعلومات والمعرفة وكثافة الاتصالات ، يطرح ثانية للبحث كل وسائل الدفاع التى كانت تملكها الديمقراطية ، ويضعنا أمام تحدى اعادة تعريف وتحديد هذه الوسائل فى صيغ تناسب القرن الحادى والعشرين ٠

وللوصول لذلك ، نحتاج أن نرى بوضوح أكثر كيف يعمل هذا النظام وكيف أنه دخل بالفعل طريق التغيير ٠

الفصل الحادى والعشرون

الحــزب الخفى

بعد انتخاب رونالد ريجان لرئاسة الولايات المتحدة بوقت قليل ، كان لى أتووتر ــ أحد مساعديه الرئيسيين (والذى قاد بعد ذلك حملة جورج بوش الانتخابية ، ثم رأس اللجنة الوطنية للحزب الجمهورى) ــ يتناول طعام الغداء فى البيت الأبيض مع أصدقاء له ، وقــال بصراحة فريدة وهو على مائدة الطعام :

« فى الشهور القادمة ، سوف تسمعون كثيرا عن ثورة ريجان · وستحتل عناوين الصحف التغييرات الكبيرة التى يخطط لها ريجــان ، لا تصدقوا ذلك · ان ريجان يريد فعلا تغيير أشياء كثيرة غير أنه لن يستطيع فى الحقيقة تحقيق ذلك ، لقد حول جيمى كارتر النظام خمس درجات فى اتجاه معين واذا عملنا بجد ومثابرة واذا حالفنا الحــظ بدرجة كبيرة قد يتمكن ريجان من تغيير اتجاه النظام خمس درجات فى الاتجاه المضاد · وهذا ما تعنيه فى الحقيقة ثورة ريجان » ·

ان ملاحظات أتووتر ، وان كانت قد ذكرت سياسيين بعينهم مثل كارتر وريجان ، فانها تكتسب معنى أعم ، فهى تبين الى أى مدى يظل القائد أسيرا « للنظام » حتى وان كان من أكثر القادة شعبية ومن أكثرهم مكانة · والنظام المذكور ليس بالطبع النظام الرأســمالى أو النظــام الاشتراكى ولكن النظام البيروقراطى · ذلك لأن البيروقراطية فى الدول الصناعية هى الشكل المسيطر للسلطة ·

ان البيروقراطيين ، وليس المسئولون المنتخبون ديمقراطيا ، هم الذين يتحملون المسئولية الأساسية بالنسبة لسير العمــل اليــومى للدولة ، فهم فى الواقع الذين يتخذون القرارات التى تنسب للرؤساء أو لرؤساء الوزارات ·

وطبقا ليوشى تسوروهى رئيس مركز دراسات مؤسسة المحيط الهادى « لقد أصبح رجال السياسة اليابانيون معتمدين اعتمادا تاما على بيروقراطيى الادارات المركزية فيما يتعلق باعداد النصوص التشريعية والاقتراع عليها • وباتوا يكتفون بأن يلعبوا أدوارهم فى « المناقشات » التشريعية ، مثلهم مثل الـ « كابوكى » ـ بينما سيناريوهات هذه الأدوار قد كتبتها صفوة بيروقراطيى مختلف الوزارات » •

وينطبق الشيء نفسه بدرجات متفاوتة على كبار الموظفين فى فرنسا وبريطانيا وألمانيا الغربية وغيرها من البلدان التى توصف عادة بأنها ديمقراطية ، ففى هذه الديمقراطيات يشكو القادة السياسيون بانتظام من الصعوبات التى يجدونها فى حمل أجهزتهم البيروقراطية على تنفيذ ما يريدون • فى الواقع أيا كان عدد الأحزاب التى تتقدم للانتخابات وأيا كان الحزب الذى يحصل على أعلى الأصوات فان الحزب الفائز دائما هو حزب البيروقراطية الخفى •

وزارة القرن الحادى والعشرين :

لن يكتفى الاقتصاد الثورى الجديد بتغيير الحياة الاقتصادية بل سيمتد الى هياكل الدولة أيضا وذلك بتعديل العلاقات الأساسية بين رجال السياسة والبيروقراطيين ، وبتحويل البيروقراطية ذاتها بشكل مذهل •

لقد أدى الاقتصاد الجديد بالفعل الى انتقال للسلطة « بين » مختلف البيروقراطيات •

ولعل أفضل مثال على ذلك هو اتساع أنشطة وزارة البريد والاتصالات اليابانية • لقد ظلت هذه الوزارة تضطلع منذ عام ١٩٤٩ بثلاث وظائف رئيسية : فهى الى جانب تأمينها للخدمة البريدية كانت تقدم لعملائها ، مثلها فى ذلك مثل الكثير من مثيلاتها الأوروبية ، خدمات تأمين وادخار • (وهى خدمات استهدفت أصلا سكان المناطق الريفية النائية التى لم تكن البنوك وشركات التأمين تهتم بها) • وفى طوكيو ، حيث توزن الأمور بميزان السلطة والنفوذ ، كانت وزارة البريد والاتصالات تعد من الوزارات الثانوية •

أما اليوم فهى مؤسسة عملاقة تحمل اسما جديداً هو ام•بى•تى (M.B.T.) ويطلق عليها « وزارة القرن الحادى والعشرين » • ولقد

اكتسبت هذا الوضع الجديد ابتداء من عام ١٩٨٥ وهو تاريخ حصولها على مسئولية تطوير كل قطاع الاتصالات اللاسلكية اليابـــانى ، وبث برامج الراديو والتليفزيون وشبكات ارسال البيانات ، وذلك بالطبـع عقب معركة حول الاختصاصات من المفترض أنها كانت ضارية ٠

وهكذا جمعت هذه الوزارة فى كيان واحد وظائف مالية (تعتمد هى نفسها باطراد على تكنولوجيا الاتصالات) ووظائف الاتصـــال ٠ ويمنحها هذا الجمع بين العنصرين وضعا استراتيجيا استثنائيا تماما ٠

وفى دراسة عن امتداد سلطات وزارة البريد والاتصـــالات كتبت صحيفة التجارة والصناعة اليابانية تقول :

« ان أى مجتمع متطور محوره المعلومات ، التى تنتقل خلاله بسهولة بفضل الاتصالات اللاسلكية ، لا يمكن أن يتلخص فى هـــذه الســمة وحدها ٠ فعندما تتدفق المعلومات يحدث بالمثل تدفق للناس والسلـــع والأموال ٠ فعلى سبيل المثال عندما تروج الدعاية معلومات عن منتج ما سيتوجه الناس ليشتروه ، أى أن تدفق المعلومات يصاحبه « تدفـق مادى » و « تدفق نقدى » ٠ ومن بين جميـع الوزارات تعد « ام ٠ بى ٠ تى » هى الوزارة الوحيدة التى يشمل نشاطها مباشرة هذه الظواهـر الثلاث » ٠

قد يختلف بطبيعة الحال توزيع الوظائف بين الوزارات والادارات الكبيرة فى دول أخرى غير أنه مما لا شك فيه أن السلطة ستتجه نحو الأجهزة التى ستسيطر على تنظيم المعلومات فى ظل الاقتصـــاد فـائق الرمزية ، وتلك التى ستحصل على صلاحية الاشراف على الوظـــائف المرشحة للانتشار والتوسع ٠

وفيما يصبح التعليم والتدريب المهنى عناصر حاسمة للفاعليـــة الاقتصادية ، وفيما تزداد أهمية البحث العلمى والتنمية التقنية وتحظى مشكلات البيئة باهتمام متزايد ، ستكتسب الدوائر التى ستتبع لها هذه المجالات وزنا ضخما بالمقارنة بالدوائر التى ستظل مسئولة عن الوظائف المتدنية الأهمية ٠

غير أن انتقال السلطة بين الأجهزة البيروقراطية لا يمثل سوى جزء صغير من التطور العام ٠

الأمر العالمي بالخصخصـــة :

لم تتوقف الدول عن الاضطلاع بمزيد من المهام الجديدة طـوال نصف قرن من الزمان ، لكن العقود الأخيرة ، التى تتطابق مع الطور الأولى للاقتصاد فائق الرمزية ، شهدت تطورا ملحوظا فى الاتجاه المضاد .

ففى الاقتصادات المتقدمة بدأ زعماء مختلفون ، اختلاف رونالد ريجان الجمهـورى وفرنسوا ميتران الاشتراكى ، فى نـزع عــدد من الأنشطة أو الوظائف من الدولة . كما قامت عشرات البلدان الأخـرى بمحاكاتهم . والأهم من ذلك أن زعماء الاصـلاح فى كل دول أوروبـا الشرقية تبنوا نفس الموقف وبدءوا جميعا ـ وتقريبا بين عشية وضحاها ـ فى المطالبة بالغاء تأميم الصناعات الرئيسية أو نقل أنشطتهـــا الى شركات أخرى عن طريق مقاولين من الباطن ، وكأن أمرا عالميا قد صدر « بالخصخصة » .

ويرى الكثيرون فى هذه الحركة علامة على انتصار الرأسماليـة على الاشتراكية ، ولكن لا يمكن اختزال هذا التوجه نحو التحول الى الملكية الخاصة بوصفه سياسة « رأسمالية » أو « رجعية » ، كما يحدث فى كثير من الأحيان . كما أن معارضة هـــذه التدابير لا تـــدل عــلى « التقدمية » على الاطلاق . ان المعارضة ، سواء أكانت صريحة أم خفية، هى من فعل « الحزب الخفى » غير المنتخب الذى يدافـــع عن سلطته العريضة على حياة الناس ، وهو يمارس هذه السلطة بنفس القوة فى ظل حكومات « ليبرالية » أو « محافظة » ، « يمينية » أو « يسارية » ، « شيوعية » أو رأسمالية » .

وفضلا عن ذلك ، فان قلة من المراقبين هى التى لاحظت تماثـلا خفيا بين حركة الخصخصة فى القطاع العام واعادة هيكلة شركـــات القطاع الخاص .

لقد سبق أن رأينا شركات كبيرة تنقسم الى مراكز ربح صـغيرة وتعمل على « تسطيح » التركيب الهرمى لديها وتخلق أشكالا حرة من نظم المعلومات تتناقض مع الممارسة البيروقراطية ذات الحويصـــلات والقنوات الرسمية .

غير أن عدداً صغيراً ، على ما يبدو ، قد أدرك أنه اذا ما تم تعديل الهياكل الاقتصادية دون المساس بهياكل الدولة فان ذلك كفيل باحداث حالة من عدم التوافق ومن الفصل التنظيمى الضار لكل منهما . فعلى

النقيض من ذلك ، يتطلب الاقتصاد المتقدم تفاعلا مستمرا بينهما · وكما يحدث بالنسبة للأزواج بعد فترة من الحياة المشتركة ينتهى الأمر بالدولة وعالم الأعمال الى أن يتبادلا بعض السمات · فعندما تكون هناك اعـادة هيكلة فى جانب يكون من المتوقع حدوث تعديلات مقابلة فى الجانب الآخر ·

التخلص من السمنة لسهولة الحركة :

فى عام ١٩٨٦ عندما أصبح آلان موراى رئيسا لمجلس ادارة شركة موبل ، كانت الشركة تحتل الترتيب الثالث من حيث الحجم بين كبرى الشركات الأمريكية · وشأنها فى ذلك شأن سائر شركات البترول انطلقت موبل فى بداية الثمانينيات فى تنفيذ برنامج واسع النطـاق لتنويع أنشطتها ، فقامت بشراء سلسلة التوزيع « مونتجمرى وارد » العملاقة وشركة « كونتينر » للتغليف والحاويات ·

وبمجرد أن تولى موراى مهام منصبه بدأت ضربات الفأس تتوالى ، ففى أقل من عامين قام ببيع أصول تقدر قيمتها بـ ٦ر٤ مليار دولار ، بما فى ذلك الشركتين المذكورتين آنفا · ويقول موراى : « لقـد عـدنا الى قواعدنا ، اننا نعمل الآن فى المجال الذى نعرفه جيداً » · لقد اتضح أن مهنـدسى البترول ليسوا على جانب كبير من المهارة فى مجـال تسـويق أزياء النساء أو صناديق الكرتون ·

وبدأت الدول أيضا تعيد النظر فى الوظائف التى تضطلع بها · ان ما يسميه عالم الأعمال « تجريد الشركة من الأنشطة الخارجة عـن مجالها » يطلق عليه رجال السياسـة فى العـالم كلـه الآن تعبير « الخصخصة » ·

وهكذا قررت الحكومة اليابانية أن ادارتها للسكك الحديدية ليست بالأمر الحتمى · غير أنها عندما أعلنت عن نواياها لبيع الشركـة الوطنية للسكك الحديدية ، أضرب العاملون فيها وشنت حملة تخريب ، نسبت لمجموعة « النواة المركزية » الثورية اليسارية · وأتلفت الحملة المعدات الخاصة بالاشارات فى ٢٤ نقطة موزعة على سبع مناطق مما أصاب المواصلات فى منطقة طوكيو بالشلل ، كما تم احراق احـدى المحطات · واستنكرت نقابة عمال السكك الحديدية عمليات التخريب وان كان ذلك لم يخفف من معاناة عشرة ملايين مواطن من سكان ضواحى العاصمة من جراء الاضراب · وبالرغم من كل شىء ، تم تنفيذ المشروع وأصبحت شبكة السكك الحديدية ملكية خاصة ·

كما قررت الحكومة اليابانية أيضا أنه لا مبرر لاستمرارها فى تحمل مسئولية الاتصالات الهاتفية ، وقامت ببيع مؤسسة نيبون للهاتف والتلغراف وهى الشركة التى تحتل الترتيب الأول بين الشركات اليابانية من حيث عدد العاملين بها (حوالى ٢٠٠ ألف) ٠ وسرعان ما أصبحت الشركة الخاصة التى حلت محلها ، لفترة قصيرة ، احدى أعلى الأوراق المالية قيمة فى بورصات العالم ٠

وتذكر عناوين الصحف ووسائل الاعلام فى بلدان أخرى عمليات مماثلة ، اذ حولت الأرجنتين عشرين شركة من القطاع العام الى القطاع الخاص وباعت ألمانيا شركة « فولكس فاجن » وتخلصت الدولة فى فرنسا من « ماترا » التى تنتج معدات عسكرية كما قامت فى الوقت نفسه بالغاء تأميم شركات كبرى مثل سان جوبان ومصرف باريبا والشركة العامة لكهرباء بل ووكالة هافاس للدعاية والاعلان ٠

أما فى بريطانيا ، فتقوم الحكومة ببيع نصيبها فى بريتيش أيروسبيس وبريتيش تليكوم ، وتتولى ادارة مطارات هيثرو وجاتويك وغيرهما هيئة المطارات البريطانية التى كانت فى السابق هيئة حكومية وأصبحت حاليا قطاعا خاصا وكذلك بعض خدمات الحافلات ٠ وفى كندا تبيع الدولة للجمهور جزءاً من رأسمال (ايركندا) الخطوط الجوية الكندية ٠

اذا نظرنا لعمليات الخصخصة التى تمت حتى الآن من منظور تاريخى فانها لا تمثل أكثر من لدغة برغوث على جلد ديناصور ٠ بل أن عملية اعادة تأميم الشركات التى انتقلت مؤخراً الى القطاع الخاص أمر غير مستبعد ، فى حالة حدوث تغير مفاجىء للأقدار السياسية أو انهيار اقتصادى عالمى ٠

وان كان ذلك لا يقلل من أننا نشهد عملية اعادة نظر فى مفهوم الدولة ومن المفترض أن يقودها ذلك الى تقليص حجمها والى اعادة تنظيمها طبقاً لطرق موازية تقريبا لتلك التى يتبعها الاقتصاد الخاص ٠

غير أن الخصخصة ليست الترياق الذى بشرت أو تبشر به مارجريت تاتشر وغلاة الليبراليين ، لأن هذا التوجه يجر وراءه فى الغالب سلسلة طويلة من المشكلات بلا حل ٠ ولكن فى هذه المرحلة التى يتعين فيها على الحكومات أن تواجه بيئة عالمية سريعة وشديدة التغيير ، يتيح مفهوم الخصخصة لكبار المسئولين أن يدركوا بشكل أفضل الأهداف الاستراتيجية

ذات الأولوية وأن يتفادوا بالتالى تبديد موارد دافعى الضرائب على خليط من المصالح الثانوية .

والأهم من ذلك ، أن الخصخصة تسارع من الاستجابات الحكومية سواء بالنسبة للمنشآت التى تتخلى عنها للقطاع الخاص أو ما تفضل الاحتفاظ به ، كما أنها تساعد الحكومات على أن تستعيد خطوتها السرعة التى تتزامن بشكل أفضل مع الايقاع المتسارع للحياة الاقتصادية والشخصية الذى يفرضه الاقتصاد الرمزى .

الا أن الخصخصة ليست الطريق الوحيد الذى تحاول الدول أو الحكومات - عن وعى أو بدونه أن تسلكه لمواجهة الحقائق الجديدة .

تفادى التسلسل الهرمى :

لقد ذكرنا آنفا أن العديد من الشركات الكبرى ، ابتداء من شركات السيارات الى شركات الطيران ، تجتهد للحد من درجة « التكامل الرأسى » ، وذلك بأن تتخلى عن القيام بكل شيء بنفسها بواسطة العاملين لديها وبأن تسند بعض المهام الى موردين خارجيين .

وتعيد حاليا بعض الحكومات التفكير فى الأسلوب المناسب لأداء مهامها . أى أنها تتساءل هل من الأفضل الانتاج أم الشراء ؟ وهل من الضرورى أن تكون للدولة معاملها ومغاسلها وأن تقوم بآلاف المهام الأخرى التى يستطيع المتعهدون الخاصون القيام بها ؟ ويتزايد الآن اتجاه الحكومات نحو الأخذ بأن دورها هو ضمان توفير الخدمات وليس تأمين هذه الخدمات بشكل مباشر .

وحتى اذا كان من الصعب التخلى للقطاع الخاص عن بعض الوظائف المحددة فان التوجه يسير نحو تفويض الأداء لجهات أخرى . ويجسد هذا الاتجاه - فى أطار الدولة - الموقف الجديد للشركات ازاء التكامل الرأسى .

وفى الوقت نفسه ، تبدأ الدول - شأنها شأن الشركات الخاصة بالضبط - فى تخطى التسلسل الهرمى لبيروقراطياتها مما يؤدى الى مزيد من اضعاف السلطة البيروقراطية . وفى هذا الصدد يقول صاموئيل بوبكين ، أستاذ علم السياسة بجامعة سان دييجو (كاليفورنيا) :

« يوجد حاليا فى واشنطن عدد أقل من التسلسل الهرمى عما كان فى عصر روزفلت ، وعدد أقل من كبار المسئولين ممن يستطيع الرئيس الأمريكى أن يبرم معهم اتفاقا ثم يتوقع أن يقوموا بتطبيقه فى الادارة أو اللجنة المسئولين عنها » ٠

لقد أفلتت السلطة من أيدى كبار البيروقراطيين القدامى وأفسحت المكان لنظام أكثر سيولة ، وأكثر صعوبة أيضا فى معالجته أو التعامل معه ، حيث مراكز السلطة الجديدة لا تكف عن الانتقال من موضع الى آخر ٠

ومن ناحية أخرى ، تعمل تقنيات الاتصال المتقدمة على تآكل الأجهزة البيروقراطية للدولة وذلك باتاحة الفرصة لتجاوزها تماما ٠ وكتب صاموئيل كيرنيل زميل بوبكين فى سان دييجو يقول : « عندما تحدث أزمة فى أى مكان فى العالم يستطيع البيت الأبيض أن يتصل على الفور برجال فى موقع الأزمة [٠٠٠] وعندما يقدم هؤلاء المراقبون والمسئولون التقارير مباشرة وبشكل فورى للرئيس فانهم لا يتعاملون مع القنوات التقليدية للمعلومات أو مع سلسلة القيادة المعتادة » ٠ ويضيف كيرنيل « ان المتخصصين الذين لم تصلهم بعد المعلومات الطازجة ، معلومات آخر لحظة ، لا يمكنهم الرد على تساؤلات الرئيس » ٠

ولكن بالرغم من هذه التغيرات فان التعقيد المتزايد للمواقف وتسارع التحولات يجعل ردود الفعل البيروقراطية تزداد بطئا باطراد وبالتالى يتراكم المزيد من المشكلات التى أصبح واضحا أن البيروقراطية عاجزة عن معالجتها ٠

الفرق السرية ومجموعات التسليك :

فى الظروف العادية ، يرتكز جزء كبير من عمل رئيس الولايات المتحدة مثلا أو رئيس وزراء اليابان على الاختيار بين عدد من البدائل التى قامت البيروقراطيات التابعة له بدراستها واعدادها ، عن مشكلات ليس لديها سوى معرفة سطحية بها ٠ ويحدث ذلك عندما لا تنجح هذه البيروقراطيات منذ البداية فى التوصل الى اتفاق بشأن هذه المشكلات٠

هنالك بالطبع قرارات لا يستطيع اتخاذها سوى قادة الدول مثل القرارات العاجلة أو المصيرية التى لا تستطيع انتظار طحين الرحى

البيروقراطية البطيئة ولا يمكن تأجيلها أو قرارات الحرب والسلام أو قرارات تتطلب السرية المطلقة · ان مثل هذه القرارات غير قابلة للبرمجة · الا أن مثل هذه الاختيارات نادرة نسبيا طالما تسير الأمور « بشكل اعتيادى » ·

ولكن ما يحدث الآن ، مع بداية فترة ثورية جديدة يصطدم فيها نظام جديد لانتاج الثروة بهياكل السلطة القائمة لخدمة النظام السابق ، يجعل « الحالة الاعتيادية » تتطاير أشلاء · فكل يوم جديد يجلب معه خبر أزمة أو انطلاقة تكنولوجية غير متوقعة · ولم تعد المشكلات ـ داخلية كانت أو دولية ـ تطرح نفسها انطلاقا من معطيات ثابتة · ان تسارع الأحداث لا يترك أى أمل معقول فى امكانية السيطرة عليها ·

فى مثل هذه الظروف ، تصبح أفضل البيروقراطيات عاجزة ، وتترك المشكلات الخطيرة تتفاقم حتى تتحول الى أزمات حادة · ولنأخذ مثلا مشكلة من « لا مأوى لهم » فى الولايات المتحدة : انها ليست مشكلة اسكان فحسب وانما تختلط بها مشاكل متعددة مثل ادمان الخمر والمخدرات ومشكلة البطالة والمرض العقلى أو ارتفاع أسعار أراضى البناء · وكل مشكلة من هذه تتبع جهازا بيروقراطيا معينا ولا يستطيع أى من هذه الأجهزة التصرف بشكل فعال بمفرده · وفى الوقت نفسه لا يرضى أى جهاز منها التخلى عن أصغر نصيب من ميزانيته أو سلطته أو منطقة نفوذه لجهاز بيروقراطى آخر · وبالتالى تصبح مشكلة من « لا مأوى لهم » هى التى تفتقر الى محل اقامة ثابت وليس المشردون وحدهم ·

كما تتطلب مشكلة المخدرات اجراءات متكاملة ومتزامنة من قبل العديد من الأجهزة البيروقراطية كالشرطة والصحة العامة والمدارس ووزارة الخارجية واللوائح المنظمة لعمل البنوك ولوسائل النقل بالاضافة الى العديد من الادارات الأخرى المشتركة فى المسئولية · غير أن جعل هذه الجهات تعمل متضافرة على نحو فعال يكاد يكون مستحيلا ·

وتولد سرعة التحولات التكنولوجية والاجتماعية مشكلات « متشابكة » من هذا النوع فى كل مكان ويتزايد عدد من يسقط منها فى دائرة الاهمال ، بينما تهدر موارد الدولة فى صراعات جديدة حول الاختصاصات ويتزايد تأخير أى عمل ايجابى ·

وفى ظل هذا المناخ يجد القادة أنفسهم فى وضع يمكنهم من نـزع السلطة من بيروقراطياتهم · فعندما يرون أن المشكلات تتحول الى أزمات فانهم يحاولون اعادة الأمور الى نصابها باتخاذ تدابير قصوى والحصول على نتائج باللجوء الى تشكيل كل أنواع لجـان العمـــل المتخصصــة و « مجموعات التسليك » و « الفرق السرية » ·

وقد يصل الأمر بالبعض ، من جراء احساسه بالاحبـــاط ، الى احتقار وتجاهل التسلسل الهرمى وموظفيه بحيث يضع ثقته بشكـــل متزايد فيمن تربطه بهم صلات حميمة ، ويلجأ الى ممارسة السرية والى الأوامر غير الرسمية وكل وسيلة تؤدى الى تخطى البيروقراطية وتنتهى بتقويض قوتها ·

وهذا ما فعله بالتحديد البيت الأبيض فى ظل رئاسة ريجان عندما تورط فى قضية ايران جيت التعسة · وذلك حين أعد « مشروعه » السرى الهادف الى بيع أسلحة لايران ثم تحويل الأرباح لجماعة الكونترا فى نيكاراجوا ، مجازفا بذلك بخرق القانون ·

وكان جورج بوش قد قام بتجربة مماثلة · ففى عام ١٩٨٩ طلب من وزارة الخارجية والبنتاجون أعداد مقترحات له لتقديمها للناتو فى منتصف ذلك العام · وعلى الفور قامت الجماعات المعتادة من كبـــار ومتوسطى الموظفين بوضع النظارات ومضغ أطراف أقلامهـا ، غير أن ما قدموه للرئاسة لم يكن فى النهاية سوى مجموعة توصيات عاديـــة ومعادة ·

لكن الرئيس بوش كان يحتاج وبشدة نظـراً لضغـــوط داخليـة وخارجية الى افتتاحية أكثر اثارة لموازنة تأثير ماقدمه فى ذلك الحين ميخائيل جورباتشوف · ولتحقيق ذلك وضع التقرير البيروقراطى فى سلة المهملات وعقـد اجتماعا ضم بعض الوزراء ومجموعة صغيرة من كبار المستشارين وأعد خطة لسحب جزء من القـــوات الأمريكيـــة من أوروبا ، وهى خطة نالت على الفور موافقة الحلفاء والرأى العـــام الأمريكى ·

وبالمثل تجاهل المستشار الألمانى هيلموت كول عمداً وزير خارجيته عندما أعلن لأول مرة الشروط العشرة التى وضعها لاعـــادة توحيد ألمانيا · وفى كل مرة يتخطى فيها قائد أو رئيس دولة البيروقراطية بهذا الشكل فانها تبدأ فى نشر توقعات مشئومة عن الكارثة التى ستتبع ذلك

ويصل بها الأمر فى كثير من الأحيان الى حد تنظيم عمليات تسريب للمعلومات بهدف تعريض تطبيق السياسة الجديدة للخطر ٠

ولكن فى أوقات الاضطراب التى تتطلب استجابات وردود فعل فورية ومبتكرة يصبح واضحا أن تجاوز الوزارات والادارات الكبرى هو الوسيلة الوحيدة لانجاز شىء ما ٠ وهو ما يفسر انتشار الوحدات الخاصة و « خلايا الأزمة » غير الرسمية التى يتزايد عددها فى الدوائر الحكومية على حساب البيروقراطية وبالتنافس معها ٠

ان حركة الخصخصة وعملية اعادة التوزيع الواسعة للسلطات التى ترتسم على الأصعدة المحلية والاقليمية وفوق القومية ، تعلن عن تغيرات أساسية فى أبعاد الدولة وتنظيمها ٠ ويبدو أن تقدم الاقتصاد فائق الرمزية يمارس على الحكومات ضغوطا متزايدة القوة ستضطرها الى الدخول فى عملية اعادة هيكلة مؤلمة ، كما حدث من قبل للشركات الكبرى ٠

لقد بدأت هذه الأزمة التنظيمية الحادة فى الظهور فى الوقت الذى يتعين فيه على المسئولين السياسيين مواجهة نظام عالمى غير مستقر الى حد بعيد ، فضلا عن كل الأخطار التى سبق ذكرها فى الفصل السابق ابتداء من الكوارث البيئية المهولة الى انفجارات الحقد العرقى ومظاهر التعصب المتضاعفة ٠

اذن ، يجب توقع أن يصاحب الانتقال الخطير من ديمقراطية الجماهير الى الديمقراطية الفسيفسائية صراع ضار من أجل السيطرة على النظام بين المسئولين السياسيين والبيروقراطيين ٠

الفصل الثاني والعشرون

تكتيكات المعلــومات

نحن نعيش اليوم فى عصر الاعلام الفورى ، اعلام يطلق وابلا متصلا من الصور والرموز و « الوقائع » التى تطمح جميعهــا فى الاستئثار بانتباهنا . ولكن كلما أدى تقدم « مجتمع المعلومات » الى مضاعفــة البيانات والمعلومات المجهزة والمعرفة المستخدمة فى الحكم ، قد تصبح معرفة حقيقة ما يجرى أصعب بالنسبة لكل الناس ، بما فى ذلك القادة السياسيين .

لقد كتب الكثير عن الطريقة التى يحرف بهــا التليفزيون والصحافة الصورة التى نصنعها لأنفسنا عن الواقع ، سواء بشكل متعمد أو نتيجة للرقابة أو حتى بشكل غير ارادى تماما . ويثير المواطنون الواعــون قضية موضوعية ما ينشر من خلال وسائل الاعلام المطبوعة والالكترونية، الا أن هناك مستوى أعمق من التحريف لم ينل بعد حظا يذكر من الدراسة والفهم والتحليل .

فى الأزمات السياسية التى تهدد الديمقراطيــات ذات الاقتصــــاد المتقدم سيتم استخدام « تكتيكات المعلومات » من قبل كل من يعنيهم الأمر من السياسيين والبيروقراطيين والعســكريين وجماعـــات الضـــغط الاقتصادية ، فضلا عن المد الصاعد من جماعات المواطنين . أى انهم سيقودون « لعبة السلطة » مستخدمين وســـائل قائمــة على التلاعب بالمعلومات ، على أن يتم ذلك أساسا قبل أن تصل هــــذه المعلومات الى وسائل الاعلام .

وسوف تكتسب هذه التكتيكات أهمية كبــرى فى الحياة السياسية نظرا لتراكم البيانات والمعلومات فى أجهزة الكمبيوتر قبل تدفقها منهــا فى دفعات كبيرة .

ولكن قبل محاولة فهم التقنيات المتطورة التى ستمارس تأثيرها فى المستقبل ، يجدر بنا أولا فحص الطرق التى يستخدمها أفضل المتبارين نجاحا فى ساحة السلطة الآن · هذه التقنيات « التقليدية » لا تدرس فى أى مدرسة وانما يطبقها المتبارون الأذكياء بشكل حدسى على مسرح السلطة السياسية ، دون أن يتم قط تكويد قواعدها أو صياغتها بشكل منهجى ·

وطالما لم يتم وضع هذا التقنين بشكل واضح ، فان كل ما نقوله عن « شفافية الدولة » و « المواطن المطلع » و « حق الجمهور فى المعرفة» لن يعدو أن يكون نوعا من البلاغة ، لأن تكتيكات المعلومات تمس بعض أهم مفاهيمنا الديمقراطية وأكثرها أساسية ·

أسرار عن البرسيم وعمليات تسريب موجهة :

فى يوم ٤ يوليو ١٩٦٧ وقع الرئيس ليندون جونسون فى البيت الأبيض « قانون حرية المعلومات » ، وخلال الاحتفال الذى أقيم بمناسبة التوقيع أعلن الرئيس الأمريكى أن « حرية المعلومات من الحيوية بحيث لا يجوز تقييدها الا لدواعى الأمن القومى ، وليس لرغبات مسئولى الدولة أو المواطنين » ·

وبمجرد أن انتهى جونسون من كلمته سأله احد الصحفيين اذا كان يمكنه الحصول على نسخة من المسودة الأصلية لتلك الكلمة · وكان طلب الصحفى هو أول طلب يقدم فى ظل الحريات الجديدة التى يكفلها القانون ·

ورفض جونسون الطلب ببرود ·

ويعتبر « تكتيك السرية » أقدم تكتيكات المعلومات وأكثرها انتشارا، وتصنف الحكومة الأمريكية حاليا حوالى ٢٠ مليون مستند سنويا تحت عنوان « سرى » ، وأغلبية هذه المستندات لها صفة عسكرية أو دبلوماسية وان كان بعضها فقط قد يسبب حرجا للادارة العليا · واذا كانت هذه الممارسة قد تبدو غير ديمقراطية بل نوعا من النفاق ، فان أغلبية البلدان الأخرى تذهب الى أبعد من ذلك بكثير ، اذ تعتبر الأرقام الخاصة بمحصول البرسيم والاحصائيات السكانية من أسرار الدولة · وأحيانا قد تسلك بعض الحكومات سلوكا يتسم بنزعة تشكك وارتياب مرضية بحيث يعتبر كل شىء سرا بشكل مسبق ، فيما عدا اذا كان هناك تصريح نشر خاص بذلك ·

والسرية بالطبع هى احدى الأدوات المألوفة للقمع والفساد ، وان كان لها أيضا مبرراتها وفضائلها • ففى عـالم حـافل بقـادة عسكريين مثيرين للقلق وبساسة تربطهم عـلاقات بعـالم المخـدرات وبمهووسين دينيين يدعون الى القتل ، يصبح من الضرورى الالتزام بالسرية للحفاظ على الأمن العسكرى • ومن ناحية أخرى فان للسرية ميزة كبرى ألا وهى أنها تتيح للمسئولين أن يقولوا أشـياء لا يجرؤون قط على نطقها أمـام كاميرات التليفزيون ـ بما فى ذلك أشياء يتعين قولها • فبفضـل السرية يستطيعون انتقاد سياسات رؤسائهم دون احراجهم علنا أو التوصـل الى حل وسط مع خصوم أو أعداء • ان معرفة كيف ومتى تستخـدم السرية هى احدى المهارات الرئيسية لكل من رجل الدولة والبيروقراطى •

كما أن السرية هى التى تتيح امكانية استخدام تكتيك المعلومات الآخر الذى لا يقل عنها انتشارا والذى يعد أداة تقليدية أخرى من أدوات السلطة ، ألا وهو « التسريب الموجه » للمعلومات •

بعض الأسرار تظل كذلك وبعضها يتم تسريبه • وعندما يتسرب سر بشكل غير مقصود فمعنى ذلك ببساطة أنه سر لـم يحسن كتمـانه • وهو احتمال يدفع المسئولين أحيانا الى ردود فعل جنونية • فعلى سبيل المثال يقال ان مسئولا فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تساءل قائلا : « لماذا يتعين علينا ارسال تقـديراتنا عن الصين للقيادات العسكرية الأمريكية فيما وراء البحار ، بدعوى أن العمليات تدور هناك ؟ فهناك أيضا تتم عمليات التسرب » •والخلاصة أنه من الأفضـل الاحتفـاظ بالمعلومات السرية بدلا من ارسالها الى من يحتاجونها •

وعلى النقيض ، تمثل عمليات « التسريب الموجـه » صـواريخ معلوماتية يتم اطلاقها عن عمد لتصيب أهدافا محددة •

ففى اليابان حققت بعض حـالات « التسريب الموجـه » نتائج مدهشة • لقد أتاحت فضيحة ريكروت ـ كوزموس المالية ، التى أدت فى عام ١٩٨٩ الى سقوط رئيس الوزراء اليابانى نوبورو تاكيشيتا ـ فرصة عظيمة لمنظمى عمليات التسريب فى مكتب النائب العام يوسوكى يوشيناجا للقيام بحملة ماهرة لتغذية الصحافة اليومية بشـكل منتظم بالمعـلومات السرية • وكتب تاكاشى كاكوما وهو مؤلف لعدة كتب عن الفساد فى اليابان يقول : « اننى واثق أن التحقيق كان سيتوقف لولا المعـلومات التى تم تسريبها الى الصحافة » •

كان الصحفيون يتلقون فى لحظات محسوبة بعناية دفقات محددة من المعلومات ، التى كانت بمثابة أجزاء من عملية تلحين ايقاعى شديد الانضباط تمارسه سلطات التحقيق ٠

فلقد حال وصول هذه المعلومة التفصيلية أو تلك الى الصحافة دون تدخل كبار المسئولين فى وزارة العدل لايقاف التحقيقات ولحماية الشخصيات المهمة فى حكومة تاكيشيتا وفى الحزب الديمقراطى الليبرالى ٠ ولولا عمليات التسريب الموجهة تلك ربما كانت الحكومة ستظل باقية ٠

وفى فرنسا لعبت عمليات التسريب الموجه دورا سياسيا مهما ومعترفا به تاريخيا ٠ تشير احدى وثائق البيت الأبيض ، فى معرض ذكرها للصعوبات التى عانت منها فرنسا للخروج من حرب الهند ـ الصينية ، الى أن « عمليات التسريب والتسريب المضاد كانت عادة تكتيكا مقبولا من تكتيكات السياسة الداخلية ٠٠٠ حتى التقارير والأوامر المتعلقة بالحرب والشديدة السرية كانت تنشر بحذافيرها فى صحافة الأحزاب السياسية » ٠

أما فى لندن فان عمليات التسريب منتشرة لدرجة انها ولدت مناخا من الريبة والتشكك يضر بالتجديد والابتكار على حد قول جيفرى باتى وزير التجارة والصناعة البريطانى ٠ ويؤكد باتى أن المسئولين يترددون فى التعبير عن أية أفكار جديدة خوفا من أن يتم تسريبها فى الحال مما قد يعرض صاحبها للسخرية قبل أن يتاح لاقتراحه أية فرصة للدراسة والتقييم ٠

ويضيف الوزير البريطانى قائلا : « لكن اذا لم يوجد من يفكر ، وهو ما يؤدى آجلا أو عاجلا الى التفكير بصوت عال ، فلن تكون هناك أفكار جديدة ولا حتى تجديد للأفكار القديمة » ٠

واتخذ الخوف من عمليات التسريب فى واشنطن أبعاد فوبيا حقيقية بعد أن أجبرت عمليات التسريب الموجهة ، غير المعروفة مصادرها حتى الآن ، ريتشارد نيكسون على الاستقالة من رئاسة الولايات المتحدة ٠ وفى هذا الصدد يقول ديف جيرجن ، وهو مسئول سابق عن العلاقات العامة فى البيت الأبيض : « منذ ١٥ عاما كان مساعدو الرئيس لا يتحرجون من كتابة تقارير صريحة والتعبير عن اختلافهم مع زملائهم ـ أو مع الرئيس ـ حول موضوعات مهمة ٠ ولكن بعد فضيحة ووترجيت اختفى

كل ذلك ، فسرعان ما تعلم الجميع ألا يكتبوا ما لا يحبون أن يجدوه فى الصفحة الأولى فى جريدة واشنطن بوست ··· وأصبح الشعار : لا تقولوا شيئا مثيرا للجدل أو اللبس فى وجود أكثر من شخص واحد » ·

ويشير هذا المسئول السابق الى أن ذلك يؤدى الى نتيجة عجيبة وهى أنه « عندما تكون القضايا المطروحة غير ذات بال حقا ، تتولى دراستها جيوش من البيروقراطيين ، فى حين كلما كانت القضية خطيرة قل عدد من يتولونها ، والسبب فى ذلك قد يكون فقط الخوف من عمليات التسريب » ·

وبالطبع فان نفس المسئولين الذين يلعنون مدبرى عمليات التسريب يكونون هم أنفسهم أفضل منظمى هذه العمليات فى كثير من الأحيان · فهنرى كيسينجر عندما كان مستشاراً للأمن القومى فى البيت الأبيض قرر ذات يوم وضع هواتف معاونيه تحت المراقبة لكى يتأكد هل يسربون معلومات محرجة للصحافة أو الكونجرس · ولكن كيسنجر نفسه كان ولا زال أستاذاً فى التسريب ·

فى الحروب السياسية والبيروقراطية لا تمثل السرية وعمليات التسريب المنظمة سوى أكثر تكتيكات المعلومات شيوعا واستخداما وان كانت ليست أكثرها أهمية ·

المصدر المقنع :

يتطلب انتقال أى بيانات أو معلومات أو معرفة من نقطة الى أخرى ما يلى :

١ ـ مصدر أو مرسل ·
٢ ـ مجموعة من القنوات أو الوسائط لنقل الرسالة ·
٣ ـ جهة مستقبلة · ثم
٤ ـ رسالة بالطبع ·

ومن ثم يستطيع المشاركون فى لعبة السلطة التدخل عند كل عنصر من هذه العناصر ·

ولنر أولا المرســـل ·

عندما نجد فيبريدنا رسالة فان أول ما نريد معرفته هو شخصية المرسل · ففى الواقع تمثل هوية المرسل ســمة أســاسية لأية رســالة · لأنها تساعدنا ضمن أشياء أخرى على تحديد المصداقية التى يمكن أن نوليها للرسالة ·

وهو ما يفسر انتشار استخدام « تكتيك المصدر المقنع » · فتجمعات المواطنين التى ترسل الملايين من طلبات جمع الأموال ، معلنــة أنهـــا مستقلة سياسيا ، قد تكون فى حقيقة الأمر ممولة سريا من أحد الأحزاب وتحت سيطرته · كما يمكن للجنة عمل سياسى ذات اسم جذاب أن تكون أداة لوكيل مصالح اقتصادية جشعة · وقد تعمل منظمة ذات أهداف وطنية ــ ظاهريا ــ فى خدمة بلد أجنبى · فوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (س· آى·ايه) وأجهزة المخابرات السوفيتية (كى·جى·بى) تقــدم الأموال سرا لمطبوعات ودور نشر ونقابات ومؤسسات أخرى فى البلدان التى تهمها حيث تعمل على اقامة جمعيات ومنظمات صـــداقة · ان تكتيك « المصدر المقنع » هو الأسلوب الأساسى لتجمعات عديدة تقــوم بدور الواجهة الأمامية وهى تمثل فى الواقــع كــل الألوان السياسية الممكنة ·

وهناك طرق عديدة لاخفاء مصدر الرسالة ومواقع متنوعة يتم فيها ذلك ، أبتداء من قاعات مجالس الادارة الى زنزانات السجون ·

لقد روت قاتلة سجينة كيف نجحت فى أن تحرك دعوى قضائية أمام المحكمة العليا ضد أحد الحراس ، كان لا يكف عن مضايقتها · قالت انه كان بامكانها أن توجه شكوى مكتوبة لمدير السجن ولكن اذا علم الحارس بها كان سيزيد ذلك من شقائها · كمـــا كان بوسعهـــا أن تكتب مباشرة الى أحد المسئولين السياسيين لابلاغه عن المعاملة السيئة التى هى ضحيتها ، وأن تطلب منه الضغط على مدير السجـــن كى ينقـــل الحارس · غير أن هذه الخطوة كانت تنطوى على مجـــازفة أكبر من سابقتها ·

ثم أضافت السجينة فى عبارة تستحق أن تذكر « لحسن الحظ ، السجون مليئة بالمثاليين ، وبالتالى تمكنت من العثور على سجينـــة أخرى كتبت الى المسئول نيابة عنى » · ومعنى ذلك أنها أخفت المصدر الحقيقى للرســـالة ·

وفى الشركات كما فى الدولة تمارس القيادات فى كل مكـــان تنويعات من هذه اللعبة · فعندما يقوم مرؤوس باستخدام اسم رئيســه (غالبا دون اذنه) ليحصل على مزية ما فانه بذلك يستخدم تكتيـــك المصدر المقنع ·

ثمة مثال أصبح متعارفا عليه : ففى عـــام ١٩٦٣ نجحت طريقـة المصدر المقنع في التأثير على السياسة الأمريكية أثناء حرب فيتنام ، وذلك عندما أعد روبرت مكنمارا وزير الدفاع والجنرال ماكسويل تيلور تقريرا يؤكدان فيه للرئيس والشعب الأمريكى أنه « ممن الممكن سحب الجزء الأكبر من العتاد العسكرى الأمريكى » بنهاية عام ١٩٦٥ ·

وكان يعزز هذا التوقع بيانات يفترض أنها واردة من سايجون · ولكن ما كان يجهله كل من وجه اليه هذا التقرير ، أن جزءا كبيرا من المعلومات التى كان تاريخها ومكان صدورها سايجون قد تمت صياغتها ، فى الحقيقة ، فى واشنطن ثم أرسلت الى فيتنام ، ومن هناك عادت الى واشنطن لتبدو وكأنها مستندات واردة من مسرح الأحداث · وكان هدف المناورة فى هذه الحالة منح هذه البيانات مصداقية مختلقة ·

وهناك رسائل أخرى ذات مصدر مقنع هى فى حقيقة الأمر مزورة بالكامل ·

ونادرا ما يستخدم هذا النوع من الرسائل فى الحرب البيروقراطية اليومية وان كان معروفا تماما فى مجال السياسة الدولية ، حيث أثرت أحيانا بعض المستندات المزورة على مجرى التاريخ - مثل « برقيـــة زيمر مان » التى أسهمت فى دخول الولايات المتحـــدة الحـــرب العـــالمية الأولى ·

وفى عام ١٩٨٦ أعلنت وزارة الخارجيـــة الأمريكية أن الوثيقـــة التى تدعى عرض ما دار فى اجتماع « سرى » عقد فى البنتاجون وثيقة زائفة · وطبقا للنص المطعون فى صحته فان وزير الدفاع آنذاك كاسبر واينبيرجر اكد خلال هذا الاجتماع أن مبادرة الدفـــاع الاستراتيجى « ستمنح الولايات المتحدة [····] القدرة على تهديد الاتحاد السوفيتى بضربة قاضية » ·

واذا كانت هذه المقولة صحيحة فان ذلك كان كفيلا بتدعيم الحجج السوفيتية ضد المشروع ·

لكن الوثيقة كانت مزورة · ولقد تم توزيعها فى ألمانيا الغربية (بواسطة السوفييت افتراضا) لخدمة الحملة العامة المعارضة للبرنامج الأمريكى · وكانت قد ظهرت وثيقة مزيفة أخرى تتناول الموضوع نفسه فى الصحافة النيجيرية ·

ولقد ظهرت فى واشنطن مؤخرا وثيقة مزيفة مناهضة لليابان · وذلك عندما قرأ توم مكميلان عضو الكونجرس أمام مجلس النواب الأمريكى ما قدمه على أنه « مذكرة حكومية يابانية داخلية رفيعة المستوى » ·

وكان النص ، المفترض أنه موجه لرئيس الوزراء من « مساعده الخاص للتنسيق السياسى » ، يوصى بتوجيه الاستثمارات اليابانية فى الولايات المتحدة نحو دوائر انتخابية معينة حيث يمكن أن تستخدم للتأثير على السياسة الأمريكية ·

ولم يكن هناك أفضل من هذه المذكرة لاذكاء الحملة المناهضة لليابان فى الولايات المتحدة · لكن اتضح أن الوثيقة مختلقة · وتم فى النهاية تحديد مصدرها وتبين أنه رونالد مورس أحد المسئولين عن البرنامج الآسيوى فى مركز أبحاث وودرو ويلسون · وأكد مورس أنه كتب الوثيقة لكى يوضح بطريقة درامية ما كان يعتبره ممارسات جارية بالفعل من جانب اليابانيين · كما ادعى أنه نبه الذين أطلعهم عليها الى أنها وثيقة خيالية ·

طعنات فى الظهر وقنوات خلفية :

كل الرسائل تمر عبر قنوات ، غير أن بعض القنوات اكثر طبيعية من غيرها ·

وتعلم أية قيادة أن قائمة الذين يستقبلون الرسائل تمثل أداة سلطة نظرا لأنها تحدد من سيتلقى مستندا ما ومن لن يتلقاه · ان ترك شخص ما « خارج الدائرة » يعد طريقة لتكبيل يديه ، وأحيانا ما يكون ضحية هذه الطريقة هو أعلى مسئول فى المكان ·

عندما كان جون كيلى سفيرا للولايات المتحدة فى بيروت كان يتصل مباشرة بمجلس الأمن القومى التابع للبيت الأبيض ، مستخدما

قنوات اتصال خاصة بالـ (سى · آى · ايه) بدلا من القنوات الرسمية المعتادة لوزارة الخارجية · ومعنى ذلك أنه كان يتخطى رئيسه المباشر ألا وهو جورج شولتز وزير الخارجية حينذاك ·

وأثناء اقامته فى واشنطن التقى كيلى كثيرا بأوليفر نورث وأعضاء آخرين فى مجلس الأمن القومى بخصوص خطتهم لبيع الأسلحة لايران مقابل الافراج عن الرهائن وهى الخطة التى لم يوافق عليها شولتز ·

وعندما علم شولتز بتصرفات كيلى فى بيروت انتابه حنق شديد حتى انه احتج على السفير علانية ، وحظر قطعيا على العاملين فى وزارة الخارجية استخدام قنوات أخرى غير قنوات الوزارة الا بتصريح صريح من الرئيس أو منه شخصيا · لكن من غير المرجح أن تنجح مثل هذه الأوامر فى استبعاد هذا النوع من الممارسة نهائيا · فالقنوات الخلفية ذات نفع كبير فى صراعات السلطة ·

وعندما علم لى هاميلتون ـ عضو الكونجرس ورئيس لجنة الاستخبارات بمجلس النواب ـ بهذه الواقعة لم يتمالك سخطه وصاح : « لا أعتقد أننى سمعت من قبل عن حدوث شىء كهذا ـ مثل هذا التخطى الكامل لوزير خارجية أمريكى ! » ·

قد يكون الغضب قد غشى ذاكرته ، لأنه فى الواقع قد حدث الشىء نفسه تماما عندما اتصل سفير الولايات المتحدة فى باكستان سرا بمجلس الأمن القومى دون المرور بوزير الخارجية · وكان هنرى كيسينجر ـ رئيس مجلس الأمن القومى حينذاك ـ هو الذى أقام هذه القناة الخلفية · واستخدم كيسينجر هذه القناة للتحضير لمهمة الرئيس نيكسون السرية فى الصين التى انتهت باعادة العلاقات بين البلدين ·

وكان هنرى كيسينجر ممارسا متحمسا لعمليات الاتصال عبر القنوات الخلفية ، شغوفا دائما بالاحتفاظ بالمعلومات فى يده وإبعادها عن النظام البيروقراطى الرسمى · ولقد طلب ذات يوم من وليم بورتر ـ سفير الولايات المتحدة فى كوريا الجنوبية ـ الاتصال به مباشرة دون المرور برئيسه الرسمى وليم روجرز وزير الخارجية آنذاك ، زاعما أنه حصل على موافقة الرئيس على ذلك ·

وسجل بورتر رد فعله فى مذكراته حيث قال : « ها هى دائرة نيكسون ـ كيسينجر الدبلوماسية السرية بشفراتها ورموزها السرية

وغيرها ·· اذا كان الرئيس قد وافق على خلق شبكة سرية من السفراء تحت اشراف مستشاره للأمن القومى ، بدون علم وزير الخارجية ، فمعنى ذلك أن شيئا جديداً تماما يحدث فى التاريخ الأمريكى ·· ولقد انتهيت الى اننى مجرد فلاح جاهل ، وأن ما يحدث ليس من شأنى ، ولم أتحرك » ·

وخلال مفاوضات اتفاقية « سالت » مع السوفيت ، كان يرأس الوفد الأمريكى فى جنيف جيرارد سميث · ولكن كيسينجر ورؤساء هيئة الأركان المشتركة في البنتاجون أقاموا قناة اتصال خاصة مع بعض أعضاء الوفد من غير علم سميث ·

كما كانت لكيسينجر صلة مباشرة مع موسكو ، متخطيا بذلك وزارة الخارجية ، حيث كان يبعث برسائل للمكتب السياسي عن طريق السفير أناتولى دوبرينين بدلا من امرارها عبر القناة الطبيعية لمسئولى وزارة الخارجية الأمريكية ونظرائهم فى وزارة الخارجية السوفيتية · وفى موسكو كان بعض أعضاء المكتب السياسى وسكرتارية الحزب والسلك الدبلوماسى فقط يعلمون بوجود مثل هذا التبادل غير الرسمى ·

غير أن أشهر مثال لاستخدام تكتيك الالتفاف وأكثرها أهمية من الناحية التاريخية هو مثال المفاوضات التى أسهمت فى تفادى حرب عالمية ثالثة ·

حدث ذلك أثناء أزمة الصواريخ السوفيتية فى كوبا · فبينما العالم كله يحبس أنفاسه ، تبادل الرئيس كنيدى ورئيس الوزراء السوفيتى خروتشوف العديد من الرسائل الرسمية · كانت الأراضى الأمريكية مهددة بشكل مباشر وكان كنيدى قد أمر بفرض حصار بحرى على كوبا · وفى ساعات التوتر القصوى تلك ، قام خروتشوف بارسال الكسندر فومين – الممثل الرئيسى لل « كيه · جى · بى » فى واشنطن – للاتصال بالصحفى الأمريكى جون سكاللى الذى كان فومين قد التقى به من قبل ·

وفى اليوم الرابع للأزمة وبينما الخطر يتفاقم من ساعة الى أخرى ، سأل فومين اذا كان سكاللى يعتقد أن الولايات المتحدة ستتعهد بعدم غزو كوبا فى حالة سحب السوفيت لصواريخهم وقاذفاتهم · وكانت هذه الرسالة التى نقلها الصحفى الى البيت الأبيض منعطفا حاسما فى الأزمة ·

طريقة القناة المزدوجـــــة :

غير أن مثل هذه الاستخدامات لتكتيك الالتفاف والقناة الخلفيـة تظل بالرغم من كل شيء ، بسيطة مقارنة بالطريقة الأكثر تطوراً والتى يمكن تسميتها « تكتيك القناة المزدوجة » ٠ وهى تتلخص فى توجيه رسائل ذات مضامين متباينة بل ومتناقضة عبر قناتين مختلفتين ، وذلك لاختبار ردود أفعال المتلقين أو لاثارة البلبلة والنزاع بينهم ٠

أثناء المفاوضات الخاصة بنظم الصواريخ المضادة للصواريخ لجـأ كل من كيسينجر وأندريه جروميكو وزير الخارجية السوفيتية مرتين الى استخدام قناة خلفية لكى يتفادى كل منهما التسلسل الهرمى الوظيفى الخاص به ٠ وخلال هذه المحادثات ، وبالتحديد فى مايو ١٩٧١ وأبريل ١٩٧٢ شك كيسينجر فى أن الروس يستخدمون ضده تكتيك القنـــاة المزدوجـــة ٠

وبعـد ذلك بسـنوات كتب أركادى شيفشينكو المســاعد السـابق لجروميكو ، والذى لجأ الى الولايات المتحدة ، فى مذكراته أن شكـوك كيسينجر لم يكن لها أساس فى الواقع ٠ اذ لم تكن هناك مناورة مقصودة بل خلط نتيجة أن أحد الممثلين السوفيت تصرف « طبقا لتعليمات قديمة لموسكو لأنه لم يكن على علم بالتعليمات الأحدث » ٠لا يهم هنا أن يكون ما افترضه كيسينجر صحيحا أم لا ، انما الواضح أن تكتيك القناة الخلفية والقناة المزدوجة من التكتيكات الواسعة الاستخـــدام فى منــاورات السلطة ٠

الطرف المتلقى :

على الطرف الآخر من عملية الاتصال توجد أيضا طائفة مدهشــة من الألعاب الصغيرة لدى المتلقين ٠

ويعتبر تكتيك الوصول أكثرها شيوعا وهو يتلخص فى محاولــة مراقبة كل ما يصل الى رئيسك ومن ثم التحكم فى المعـــلومات التى يستقبلها ٠ وهى طريقة معروفة على كافة المستويات ابتداء من السكرتيرة البسيطة الى المسئولين فى أعلى المناصب ٠ ان ما يثيره حق الوصــول من صراعات ومنازعات من الانتشار بحيث لا يوجد ما يدعو الى التوسع فى هذا الموضوع ٠

ثم يأتى بعد ذلك تكتيك « من يحتاج أن يعرف ؟ » ٠ وهو التكتيك المفضل عند أجهزة المخابرات وشبكات الارهابيين والحركات السياسية السرية ، حيث يتم تقسيم البيانات والمعلومات والمعرفة الى فئات ولا يتم ارسالها الا الى متلقين معينين لديهم صلاحية « من يحتاج أن يعرف » ٠

وفى الجانب المقابل يوجد نقيض هذا التكتيك ألا وهو تكتيك « من لا يحتاج أن يعرف » ٠ ويوضح وزير سابق فى البيت الأبيض هذا المفهوم على النحو التالى :

« هل ينبغى لى كمسئول فى البيت الأبيض أن أعرف هذا الشىء أو ذاك ؟ واذا علمته هل يعنى ذلك أنه على أن أتخذ اجراء ما ؟ والشخص الذى أبلغنى به ألن يذهب الى شخص آخر ويقول له : « لقد ناقشت هذا الموضوع مع البيت الأبيض ؟ » ان ذلك يمكن أن يورطنى فى نزاع قذر بين طرفين آخرين بشأن شىء لا أعلم عنه شيئا ولا علاقة لى به [٠٠٠٠] لقد كان هناك الكثير مما كنت أفضل ألا أعرف عنه شيئا » ٠

ويستخدم المرؤوسون أيضا تكتيك « من لا يحتاج أن يعرف » لحماية رؤسائهم ٠ فاذا لم يبلغ الرئيس بالمعلومات فانه يستطيع أن يدفع بالجهل بالموضوع اذا ساءت الأمور ٠

ولقد انتشرت فى واشنطن مزحة ذات دلالة أثناء التحقيق فى فضيحة أيران جيت ٠ تقول المزحة :

سؤال : « الى كم شخص يحتاج تركيب مصباح كهربى فى البيض الأبيض ؟ » ٠

الاجابة : « لا أحد ٠ انهم يحبون ابقاء ريجان فى الظلام » ٠

كما يوجد أيضا تكتيك « المجبر على المعرفة » المشهور أكثر باسم « تكتيك المظلة » ٠ فى هذه الحالة ، يضمن المتبارى فى معترك السلطة أن شخصا آخر قد أحيط علما بشىء ما — وذلك بتوجيه مذكرة اليه مثلا — بحيث اذا ما ساءت الأمور فعلى متلقى المذكرة أن يتقاسم المسئولية ٠

التلاعب بالرسالة :

ان كتل البيانات والمعلومات والمعرفة التى تغذى كل يوم مصنع تفكير الدولة تتيح الفرصة لعديد من المناورات الخادعة (التى أحيانا ما تخدع المخادع نفسه) ٠ الا أن المساحة لا تسمح بالاستمرار فى

تصنيف هذه الحيل وذكر أمثلة لها وسنكتفى بالاشارة الى بعضها فى شكل موجز ٠

ـ تكتيك الحذف : نظرا لأن مجـال السياسة من أغنى المجـالات بالصراع فان الرسائل السياسية تتعرض أكثر من غيرهـا الى عملية انتقاء واعية ومقصودة ٠ فتظهر بها فراغات فى الأماكن التى قرر أحدهم ضرورة تطبيق تكتيك الحذف ، وذلك بالغاء بعض الوقائع ذات الدلالة أو التى لا تؤيد النظرية التى يدافع عنها ٠

ـ تكتيك التعميم : هنا يتم تغطية التفاصيل الكفيلة باثارة معارضة بيروقراطية أو سياسية بطلاء من التجريد غير المحسوس ٠ وتحفـل البيـانات الدبلوماسية بأمثلة من هـذا التكتيك ٠ وهو ما يفسر الصداع النصفى الذى غالبا ما تسببه قراءة هذه البيانات ٠

ـ تكتيك التوقيت : الطريقة الأكثر شيوعا هنا هى تأخير الرسالة الى اللحظة التى لا يكون لدى المرسـل اليه أية فسحة من الوقت للقيام برد فعل ، فمثلا يتلقى أعضاء الهيئات التشريعية كما ضخما من المستندات والوثائق الخاصة بالميزانية ، ومن المفترض أن يقرروا شيئا بشأنهـا خلال بضعة أيام ـ قبل أن يتمكنوا من استيعابها وتحليلها بفهم وفطنة ٠ كما أنه من المعروف عن كاتبى الخطب فى البيت الأبيض أنهـم يعتمـدون تسليم مسودات الخطب الرئاسية فى آخر لحظة ممـكنة حتى لا تتاح للمسئولين الآخرين فسحة من الوقت لتعديل أو تنقيح النصوص ٠

ـ تكتيك التنقيط : هذه المرة ، بدلا من تجميع البيانات والمعلومات والمعرفة فى مستند واحد يتم تجزئتها وارسالها فى شكل جرعات صغيرة موزعة على فترات زمنية متباعـدة ٠ وتكون محصلة ذلك هى تشـويش السياق الاجمـالى للوقـائع ، بحيث يصبح من الصعب على المتلقى ادراكه ٠

ـ تكتيك الموج العالى : عندما يشكو شخص ما من أنه لا يتلقى أية معلومات يقوم اللاعب الماهر بارسال شحنة أوراق كبيرة دفعة واحدة الى الشاكى ، بحيث لا يكون لدى هذا البائس أية فرصة للاستدلال على الحقائق الجوهرية فى كل هذا الزبد ٠

ـ تكتيك الغمـوض والخلط : يقضى هـذا التكتيـك بتغليف بعض الوقائع الصحيحة بسحابة من الشائعات الغامضة بحيث لا يستطيـع المتلقى تمييز الحقائق من الشائعات ٠

ـ تكتيك الصدمة المرتدة : هنا يتم نشر نبأ كاذب فى بلد بعيد وتقوم الصحافة الوطنية بترديد هذا النبأ ٠ هذا الأسلوب تستخدمه أجهزة الاستخبارات والدعاية ٠ ولكن أحيانا قد تحدث الصدمة المرتدة ـ أو تكاد أن تحدث ـ دون أن تكون مقصودة ٠

ذات يوم قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بنشر مقال من صنعها عن ارهابيى منظمة الألوية الحمراء فى الصحافة الايطالية ٠ ولفت النص الانظار فى الولايات المتحدة وتم تناوله فى كتاب كان ألكسندر هيج ـ وزير الخارجية الأمريكية حينذاك ـ يقرأ نسخته التجريبية ٠ وعندما أشار هيج الى هذا الجزء من الكتاب فى مؤتمر صحفى أضيفت تعليقات هيج الى النسخة النهائية للكتاب ٠ ان عملية الاسناد والارجاع غير المباشر أقل ندرة مما نتصور ٠

ـ تكتيك الكذبة الكبرى : ترجع شهرة هذا التكتيك لجوزيف جوبلز وزير الدعاية النازى ٠ وهو يعتمد على أن الكذبة عندما تكون ضخمة يسهل تصديقها عن أى عدد من الأكاذيب الصغيرة العادية ٠ وفى هذا الاطار يمكن تصنيف التقرير السوفيتى الذى نشرته موسكو عام ١٩٨٧ والقائل بأن وباء الايدز العالمى هو نتيجة تجارب الحرب البيولوجية التى تدور فى ولاية مريلاند تحت رعاية الـ « سى ٠ آى ٠ ايه » ٠ وبالرغم من انتشار القصة بشكل كبير فى العالم كله فان العلماء السوفيت يرفضونها تماما ٠

ـ تكتيك قلب المضمون : هذا التكتيك من التقنيات القليلة للتلاعب بالحقائق التى تتطلب قدرا كبيرا من الجرأة لأنها تقضى بقلب معنى الرسالة تماما ٠ ولقد رأينا مؤخرا مثالا لذلك فى اسرائيل ، حيث كانت العلاقات بين أسحق شامير رئيس الوزراء وبين شيمون بيريز وزير الخارجية سيئة ٠ وعند لحظة معينة أعطى شامير تعليمات لوزارة الخارجية بأن تبلغ جميع سفارات اسرائيل بأن بيريز ليس مخولا على الاطلاق بتشجيع عقد مؤتمر دولى لحل المشكلة العربية الاسرائيلية ٠

وعندما تلقت بطانة بيريز فى وزارة الخارجية رسالة شامير ألقت بها ببساطة فى سلة المهملات وأرسلت برقيات الى جميع السفارات تحمل النقيض تماما ٠ وعندما سئل أحد كبار مسئولى وزارة الخارجية فيما بعد كيف أمكن حدوث ذلك ، أجاب : « كيف توجه لي هذا السؤال ؟ انها حرب » ٠

منافسات محترفى السياسة وكبار الخبراء :

عند فحص هذه القائمة الطويلة من التقنيات المستخدمة على نطاق واسع لتشويه وتزييف الرسائل التى تنقل عبر الادارات ، يتضح أن قلة قليلة من التصريحات والرسائل و « الحقائق » سواء فى العمل السياسى أو فى ممارسة المسئوليات الحكومية يمكن التسليم بصدقها · لا يوجد تقريبا شيء حيادى تجاه السلطة ، فالجزء الأكبر من البيانات والمعلومات والمعرفة المتداولة فى دوائر الحكومة قد سبق لها أن تعرضت الى معالجة سياسية ، لدرجة لو تساءلنا عن المستفيد من ذلك ؟ واعتقدنا أننا وجدنا الاجابة قد لا نكون قادرين بعد على الوصول للحقيقة فى هذه الدوامة ·

وكل ذلك يحدث قبل مرحلة تدخل وسائل الاعلام التى ستقوم من جديد بمعالجة الحقيقة لتلائم احتياجاتها الخاصة – بمعنى تحريف « الوقائع » بشكل أكثر عمقا ·

ان عواقب كل ذلك تمس لب العلاقة التى تربط الديمقراطية بالمعرفة · فمن الأمور المعترف بها بشكل عام أن الرأى العام المطلع هو أحد الشروط الضرورية للديمقراطية ولكن ما الذى يعنيه بالتحديد تعبير « مطلع » ؟ ·

فى كل أشكال الديمقراطية من الضرورى تقييد مساحة سرية الدولة وتوسيع سبل وصول المواطنين الى الوثائق العامة ، ولكن ذلك لا يمثل سوى خطوات أولى وصغيرة على طريق الديمقراطية ·· اذ يتعين ، فى الواقع ، لفهم المستندات والوثائق معرفة الكيفية التى عولجت بها طوال الطريق الذى قادها من يد الى يد ومن مستوى الى مستوى ومن ادارة الى ادارة عبر الأحشاء البيروقراطية للدولة ·

ان « المضمون » الكامل لأية رسالة لا يظهر على الورق ولا على شاشة الكمبيوتر · ففى الواقع قد يكون مضمونها الأساسى من وجهة النظر السياسية هو معرفة خطوات معالجتها السابقة ·

والأكثر عمقا ودلالة من ذلك ، هو أن شيوع تكتيكات المعلومات يرمى بظلال الشك على ما يمكن أن يتبقى من الاعتقاد فى « عقلانية » أعمال وأنشطة الحكم أو فى أهلية القادة فى اتخاذ قرارات « قائمة على الموضوعية » ·

لقد كان ونستون تشرشل على حق فى رفضه للتقارير « التى تم فرزها وهضمها » ، ومطالبته بـ « الوثائق الحقيقية [....] فى شكلها الأصلى » حتى يتسنى له استخلاص النتائج الخاصة به . بالطبع ، قد يكون مستحيلا بالنسبة لمتخذى القرار أن يقرءوا كل البيانات الخام وكل المعلومات وان يستوعبوا كل المعرفة المفترض أن تساعدهم فى اتخاذ قراراتهم .

ان ما رأيناه حتى الآن ليس سوى جزء صغير من حيل المهنة التى يستخدمها كل من محترفى السياسة الديماجوجيين فى صراعاتهم والخبراء فى بطانات كبار المسئولين . ومن سيول الى استكهولم ومن بون الى بكين ، يعلم رجال السياسة والبيروقراطيون ، المطلعون على كل شىء ، حق العلم ، أن البيانات والمعلومات والمعرفة هى أسلحة قتالية محشوة ومستعدة للانطلاق فى هذه الصراعات من أجل السلطة التى تمثل لب الحياة السياسية .

ولكن ما « لا يعلمه » أغلبيتهم بعد هو أن الحيل والأساليب الميكيافيلية لم تعد أكثر من ألاعيب أطفال ، ذلك لأن قواعد الصراع من أجل السلطة تتغير فى هذه الفترة التى أصبحت فيها المعرفة « عن » المعرفة هى المصدر الرئيسى للسلطة .

وكما سنرى فاننا ندخل عصراً جديداً تفرض فيه « التكتيكات الأسمى » نفسها على هذه المصانع الفكرية التى نسميها الدول . الأمر الذى سيرتفع بكل سمات لعبة السلطة الى مستوى أعلى .

الفصل الثالث والعشرون

التكتيكات الأســمى

فى عام ١٩٨٩ ، كانت الدوائر السياسية مسرحا « لسابقة » مرت غير ملحوظة ، ففى ذلك العام دخل جون سنونو الى البيت الأبيض وتولى منصب رئيس موظفى قصر الرئاسة ، وأصــبح بذلك أول متخصص فى الكمبيوتر يحتل احدى قمم السلطــة السياسية فى عــالم يعج بالرقائق الالكتـــرونية ·

وقد حصل سنونو ـ الذى تخرج مهندسا ميكانيكيا ـ على درجة الدكتوراه من معهد ماساشوستس للتكنولوجيا ، وسرعــان ما اكتسب شهرة واسعة كشاب عبقرى يستطيع اكتشاف أخطاء البرمجـــة فورا وتصحيحها وتفنيد النموذج الرياضى الذى تقــوم عليه أية دراســة عن البيئة · وأيا كان رأينا فى معتقداته السياسية فان سنونو يدرك تمامــا امكانات السلطة الكامنة فى الاعلاماتية ·

قبل الانتقال الى واشنطن ، كان سنونو يشغل منصب حاكم ولاية نيوهامبشير · وعندما زودت هذه الولاية بنظام الكترونى للرقابة الضريبية والمالية ، طالب بعض المنتخبين المحليين بأن تتــاح لهم سبل الوصــول للبيانات المخزنة فى الوحدة المركزية للنظام · غير أن سنونو أهمل هذا المطلب معلنا أنهم « سيحصلون على ما نعتقد انهم فى حاجة اليه » ·

وطبقا لما نشرته مجلة « تايم » ، كان سنونو « يريد تعديل توازن السلطة السياسية » وذلك « بالاحتفــاظ بالبيــانات الاعلاماتية الماليـــة للولاية تحت يده » ·

وفى نهاية المطاف اضطر حاكم الولاية أن يعطى ممثلا عن منتخبى الولايات كلمة سر تسمح له بالوصــول الى بعض البيــانات محل الخــلاف (ولكن ليس الى كلها) ·

وبالمثل ، عندما قضت احدى محـــاكم الولاية بأحقية المواطنين فى الاطلاع على الوثائق والمستندات العامة ونسخها ، أصر سنونو أن هذا الحكم لا ينطبق على البيانات التى تمت معالجتها بالكمبيوتر · لقد فهـم الحاكم تماما مدى السلطة التى تمنحها المعرفة عن المعرفة ·

سكان الاسكيمو والعمال الذهنيون :

بالرغم من كل شيء فان الموقف الذى اتخذه سنونو فى ولايـــة نيوهامبشير لم يكن بارعا ، لأن وضع ختم « سرى » على وثيقة أو منع الوصول اليها هو تكتيك قديم قدم العالم · فمن يريد السيطرة على البيانات والمعلومات والمعرفة لديه الآن أدوات جديدة أقوى ويعتمد الكثيـر منهـا على الاعلاماتية ·

اننا فى الواقع ، نشهد الانتقال الى مرحلة أعلى من الصراع من أجل السلطة حيث سيكون وجود هذا الصراع أقل وضـوحا · وهو انتقال مرتبط بدرجة التجريد والتعقيد المتزايدة فى المجتمع ككل ، والناجمة عن تطور الاقتصاد فائق الرمزية ·

ولنأخذ مثال أجهزة الكمبيوتر : اننا الآن نستخدم الكمبيوتر فى صناعة أجهزة الكمبيوتر · كما توجد هندسة برامج اعلاماتية بمساندة الكمبيوتر تعتمد على ما يمكن أن نسميه « برامج اعلاماتية أسمى » ـ أى برامج معدة لانتاج برامج اعلاماتية · وانطلاقا من هذه الحقائق يمكن تخيل أن التقدم فى هذا الفرع من الهندسة سيسمح فى المستقبل بانتاج « البرامج الاعلاماتية الأسمى » وهكذا دواليك نحو آفاق أبعد وأبعـد ودرجات تجريد تتجه نحو ما لا نهاية ·

وبالمثل ، انتشرت برامج جداول المقارنة على نطاق واسع فى عالم الأعمال منذ بداية الثمانينيات · لقد سمحت هذه البرامج لمئات الآلاف من المستخدمين بترتيب الأرقام فى أعمدة وصفوف ، كـما فى دفاتـــر المحاسبة ، والتعامل معها بسهولة ويسر · لأن هذه الجداول توضـــح اتوماتيكيا كيف يؤثر تعديل فى رقم أو متغير ما على كـــل العناصر الأخرى ، لقد عودت هذه الجداول جيلا كاملا على التفكير بطريقة « ماذا يحـدث اذا ···· ؟ » ، ماذا يحـدث اذا رفعنـا سـعر منتج ما بنسبة ٢٪ ؟ أو اذا انخفض سعر الفائدة نصف نقطة ؟ أو اذا تمكنا من طرح المنتج الجديد فى السوق قبل الموعد المحدد بشهر ؟ غير أن جداول المقارنة مثلها مثل الجداول التقليدية ظلت ثنائية الأبعاد ، مسطحة مثل رقعـــة الشطرنج ·

في عام ١٩٨٩ طرحت شركة لوتس ـ وهى المتخصصة الأولى فى العالم فى هذا المجال ـ برنامجا يمكنه تجهيز جداول مقارنة ثلاثية الأبعاد (1-2-3 Release 3.0) وهو ما يوازى فى مجال المحاسبة رقعة شطرنج تنتقل عليها القطع ليس على المستوى الأفقى فحسب وانما الى أعلى وأسفل أيضا ، وبذلك يغدو من الممكن محاكاة التغيير فى شركة أو عملية ما بطرق أكثر تعقيداً وايحاء بمراحل · وسيتمكن المستخدمون من توجيه أسئلة من نوع « ماذا يحدث اذا ··· ؟ » بطريقة أدق وأمهر وعلى مستوى أعلى بكثير ·

ان النظام الجديد لخلق الثروة يتطلب قوة عمل مشبعة تماما بالرمزية · فالأفراد يتعرضون بشكل دائم لوابل من البيانات التى تصبها وسائل الاعلام وأجهزة الكمبيوتر والمستندات المكتوبة وأجهزة الفاكس والهاتف والأفلام والملصقات والاعلانات والمذكرات المختلفة والفواتير وآلاف المنبهات الرمزية الأخرى · كما يقضى الملايين وقتهم فى المشاركة فى اجتماعات وفى عرض الأفكار وفى التفاوض والاقناع أو فى التبادل بوسائل أخرى لبيانات مصورة · كل ذلك يؤدى الى تزايد « التكيف المعلوماتى » للجماهير ·

وكما يكتسب سكان الاسكيمو حساسية كبيرة للاختلافات بين أنواع الجليد ، وكما يدرك المزارعون ، بشكل شبه حدسى ، تغيرات الطقس والتربة ، فان هؤلاء العاملين الذهنيين ينسجمون مع بيئتهم المعلوماتية ·

ان هذا التطور والتعقيد المتزايد يجبر أصحاب السلطة على البحث عن أدوات متجددة وذات مستوى أعلى للاقناع أو السيطرة الاجتماعية أو كليهما ·

ان الأقمار الصناعية وأجهزة الفيديو والاذاعة الموجهة لنطاق ضيق من المتلقين وشبكات الاتصال ذات الذكاء الخارجى واستطلاعات الرأى العام الفورية والمحاكاة والنماذج الرياضية والتكنولوجيات الأخرى المماثلة هى حاليا ضمن أدوات ترسانة الأوساط السياسية فى الدول المتقدمة · ويضاف الى ذلك وسائل جديدة للتلاعب بالمعلومات الاعلاماتية تجعل تكتيكات المعلومات التقليدية ، التى يمارسها السياسيون والبيروقراطيون ، تبدو تافهة وبدائية ·

ان النظم الجديدة لخلق الثروة تغذى أدوات التلاعب التى يستخدمها رجال السياسة وممثلو الادارة للحفاظ على سلطتهم ، بحيث

لا تكف هذه الأدوات عن التحسن والاتقان تبعا للتغيرات الشاملة التى تحدث للجماهير ٠ وهو ما يلخص ما تعنيه التكتيكات الأسمى أو « الميتاتكتيك » ٠

الحقيقة مقابل السلطة :

لكى نفهم ما يعنيه هذا التعبير بشكل أفضل يكفى التفكير فى عالم الأعمال ٠ أن السذج من المستثمرين يكتفون بتحليل « نتائج » شركة ما لتكوين فكرة عن ربحيتها وسلامة مركزها المالى ٠ لكن الأرباح ـ كما تقول مجلة فورتشن ـ « شأنها شأن المقانق [٠٠٠] يقدرها أكثر من لا يعرف سوى القليل عن قائمة مكوناتها » ٠ وبالتالى لا يكتفى المستثمرون الأكثر دهاء بقراءة آخر سطر فى الحساب الختامى وانما يحاولون معرفة ما يكمن وراء هذا السطر ، أى « نوعية الأرباح » ٠

انهم يفحصون الأرقام التى تضاف الى الأرقام والافتراضات التى ترتكز عليها هذه النتائج وكذلك النماذج المحاسبية والاعلاماتية التى تسمح بالحصول عليها ٠ فالأمر يتعلق هنا بمستوى أعلى من التحليل يمكن اعتباره مثالا بسيطا للتحليل الأسمى أو « الميتا ـ تحليل » ٠

فعندما يكون معروفا أن جنرال موتورز تستطيع زيادة أرباحها (المعلنة) بشكل قانونى بما قيمته مليارا دولار سنويا ، وذلك عن طريق تعديل مدد استهلاك أصولها الصناعية وبتغيير طريقة تأثير ذلك على برنامج التقاعد الخاص بها وبالتلاعب فى القيمة المقدرة لمخزونها وبتعديل القيمة المفترضة للسيارات والمركبات التى تؤجرها ايجارا تمويليا ، يمكن بسهولة تخيل ما تستطيع أن تقوم به حكومة ما وأجهزتها المتعددة فى المحاسبة التابعة لها ٠

لا جدال فى أن الحكومات تلاعبت بحساباتها منذ اختراع المحاسبة ذات القيد المزدوج على أيدى أهالى فينيسيا فى القرن الرابع عشر ٠ والحاصل أن هذا التلاعب ، الذى بدأ منذ اليوم الأول ، لا يؤثر فقط على الميزانيات ولكنه يتعدى ذلك الى كل أنواع البيانات والمعلومات والمعرفة ٠٠٠٠ الخ ٠

ان الجديد فى الأمر حاليا هو امكانية استخدام الكمبيوتر للمساعدة فى ذلك ، الا أن أجهزة الكمبيوتر تفعل أشياء مفيدة ومدهشة ،

فهى تزيد بشكل كبير من امكانات مهـارة أصحـاب القـرار وتحسن من مستوى الفعالية فى العديد من الخدمات ، كما أنها تسمح بتكامل ودمج العديد من العمليات المعقدة ٠

وبفضل الثورة الاعلاماتية يمكن وضع نماذج لبعض المشكـلات الاجتماعية بدقة كانت مستحيلة من قبل ، مثل مشكلة البطالة وزيـادة تكاليف الخدمات الصحية والأخطار التى تهدد البيئة ، مما يتيح فهمها على نحو أفضل . كما يمكن تطبيق عدة نماذج على نفس الظاهرة ومن ثم فحص ودراسة تفاعلات وردود فعل عدد أكبر من العـوامل ٠ ويتم انشاء قواعد بيانات على مستويات غير مسبوقة كما يجـرى تحليل البيانات بطرق أكثر تطوراً ودقة ٠

وفى كل مكان يتأصل فيه النظام الجديد لخلق الثروة لا تستطيع الدولة وكذلك رجال الأعمال الاستغناء عن أجهزة الكمبيوتر ٠ وان كان ذلك لم يكن أمرا مرغوبا فيه ، اذ كانت الحكومات أقل ديمقراطية قبـل وصول أجهزة الكمبيوتر وغيرها من التكنولوجيات المتقدمة الأخرى ٠

غير أن السياسة تهتم بالسلطة وليس بالحقيقة ٠ فالقرارات لا تبنى على اكتشافات « موضوعية » ولا على فهم عميق للقوى المتصارعة ، التى يعمل كل منها لصالحه الخاص ٠ وليس فى مقدور أجهزة الكمبيوتر استبعاد هذا الصراع المحتوم ــ والمفيد فى آن واحـد ــ على السلطة ٠ على النقيض من ذلك تنقل أجهزة الكمبيوتر هذا الصراع الى مسـتوى أعـلى ٠

ان القادة السياسيين وكبار البيروقراطيين أنفسهم لا يقدرون مدى تبعيتهم للاعلاماتية ، وبالتالى الى أى حد باتوا عرضة لأولئك الذين يحسنون التعامل مع الاعلاماتية ٠ ويرجع السبب فى ذلك الى أن التعامل مع الكمبيوتر يتم غالبا فى أدنى مستويات التسلسل الهرمى للعمـل الذهنى ٠

فنحـن لا نـرى قـط رؤساء الدول أو زعماء الأحـزاب يضربون على مفاتيح الكمبيوتر أو يتفحصون الشاشات ٠ لكن فى الوقت نفسه نادرا ما يتخذ القادة قرارا لا يعتمد على بيانات تمت معالجتها ، فى لحظة أو أخرى ، بواسطة متخصصين فى الاعلاماتية ، سواء أكان هذا القرار يتعلق باختيار طائرة مقاتلة أم بالسياسة الضريبية ٠

ففى كل مرة يتعين فيها التصويت على سياسة ما أو اقرارها ــ سواء أكانت تتعلق بعدد الأسرة فى المستشفيات أم ضوابط الاستيراد أم فحص اللحوم ـ يتم تحليلها كميا وترجمتها وصياغتها لتلائم معالجتها بالكمبيوتر ٠

وفى كل مرحلة من هذه العملية ، بدءاً من تكوين قاعدة البيانات الى طريقة تصنيف المعلومات فيها والبرامج الاعلاماتية المستخدمة ، تتعرض المعلومات لتلاعب بارع ٠ ـ وغالبا ـ خفى ، بحيث لا يقارن بكل ما سبق أن تناولناه حتى الآن من تكتيكات المعلومات ٠

وعندما نضيف الى ذلك عمليات التحريف المتعمدة التى تحدث طبقا للتكتيكات الأسمى التى يستخدمها السياسيون والقادة ممن يلعبون لعبة « حرب المعلومات » التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، فاننا نتوصل الى النتيجة التالية :

ان المعرفة السياسية لا تصل الى أصحاب القرار الا بعد مرورها عبر متاهة من المرايا المحرفة ٠ وفى المستقبل ستعكس هذه المرايا نفسها مرايا أخرى ٠

الاصبع المختطفة :

يحفل الأدب العالمى بشكل متزايد بقصص « الجرائم الاعلاماتية » مثل اختلاس الأرصدة المصرفية والتجسس وزرع الفيروسات ٠٠ الخ ٠ وقد جسدت أفلام مثل « ألعاب الحرب »(War games) أخطار اختراق نظم الاتصالات وأجهزة الكمبيوتر التى تتحكم فى الأسلحة النووية ٠ وطبقا لتقرير نشر فى فرنسا ، اختطفت المافيا أحد مسئولى شركة آى٠ بى٠ ام وقطعت احدى أصابعه لأنها كانت فى حاجة الى بصماته لاقتحام نظام أمن أحد أجهزة الكمبيوتر ٠

ولقد حددت وزارة العدل الأمريكية عشر طرق أساسية مستخدمة فى الجرائم الاعلاماتية ٠ وهى تتضمن تعديل البيانات أثناء ادخالها فى الكمبيوتر ووضع تعليمات خفية فى برامج التشغيل والدخول «عنوة» الى نظام ما ٠ ان « الفيروسات » ، التى كثر الحديث عنها ، تثبت لنا حقيقة ما تتعرض له وسائل الاتصال العسكرية والسياسية من أخطار تخريبية ٠

ولكن لم يهتم أحد ، حتى الآن ، بالطريقة التى يمكن لتقنيات مماثلة أن تؤثر على الحياة السياسية ٠

ففى أحد أيام عام ١٩٨٦ لاحظت جنيفر كوبر ، مساعدة اد زشاو عضو الكونجرس ، أن شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص بها لا تنطق ٠ وعندما نجحت فى تشغيله مرة أخرى كان قد اختفت منه مائتا رسالة ٠ وبعد ذلك بأربعة أيام اختفت مئات الرسائل والعناوين من بطاقات كمبيوتر عضو الكونجرس جون ماكاين ٠ وبعد استبعاد أى احتمال لخطأ فى التعامل مع البيانات أمرت شرطة الكونجرس فى واشنطن باجراء تحقيق ٠

وطبقا لأقوال اد زشاو ، الذى كان قبل دخوله مجال السياسة قد أنشأ شركة للبرامج الاعلاماتية ، فان « كل مكاتب الكونجرس يمكن اقتحامها على هذا النحو [٠٠٠] ٠ وهو ما يحول الى العدم عمل أى عضو من أعضاء الكونجرس » ٠

وأشار الخبير ج٠ أ٠ توجو فى مجلة انفورميشن اكزيكيوتيف الى أن وجود ٢٥٠ ألف برنامج معالجة نصوص فى مكاتب المحامين الأمريكيين جعل من الممكن لأى محام دجال أن يحصل على معلومات تضر بخصمه وذلك باستخدام بيانات كمبيوتر هذا الخصم بشكل غير مشروع عن طريق جهاز الكترونى رخيص الثمن يمكن الحصول عليه من أى محل الكترونيات ٠

غير أن رجال السياسة والمسئولين هم أكثر عرضة لمثل هذه الأعمال ٠ فهناك آلاف من أجهزة الكمبيوتر ، التى يرتبط أغلبها فى شكل شبكة ، فى مكاتب ومنازل أعضاء الكونجرس وعلى طاولات آلاف الموظفين الذين يديرون كل شىء ، ابتداء من حصص بعض المنتجات الى معايير السلامة الجوية ٠ ان الوصول غير المشروع الى هذه الأجهزة والشبكات قد يسبب متاعب لا نهاية لها ويؤدى الى تحول السلطة بطريقة غير متوقعة ٠

كما يتزايد استخدام أجهزة الكمبيوتر فى الحملات الانتخابية ، وبالتالى يمكن أن تمارس هذه اللعبة الجديدة التى قد يستحيل كشفها فى صناديق الاقتراع نفسها ٠

شيرنوبل فى صناديق الاقتراع :

فى عام ١٩٨٧ ، وبعد ١٦ عاما من الديكتاتورية العسكرية جرت انتخابات عامة فى سيول بكوريا الجنوبية ، واتسمت المعركة الانتخابية بالشدة والخشونة ، الا أنه تم التصديق على نتائجها فى نهاية المطاف . لكن بعض المراقبين السياسيين لاحظوا أشياء غير عادية فى سير العملية الانتخابية .

فقد ظل الهامش الذى تفوق به الحزب الفائز ، والذى وضح منذ النتائج الأولية ، بدون تغيير ، على نحو ملفت ، طوال الليل وفى كل المناطق التى تم فرز أصواتها . وأبدى مرشح معارض يتمتع بشعبية كبيرة تشككه فى حجم انتصاره هو نفسه فى اقليم كوانجو قائلا انه من المستحيل أن يحصل على ٩٤٪ من الأصوات ، مؤكداً أنه كان من المفترض أن يحصل ، فى أفضل الاحتمالات ، على ٨٠٪ فقط من الأصوات ، وسرعان ما بدأ الشك فى أن أحدا ما تلاعب ليس ببطاقات الاقتراع ولكن بأجهزة الكمبيوتر التى كانت تحصى البطاقات .

ولم يتم التأكد قط من صحة هذه الشكوك . غير أن ماجى فورد مراسلة صحيفة الفاينانشيال تايمز ذكرت - مستشهدة بأحد المحللين السياسيين فى واشنطن - أنه « من السهل للغاية وضع نموذج اعلاماتى لنتيجة انتخابات مقبولة منطقيا . ويمكن تحسين هذا النموذج وتهذيبه بأخذ الطريقة التى ينظر بها الى المرشحين فى الاعتبار وكذلك بيانات السن والأحداث التى واكبت الحملة الانتخابية . ان مثل هذا النموذج يمكن أن يقدم حجم الانتشار المطلوب للحصول على الأغلبية » .

ويستطيع مثل هذا النموذج الاعلاماتى تعديل النتائج فى بعض القطاعات بطريقة بارعة بحيث يحقق فوز مرشح معين ، دون اثارة أى شكوك . وهى طريقة فى متناول أى مبرمج ماهر ، اذا حصل على كلمة السر ، فكل ما عليه عمله هو توجيه أمر للكمبيوتر بأن يحول نسبة معينة من أصوات أحد المرشحين الى مرشح آخر ، ثم يضع علامة على « الباب السرى » تمحو أى أثر لتدخله .

ان برنامج مراقبة الانتخابات ، الذى وضعه معهد أبحاث السياسة الحضرية والمعتمد جزئيا على عمل باحثين فى الاعلاماتية من جامعة برنستون ، انتهى الى أن « عملية احصاء الأصوات بواسطة النظم الاعلاماتية خلال العشرين عاما الأخيرة قد خلق احتمالا لتزييف وتدليس النتائج والوقوع فى أخطاء على نطاق لم يتخيله أحد قط من قبل » .

ولا يتفق مع هذا الرأى العديد من المسئولين عن حسن سير الانتخابات · ولكن وليز وير أحد كبار الباحثين في مؤسسة « راند » يؤيد ما جاء فى برنامج مراقبة الانتخابات ، بل ويستخلص استنتاجات أكثر اثارة اذ يقول : « ان نظام الاقتراع الالكترونى معرض لحدوث كوارث لا تقل خطورة عن كارثة شيرنوبل أو ثرى مايل آيلاند ، واحتمال حدوث ذلك لا يقل عن احتمال وقوع زلزال قوته ٨ ريختر فى أية لحظة فى كاليفورنيا » ·

ولنذهب الى أبعد من ذلك فى هذه السيناريوهات الخيالية · ما الذى يحدث اذا تم « ترتيب » الكمبيوتر بواسطة فنيين ومبرمجين يعملون لصالح شركة دولية كبرى ترغب مثلا فى انجاح سناتور معين ؟ أو لنتخيل أن يكون صندوق الاقتراع الالكترونى تحت السيطرة غير المباشرة والسرية ، ليس لحزب أو لشركة وانما لقوة أجنبية · ويمكن تغيير نتيجة أى انتخابات باضافة أو طرح عدد صغير من الأصوات من كل دائرة انتخابية · ولن يعلم أحد بذلك قط ·

على كل مرشح أن يأخذ حذره !!

نريد أرقامـــــا :

ان قابلية التعرض للتلاعب ليست قاصرة على أجهزة الكمبيوتر والانتخابات وانما تمتد الى كل البيانات والمعلومات والمعرفة التى ينتجها الكمبيوتر والتى يمكن استخدامها بشكل جيد أو اساءة استخدامها ·

غير أن بعض رجال السياسة الحذرين يتصرفون كما يجب أن يتصرف الأذكياء أمام المعلومات الجديدة ، فهم يطلبون معرفة المزيد عن مصادر هذه المعلومات وعن امكانية الاعتماد عليها ، ويسألون عن الكيفية التى تم بها وضع العينات لاستطلاعات الرأى العام ويحللون التنافر والثغرات المحتملة ، ويتشككون فى الاحصائيات التى تكون ملائمة أكثر مما ينبغى ويقيمون المنطق الذى يوجه وينظم الدراسة ··· الخ ·

أما المسئولون الأكثر حذرا وفطنة فيأخذون أيضا فى الاعتبار القنوات التى من خلالها تصل المعلومات اليهم ويستعرضون المصالح المختلفة التي قد تكون « عدلت » المعلومة ·

كما أن هناك قلة نادرة لا تكتفى بكل الاحتياطات المذكورة عاليه وانما تضيف اليها بعملية تمحيص للافتراضات والمسلمات التى وضعت فى البداية كأساس يمكن أن تنبنى عليه الاستنتاجات الأكثر سطحية ٠

وأخيراً هناك من يتمتعون بخيال خصب ، وهم ندرة بلا شك ، فلا يترددون عن طرح كل الاطار المرجعى للبحث مرة أخرى ٠

ويوجد من المسئولين الحكوميين من ينتمى الى التصنيفات الأربعة التى سبق ذكرها ٠ ولكن فى جميع المجتمعات ذات التكنولوجيا المتطورة يكون هؤلاء المسئولون مضغوطين الى درجة أنهم يفتقرون الى الوقت اللازم للتفكير فيما وراء الشكل الظاهرى « للوقائع والحقائق » التى يتعين عليهم بناء قراراتهم على ضوئها ، حتى وان توفرت لديهم الوسائل الذهنية لذلك ٠

والأخطر ، أن النظام البيروقراطى لا يشجع أى تفكير خارج الاطار المعتاد ولا أى فحص أو بحث متعمق ٠ ويعرف من يمسكون بخيوط السلطة كيف يستفيدون من ذلك ٠

عندما اقترح دافيد ستوكمان ، الذى كان يرأس مكتب الادارة والميزانية الأمريكى ، على الرئيس وعلى فريق البيت الأبيض اجراء تخفيضات فى الميزانية ، حرص على أن تكون هذه التخفيضات فى برامج لا تمثل سوى ١٢٪ من ميزانية الدولة ٠ وكان لا يذكر شيئا عن باقى أجزاء الميزانية فى مناقشاته مع رؤسائه ٠

وكتب يروى بعد ذلك « ان ما لم يدركوه ـ لأننى لم أشرحه لهم قط ـ هو حقيقة أننا كنا نركز على قسم محدود من الميزانية ، ولم نلق ولا حتى نظرة على ثلاثة برامج عملاقة كانت تمثل أكثر من « نصف » الميزانية الداخلية ٠ وهى برامج الضمان الاجتماعى والمعاشات والرعاية الطبية ٠ وتمثل هذه البرامج وحدها أكثر من ٢٥٠ مليار دولار ، والبرامج التى أجرينا فيها التخفيضات سمحت لنا بتوفير ٢٥ مليار دولار ٠ وكان الرئيس وفريقه لا يرون سوى الجزء الطافى من جبل الجليد ولم يكن لديهم أدنى فكرة عن الكتل الضخمة التى تختبىء تحت سطح الماء ٠ ولم يطرح أحد على قط أسئلة عن أقسام الموازنة التى لم أستقطع منها شيئا » ٠

هل فضلوا طواعية البقاء فى الجهل ؟ أم لم يكن لديهم الوقت لطرح الأسئلة ، أم أنهم تركوا أنفسهم ينبهرون بستوكمان أستاذ الاحصاء

الكبير ؟ أم أنهم انهاروا ببساطة تحت وابل الأرقام التى ينتجها الكمبيوتر ؟

وان كان لا جدوى من القاء خطاب سياسى ، هذه الأيام ، دون أن يرصع باحصائيات من انتاج الكمبيوتر ، فنادرا ما يتساءل صانعو القرار عن صحة الأرقام التى أعدت لهم ·

ولذلك اقترح ذات يوم سيدنى جونز - وهو وزير تجارة سابق - تشكيل لجنة للاحصائيات لخدمة الرئيس الأمريكى · ولو تم ذلك لتمكنت هذه اللجنة ، بدون شك ، من فهم سبب اختلاف وكالة المخابرات المركزية والبنتاجون الدائم حول تحديد أماكن التجارب النووية السوفيتية ومدى اتساعها ، بحيث لم يتمكنا من تحديد ما اذا كان الاتحاد السوفيتى قد خرق أم لا اتفاقيات ١٩٧٥ للحد من هذه التجارب · وربما كان بامكانها أيضا أن تعرف لماذا كانت أرقام اجمالى الناتج القومى تتضخم بشدة فى وقت معين ثم يجرى تصحيحها فى اتجاه الانخفاض لاثبات أن الاقتصاد فى حالة تقترب من الركود ·

صحيح أن الأسباب فى كل هذه الحالات كانت فى أغلب الأحيان تقنية ولكنها حتما كانت ذات طابع سياسى أيضا · فحتى أكثر الأرقام موضوعية ظاهريا كان يتم دائما تعديلها تبعا للصراعات السياسية ·

ان مكتب التعداد والاحصاء يحرص أكثر من غيره من الجهات الرسمية على اعلان تعريفاته وطرقه الاحصائية ، بحيث يستطيع المستخدمون أن يكونوا أحكامهم الخاصة عن صحة النتائج · غير أن المتخصصين يعترفون بأن كل هذه التحفظات والملحوظات المدونة فى أسفل الصفحات يتم تجاهلها تماما فى واشنطن ·

وطبقا لأحد مسئولى هذا المكتب فان « رجال السياسة والصحافة يسخرون من كل ذلك ، لأن كل ما يريدونه هو الأرقام ! » ·

ثمة سببان رئيسيان لذلك · السبب الأول هو السذاجة · فبالرغم من كل ما تعلمناه فى الأجيال السابقة عن الطبيعة المشكوك فيها للبيانات المعالجة بواسطة الكمبيوتر « لا زال الكمبيوتر يعتبر الها لا يخطىء » · غير أن هناك سببا أعمق من ذلك ، وهو أن مخططى السياسة لا يبحثون عن « الحقيقة » العلمية ولا حتى عن الدقة البسيطة وانما عن ذخيرة لتغذية حروب المعلومات التى يقودونها · وليس من الضرورى أن تكون البيانات والمعلومات والمعرفة « صحيحة » أو « دقيقة » للاطاحة بخصم ما ·

خـــدعة قواعد البيانات :

تعتمد الدول بشـكل متزايد على قواعـد البيانات · وبينما كانت استراتيجية سنونو ، التى تلخصت ببساطة فى منع الوصول اليها ، مثالا لتكتيك المعلومات العادى ، فان التلاعب بقواعد البيانات يعد مثالا « للميتاتكتيك » أو التكتيك الأسمى ·

ان ممارسى التكتيك الأسمى لا يتحكمون فى سبل الوصول الى البيانات وانما يحددون ما ستتضمنه قواعد البيانات فى مؤسساتهم ·

فى الولايات المتحدة يتعين على الكونجرس أن يعتمد استمـارة الاستبيان التى يتم استخدامها فى اجراء التعداد السكانى كـل عشر سنوات · وفى ذلك يقول أحد المسئولين فى مكتب التعداد والاحصاء : « ان الكونجرس يمارس ضغوطا علينا · فعندما قررنا اجراء دراسة عـن تمويل الاستثمارات الزراعية طلب منا الكونجرس صراحة عدم جمـع هذه البيانات لأنها قد تستخدم لخفض الدعم الفيدرالى للمزارعين » · وكذلك تمارس الشركات الصناعية ضغوطا على مكتب التعداد والاحصاء اكى يوجه أسئلة معينة أو يتجنب توجيهها ، فعلى سـبيل المثـال تلقى المكتب طلبا من احدى الشركات العاملة فى مجال المساكن المتنقلة بأن يتضمن المسح الذى يقوم به سؤالا عن هذا النوع من المساكن وذلــك لتوفير بيانات كانت هذه الشركة فى حاجة اليها ، وبما أن عدد أسئلة الاستبيان محدود فان جماعات الضغط المختلفة تتصـــارع فيما بينهـا وتضغط على مكتب الاحصاء للفوز بما تريد ·

ولا يهم مدى معالجة البيانات بواسطـــة الكمبيوتر ولا مـــدى « موضوعيتها » فانها تجسد دائما قيم المجتمع وعلاقات السلطة فيه ·

واذا كانت السيطرة على ما تم ادخاله فى قواعد البيانات المتزايدة العدد تعد من أبسط أساليب التكتيكات الأسمى ، فان التحكم فى طريقـة تقسيم وتوزيع قواعد البيانات الى فئات مختلفة أصعب وأدق من ذلــك بكثير ·

وقبل عصر الكمبيوتر بوقت طويل ، عندما كانت ضخامة الاحتكارات فى مجال صناعة السيارات تثير قلق الحكومة الأمريكية ، كانت جنرال موتورز تستخدم تكتيكا بسيطا للغاية يتلخص في أن تقوم بتعيين ممثل

عنها فى تنظيم مغمور هو مجلس مستخدمى الاحصائيات الفيدرالية ، ومهمته هى ضمان أن يتم اعداد الاحصائيات الخاصة بصناعة السيارات بصورة اجمالية بحيث يتعذر نشر مكوناتها المتعددة كل على حدة • وبالتالى ، كانت درجة التركيز الاقتصادى تقدم فى شكل حصة الشركات الثلاث الكبرى فى صناعة السيارات وليس فى شكل ما تملكه جنرال موتورز ـ وهى أكبرها ـ بمفردها •

أما اليوم فتستخدم نظم شديدة التعقيد لترتيب وفهرسة وتصنيف البيانات التى تصب يوميا فى أجهزة الكمبيوتر • ويمكن بواسطة الاعلاماتية « تقطيع » أو اعادة ترتيب نفس البيانات فى تصنيفات مختلفة • ولذلك فان معارك سياسية ضارية تدور الآن حول مسائل تقنية مجردة ومبهمة بشكل متزايد •

ويتركز عدد من صراعات السلطة حول المؤشرات المستخدمة فى قواعد البيانات وحول الأهمية النسبية لكل منها • فاذا كان المطلوب هو معرفة عدد الملائكة القادرين على الرقص على رأس قنبلة ذرية ، فهل يتعين عد هالات النور أم عدد آلات الهارب ؟ ان أسرة المستشفيات ، وهى سهلة الاحصاء ، تعتبر أحيانا كمؤشر لمستوى الخدمات الصحية فى مجتمع ما • ولكن أليس الأجدر اعتبار عدد الأطباء لكل ألف نسمة مؤشرا لذلك ؟ وما الذى يكشفه كل من هذين المؤشرين عن المستوى الفعلى لصحة السكان ؟ ان عدد الأسرة يمكن أن يؤثر على برنامج الدعم الحكومى ، الذى يكافىء أو يعاقب المستشفيات طبقا لهذا العدد بدلا من أن يعتمد على الاحتياجات الحقيقية للمجتمع الذى تخدمه هذه المستشفيات •

ولتكوين صورة حقيقية عن الاحتياجات الصحية للسكان هل يتعين احصاء عدد المرضى أم أنواع الرعاية والعلاج المتاحة ؟ أم معدل الحياة ونسبة الوفيات بين الأطفال ؟

ان اختيار مؤشر ما أو عدة مؤشرات سيؤثر بشكل حاسم على النتيجة •

ان كل مستخدمى التكتيكات الأسمى يعرفون المبدأ القائل « ان ما تقيسه هو ما تحصل عليه » •

وغالبا ما يتصارع الخبراء والفرق الحكومية وجماعات الضغط وآخرون حول مثل هذه الأسئلة • ومع أن بعض المشاركين لا يحسنون

طرح الأسئلة الجوهرية أو فهم العلاقات والآثار الضمنية الخفية فان هناك مشاركين آخرين قادرين تماما على ذلك · ومن ثم فانهم يستفيدون لحماية مصالحهم التجارية أو السياسية · وان كانوا يتخفون وراء بطانة تكنولوجية متخصصة فان الصراعات تكون فى الغالب ذات طابع سياسى ·

ويدور أغلب هذه المناورات بمنأى عن أنظار الجمهور وعند مستوى أدنى بكثير من مستوى الوزراء ، الذين نادرا ما يكون لديهم الوقت أو الرغبة فى فهم مشكلات بهذا القدر من الالتواء · ونظرا لافتقار صناع القرار الى هذه العناصر والى التدريب المطلوب لاختراق حواجز الحقائق الفعلية والحقائق المختلقة بأنفسهم ، فانهم يضطرون الى تفويض هذه الأمور الى الاخصائيين الفنيين ·

ان معالجة عدد متزايد باطراد من المتغيرات والطفرة الهائلة فى قدرة معالجة البيانات تضع متخذى القرار أمام مشكلة فائض معلومات ضخم بدلا من مشكلة نقص معلومات ·

وينجم عن هذا الوضع الجديد أن يغدو تأويل وتفسير المعلومات أهم من مجرد جمعها ، اذ لا يوجد نقص فى البيانات (من مختلف النوعيات) ، وانما يندر فهمها · غير أن التركيز على التأويل والتفسير يفترض أيضا أن تتم هذه المرحلة عند مستويات أعلى فى التنظيم الهرمى للعمل الذهنى وهو ما يقلب علاقات السلطة بين الأخصائيين أنفسهم ، وينقل فى الوقت نفسه ملعب خبراء تكتيكات المعلومات الى مستوى أعلى ـ الى مستوى التكتيكات الأسمى ·

وتعتبر عمليات الرصد الأخيرة التى قامت بها الأقمار الصناعية لمراقبة تطبيق الاتفاق الأمريكى السوفيتى الخاص بتخفيض التسلح مثالا نموذجيا لذلك ، فأقمار الاستشعار عن بعد ، التى تستطيع رصد أشياء لا يزيد طولها عن عشرات السنتيمترات ، تصب طوفانا من المعلومات يغمر المحللين وينتهى باغراقهم · وطبقا لتوماس رونا ، مساعد مدير المكتب العلمى فى البيت الأبيض ، « فى الماضى كانت المشكلة تتركز فى استشعار والتقاط البيانات ، أما الآن فهى تتعلق بغربلتها وتنقيتها وتفسيرها » ·

وكما جاء فى مجلة « ساينس » فان حجم البيانات وحده كفيل « بارباك جيش من المحللين » ، وهو ما يولد ضغوطا من أجل الأخذ بالنظام الآلى فى بعض مهام التأويل والتفسير ·

ويقود ذلك بدوره الى الاعتماد على الذكاء الاصطناعى وعلى « أدوات هندسة المعرفة » · غير أن استخدامها يزيد من مستوى التجريد ويخفى الافتراضات الجوهرية تحت مزيد من طبقات الاستدلال ·

فطبقا لمجلة داتاميشن « تسعى الشركات لادخال القدرات الاستنتاجية للنظم الخبيرة » فى نظامها الاعلاماتى - وهى نظم قادرة على القيام بمهام متنوعة مثل : تشخيص الخلل فى أداء آلة معينة أو تحليل النفايات الكيماوية أو تقييم اشتراطات تطبيق عملية التأمين على الحياة ، ولقد دخل بالفعل فى أمريكا الشمالية أكثر من ٢٢٠٠ نظام خبير كما تنتشر هذه النظم أيضا فى الدوائر الحكومية ، فلقد استخدمها مكتب التحقيقات الفيدرالى بالفعل لرسم الصورة النمطية للقاتل السيكوباتى ·

ومعنى ذلك أن كل شيء يعتمد على قواعد معقدة وضعها خبراء عديدون ويقوم الكمبيوتر بوزنها ومنهجتها وادارتها لتقديم يد العون لمتخذى القرار · ويمكننا أن نتوقع انتشارا كبيرا لتكنولوجيات مماثلة فى قلب الدوائر الحكومية وفى الحياة السياسية ذاتها حيث يتم اتخاذ القرارات ، غالبا ، على أساس كم ضخم وغير دقيق ومبهم من البيانات والصور والأفكار ، والتى ترتبط فى أغلب الأحيان بالتكلفة · بل وقد تتخذ القرارات أحيانا على أساس خدع حقيقية لا هدف لها سوى تضليل السلطة ·

غير أن هذه الأدوات تعنى أن المنطق الذى تعتمد عليه القرارات سيكون « مطموراً » بشكل متزايد ، بحيث يمكن القول بأنه سيغدو غير مرئى · ومن المفارقات أن النظام المسئول عن توضيح المعلومات يفقد تدريجيا شفافيته بالنسبة لأغلب مستخدميه النهائيين ·

ولكن ذلك لا يبرر تجنب استخدام الذكاء الاصطناعى والنظم الخبيرة وانما يشير الى عملية لها عواقبها المهمة بالنسبة للديمقراطية ·

منذ الماضى البعيد وحتى الآن لم يكن للسياسة « عصر ذهبى » كانت فيه نقية طاهرة الذيل ، فمن عصر أسرة الشانج الحاكمة فى الصين الى زمن أسرة البورجيا فى ايطاليا دأب من بيدهم السلطة على التلاعب بالحقيقة لخدمة مصلحتهم · الا أن ما يتغير حاليا وبشكل مذهل هو المستوى الذى تدور عنده هذه الألعاب الذهنية ·

وفى العقود القادمة سيواجه العالم مشكلات جديدة مثل احتمالات حدوث كارثة بيئية عالمية وانهيار توازنات عسكرية راسخة واضطرابات

إقتصادية وثورات تكنولوجية · ويتطلب كل ذلك عملا سياسيا ذكيا قائما على فهم جلى وواضح للأخطار والامكانات ·

ولكن ما هى درجة دقة صور الواقع التى تبنى عليها الحكومات قراراتها المصيرية ؟ وكيف يمكنها أن تكون دقيقة بينما كل البيانات والمعلومات والمعرفة التى تقوم عليها عرضة لعمليات متكررة وخفية من « التلاعب الأسمى » ؟ ·

السكان الأشباح :

فى ربيع عام ١٩٨٩ عندما كان الدكتور جيمس هانسن ، مدير معهد جودار للدراسات الفضائية التابع للناسا ، يستعد لتقديم تقرير للكونجرس عن « تأثير الصوبة » (تأثير البيت الزجاجى) ، عرض مشروعه أولا على مكتب الادارة والميزانية فى البيت الأبيض · وكان هانسن يعتقد أن الوقت قد حان لكى تتخذ الحكومة الأمريكية اجراءات واسعة النطاق لتفادى الجفاف والعواقب الوخيمة الأخرى لزيادة حرارة المناخ ·

ولكن عندما أعادوا له نص التقرير لاحظ أن البيت الأبيض أضاف فقرة تزرع الشك فى الأدلة العلمية المذكورة وتخفف بشكل واضح من موقفه المتشدد تجاه هذه المشكلة · فأعرب عن احتجاجه على هذا التصرف، غير أنه كان قد خسر المعركة الداخلية ولذلك أعلن وجهات نظره عبر الصحافة ·

وراء هذا النوع من الصراع بين الادارة وواحد من أكبر الخبراء الحكوميين تختفى معركة بيروقراطية غير ملحوظة فى أغلب الأحيان · فوزارة الخارجية الأمريكية والوكالة القومية لحماية البيئة كانتا تريدان أن تتقدم الولايات المتحدة معركة مكافحة تأثير الصوبة ، بينما كان مكتب الادارة والميزانية وكذلك وزارة الطاقة يحاولان كبح هذه المبادرة ·

وعندما قدم هانسن تقريره للصحافة طلب السناتور آل جور من مكتب الادارة والميزانية « تقديم الأسس التى بنى عليها استنتاجاته [···] أريد أن أعرف النموذج المناخى الذى تم استخدامه فى هذا الشأن » · ويعتبر آل جور واحداً من القلة النادرة من أعضاء الكونجرس التى تتمتع بثقافة تكنولوجية عالية ·

هذا الارجاع الى « النماذج » يثبت أن الصراع يدور عند مستوى التكتيكات الأسمى لأن المزيد من البرامج الحكومية تعتمد على افتراضات وافتراضات فرعية مطمورة داخل نماذج اعلاماتية معقدة ·

وهكذا ، فبينما كان السناتور جور يتساءل عن النماذج التى استخدمها فريق المعتدلين كان سنونو فى البيت الأبيض يفند مصداقية النماذج التى استند اليها الفريق الآخر · وكتبت مجلة « انسايت » تقول عن سنونو : « انه ملم بأحدث المعلومات العلمية ، لذا فهو يعتقد أن النماذج الاعلاماتية التى تتنبأ بحدوث ارتفاع واضح فى حرارة الطقس مختصرة جدا بحيث لا تصلح كقاعدة لأى اجراء أو عمل » ·

وحاليا ، نجد فى كل مكان النماذج الاعلاماتية والنماذج المضادة وراء كل قضية سياسية مهمة ، سواء أكانت تتعلق بالاقتصاد أم بتكاليف الرعاية الصحية أم بالأسلحة الاستراتيجية أم بعجز الموازنة أم النفايات السامة أم السياسة الضريبية ، وهو ما يوفر المادة الأولية للخلافات السياسية ·

يستطيع نموذج منهجى معين ان يساعدنا على تصور ظواهر معقدة ، وهو يتكون من قائمة من المتغيرات ، يمنح لكل منها معاملا محسوبا تبعا لمدلولها المفترض · وبفضل أجهزة الكمبيوتر ، من الممكن بناء نماذج تعتمد على عدد من المتغيرات أكبر مما يستطيع الذكاء الآدمى وحده معالجتها · كما أنها تسمح أيضا بتوقع ما سيحدث اذا منحت المتغيرات معاملا مختلفا أو اذا تم توليفها بطريقة جديدة ·

ولكن فى نهاية المطاف ، أيا كانت « الصلابة » الظاهرية للنتيجة النهائية فان كل النماذج تعتمد وبشكل يتعذر اصلاحه على افتراضات « هشة » · بالاضافة الى أن الوزن الممنوح لمتغير ما غالبا ما يكون « هشا » أيضا اذ يتم تحديده بشكل حدسى بل وتعسفى تماما ·

وبالتالى ،سيتقاتل قادة أى صراع سياسى من ذوى المهارة فى التكتيكات الأسمى حول المتغيرات ومعاملاتها وطريقة ربطها ببعضها ، وبالرغم من الضغوط السياسية التى قد تجعل محصلة الصراع تنحاز لجهة أو لأخرى ، فان نتائج مثل هذه الصراعات يتم غالبا تركيزها فى شكل قوائم معلومات مدهشة تمت معالجتها بالكمبيوتر وتبدو ظاهريا محايدة وموضوعية ·

وتستخدم النماذج فى اختيار وتنفيذ السياسات وفى تقييم فاعلية برنامج ما أو فى التساؤل « عما يحدث اذا ٠٠٠٠ ؟ » غير أن دراسة حكومية حديثة عن النماذج بعنوان «حروب البيانات » (Data Warss) توضح أنه يمكن استخدام النماذج أيضا « للتعتيم على مشكلة أو لتبرير موقف سابق [٠٠٠] أو تأخير اتخاذ قرار أو لاعطاء هذه المسألة أو تلك اهتماما رمزيا أكثر منه حقيقيا أو لتعقيد ومنع عملية اتخاذ القرار » ٠٠٠ الخ ٠

وينتهى مؤلفو هذه الدراسة الى أن « النماذج تلبى بنفس القدر احتياجات سياسية وأيديولوجية كما تلبى ضرورات تقنية (لاتخاذ قرارات مادية) » ، كما أنهم يعترفون بأنه أمر لا مفر منه لأن « النماذج الاعلاماتية تحدد فى الواقع « من سيحصل على ماذا » ٠

فلقد كشفت مثلا دراسة أجرتها ادارة البحوث التابعة للكونجرس الأمريكى أن التخفيضات التى أجريت فى ميزانية برامج الرعاية الاجتماعية فى الثمانينيات حولت ٥٥٧ ألف أمريكى على الأقل الى فقراء ، وهو رقم اذا عرف فى حينه لأمد المعارضة بأسلحة فعالة ٠ الا أن هذا الرقم لا يعتمد على احصاء لعدد الفقراء وانما كان تصحيحا لاحصائيات أخرى معتمدة على نماذج تحاول التنبؤ بما كان يمكن أن يحدث اذا لم يتم اجراء هذه الاستقطاعات فى ميزانية الرعاية الاجتماعية ٠

وفى نوفمبر ١٩٨٨ أقامت مدن نيويورك وهيوستن وشيكاغو ولوس انجلوس دعوى قضائية ضد مكتب التعداد والاحصاء لارغامه على تعديل طرقه فى العمل ٠ وكان يساند هذه الدعوى جمعيات الدفاع عن الحقوق المدنية واتحاد العمد ومنظمات أخرى عديدة ٠

ففى جميع عمليات التعداد يتم تقدير بعض الجماعات بأقل من حقيقتها ٠ اذ يصعب مثلا الوصول الى الفقراء والمقيمين المؤقتين ومن هم بلا مأوى ٠ كما قد لا يرغب الأجانب غير المسجلين فى أن يشملهم الاحصاء ٠ وأيا كانت الأسباب فان هذا التقدير غير الدقيق قد تكون له عواقب سياسية وخيمة ٠

وبما أن واشنطن توزع على المحليات والولايات جزءاً كبيراً من ايرادات الضرائب فان بعض المدن قد تحرم من تلك الأموال الفيدرالية التى كان من حقها الانتفاع بها نتيجة لسوء التقدير ٠ ولما كان تخصيص

مقاعد مجلس النواب يتم وفقا لعدد السكان فان الولايات التى يقدر عدد سكانها بأقل من عددهم الفعلى قد تحرم من حقها فى التمثيل الكامل ، مما يؤدى الى ضياع مكاسب أخرى عليها · ومن ثم فقد تساهم المعلومات غير الوافية فى انتقال السلطة السياسية ·

ولتعويض عملية سوء التقدير تلك فان أجهزة كمبيوتر مكتب التعداد والاحصاء عندما تتعامل مع منزل لا تتوفر لديها أية معلومات عنه تفترض أن صفات وخواص شاغليه تتطابق وخواص وصفات من يعيشون فى الجوار وذلك باستخدام أسلوب التقدير الاستقرائى · وعندئذ تقوم أجهزة الكمبيوتر باستكمال البيانات الناقصة « بدلا » من الأشخاص الغائبين ·

والنتيجة هى أن ملايين الأشخاص الموجودين افتراضا هم فى الواقع سكان أشباح لا نعرف صفاتهم أو خصائصهم الا تكهنا · غير أن هذه التقديرات والحسابات بمساعدة الكمبيوتر قد تمثل تصحيحا أفضل من الأساليب الاحصائية التى كانت تستخدم فى السابق · ولكن كما يحدث دائما عند استخدام مثل هذه التقنيات فانها تفتح باب المجادلة والخلاف · فعلى أساس هذه الافتراضات خسر ناخبو ولاية أنديانا مقعدا فى الكونجرس اذ خصص هذا المقعد لولاية فلوريدا · وبذلك تكون التقديرات والحسابات بمساعدة الكمبيوتر قد عدلت بالفعل السلطة السياسية ·

باختصار ، نحن نشهد تطور نوع جديد من الصراع السياسى · حيث سيدور الصراع حول افتراضات قائمة هى نفسها على افتراضات أخرى مستندة بدورها على فروض مخبأة فى برامج اعلاماتية معقدة · ان هذا النزاع حول « الأسئلة الأسمى » يجسد الأهمية المتنامية للاقتصاد فائق الرمزية · فهذا الاقتصاد الجديد لن يستطيع أن يعمل اطلاقا بدون لمسة البشر وخيالهم وحدسهم أو محروما من كل أشكال الوعى والادراك والتمييز أو من أية صفات أخرى ننسبها طواعية للبشر وليس للآلات · غير أن الاقتصاد الجديد يتطلب فى الوقت نفسه معارف متزايدة التعقيد والتجريد قائمة على وابل متصل من البيانات والمعلومات وجميعها عرضة للتلاعب السياسى المطرد المهارة ·

ان هذه الالمامة بتكتيكات المعلومات خاصة التكتيكات الأسمى الجديدة تبين لنا جيداً أن القوانين التى تحد من سبل الوصول الى أسرار الدولة لا تخدش سوى القشرة الخارجية لمشكلة المعرفة

الديمقراطية · أن الاقتصاد الجديد يتطلب ، بطبيعته ذاتها ، تبادلا حرا للأفكار والنظريات المبتكرة كما يتطلب اعادة طرح مسألة السلطة · ومع ذلك ·····

فبالرغم من الجلاسنوست ومن القوانين الخاصة «بحرية الصحافة» ومن عمليات تسريب المعلومات والصعوبة التى تجدها الحكومات اليوم فى الحفاظ على سرية الأمور ، وبالرغم من أسباب أخرى كثيرة ، فـان حقيقة تصرفات من يمسكون فى أيديهم بمقـاليد السـلطة سـتزداد اعتماما بشكل متزايد بدلا من أن تزداد شفافية ·

وبذلك نصل الى « السر الأسمى » للسلطة ·

الفصل الرابع والعشرون

سوق للجواسيس

ذات يوم تخيل آرت بوتشوالد ، وهو من أكثر الكتاب الهزليين الأمريكيين ظرفا ، اجتماعا للجواسيس فى مقهى موتسارت ببرلين الشرقية ضم جورج سميلى شخصية جون لوكاريه الشهيرة · وجعله بوشوالد يتساءل : « هل يعرف أحدكم من يريد شراء خطط الدفاع عن الممر الشمالى لحلف وارسو ؟ » ·

فرد أحدهم قائلا : « دعك من ذلك يا سميلى ، لم يعد هناك هواة للأسرار العسكرية · لقد انتهت الحرب الباردة وخطط حلف وارسو لم تعد تشترى لأن موسكو تقوم بتوزيعها » ·

كان ما كتبه بوتشوالد مسليا كالعادة · غير أن الجواسيس الحقيقيين ـ لا جواسيس الروايات ـ قهقهوا أكثر من غيرهم بالطبع · لأن التجسس سيكون من أكثر المجالات التى ستشهد « ازدهاراً » خلال العقود القادمة · فمستقبل الجواسيس ليس مضمونا فحسب بل سيشهد نشاطهم تغييراً ثوريا أيضا ·

فبينما يتبدل المجتمع كله ليتكيف مع النظام الجديد لخق الثروة القائم على المعرفة ، ستتشعب وتنتشر الوظائف المعلوماتية للحكومات وتكتسب بعض أنواع المعرفة المختلسة والمعرفة السرية قيمة أكبر بالنسبة لمن يحتاجونها ·

وسيحدث هذا التغيير بدوره انقلابا فى الأفكار السائدة عن الديمقراطية والمعلومات ، لأننا حتى لو نحينا جانبا العميل السرى والمراقبة الداخلية لنركز اهتمامنا على عمل الاستخبار « البحت » ـ أى

تجميع المعلومات الأجنبية وتفسيرها ــ سنرى ظهور نظام يتجاوز كل ما عرفناه حتى الآن فى مجال التجسس ٠

ولكى نقتنع بذلك يكفى القاء نظرة سريعة الى الوراء ٠

الفراشـــات والقنابل :

يزاول الجواسيس نشاطهم على الأقل منذ أن عرف « كتاب الموتى » المصرى القديم التجسس بأنه خطيئة تعرض الروح للهلاك ٠ ولكن منذ عهد الفراعنة وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ظلت التكنولوجيـــات المتاحة فى هذا المجال بدائية ٠ وكما كان العلماء قديما ، ظل الجواسيس حتى وقت قريب ولدرجة كبيرة هواة يفتقدون التدريب ٠

ففى السـنوات الأولى من هذا القرن تجـول روبرت بادن باول ــ الذى أسس بعد ذلك الحركة الكشفية ــ عبر بلاد البلقان لرفع وتسجيل تحصيناتها تحت ستار صياد فراشات مخبول ٠ وأخفى رسومات هذه التحصينات فى رسم معقد لأجنحة الفراشات ٠ (كان بادن باول يعتقـد أن الهاوى المتحمس الممارس للتجسس كنـوع من الرياضة هو القـادر على تحقيق أفضل النتائج) ٠

ومثال آخر لجاسوس عصامى ، بمعنى أنه علم نفسه بنفسه ، هو النقيب اليابانى جئيشى تاناكا ٠ فبعد أن عمل فى موسكو مع الملحـق العسكرى اليابانى هناك وتعلم اللغـة الروسية وأعلن انضـمامه للكنيسة الأرثوذوكسية ، عاد بهدوء الى طوكيو عن طريق البر فى رحلة استغرقت شهرين ، حتى يتسنى له التعرف على خطوط السكك الحديدية العابرة لسيبريا ولشرق الصين ٠ وعاد الى بلاده بمعلومات نفيســة استعداداً للحرب الروسية اليابانية فى عام ١٩٠٥ ٠ وحتى الآن لازال أغلب أدب الجاسوسية يروى الأعمال البطولية لأشخاص شجعان ممن يســعون وراء الأسرار العسكرية ٠

غير أن الثورة الصناعية بدلت وغيرت الحرب ٠ فان تعميم التجنيد وميكنة وسائل النقل والمدافع الرشاشة وانتاج الدبابات والطــائرات بالجملة ومفهوم الحرب الشاملة كانت كلها من نواتج الموجة الثـانية أو العصر الصنعى ٠ لقد ازدادت طاقة التدمير بالتوازى مع قدرة الانتاج بالجملة وبلغت نقطة اللا عودة مع التهديد النووى المتبادل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ٠

وتلا تطبيق الوسائل الصناعية على الحرب تطبيقها على الاستخبار ٠ ففى بداية القرن أصبحت الجاسوسية الروسية أكثر منهجية وأكثر تنظيما وبيروقراطية مع جهاز الاستخبار القيصرى الرهيب « الأوخرانا » الذى يعتبر بمثابة الجد الأكبر لجهاز الـ (كيه٠ جى٠ بى)٠ وأقيمت مدارس للجاسوسية وبدأ الجواسيس فى تلقى تدريب كمحترفين٠

غير أن حفنة من الجواسيس حتى وان كانت مدربة لا يمكنها تلبية الطلب المتزايد على المعلومات الاستخبارية ٠ وكما حدث فى المصانع ، حيث احتلت خطوط الانتاج الصدارة مقارنة بالبشر العاملين عليها ، تركز البحث لبلوغ شكل من أشكال الانتاج بالجملة فى مجال الجاسوسية ٠

فى مطلع القرن العشرين كان لدى اليابانيين الى جانب بعض الجواسيس المتفرغين مثل تاناكا جيش كامل من المهاجرين المقيمين فى الصين وسيبيريا ــ طهاة وخدم وعمال صناعيون ــ كانوا يتجسسون على البلاد المقيمين بها ٠ وطبقا للنموذج الصناعى استخدمت الاستخبارات اليابانية أيدى عاملة من الجواسيس غير المهرة لانتاج معلومات بالجملة ، يتم تقديمها بعد ذلك الى بيروقراطية متزايدة العدد « لمعالجتها » ٠

وفى عام ١٩١٧ ، بعد الثورة الروسية طرح لينين فكرة « صحفى الشعب » ، وهم آلاف العمال البسطاء الذين كان يتم تشجيعهم على الكتابة الى الصحف لكشف الخونة والمخربين ، المفترض أنهم مناهضون للثورة ٠ وطبقت فكرة المحررين الهواة تلك فى عمل الاستخبارات الخارجية ٠ وبحلول عام ١٩٢٩ بلغ عدد « صحفيى الشعب » حوالى ثلاثة آلاف فى فرنسا وحدها ٠ وكان من بينهم من يعمل فى الترسانات البحرية ومصانع الأسلحة ٠ وكان يطلب منهم الكتابة الى الصحافة الشيوعية للكشف عن ظروف عملهم المتردية ٠ غير أن هذه الاسهامات كانت تقدم معلومات مفيدة عن الانتاج الحربى وكان لا يتم نشر الخطابات التى تكشف الكثير من الأسرار وانما ترسل مباشرة الى موسكو ٠ ولقد كان ذلك محاولة أخرى لجمع استخبارات بالجملة ذات أهمية من الدرجة الثانية عن طريق الهواة ٠

أما التجسس ذو المستوى الرفيع فكان يوكل الى محترفين تم تدريبهم بعناية ، مثل ريتشارد سورج الذى ولد فى باكو ونشأ فى برلين ثم أصبح أحد ألمع العملاء السوفيت فى التاريخ ٠ بفضل طفولته الألمانية

انضم سورج للحزب النــازى ، وعمل لكى يتم أرســاله كمراسل لصحيفة « فرانكفورتر زايتنج » فى اليــابان ، وهنـــاك نجـــح فى كسب ثقـــة الدبلوماسيين وكبار المسئولين الألمان واليابانيين وذلك باعلان ولائـــه الشديد لهتلر ٠

وكان السوفيت فى ذلك الوقت مرعوبين من فكرة أن يقوم اليابانيون بشن هجوم خاطف على سيبيريا ٠ ونظــرا لدراية ســورج التامة بخبايا الأمور ، فقد أخبــرهم أن ذلك لن يحدث قط ٠ ولــكن بالمقــابل سيتعرض الاتحاد السوفيتى لهجوم من قبل ألمانيا ٠ وفى عام ١٩٤١ حذر سورج موسكو من أن ١٥٠ فرقة ألمانية يعاد تجميعها استعدادا للغزو ٠ بل انه حدد تاريخ الهجوم وهو ٢٢ يونية ، الا أن ستالين تجاهل معلوماته ٠

وكان سورج على وشك تبليغ موسكو بالهجوم اليابانى على ميناء بيرل هاربر ــ محددا هذه المرة أيضا الموعد الصحيح للهجوم ــ عندما ألقى القبض عليه ، ثم أعــدم بعد ذلك على ايدى اليابانيين ٠ وقد وصف الجنرال دوجلاس مكارثر سورج فيما بعد بأنه « مثال واضح للنجــاح الباهر فى مجــال الجاسوسية » ٠

لقد أكدت حياة سورج العملية على قيم الشجاعة والمبادرة الفردية٠ غير أن الحرب العالمية الثانية شهدت أيضا طفرات رائعـــة فى جميع الميادين ، ابتداء من أدوات التشفير وفك الشفرة الى أجهزة الاستطلاع الجوى واللاسلكى والرادار ٠ ولقد أدت هذه التكنولوجيات الى الانتاج الكمى الحقيقى للمعلومات الاستخبارية التى يرقى بعضها هذه المرة الى مستوى رفيع حقا ٠

سيارات الكرملين الليموزين :

منذ ذلك الحين ، امتلأت السماء ، نتيجة للتقدم التقنى ، بعيون وآذان تسجل آليا كما هائلا من البيانات ، فالأقمار الصناعية والأجهزة البصرية فائقة التطور وغيرها من معدات الرصد والتصوير تراقب بشكل مستمر كوكب الأرض ٠ كما تغطى أجهزة الرصد السمعية الطرق البحرية الاستراتيجية ٠ وتنتشر محطات التنصت والرادار العمــلاقة والعــديد من الأجهزة الألكترونية الأخرى على امتداد الكرة الأرضية من استراليا الى النرويج ٠

ويشمل الاستخبار التكنولوجي الاستخبار بالاشارات ، الذى يتضمن بدوره الاتصالات والإلكترونيات والقياس عن بعد ، والاستخبار بالرادارات التى تلتقط الاشارات المرسلة الى أجهزة الرادار أو منها . و « الاستخبار بواسطة الصور » أى باستخدام التصوير الفوتوغرافى وأدوات الرصد بواسطة الأشعة تحت الحمراء .. الخ . وتستخدم كل هذه النظم أكبر وحدات الكمبيوتر فى العالم . ولقد بلغ من اتساع نطاق استخدامها وقيمتها وقوتها أنها دفعت بالاستخبار بواسطة البشر الى مرتبة أدنى .

ويشير وليم باروز – وهو صاحب دراسة عن التجسس الفضائى – الى هذه الأجهزة ذات التكنولوجيا المتطورة قائلا : « ان نظم الاستشعار عن بعد التى يراقب بها كل معسكر المعسكر الآخر وكذلك معظم باقي أنحاء العالم ، عديدة ومتنوعة وغزيرة بحيث لا يمكن حدوث أى استعداد لهجوم شامل دون أن تنطلق صفارات انذار متعددة [...] . فلكى تتم تعبئة القوات ولكى تقلع الطائرات ولكى يختبىء المدنيون يتعين اصدار الأوامر وبثها بسرعة كبيرة على امتداد مسافات طويلة ، وما يتم بثه وارساله يمكن اعتراضه والتقاطه . كما يتعين تحريك كل ما يلزم لبدء عماية هجومية وما يتحرك يمكن تصويره » .

ان أجهزة المراقبة التى تملأ السماء تستطيع التقاط كل الرسائل العسكرية والدبلوماسية والتجارية التى يتم ارسالها بواسطة الهاتف والتلكس واللاسلكي أو أجهزة الكتابة عن بعد أو غيرها من وسائل البث عبر الأقمار أو نظم الموجات الميكروية . لقد تم مثلا التقاط أحاديث هاتفية بين كبار مسئولى الكرملين ، وهم داخل سياراتهم الليموزين ، وعلماء صينيين فى موقع التجارب النووية فى لوب نور . (وبعد هذه الحادثة كف الصينيون عن استخدام الاتصالات المبثوثة عبر الأثير وأقاموا خطوطا أرضية أكثر أمانا) .

غير أن هناك حدوداً لكل ذلك . فالولايات المتحدة التي تتفاخر بما لديها من وسائل « التجسس الفضائى » اضطرت أن تخفف من غلوائها عندما اكتشفت أن السوفييت نقلوا سراً الي المانيا الشرقية ٢٤ صاروخا من طراز (SS-23) من بين الـ ٢٣٩ صاروخا التى كان من المفترض أن يدمروها . وثمة حالات فشل أخرى ، فنظراً للتقدم الذى تم احرازه فى مجال التشفير بفضل أجهزة الكمبيوتر لم يعد من السهل إختراق عدد متزايد من الشفرات . كما تظل الظروف المناخية عائقا بالنسبة للتصوير الاستطلاعي . كذلك يمكن أن يستخدم العدو وسائل الكترونية مضادة

لمنع استقبال المعلومات المنتظرة أو تشويشها · غير أن الجمع المكثف وشبه الصناعى للبيانات أصبح حقيقة لا يمكن انكارها ·

ولا تقتصر مصادر الاستخبار ـ بطبيعة الحال ـ على العملاء التقليديين أو التكنولوجيا المتطورة ، بل ان قدرا كبيرا من المعلومات الاستخبارية ترد من مصادر « مفتوحة » فى متناول الجميع مثل الصحف والبث الاذاعى والاحصائيات الرسمية والمؤتمرات العلمية والتجارية : وتمثل هذه المعلومات ، بعد أن تضاف اليها المعلومات السرية ، المواد الأولية لمصنع الاستخبار ·

ولمعالجة كل هذه البيانات نشأت وتطورت بيروقراطية ضخمة تطبق مبدأ تقسيم العمل وتجزئة الانتاج الى سلسلة متوالية من المراحل، كما فى المصانع · تبدأ العملية بتحديد احتياجات الجهة الراغبة فى الحصول على المعلومات الاستخبارية ، ثم بمجرد أن يتم تجميع المادة الأولية الواردة من المصادر السرية والمفتوحة ، على حد سواء ، تبدأ عملية الترجمة وفك الشفرة وعمليات التحضير الأخرى التى تليها عمليات التحليل والتغليف فى شكل تقارير موجهة الى طالبى المعلومات الاستخبارية ·

ويدرك العديد من الشركات الآن أن هذا النمط من الانتاج المتسلسل لم يعد مناسبا · وكما رأينا فى الاقتصاد الجديد يتم استبعاد بعض المراحل أو اجراؤها بشكل متزامن · كما بات التنظيم البيروقراطى بطيئا وثقيلا فى حين تتبدل الأسواق سريعا ، ويترك الانتاج بالجملة مكانه « للانتاج المرن » ولمزيد من المنتجات ذات المواصفات المحددة من قبل المستهلك · ولقد نجم عن ذلك تعرض كثير من الصناعات الى أزمة خطيرة ·

وبالمثل يمر نشاط التجسس هو أيضا بفترة من الأزمات · فلقد أثبتت التكنولوجيات الجديدة المستخدمة فى جمع المعلومات كفاءة وفاعلية عالية ، فهى تقدم كما ضخما من الصور بواسطة الكمبيوتر وتسجل عددا هائلا من المكالمات الهاتفية وتغرق أجهزة الاستخبار بطوفان من المعلومات بحيث يصبح مستحيلا معالجتها بكفاءة ، ان فيض المعلومات يحدث وبشكل متزايد « شللا فى التحليل » ·

وبدأ يتضح أن عمليات العثور على المعلومة الجيدة وتحليلها بشكل سليم وارسالها فى الوقت المطلوب للزبون المناسب أصعب من عملية جمع المعلومات ذاتها ·

وبالتالى ، فبينما ينتقل العالم الى نظام جديد للانتاج مؤهل ليحل محل النظام المصنعى تواجه عمليات الاستخبار أزمة اعادة هيكلة موازية لأزمة اعادة الهيكلة التى يمر بها الاقتصاد ذاته ٠

المنافسون الرئيسيون :

ان اعتبار الجاسوسية نشاطا انتاجيا ضخما يسهل ادراك الأمور٠ وعلى أية حال قد يفسر ذلك اطلاق اسم « الشركة » على وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (سى ٠ آى ٠ ايه) ٠

وكما فى مجال الصناعة يوجد فى مجال التجسس بعض الشركات العملاقة وكثير من الشركات الصغيرة ٠ ويحتل المنتجون الأمريكيون مكانة متفوقة فى الصناعة العالمية للتجسس ، فالى جانب الـ (سى ٠ آى ٠ ايه) توجد وكالة الاستخبارات الدفاعية التابعة للبنتاجون وخاصة وكالة الأمن القومى (NSA) ومكتب الاستطلاع القومى وتتولى هذه المنظمات الأربع جمع أغلب بيانات الاستخبار التكنولوجى ٠ وفضلا عن ذلك فان قيادات الجيش المختلفة لديها وحدات استخبار متخصصة وكذلك الدوائر الحكومية خاصة وزارات الخارجية والطاقة والمالية والتجارة ، وان كانت أجهزة استخباراتها أقل شهرة ، وهى تستخدم غالبا عملاء معارين لها من ال (سى٠ آى٠ ايه) ٠ ويمثل كل ذلك « جماعة الاستخبارات » الأمريكية ٠

أما السوفيت فيعتمدون فى تجميع المعلومات عن الخارج على جزء من جهاز أمن الدولة المعروف بال (كيه٠ جى٠ بى) (الجزء الآخر له مهام داخلية) وعلى جهاز آخر يعرف اختصارا بـ (GRU) وهو المتخصص فى التجسس العسكرى والتكنولوجى ٠ كما يملك السوفيت بالاضافة الى ذلك نظاما واسعا من الأقمار الصناعية والمحطات الأرضية والرادارات العملاقة وطائرات الاستطلاع وأجهزة أخرى تسمح لهم برصد الاتصالات الدولية ومراقبة الأنشطة النووية على امتداد الكرة الأرضية ٠

ويعتمد البريطانيون ، المشهورون بمهاراتهم التحليلية الممتازة وبعدد العملاء السوفيت الذين نجحوا فى التسلل الى أجهزة استخباراتهم ، على جهازهم السرى المعروف اختصارا بالـ (M 16) وكذلك على جهاز يناظر وكالة الأمن القومى الأمريكية ، هو مركز قيادة الاتصالات الحكومية (GCHQ).

والمقابل الفرنسي للـ (سي ٠ أي ٠ ايه) هو الـ (DGSE)

وشهرته « البيسين » أى « حمام السباحة » ويكمل عمله جهاز آخر هو تجمع المراقبات الكهـــرولاسلكية أو الـ (GCR) ويتمتع « البيسين » ، الذى كثيراً ما يكون على خلاف مع الأجهزة الغربية الأخرى ، بتأثيــر ومكانة متزايدة ، بالرغم من أدائه التعيس فى قضية « جرين بيس » التى تم خـلالها اغراق سفينة رينبـو وورير التابعـة لجمـاعة « الســلام الأخضر » المناهضة للتجارب النووية ٠

ومن الجهات المهمة لانتاج المعلومات الاستخبارية جهـاز الموساد الاسرائيلى الذى يسمى غالبا « المعهد » ، وجهاز المخابرات الألمانى الغربى بالاضافة الى أجهزة الاستخبار الرئيسية اليابانيـــة وهى أولا مكتب أبحاث مجلس الوزراء المعروف باسم « نايتشو » وهو تنظيم صغيـر يتبع رئيس الوزراء مباشرة ويقوم بتجميع المعلومات الواردة من أجهزة الاستخبار العسكرية ومن المنظمات الخاصة ومن وسائل الاعـــلام مثل وكالة كيودو للأنباء أو جيجى برس ٠ وجهاز جوتشا بيشيتسو الذى يهتم بالاستطلاع الالكترونى الجوى مستهدفا بشكل خاص كوريا الشمالية والصين والاتحاد السوفيتى ٠ (فى عام ١٩٨٦ ـ أى بعد ٨٤ عاما من رحلة الجاسوس اليابانى جئيش تاناكا ـ اكتشف الســـوفيت صـندوقا يابانيا غريبا على الخط العابر لسيبيريا ، لقـد حل التجسس التكنولوجى محل التجسس البشرى !) ٠

باختصار كل الدول تقريبا لديها نوع ما من الأجهزة المسئولة عن جمع المعلومات عما يدور خارج حدودها ٠ بالاضافة الى ذلك فان بعض المؤسسات غير الحـــكومية ـ بدءا من الشركات البترولية الكبـرى الى الفاتيكان ـ تمارس هى أيضا نشـــاطا استخباريا ضخما ٠ ان هـــذه المنظمــات تمثل فى مجملها احدى أهم صناعات « الخدمات » فى العالم ٠

مقايضة الأسرار :

كل هذه « الشركات » جزء لا يتجزأ من سوق واســعة للاستخبار ٠ فكما يقضى الاقتصاد الصناعى ببيع السلع أو الخدمات للمســتهلكين فانه يقضى بأن تتبادلها الشركات فيما بينها ٠

وقياسا على ذلك فان الجواسيس يتاجرون فيما بينهم منذ زمـن طويل ٠

ففى منعطف القرن قام الجاسوس البريطانى ادوارد جليتشن برفع وتسجيل التحصينات المغربية وساعده السكان المحليون فى ذلك أحيــانا

حيث أعانوه على حد قوله فى « التقاط الزوايا والانحدارات » ٠ وقد تم نقل هذه المعلومات فيما بعد الى الفرنسيين الذين كانوا منهمكين فى « اخضاع أهل البلاد » ٠ ولم يعرف ما حصل عليه البريطـــانيون فى المقابل ٠ غير أن هذا الشكل من المقايضة ـ كما كان سيسميهـــا آدم سميث ـ ليس شائعا فحسب فى الخفـــاء بل انه يشـــهد ازدهـــارا غيــر مسبوق ٠

وكما تفعل الشركات متعددة الجنسيات فان وكالات الجاسوسية تكون تحالفات واتحادات فيما بينها٠ فمنذ عام ١٩٤٧ ربطت معاهــدة سرية ـ اتفاقية أوكوسا الأمنية ـ بين وكالة الأمن القومى الأمريكيـــة ونظيراتها البريطانية (GCHQ) والكندية والأسترالية والنيوزيلندية ٠ وانضمت بعد ذلك منظمة الناتو الى هذه الاتفاقية ٠ (غير أنه تم اســتبعاد نيوزيلاندا فى عام ١٩٨٦ من اتفاقية تبــادل المعلومات لأنها منعت دخول السفن الأمريكية المزودة بالأسلحة النووية الى موانيها) ٠ وتتســـم علاقات أعضاء مثل هذا النوع من الاتحادات والتجمعات بالتوتر ، اذ تختلط فيها المعلومات الاستخبارية الصـــحيحة بالمزيفة كما يتم تبـــادل الاتهامات بتسريب الأسرار أو بالسماح للأعداء باختراق هذه التنظيمات أو بالاحتفاظ ببعض المعلومات وحجبها عن الآخرين

وثانى أكبر كونسورتيوم عالمى للاستخبار هو الذى تقوده موسكو ويضم أغلب دول أوروبا الشرقية بالاضافة الى كوبا وفيتنام ٠ وهو تجمع استمر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى التسعينيات ٠

ولتوضيح الطريقة التى كان يعمل بها هذا التجمع سنذكر قضية جيمس هاربر ، وهو مهندس متقاعد فى كاليفورنيا كانت زوجته تعمل لدى شركة سيستمز كونترول (Systems Control) التى تتعامل مع وزارة الدفاع الأمريكية ٠ وقد باع هاربر عددا كبيرا من مستندات هذه الشركة ، مقابل ٢٥٠ ألف دولار ، لجاسوس بولندى كان ينتحل صفــة موظف فى وزارة الصناعة البولندية ، وان كان فى الواقــع يعمل فى جهاز المخابرات البولندى

وكان يتم نقل تلك الوثائق ، التى تحتوى على معلومات عن الصواريخ البالستيكية الدفاعية الأمريكية ، سريعا الى وارسو حيث يجرى فرزها ونسخها ثم تسليمها الى عملاء الــ (كيه ٠ جى ٠ بى) الذى يقال انه كان « يعهد » بانتظام بمهام خاصة لأجهزة مخابرات دول أوروبا الشرقية ٠

ولقد تكررت واقعة هاربر بشكل أو بآخر مع أجهزة ألمانيا الشرقية وبلغاريا والمجر ورومانيا فى الفترة التى كانت فيها أوروبا الشرقية تحت السيطرة السوفيتية · وعلى الرغم من أن هذه الدول كانت تعمل لخدمة مصالحها الخاصة ، فانها كانت ترتبط بالاتحاد السوفيتى بروابط عضوية وثيقة جعلتها تستمر فى التعاون مع السوفيت حتى بعد سقوط حكوماتها الشيوعية ·

غير أن مقايضة المعلومات الاستخبارية لم تكن مقصـــورة على الدول الأعضاء فى كل معسكر ، لأن بقية دول العالم لم تكن منضمة لأى من المعسكرين ومن ثم كانت الفرصة قائمة لوجود علاقات بيع وشراء للمعلومات · ففى كثير من البلدان عندما يتولى الحكم نظام جديد أو حزب مختلف يكون أحد أهم قراراته ـ وان كان لا يتم مناقشتها علنـا قط ـ هو اختيار « مورد للمعلومات الاستخبارية » ·

وخير مثال على ذلك هو حالة الرئيس الأرجنتينى راؤول الفونسين الذى تولى رئاسة أول حكومة ديمقراطية فى الأرجنتين بعد سقوط الحكم العسكرى · ففى عام ١٩٨٥ طرحت مشكلة اختيار « مورد استخبارات » نفسها عليه وعلى وزرائه · وكانت ال (سى· آى· ايه) أو جهـــاز المخابرات الفرنسى أو البريطانى أو جهاز الموساد الاسرائيلى من بين الموردين الرئيسيين الذين كان يمكن للأرجنتين التوجه اليهم · وكان من المفترض أن يقدم الجواسيس الأرجنتينيون معلومات عــن بعض الدول مقابل المعلومات التى يحصلون عليها عن دول أخرى تقع خارج اطـــار عملهم الاستخبارى لأسباب تتعلق بالامكانات أو لأسباب أخرى ·

وتم استبعاد البريطانيين بسبب حرب الفوكلاند التى خاضوهـا ضد الأرجنتين · أما الـ (سى · آى · ايه) فكانت متورطة مع النظـام السابق فى بيونس آيرس ، وكان من الأفضل على أية حال تفادى القوتين العظميين · وكان الفرنسيون يمثلون احتمالا طيبا غير أنهم على قوتهم فى الساحة الأفريقية كانوا ضعفاء على ساحة أمريكا اللاتينية وهو ما كان يمثل « اعاقة » خطيرة · وكما قال مسئول أرجنتينى شاكيا : «للأسف ، ان المشكلة فى مجال الاستخبار هى أن المرء لا يعلم قط مع من يتعامل »·

ومما لا شك فيه أن قضايا مماثلة تثار حاليا فى دول أوروبا الشرقية التى ابتعدت عن موسكو وتبحث عن شركاء جدد فى مجال الجاسوسية فى الغرب أو فى أماكن أخرى ·

حتى فى الولايات المتحدة تتغير القواعد التى تنظم تبادل المعلومات الاستخبارية مع كل رئاسة جديدة • فقد كانت جمهورية جنوب أفريقيا ، التى لا تملك أقماراً صناعية ، تتلقى المعلومات الاستخبارية عن الأقطار السوداء المحيطة بها من كل من بريطانيا والولايات المتحدة • وكانت هذه المعلومات تشمل أنشطة المؤتمر الوطنى الافريقى الذى يعد حركة المعارضة الرئيسية فى جنوب أفريقيا ، غير أن الرئيس جيمى كارتر حظر أى تبادل للمعلومات مع جنوب افريقيا ، وكان يتعين انتظار رئاسة ريجان لاعادة فتح خط التبادل مرة أخرى •

ويكشف التاريخ السرى للاستخبارات الدولية عن أغرب الروابط مثل حالة الأستراليين العاملين فى شيلى تحت قيادة الـ (سى • آى • ايه) للاطاحة بحكومة الليندى ، والفرنسيين الذين تعاونوا مع البرتغال والمغرب مثلا أو الرومانيين مع منظمة التحرير الفلسطينية ، والسوفيت الذين أمدوا ليبيا بمعلومات عن العمليات البحرية والجوية الاسرائيلية وكذلك الاسرائيليين الذين يزودون الولايات المتحدة بالمعلومات الاستخبارية •

ولعل من أكثر عمليات التعاون تلك اثارة للدهشة هى زيارة اثنين من كبار المسئولين السابقين فى الـ (كيه • جى • بى) ـ هما فيردور شيرباك نائب مدير الجهاز وفالنتين زفيز دنكوف رئيس عمليات مكافحة الارهاب ـ للولايات المتحدة فى عام ١٩٨٩ حيث التقيا بوليم كولبى المدير السابق للـ (سى• آى• ايه) لابرام اتفاقية لتبادل المعلومات فى مجال المخدرات والارهاب •

وتتيح هذه المجموعة من الاتفاقات السرية ـ الدائمة التقلب ـ لدولة ما أن تختبىء وراء دولة أخرى لتقوم ببعض العمليات التى قد تعتبر من وجهة نظر قوانينها غير مشروعة أو مريبة • فجهاز الاستخبار الحكومى البريطانى (GCHQ) ـ وهو المكافىء البريطانى لوكالة الأمن القومى الأمريكية ـ يحتفظ بقائمة أسماء مواطنين أمريكيين تهم مكالماتهم الهاتفية نظيرتها الأمريكية • ان المقايضة الدولية للأسرار تبطل كل القيود الداخلية الموضوعة على عمليات جمع المعلومات الاستخبارية •

عمالقة المستقبل :

حين يتكيف النظام العالمى للاستخبارات مع الاقتصاد فائق الرمزية الوليد فان سوق المعلومات النهمة التى يمثلها هذا النظام ستتطلب منتجات جديدة وسيتصدر عمالقة جدد المقدمة •

ومن المتوقع فى المستقبل غير البعيد ضعف بل وانهيار تحالف التجسس بين UKUSA والناتو · كما ستعاد صياغة التوازن العالمى فى مجال الاستخبار بعد التغيرات التى حدثت فى أوروبا الشرقية وتحرر دولها من النفوذ السوفيتى ، حيث بدأت كل منها تتعامل لحسابها الخاص مع أجهزة التجسس الغربية ·

بالاضافة الى ذلك ، يمكن توقع أن تزداد أنشطة كل من المانيا واليابان فى مجال الاستخبار بنفس قدر تنامى دورهما الدبلوماسى والسياسى - وربما العسكرى - ليتفق وقوتهما الاقتصادية الهائلة · وهو ما سيحفز بدوره عمليات التجسس ومكافحة التجسس لدى جيرانهما وشركائهما التجاريين وحلفائهما وكذلك أعدائهما · (ويمكن افتراض أن اعادة توحيد آلمانيا قد جعلت بون تسترد فى مجال الجاسوسية بعض الشبكات و « المواقع المكتسبة » التى كانت تدار سابقا بواسطة الألمان الشرقيين فى الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وبلدان أخرى)

ومن المحتمل أن يقوم الألمان واليابانيون بتكوين أنوية لاتحادات وتجمعات استخبارية جديدة ترتبط بها قوى ثانوية · على أية حال ، سيكون أمرا مثيرا للدهشة ألا يحظى جهاز الاستخبار فى البلدين بزيادات ضخمة فى ميزانياتهما (وان كانت مخفية بلا شك فى ميزانيات وزارات أخرى) ·

ان انزلاقات السلطة تلك فى عالم الاستخبار الخفى تجسد « ترتيب القوى » الجديد ، (اذا استخدمنا تعبيرا سوفيتيا مفضلا) · فبينما يؤدى النظام الجديد لخلق الثروة الى اشتداد المنافسة بين الدول ذات التكنولوجيا المتطورة ، فانه يقلب فى الوقت نفسه رأسا على عقب الأولويات فى قلب أجهزة التجسس الرئيسية · فهناك ثلاثة موضوعات ستكون محط اهتمام الجواسيس مستقبلا ، ألا وهى الاقتصاد والتكنولوجيا والبيئة ·

طائرات حربية و « قوائم مراقبة » :

فى عام ١٩٧٥ علم مستشار فلسطينى لدى حكومة بغداد أن العراق ، فى اطار تغير التوجه السياسى للاتحاد السوفيتى تجاه الغرب ، يريد

شراء ٦٠ طائرة حربية قيمتها حينذاك نحو ٣٠٠ مليون دولار · وحاول المستشار الفلسطيني سعيد أبو الريش أن يتفاوض لابرام الصفقة مع شركة بريطانية ، ولكن لندن رفضت أن تضمن تزويد العراق بقطع الغيار · فتوجه العراقيون الى فرنسا التى قبلت أن تبيع لهم طائرات ميراج اف ــ ١ وأن تزودهم بقطع الغيار اللازمة · غير أن العراق شعر بأن الفرنسيين يغالون فى أسعار الطائرات · وطبقا لما ذكره سعيد أبو الريش قام العراقيون باستدعائه وقالوا له : « كف عن الاهتمام بهذه الصفقة واجمع معلومات عما يتقاضاه هؤلاء الأوغاد من الدول الأخرى مقابل هذه الطائرات · ان لديك المال الكافى لشراء من تحتاج اليه » ·

ومن السخرية أنه وجد المعلومة التى كان يبحث عنها ــ على حد قوله ــ لدى معهد السلام فى استكهولم ، وعندما زار جاك شيراك رئيس وزراء فرنسا آنذاك بغداد بعد فترة قصيرة من ذلك ، قدم له صدام حسين ، رجل العراق القوى ، قائمة بالأسعار التى تطلبها فرنسا من البلدان الأخرى · وطبقا لما ذكره أبو الريش منح شيراك على الفور تخفيضا تبلغ قيمته مليونا و ٧٥٠ دولار عن كل طائرة · ولقد شاركت الطائرات الفرنسية فى الحرب الايرانية العراقية التى انتهت عام ١٩٨٨ ·

كان هذا مثالا نموذجيا لنشاط استخبارى فى المجال التجارى تم انجازه لصالح احدى الحكومات · ان حجم التخفيض البالغ أكثر من مائة مليون دولار ، مقارنة بالرشوة المتواضعة التى يدعى أبو الريش أنه دفعها ، يوضح هوامش الربح الضخمة المرهونة بالاستخبار الاقتصادى· وتتسم مثل هذه العمليات فى أغلب الأحيان بقدر زهيد من المخاطرة مقابل أرباح كبيرة · غير أن قضية أبو الريش ليست سوى عملية صغيرة ، انها مثال لما يمكن تسميته بـ « الميكرو استخبار » ·

ولننتقل الآن الى احتمالات وامكانات الـ « ماكرو استخبار » ·

عندما تفاوضت بريطانيا فى عام ١٩٧٣ من أجل انضمامها للسوق الأوروبية كان ممثلوها مسلحين بمعلومات تم التقاطها من رسائل الدول الأوربية الأخرى المبثوثة عبر الأثير · ويصعب قياس المزية التفاوضية التى حصل عليها البريطانيون من هذه العملية بلغة الأرقام ، ولكن المائة مليون دولار التى وفرها العراق من صفقة الميراج ستبدو متواضعة للغاية مقارنة بها · ذلك هو « الماكرو استخبار » ·

وتحتفظ حاليا وكالة الأمن القومى الأمريكية ونظيرتها البريطانية الـ (GCHQ) بما يسمى « قوائم مراقبة » لشركات ومنظمات توحى

لهما بأكثر من الاهتمام الروتيني · وتضم هذه القوائم بنوكا وشركات بترولية وتجار سلع قد تؤثر أنشطتهم على أسعار البترول مثلا أو أسعار القمح ·

ومن ناحية أخرى يحرص الاتحاد السوفيتي أيضا على جمع كل المعلومات الاقتصادية الممكنة والمتخيلة · يقول ريموند تيت ، وهو عضو سابق في وكالة الأمن القومي الأمريكية ، ان الاتحاد السوفيتي تمكن بفضل المعلومات التي يجمعها أن « يتلاعب ولسنوات طويلة بالعديد من الأسواق على امتداد العالم » ·

غير أن اليابانيين ، في رأي ليونيل أولمر أحد وكلاء وزارة التجارة الأمريكية السابقين ، هم الذين « يملكون أكثر نظم الاستخبار الاقتصادي تطورا وتنظيما في العالم وذلك بفضل شبكة من « العملاء » ــ وهو تعبير استخدمه دون ازدراء ــ العاملون في مكاتب التصدير التابعة لهم · ان هيئة التجارة الخارجية اليابانية (الجيترو) هي المجمع الرئيسي لهذه المعلومات الاستخبارية الاقتصادية · الا أن قوام حياة الشركات التجارية اليابانية هو المعلومات ، فهي لها بمثابة الأكسجين ، ومن ثم يمتد نشاط هذه الشركات الى كل مكان ابتداء من أفريقيا حتى أوروبا الشرقية · ولا ندري النسبة من هذه المعلومات التي تتقاسمها مع الحكومة ، وان كان في رأينا أنها تتقاسمها كلها تقريبا » ·

ويضيف أولمر قائلا انه أثناء وجوده في وزارة التجارة الأمريكية « حدث أن أمضينا عاما كاملا في محاولة اثبات أن اليابانيين يتلاعبون سرا في سعر الين ــ كان ذلك في عام ١٩٨٣ تقريبا · الا أننا لم نتمكن من العثور على أي دليل ملموس يثبت أن الحكومة اليابانية كانت تنسق حركة ارتفاع وانخفاض سعر الين · غير أننا كنا نود جدا معرفة ذلك ! » · هنا أيضا يتعلق الأمر بـ « الماكرو استخبار » ·

وفي عامي ١٩٨٨ و ١٩٨٩ نشب صراع تجاري محموم بين الولايات المتحدة واليابان حول الاتفاق الذي كان سينظم انتاجهما المشترك للطائرة المقاتلة (FSX) · ويقول أولمر : « كان من المفيد للغاية ، خلال هذه المفاوضات ، لو أن حكومتنا كانت تمتلك معلومات أفضل عن النوايا الحقيقية للحكومة اليابانية [···] · هل كانت ترى في مشروع الطائرة FSX وسيلة تتيح لليابان تطوير صناعة طائرات النقل المدني لديها منافسة بذلك صناعة الطائرات الأمريكية في هذا المجال ؟ ·

للاجابة على هذا السؤال لم يكن لدينا سوى كم كبير من البيانات المتضاربة » · وهنا أيضا لم يكن الرهان مقصورا على بيع بعض الطائرات وانما يشمل مصير صناعات كاملة ·

الا أن كل ذلك لا يمثل سوى المناوشات الاستهلالية لحرب الاستخبارات الاقتصادية التى ستغدو خلال العقود الحاسمة التى تنتظرنا أكثر منهجية وأكثر حسما بالنسبة لسياسات الحكومات واستراتيجيات الشركات ·

هناك عوامل عديدة متضافرة تدفع موردى المعلومات الاستخبارية الرئيسيين فى العالم الى منح التجسس الاقتصادى مكانة متزايدة الأهمية · أولا : أن وكالات الاستخبار تجد نفسها مع نهاية الحرب الباردة مضطرة الى ايجاد مهام جديدة لتبرير ميزانيتها · وثانيا : فيما يجبر النظام الجديد لخلق الثروة مزيداً من الشركات على أن تصبح عالمية سيزداد عدد من لديها منهن مصالح خارج الحدود تتطلب الدعم والحماية · وتمارس هذه الشركات ضغوطا على الحكومات لكى تمدها بالدعم السياسى وبمعلومات اقتصادية ليس فى امكانها الحصول عليها بوسائلها الخاصة · وسواء أكان يتعين على أجهزة الاستخبار الرسمية أن تقدم المساعدة للمصالح الخاصة أم لا ، فان هذه الممارسة مرشحة للانتشار تبعا لايقاع تحول الاقتصاد الى العالمية ·

ولكن وراء ذلك ترتسم حقيقة مقلقة وان كان كثيرا ما يتم تجاهلها · فلكى تعمل الشركات فى ظل الاقتصاد الجديد فائق الرمزية يتعين عليها أن تعتمد بشكل متزايد على الالكترونيات ، منشئة شبكات تغطى الكرة الأرضية لنقل البيانات عبر الحدود الدولية ولتبادل المعلومات مع شركات أخرى بواسطة أجهزة الكمبيوتر · وبالتالى يغدو اجمالى النظام التجارى أكثر عرضة للاختراق الالكترونى من منظمات مثل وكالة الأمن القومى الأمريكية ومثيلاتها البريطانية واليابانية والسوفيتية وغيرها · الأمر الذى يعنى أن التدفقات الضخمة من المعلومات التى كان من الصعب الوصول اليها فى السابق ستصبح حتما أهدافا مغرية لأجهزة الاستخبار ·

وأخيراً ، مع تصاعد التنافس التجارى على الصعيد العالمى سيزداد التنافس فى مجال الاستخبار أيضا مؤديا الى ما يماثل سباق التسلح ولكن فى مجال التجسس · اذ أن كل انجاز تحققه أجهزة تجسس تابعة لبلد ما سيحث على الفور نظيراتها فى الدول الأخرى للتفوق عليه ، ولن تتوقف المزايدات ·

وسوف يتم استخدام التجسس على نطاق أوسع من أى وقت مضى لا لخدمة أهداف الحكومات فحسب ، بل لدعم استراتيجيات الشركات ذاتها . وذلك بدعوى أن قوة الشركات تسهم بالضرورة فى القوة الوطنية . ومن ثم ينبغى أن نتوقع مراقبة أكثر تطورا للمحاصيل وأنشطة التعدين فى الدول المعنية ، ومزيداً من عمليات التجسس على المفاوضات التجارية المهمة وسرقة البيانات وتهريبها .. الخ . وقد يتم وضع ترسانة المراقبة الالكترونية ، فى القريب العاجل ، فى خدمة التجارة وكذلك جحافل العملاء المدربين على ايجاد ردود دقيقة لنوع الأسئلة التى كان يطرحها أولمر سدى عندما كان وكيلا لوزارة التجارة الأمريكية .

وسينجم عن كل ذلك « ازدهار مفاجىء » فى مجالات كتابة الشفرة وفكها ، فيما ستبذل الشركات والأفراد جهداً أكبر لحماية أسرارهم من الآذان والعيون المتطفلة . كما سيفتح الباب واسعا أمام الفساد ـ كقيام عملاء استخبارات حاليين أو سابقين ببيع المعلومات التى حصلت عليها الحكومات الى جهات خاصة سرا ، وفى ظل غياب تقنين دولى والوسائل اللازمة لتطبيقه سيولد هذا الوضع نزاعات مريرة بين الدول.

الخط اكس (×) فى مواجهة جيمس بوند :

ان القوة الاقتصادية مثلها مثل القوة العسكرية تستند بشكل متزايد على المعرفة ، فالتكنولوجيا المتطورة ما هى الا معرفة مجمدة . ومع انتشار الاقتصاد فائق الرمزية تزيد قيمة هذه التكنولوجيا المتطورة .

ففى يناير ١٩٨٥ وصل الى أمريكا الشمالية شحنة تزن حوالى مائتى ألف طن من الصلب الرومانى وتم طرحها فى الأسواق بسعر أقل بنسبة ٤٠٪ عن سعر الصلب الكندى . ولقد بدأت قصة هذه الصفقة قبل ذلك بحوالى ١٣ عاما ، فى الفترة التى كان فيها الديكتاتور الرومانى نيكولاى شاوشيسكو قد وضع البرنامج الذووى لبلاده تحت رعاية جهاز استخباراته فى الخارج المعروف اختصارا بـ (DIE) .

طبقا لما ذكره أيون باشيبا المدير السابق لوكالة D.I.E ـ والذى لجأ الى الغرب فيما بعد ـ جرى تزويد فرق من المهندسين المدربين على أعمال التجسس بأوراق مزورة وارسالهم الى الخارج لكى يحصلوا على وظائف فى الصناعة النووية . ونجحوا بالفعل فى الحصول على تلك الوظائف فى شركتى جنرال الكتريك و Combustion Engineering

فى كندا ، وكذلك فى شركات سيمنز و AEG وكرافتو يرك يونيون فى ألمانيا الغربية وفى شركة أنسالدو نوكليارى امبيانتى بايطاليا · وسرعان ما بدأت المعلومات التقنية تتدفق على بوخارست ، على حد قول باشيبا ·

وعندما علم شاويسكو بأن الكنديين يجدون صعوبة فى بيع مفاعلاتهم الذرية من طراز (CANDU) أبلغهم عن طريق الـ DIE بأنه يستطيع شراء نحو عشرين من هذه المفاعلات · وبالفعل وقع الرومانيون والكنديون فى يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٧٧ اتفاقية يتم بمقتضاها بناء أربعة مفاعلات بواسطة الكنديين وحدهم بينما يتم بناء المفاعلات الباقية بمساعدة الرومانيين · وبناء على ذلك بسطت كندا البساط الأحمر لاستقبال المهندسين الرومانيين ، وكان بينهم عدد من عملاء الـ DIE .

وطبقا لباشيبا « سرعان ما حصل الـ D.I.E على معلومات عن حوالى ٧٥٪ من التكنولوجيا الخاصة بمفاعل (CANDU-600) وعن نظام الأمان الحديث المستخدم فى المحطات النووية والتكنولوجيا والمعدات اللازمة لانتاج الماء الثقيل والرسوم الهندسية للمحطات النووية المشيدة فى كندا وألمانيا الغربية وفرنسا » ·

بل لقد تمكنت رومانيا من اقناع كندا بأن تمنحها قرضا قيمته مليار دولار ، يستخدم جزئيا لتسديد مستحقات الشركات الكندية المشتركة فى المشروع ويسدد باقى القرض فى شكل تبادلات تجارية ·

وفى مارس ١٩٨٢ بحثت القضية برمتها من جديد · الا أن رومانيا كانت قد قبضت بالفعل مقدما قيمته ٣٢٠ مليون دولار ، وأصبح فىحوزتها معظم التكنولوجيا التى كانت فى حاجة اليها · وكل ما كان مطلوبا منها هو أن ترسل الى كندا السلع المنصوص عليها فى اتفاقية المقايضة · وهكذا دخل الصلب الرومانى الى كندا وبدأ يباع فيها بسعر أقل من الصلب المصنوع محليا ·

ان عملية الاحتيال الرومانية التى جمعت بين التجسس التكنولوجى والاحتيال الاقتصادى ليست بالندرة التى قد تبدو عليها فى عالم ترتفع فيه تكاليف البحث العلمى بسرعة صاروخية ، بحيث تصبح تكلفة التكنولوجيا المسروقة تافهة بالمقارنة ·

ويقول الكونت دى مارنش الرئيس السابق لجهاز الاستخبارات الفرنسى : « من السهل أن نجد فى أى جهاز مخابرات جدير بهذا الاسم

حالات تمت فيها تغطية ميزانية عام كامل من خلال عملية واحدة ٠ ان أجهزة المخابرات لا تحصل ، بطبيعة الحال ، على أية مكافأة مادية لكن الصناعة الوطنية تستفيد من ذلك » ٠

وهو ما يفسر ، أكثر من الاعتبارات العسكرية المحضة ، لماذا يتكالب الجواسيس حول كل المراكز التى يتم فيها اعداد التكنولوجيا الجديدة ، ولماذا يتركز السوفيت وآخرون حول وادى السليكون ، ولماذا حاول الروس شراء ثلاثة مصارف كاليفورنية كان أحدها يقدم قروضا لبعض شركات وادى السليكون ٠ كما يفسر أيضا لماذا أصبحت اليابان حاليا هدفا شديد الأهمية ٠ (فطبقا لضابط سابق فى الـ (كيه ٠ جى ٠ بى) مقيم فى اليابان « حتى معدات التنصت التى كان يستخدمها الـ (كيه٠ جى٠ بى) فى مراقبة الاتصالات اللاسلكية بين فرق المراقبة التابعة للشرطة الوطنية اليابانية كانت مسروقة من اليابان » ٠

كان النظام الاستخبارى الرومانى يقتدى بجهاز التجسس التكنولوجى الأكبر منه بكثير الذى أنشأه الاتحاد السوفييتى ٠ ويتركز هذا الجهاز فى قلب القطاع العلمى والتكنولوجى المسمى بالـ « خط أكس » التابع للـ (كيه٠ جى٠ بى) ٠

وفى عام ١٩٨٧ ذكر تقرير لوزارة الخارجية الأمريكية ، يعتمد على معلومات الـ (سى ٠ آى ٠ ايه) ، أن ثلث موظفى غرفة التجارة والصناعة السوفيتية من ضباط الـ (كيه٠ جى٠ بى) أو الـ GRU ، أو يشتبه فى انهم كذلك ٠ « ان استضافة أكثر من ٢٠٠ معرض تجارى سنويا واستقبال حوالى مائة وفد من رجال الأعمال الغربيين فضلا عن مراقبة ملايين المنتجات سنويا يمنح موظفى غرفة التجارة والصناعة فرصا استثنائية لمعرفة كل ما يمكن استيراده » ٠ ويهتم السوفيت بشكل خاص بالروبوت وبالتكنولوجيا المستخدمة فى أعماق البحار والكيمياء الصناعية ٠٠٠ الخ ٠

ان الافتقار الى العملة الصعبة يجعل الشراء المشروع للتكنولوجيا وما تتطلبه من دراية أمراً متعذراً على العديد من الدول مما يجعل اغراء الحصول عليها بشكل غير مشروع اغراء لا يقاوم ٠ ويدفع ذلك الى توقع زيادة التجسس التكنولوجى من جانب البلدان الفقيرة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ٠ واذا كانت هذه الدول غير قادرة على الاستفادة من المعرفة التى يسرقها مهندسوها أو طلابها ، فبامكانها على الأقل أن تبيعها ٠ وهو ما يمكن تسميته بسوق « اعادة البيع » وهو

ما يمثل فى الواقع احدى سمات التجسس التكنولوجى التى غالبا ما يتم تجاهلها ·

ونظراً لأن المعرفة تلعب دورا حاسما بشكل متزايد بالنسبة للقوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية فان التجسس فى هذا المجال يولد مزيداً من الاحتكاك بين الحلفاء ·

والدليل على ذلك ، الاتهامات الأخيرة الموجهة للاستخبارات الفرنسية بأنها التقطت الاتصالات التى تجريها شركة «آى · بى · ام» عبر الأطلنطى وزودت بها شركة Bull الفرنسية ، وبأنها زرعت عملاء لها فى مصانع الكمبيوتر الأمريكية ·

ودليل آخر هو الـ (كوكوم) ·

وكوكوم هو اختصار لاسم لجنة مقرها باريس تدعى اللجنة المنسقة لضوابط التصدير المتعددة الأطراف · ولقد تشكلت هذه اللجنة من ١٦ دولة لمكافحة عمليات تسرب التكنولوجيا الغربية المتطورة الى ما كان يعرف آنذاك بالكتلة الشرقية ·

والكوكوم مهددة حاليا بالتفكك نظراً للاختلافات المتزايدة الشدة بين الدول الأعضاء فيها والتى تبدى استياء متزايدا من القيود التى تفرضها اللجنة على التجارة · ومن ناحية أخرى يتم تبادل الاتهامات داخلها باستخدام الكوكوم كمبرر للحصول على مزايا تجارية ·

وبناء على مبادرة من الأوربيين واليابانيين تمت دراسة تقليص قائمة الدول والتكنولوجيات التى يشملها الحظر · لكن فى عام ١٩٨٣ عندما اقترحت الولايات المتحدة ـ وهى القوة الرئيسية فى الكوكوم ـ حذف الصين من هذه القائمة ارتفعت جوقة احتجاجات · وطبقا للبروفسير اليابانى تاكيهيكو ياماموتو من جامعة شيزووكا فان دول أوروبا الغربية « عارضت بعنف هذا الاقتراح ومنعته من أن يرى النور خوفا من أن يستولى الأمريكيون على السوق الصينية » ·

وكانت قضية توشيبا قد هزت اليابان مؤخراً · وتتلخص القضية فى أن احدى الشركات التابعة لتوشيبا باعت الى الاتحاد السوفيتى بشكل غير قانونى معدات متطورة للغاية تستخدم فى شحذ وتجليخ ريش

مراوح دفع الغواصات . وتحت ضغط الولايات المتحدة شددت اليابان من رقابتها على صادراتها لتفـادى تكرار مثل هذه القضية ، غير أنهـا حرمت نتيجة لذلك من جزء من سوقها فى الصين وانخفضت صادرات اليابان الى الصين من الأدوات الآلية بنسبة ٦٥٫٩٪ فى عام ١٩٨٧ . ومن ثم تلقت اليابان بسخط شديد نبـأ افتتاح مركـز تصـنيع سنسناتى ميلاكرون الأمريكى فى شنغهاى لانتاج هذه الآلات .

ان هذا الشكل من الحرب التجارية يهدد حاليا بتفجير الكـوكوم نفسه . علاوة على أن الوحدة الاقتصادية الأوروبية ستؤدى الى اضعاف ضوابط التصدير على مستوى الدول الأعضاء ، فالسلع تستطيع الانتقـال بحرية بين بلدان الاتحاد الأوروبى الاثنى عشر .

وكما سبق أن رأينا ، فان صعود الاقتصاد فائق الرمزية يؤدى الى خلق مجموعات تجارية متعددة الجنسيات وعبر وطنيـة الى جـانب مشروعات مشتركة والعديد من التحالفات التجارية الدوليـة . ومعنى ذلك تزايد عمليات تبادل المعلومات فى كل اتجـاه مما سـيجعل بالتالى السيطرة عليها ومراقبتها أصعب بكثير .

لكل هذه الأسباب جميعا ستنضم التكنـولوجيا الى الاقتصـاد كهدف ذى أولوية كبرى بالنسبة لجواسيس العالم . لن يشبه جاسوس المستقبل جيمس بوند الذى كانت قبضته وسـيلة نجاحه الرئيسية وانمـا سيشبه مهندس الخط اكس (×) الذى يعيش فى سلام فى مسكنه ولا يقوم بأى عمل عنيف وانما يكتفى بتقليب صفحات كتيب من الكتيبات التقنية أو الضغط على لوحة أزرار جهاز الميكروكمبيوتر الخاص به .

الحروب البيئية المقبلة :

ان قطاع البيئة هو المجال الثالث الذى سيشهد نموا فى نشـاط جواسيس الغد . فهو مجال لا يعترف بالحدود السياسية . فعلى سبيل المثال يؤثر تلوث نهر الراين على هولندا كما يؤثر على المانيا والأمطار الحمضية تعنى كل بلدان العالم وعملية ازالة غابات الأمازون مشكلة تخص كوكب الأرض كله .

ان اتساع المعارف المطرد فى هذا المجال يساهم بدون شك فى حل الكثير من المشاكل غير أنه يفتح أيضا الطريق أمام عمليات تلاعب ماهرة ببيئة بلد ما من قبل المسئولين السياسيين لبلد آخـر . ولعـل ما قامت به

تركيا فى عام ١٩٨٩ يعد مثالا تقريبيا على ذلك • فلقد أعلنت أنها ستوقف تدفق مياه نهر الفرات الى العراق وسوريا لمدة شهر • ويهدد هذا الاجراء الزراعة فى العراق والامدادات الكهربية فى سوريا • الا أن الأتراك أعلنوا أنهم مضطرون لذلك لكى يتسنى لهم القيام بأعمال الصيانة لسد أتاتورك • لكن المتشككين يعتقدون أن هذا القرار يخفى شيئا آخر •

فعبر الحدود الجنوبية لتركيا ـ فى العراق وسوريا ـ توجد قواعد الانفصاليين الأكراد المنتمين لحزب العمال الكردستانى الماركسى • وكان مقاتلو هذا الحزب يتسللون عبر الحدود الى تركيا التى طالبت جيرانها بمراقبة الحدود لمنع عمليات التسلل • غير أن غارات الأكراد استمرت ، مما دفع الأتراك الى اعلان اغلاق السد وهو ما أدى الى شن غارة من أنصار هذا الحزب على احدى القرى التركية القريبة من الحدود العراقية أسفرت عن مقتل ٢٨ شخصا • وعلى الفور طالبت الصحافة التركية بتوجيه ضربة انتقامية ضد القواعد المتمردة فى الأراضى السورية •

وسواء أكان قطع المياه يستهدف ارغام الحكومتين العراقية والسورية على اتخاذ اجراء عسكرى ضد المقاتلين الأكراد أم لا ، فان الحدث بما له من عواقب بيئية يمثل ضربة البداية ـ اذا أمكن القول ـ فى الحرب البيئية التى ستصبح أكثر انتشاراً وأشد تطوراً خلال العقود القادمة • فقد يحدث ذات يوم أن تطلق دولة ما حشرات تعرضت لمعالجات جينية ضد دولة خصم أو تحاول أن تعدل من ظروفها المناخية •

وعندئذ سيتعين على أجهزة التجسس أن توفر الأسلحة اللازمة لهذه الحروب البيئية •

وفى الجانب المقابل ، ستتمكن أجهزة الاستخبار من مراقبة تطبيق المعاهدات الخاصة بالبيئة كما تفعل الآن بالنسبة لاتفاقيات نزع السلاح وذلك بفضل أجهزة المراقبة بواسطة الأقمار الصناعية •

وفيما ستغدو الحرب البيئية والمعاهدات البيئية جزءا لا يتجزأ من النظام العالمى الجديد ستندمج الاستخبارات البيئية بشكل أوثق بالهياكل السياسية والعسكرية •

وهكذا سيبدأ انتشار النظام الجديد لخلق الثروة فى تغيير احدى الوظائف العامة للدولة ـ الأمة (أى الدولة ذات السيادة) ، ألا وهى

تجميع المعلومات الاستخبارية ·غير أننا لم نفعل حتى الآن سوى اننا ألقينا نظرة سريعة على أكثر التغيرات سطحية · اذ أن هناك تغيرات أعمق بكثير تنتظرنا ·

خصخصة التجسس :

اننا الآن على وشك أن نشهد عملية اندماج ، لم تعرفها الاقتصادات الرأسمالية من قبل ، بين المعلومات الاستخبارية التى قامت بجمعهـا أجهزة الدولة وتلك التى جمعتها شركات خاصة ·

منذ زمن طويل والحكومات تتبـادل المنافع مع الشركات الخاصة · فبعض الشركات العملاقة توفر « الغطاء » لعملاء بلادها · ومن أمثلة ذلك ما قامت به شركة بيكتل للانشاءات ومركزها سان فرانسيسـكو ، فقد أبرمت هذه الشركة عقودا بمئات الملايين من الدولارات فى الشرق الأوسط ، ووفرت وظائف اسمية لعمـلاء الـ (سى · آى · ايه) وحصلت مقابل ذلك على معلومات تجارية قيمة ·

وكانت الشركات الأمريكية فى وقت ما توفر « الغطاء » لمائتى عميل استخبارات فى الخارج ، وتحصل فى المقابل على العديد من المنافع ، و « يتوقع » العديد من الحكومات من رجال أعمالها أن يتعاونوا مـع أجهزة استخباراتها وقد تلجأ الى ممارسة ضغوط عليهم فى حالة رفضهم التعاون ، الا أن ذلك لا ينطبق على الولايات المتحدة · اذ نادرا ما يطلب من كوادر الشركات الأمريكية أن يقدموا معلومات ، حتى وان كانت لهم اتصالات بسياسيين أجانب رفيعى المستوى ·

ان الحد الفاصل بين التجسس العام والخاص يتلاشى تدريجيا · فمع انتشار الشركات متعددة الجنسيات تنتشر شبكات الاستخبار التى تقوم هذه الشركات بتمويلها · وينطبق ذلك على المصارف والشركات البترولية الأوروبية وبيوت التجارة اليابانية وشركة البنـاء الأمريكيـة · ان كل شىء يدعو الى الاعتقاد بأن بعض هذه الشبكات تتعاون مع كل من أجهزة استخبار بلادها والبلد المضيف ·

ويتوازى مع عمليات الاستخبار الخاصة فى الخارج الانتشـار الأخير لوحدات ما يسمى بـ « الاستخبار التنافسى » فيما بين الصناعات الوطنية والتى تم تناولها فى الفصل الرابع عشر · ومع أن هذه الشبكات

الخاصة تعمل فى اطار القانون الا أنها تستخدم ـ بشكل بدائى على الأقل ـ العديد من الأساليب والتقنيات المستخدمة فى أجهزة الاستخبار الحكومية ، فهى تدخل فى خدمتها جواسيس سابقين ومحللين سبق لهم أن عملوا فى هذه الأجهزة وهو ما من شأنه أن يزيد من احتمالات وجود روابط غير رسمية مع أجهزة الدولة ·

وسوف تتضاعف أمثال هذه العلاقات غير المشروعة نتيجة لعملية اعادة الهيكلة التى تشهدها حاليا التجارة العالمية والتى تقود الى تحالفات معقدة عبر الحدود الوطنية · وقد تجهل شركة ما أبرمت « تحالفا استراتيجيا » مع شركة أخرى أن بعض عمليات شريكتها تتلخص فى أعمال جاسوسية لصالح قوة أخرى ، ولكن من المحتمل أيضا أن ترغب فى معرفة ما يجرى وتطالب باجراء تحقيق بواسطة جواسيس حكومتها هى للتأكد من ذلك ·

وحتما ، ستؤدى مثل هذه التغيرات الى تداخل أنشطة تجارية عديدة ، كانت فى السابق « خاصة » ، مع المجال العام ، بحيث تكتسب صبغة سياسية وتثير بالتالى سلسلة من الاتهامات والاتهامات المضادة والفضائح المدوية ·

وبالتوازى مع التحولات التى وقعت مؤخرا فى مجال الأعمال سنشاهد انتقالا من الانتاج الكمى للمعلومات الاستخبارية الى توفير معلومات انتقائية وأكثر دقة وتحديدا ، فالحكومات تطالب بالفعل بمعلومات أكثر تفصيلا ودقة وأكثر تخصيصا · وهو ما يتطلب درجة أعلى من التخصص فى البحث ذاته عن المعلومات أو على الأقل فى تحليلها ·

ولتلبية هذا الاحتياج ـ خاصة فى مجالات الاقتصاد والتكنولوجيا والبيئة ـ يتعين توفير قاعدة معلومات تكتيكية متناهية الدقة عن تنويعة كبيرة من الموضوعات تعجز حتى أكبر الجهات المنتجة للمعلومات الاستخبارية مثل الـ (سى · آى · ايه) عن توفير ما يلزم لها من الخبراء ، ناهيك عن الاحتفاظ بهم ودفع أجورهم · ومن ثم ستضطر أجهزة الاستخبارات أن تحاكى الشركات الخاصة ، أى أنها ستتعامل مع موردين خارجيين ، مفككة بذلك التكامل الرأسى المميز لعمليات الانتاج بالجملة·

ولقد اعتادت أجهزة التجسس دائما على تكليف آخرين بتنفيذ بعض مهامها · فوكالة المخابرات المركزية الامريكية وجهاز المخابرات

الفرنسى سبق لهما أن لجآ الى رجال المافيا وكبار رجال العصابات لتنفيذ المهام القذرة بدلا منهما · كما قامت أجهزة الاستخبار فى كثير من الأحيان بانشاء شركات وهمية مثل « شركة المعاطف الأجنبية الممتازة » الشهيرة التى استخدمتها شبكة تجسس « الأوركسترا الحمراء » فى عملها ضد النازيين خلال الحرب العالمية الثانية ، أو شركات الطيران الخاصة التى استخدمتها ال (سى· آى· ايه) فى حرب فيتنام · غير أن أجهزة التجسس ستضطر قريبا الى الاعتماد بدرجة غير مسبوقة على اسهام خارجى لخبراء وموردين مستقلين ·

ان الازدهار الذى يشهده هذا الشكل من « التعامل من الباطن » يظهر حاليا فى صورة مكاتب استخبارات خاصة متخصصة فى كل الفروع الممكنة والمتخيلة ابتداء من تحليل المخاطر السياسية الى جمع المعلومات التقنية · ان احدى هذه الشركات — وهى مؤسسة Business Environment Risk Information ومقرها فى لونج بيتش بولاية كاليفورنيا — اقترفت احيانا أخطاء جسيمة غير انه مما يحسب لها أنها نبهت عملاءها فى ديسمبر ١٩٨٠ الى ان الرئيس المصرى أنور السادات سيتم اغتياله ، أى بسبق عشرة شهور · كما تنبأت بغزو العراق لايران قبل حدوثه بتسعة شهور · ففى عام ١٩٨٥ كان هذا النوع من « بوتيكات » المعلومات يعد بالعشرات ، أى قبل « الازدهار المفاجىء » الذى شهدته هذه البوتيكات ·

ويستخدم العديد منها كبار المسئولين وعملاء مخابرات سابقين · وأبرز هذه الشركات هى شركة كيسينجر وشركاؤه التى كان يتعاون معها فى وقت ما برنت اسكوكروفت مستشار الرئيس بوش للأمن القومى ولورنس ايجلبيرجر الرجل الثانى فى وزارة الخارجية الأمريكية ووليم سايمون وزير مالية سابق وبالطبع هنرى كيسينجر شخصيا الذى كان مستشارا للأمن القومى ثم وزيرا للخارجية · ويلتحق بمثل هذه الشركات مسئولون لهم صلات بالمخابرات مثل وليام كولبى المدير السابق لل (سى· آى· ايه·) الذى افتتح وكالته الخاصة فى واشنطن بعد أن ترك « الشركة » ، وعلى حد قوله فان « العمل فى مجال التقديرات والتحليلات يشبه كثيراً العمل فى مجال الاستخبار » ·

وتستطيع الحكومات التى تستخدم شركات الاستخبار الخاصة أن « تنفى » بالطبع وجودها · ولكن هذه الشركات تنجح فى جذب أفضل

المحترفين لأنها تمنح رواتب السوق وليس رواتب الخدمة المدنية ٠ وأخيراً يمكنها أيضا القيام بالمهام السرية التى لا تناسب من حيث طبيعتها المؤسسات البيروقراطية ٠

اننا سنشهد اذن فى مجال الاستخبار مزيدا من الاندماج أو التداخل بين القطاعين العام والخاص ٠

المعنى الجديد لـ « العيون الخاصة » :

غير أن الدليل المذهل على ما يمكن تسميته بالـ « خصخصة » المتزايدة للاستخبار موجود فى الفضاء وليس على الأرض ٠ اذ تطرح خمس دول هى الولايات المتحدة وفرنسا واليابان والهند والاتحاد السوفيتى فى السوق الآن البيانات التى قامت أقمارها بجمعها ٠

وترجع هذه الظاهرة الى عام ١٩٧٢ عندما أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية « الناسا » أول قمر صناعى من أقمار لاندسات للاستخدام المدنى ٠ ويوجد حاليا فى المدار قمران من هذا النوع « لاندسات ـ ٤ ولاندسات ـ ٥ » ومن المقدر اطلاق قمر ثالث قريبا ٠ وترسل هذه الأقمار التى تدور على مدار يبعد ٧٠٠ كيلو متر من سطح الأرض معلومات تستخدم بانتظام فى التنقيب عن المعادن وفى التوقعات الخاصة بالمحاصيل والعمليات المتعلقة بالغابات ٠٠٠ الخ ٠

ويتم بث البيانات التى تسجلها الأقمار أتوماتيكيا الى حوالى ١٥ بلدا ، يحصل كل منها على تدفق مستمر من الصور فى شكل رقمى مقابل ٦٠٠ ألف دولار سنويا ٠ ومن بين عملاء لاندسات وزارة الدفاع الأمريكية والجيش اليابانى الذى يراقب من خلاله القسم الشرقى من سيبيريا ٠ وفى عام ١٩٨٤ تمكن عالم أمريكى فى جامعة ألاسكا هو الدكتور جون ميللر ، أن يرصد ما بدا كأنه تجارب سوفيتية تهدف الى بيان امكانية اطلاق صواريخ نووية من غواصات تتحرك تحت جليد القطب الشمالى ، وذلك اعتمادا على صور لاندسات ٠

ودخل الفرنسيون فى منافسة مع لاندسات باطلاقهم للقمر سبوت يوم ٢١ فبراير ١٩٨٦ ٠ ومنذ ذلك الحين أصبح فى امكان العلماء والجمهور العريض تتبع العمليات العسكرية والصناعية فى أى مكان على الكرة الأرضية ٠ لقد مضى الزمن الذى كان فيه السوفيت والأمريكيون يتقاسمون احتكار المعلومات التى يتم التقاطها من الفضاء ٠

وبالرغم من أن الصور التى يوفرها كل من سبوت ولاندسات ليست بجودة الصور المتاحة لدى الجهات العسكرية ، فانها جيدة بما فيه الكفاية ، حتى ان الحكومات التى لا تملك أقمارا خاصة بها تعتمد على المعلومات العسكرية التى يقوم سبوت بتسويقها تجاريا ٠

أما العملاء الأكثر تشدداً فيستطيعون حاليا شراء صور وبيانات من عدة مصادر ودمجها ومعالجتها بواسطة الكمبيوتر والحصول بالاستدلال على معلومات تفوق كثيرا ما كان يمكن استخلاصه من مصدر واحد ٠

ومن ناحية أخرى ، فهنالك صناعة مزدهرة تهتم أساسا بمعالجة البيانات المرسلة من واحد أو أكثر من هذه الأقمار ٠ وهى تضم معهد ميتشيجان لأبحاث البيئة وكذلك المركز السعودى للاستشعار عن بعد فى الرياض ومعهد بحوث الفضاء فى ساوباولو ٠ أما شركة آرداس فى مدينة أطلنطا فهى تنتج البرامج الاعلاماتية لحوالى مائتى شركة على امتداد العالم تهتم بمعالجة تلك الصور « ذات القيمة المضافة » ٠

ولعل أفضل مثال على نهاية احتكار المعلومات الاستخبارية هو العمل الذى تقوم به « الشبكة الاعلامية الفضائية » ومركزها مدينة استكهولم ٠ فهى تشترى البيانات من كل من سبوت ولاندسات وتقوم بمعالجتها بواسطة الكمبيوتر وتستخرج منها صورا تمد بها الصحافة العالمية ٠ ولابراز سمة « الاستخبار » فى أنشطة هذه الشبكة فهى تعلن فى احدى نشراتها أنها تقدم معلومات عن « أى جزء من العالم تكون سبل وصول وسائل الاعلام اليه محدودة أو محظورة ، سواء أكانت مناطق حدودية أم مناطق حرب أم أزمات أم كوارث » ٠

كما نشرت هذه الشبكة صوراً تبين استعدادات سوفيتية سرية خاصة ببرنامج مكوك فضائى وكذلك بيانات عن ليزر سوفيتى عملاق قد يكون جزءاً من نظام مضاد للصواريخ وعن مصنع للصواريخ الصينية فى المملكة السعودية ٠ وعن مشروع لصنع أسلحة نووية فى كاهوتا بباكستان ٠ ومن ناحية أخرى تقوم هذه الشبكة بعملية رصد مستمرة للخليج الفارسى ومواجهاته العسكرية ٠ لم تعد الكتابة الآن على الجدران وانما فى السماء ٠ وسوف تستمر عملية كسر احتكار الاستخبارات الفضائية مع دخول أقمار جديدة فى الخدمة وتطور التكنولوجيا الاعلاماتية ٠ ففى مجال الأقمار حققت بلدان مثل العراق والبرازيل

تقدما ملحوظا ، كما تهتم بلدان آخرى مثل مصر والأرجنتين بتطوير امكاناتها لاطلاق الصواريخ ، ويهدف مشروع انسكوم الصينى البرازيلى المشترك الى الجمع بين مهارة البرازيليين الفنية فى مجال الأقمار والامكانات الصينية فى مجال اطلاق الصواريخ الفضائية ٠

وبالتدريج ، أصبح ما كان حكراً من قبل على القوى العظمى وجواسيسها فى متناول يد قوى أصغر وكذلك – الى حد ما على الأقل – فى متناول مستخدمين خصوصيين ووسائل الاعلام العالمية ٠

وفى ظل هذا التطور تصبح وسائل الاعلام ذاتها منافسا رئيسيا لأجهزة انتاج المعلومات الاستخبارية ٠ ويروى مسئول سابق فى البيت الأبيض قائلا : « عند وصولى للعمل فى البيت الأبيض كنت ضحية « لسحر السرية » ، فكان كل ما يحمل اشارة « سرى » قيما بالضرورة ٠ غير أننى سرعان ما لاحظت أنه كثيرا ما أكون قد سبق أن قرأت فى صحيفة « الفاينانشيال تايمز » ما كان أمام عينى ويحمل اشارة « سرى » ٠ كما أن التغطية التليفزيونية الفورية للأحداث تحرم الجواسيس عادة من فرصة التدخل » ٠

ان استمرار تقدم عملية خصخصة الاستخبارات ونشرها من خلال وسائل الاعلام سيرغم أساتذة التجسس الى اعادة التفكير فى نشاطهم ، كما حدث فى العديد من قطاعات الانتاج والخدمات الأخرى ٠ كذلك يتعين على الجاسوسية أن تتكيف بدورها مع النظام العالمى الجديد لخلق الثروة ، الا أنها تواجه بعض المشكلات غير المطروحة على الصناعات الأخرى ٠

التناقضات الأساسية :

لم يعد يعانى زبائن أجهزة الاستخبارات – من مسئولين حكوميين أو مسئولين سياسيين – من أى نقص فى المعلومات بل انهم متخمون بها ٠

ان طوفان البيانات المتاحة حاليا والحمل الزائد الناجم من ذلك يعنيان أن المشكلة الرئيسية للجاسوسية لم تعد البحث عن المعلومات وجمعها وانما تكمن فى تفسير وتحليل هذه المعلومات وفي ايصالها الى المسئولين المحتاجين اليها ٠

ونتيجة لذلك يغدو التجسس أكثر اعتماداً على الأخصائيين وعلى الذكاء الاصطناعى للقيام بعمله التحليلى • غير أن التكنولوجيا وحدها لن تقدم الحل لحالة العجز التى يعانى منها تحليل المعلومات ، انمـا يتطلب الأمر تناولا جديداً تماما للمعرفة •

ونظرا لأن تسرب المعلومات السرية قد تكون له عواقت وخيمة مثل موت المخبرين فان ال (سى• آى• ايه) وأجهزة التجسس الأصغر منها فى العالم تطبق مبدأ « التجزئة » • بحيث نادراً ما يرى المحللون المهتمون بمشكلة ما الصورة كاملة بل يتم تزويدهم بقدر محدود من المعلومات الضرورية لمعرفة ما يلزم معرفته فقط وفى الغالب لا تتوفر لديهم أية وسيلة لتقييم مصداقية ما يعرض عليهم من معلومات • ونظريا يتم تجميع المعلومات ونقلها الى المستوى الأعلى وتجتاز بذلك عدة مراحل قبل أن تصل الى قمة التسلسل الهرمى •

ولكن سبق أن رأينا ما تؤول اليه هذه النظرية فى الاطار البيروقراطى وكيف يرتكب هذا النظام أخطاء فادحة عندما يتسارع التغيير وتغدو البيئة المحيطة أكثر اضطرابا نظرا لبطئه المفرط ولجهله بالعديد من العوامل •

وهو الأمر الذى له عواقبه • فعلى سبيل المثال لام السناتور سام نن - الخبير العسكرى المرموق فى مجلس الشيوخ الأمريكى - أجهزة الاستخبارات بشدة لأنها سمحت لتطور الأحداث السريع فى أوروبا أن يتجاوزها واضعه بذلك الكونجرس فى وضع يستحيل معه اتخاذ قرارات سليمة بشأن ميزانية الدفاع الأمريكية • ان السماح للأحداث بأن تسبق أجهزة الاستخبارات قد يؤدى الى كارثة •

وللتغلب على مثل هذه المشاكل بالتحديد ، فان الشركات الأكثر تطوراً تتيح لموظفيها سبل الوصول الى مزيد من المعلومات وتصرح لهم بالاتصال بحرية خارج القنوات الرسمية دون الاكتراث بالتسلسل الهرمى غير أن مثل هذه التجديدات تتعارض مباشرة مع الحاجة الى السرية التى تفرضها أنشطة التجسس • ولذا يجد الجواسيس أنفسهم الآن فى مأزق •

بل انهم فى مأزق مزدوج ، فالأمر لا يقتصر على أن أغلب المعلومات التى يوفرونها تصل متأخرة للغاية ولكن غالبا ما تكون لا علاقة لها بما يتوقعه المسئولون الذين هم « زبائن » لهم •

يقول ليونيل أولمر وكيل وزارة التجارة السابق فى هذا الصدد : « اننا على الصعيد السياسي في حاجة الي توجهاتِ أكثر تحديدا من

جانب الحكومة ، اذ يجب ألا تكتفى بدور المستهلك للمعلومات الاستخبارية وانما عليها أن تساهم فى عملية انتاجها » · لقد رأينا فى الصناعة انه تم الاعتراف للمستهلكين بدور فى عملية الانتاج ونظمت جماعات المستخدمين نفسها فى شبكات لمساعدة المنتجين · لقد أخذ الخط الفاصل بين الانتاج والاستهلاك يبهت تدريجيا الآن ·

ومن المنطقى تماما أن يقترح أولمر على كبار المسئولين السياسيين أن يساهموا فى انتاج المعلومات · ولكن كلما زاد تدخل المسئولين السياسيين وكبار الموظفين فى عملية انتاج المعلومات الاستخبارية زاد خطر ألا يجد رؤساء الدول ورؤساء الحكومات فى الملفات التى تقدم اليهم سوى ما يودون سماعه ــ أو ما يجسد الرؤية الضيقة لحزب معين أو لطائفة بعينها · وهو ما سيؤدى الى مزيد من التحريف للمعلومات التى سبق لها أن تعرضت للتلاعب على أيدى ممارسى التكتيكات الأسمى أثناء مرورها بين ايديهم ·

واذا ما تم تحريف المعلومات الاستخبارية من قبل عدو لدولة ما ، كما يحدث عندما يكون الجواسيس عملاء « مزدوجين » ، فان النتائج قد تكون وبيلة · غير أن الخطر نفسه قائم اذا ما تم تحريفها لاغراض سياسية من قبل شخص من نفس البلد ·

ان الثورة التاريخية التى تواجهها صناعة الاستخبارات تضعها مباشرة على المسار الذى يتبعه تطور النظام الجديد لخلق الثروة ، متجاوزة بذلك مرحلة الانتاج الكمى · ويتعين على صناعة الاستخبارات ، مثل غيرها من الصناعات الأخرى ، أن تواجه منافسة من جهات غير متوقعة على الاطلاق · كما يجب ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الصناعات، أن تشكل تحالفات جديدة طبقا للتغيرات التى تطرأ باستمرار · وعليها كغيرها من الصناعات أن تعيد صياغة تنظيمها وأن تكيف منتجاتها حسب متطلبات العميل · وأخيراً يجب أن تعيد النظر فى وظائفها الرئيسية ·

لقد كتب جوزيف كونراد « ان أكثر تصرفات الانسان جلاء تخفى جانبا سريا » ، كذلك الديمقراطيات مهما أرادت أن تكون شفافة فان لها أيضا جانبها السرى ·

وسوف تكون الديمقراطية فى خطر مميت اذا أصبحت العمليـــات الاستخبارية ـ التى يصعب خاليا على البرلمانات والرؤساء مراقبتها ـ متشابكة الى هذه الدرجة مع الأنشطة اليومية للمجتمع وغدت لا مركزية الى هذا الحـد وممتزجة بالأعمال والمصالح الخاصة الى درجـة تجعـل من المستحيل ممارسة أية رقابة فعلية عليهـا ٠

ومن ناحية أخرى ، لن تستطيع الديمقراطيات البقاء بدون أسرار وأجهزة سرية طالما ظلت بعض الأمم تحكم بواسطة طغاة أو جلادين أو ارهابيين أو متعصبين مسلحين بأسلحة فتاكة ٠

وتصبح طريقة ادارة هذه الأسرار ـ وكذلك المعرفة بشكل عام ـ هى القضية السياسية المحورية لعصر تحول السلطة ٠

الفصل الخامس والعشرون

جــدول أعمال المعلومات

جلس الرجل ذو جواز السفر الأيرلندى فى حجـرته بأحد فنـادق طهـران ينتظر الى ما لا نهـاية اشارة لم تأت قط ٠

ولم يكن هذا الرجل ، الذى كان مسلحا بكعكة شوكولاته على شكل مفتاح ، سوى روبرت ماكفرلين ، مستشار رونالد ريجان السابق للأمن القومى ، الذى ما لبث أن عرفه العـالم بعد ذلك بقليل ٠ ولم يقـدر لهذه الكعكة أن تقدم كهدية كمـا كان مقررا لهـا ٠ ففى الواقع لم ينس أحـد أن محاولة ماكفرلين التى أجهضت لتحرير الرهائن وفتح منفـذ انقـاذ «للمعتدلين» الايرانيين قد فجرت فضيحة ايران جيت ، وهى الحدث الذى ألحق أكبر ضرر بادارة ريجان خلال سنوات حكمه الثمانى ٠

وشارك فى هذه المحاولة مجموعة غير تقليدية من علية القوم ضمت تجار سلاح شرق أوسطيين وعمـــلاء للـ (سى٠ آى٠ ايه) وجنرالات سابقين يحيط بهم الغموض ، وضابط وسيم من ضباط البحرية الأمريكية وسكرتيرته الحسناء ٠ ولقد تابع مشاهدو التليفزيون فى جميـع أنحـاء العـالم بانبهـار جلســات لجنة التحقيــق التابعة للكونجـرس التى أعقبت الفضـيحة ٠

غير أن كثيراً من المشاهدين ، لا سيما من هم خـــارج الولايات المتحدة ، لم يتوقفوا عند ما هو جوهرى فى هذه القضية ٠

وهو أن الصراع السياسى فى واشنطن لم يكن له فى الواقع علاقة بالارهاب أو الحسابات المصرفية السرية أو المعتدلين الايرانيين أو ثوار نيكاراجوا ٠ وانما كان الأمر بالأحرى اختبار قوة بين البيت الأبيض والكونجرس الساخط من أجل السيطرة على السياســة الخـــارجية

الأمريكية . وكان محور هذه المعركة على السلطة هـــو اصرار البيت الأبيض على عدم ابلاغ الكونجرس بأنشطته السرية .

لقد أراد النواب الديمقراطيون أن يثبتوا أن الرئيس هو الذى أمر باعداد هذه الخطة ، بينما أكد فريـق البيت الأبيض المنتمى للحــزب الجمهورى أن فشل العملية يرجع الى الحمـاس الزائد للمنفذين الـذين تصرفوا دون تفــويض من الرئيس . وتركزت التحقيقات والتغطيــة الاعلامية المكثفة على مشكلات السياسة الخارجية وبدرجة أقـل على مسألة معرفة « من كان يعرف ماذا ، ومتى » وأصبحت ايران جيت حربا للمعلومات .

ان ما اتسمت به تلك القضية من تعلل بعدم التذكر ومن وثائـق ممزقة وأسرار وكذب وتسرب للمعلومات لا يزال يشكل حتى الآن ذخيرة وافرة فى مجال الاستخدام والاستغلال التكتيكى للمعلومات . ولـــكن الأهم من ذلك أن هذه الفضيحة تعطى فكرة مبدئية عما يمكن أن تكون عليه السياسة فى المستقبل ، حيث ستصبح البيانات والمعلومات والمعرفة ذات صبغة سياسية الى درجة لم يسـبق لها مثيل فى التاريخ . لأن النظام الجديد لخلق الثروة ـ بغض النظر عن الجواسيس والتجسس ـ يدفعنا حاليا وبأعلى سرعة الى عصر سياسة المعلومات .

عطش للمعرفـــــة :

لقد ارتكزت قوة الدولة دائما على سـيطرتها على القـوة والثروة والمعرفة . والأمر الذى اختلف حاليا بعمق هو العلاقة بين هذه العناصر الثلاثة . فالنظام فوق الرمزى الجديد لخلق الثروة يضع تنويعة كبيرة من المشكلات المرتبطة بالمعلومات على قائمة الاهتمامات السياسية .

وتشمل هذه المشكلات احترام الحياة الخاصة وقرصنة المنتجات (أى نسخها وتقليدها بطريقة غير قانونية) والاتصالات وأمن أجهـزة الكمبيوتر والتعليم وجرائم البورصة الخاصة بالمتاجرة من الداخل والدور الجديد للأطباء . غير أن هذه القضايا بالرغم من تعددها وتنوعهـــا لا تمثل سوى أعلى قمة الجزء الطافى من جبل الجليد العائم .

يزدحم جدول أعمال المعلومات بسرعة كبيرة ، وان كان ذلك غير ملحوظ بعد بالقدر الكافى .. فلقد ارتأت الدورة ١٠١ للكونجرس فى الولايات المتحدة ادخال أكثر من مائة اقتراح بقوانين تخص مشكـــلات مرتبطة بالمعلومات ، تناول ٢٦ منها الطريقة التى يتعين أن تتبعهـــا

الحكومة الفيدرالية فى بث البيانات والمعلومات التى جمعت على حساب دافعى الضرائب · لقد أصبح فى امكان أى شخص الآن يملك كمبيوتر شخصيا ووحده ربط ، الوصول الى العديد من بنوك المعلومات الحكوميه والحصول على معلومات حول عدد مذهل من الموضوعات · ولكن كيف ينبغى أن تتم عملية التوزيع هذه ؟ هل يتعين على الحكومة أن تتعاقد مع شركات خاصة لتتولى مهمة تأمين التوزيع الالكترونى لهذه المعلومات وبيع حق الوصول اليها مقابل رسم معين ؟ يرى العديد من أمناء المكتبات والباحثين الجامعيين والمدافعين عن الحريات المدنية أن المعلومات الحكومية يجب ألا تباع وانما يتم وضعها تحت تصرف الجمهور مجانا · ومن ناحية أخرى ، تزعم الشركات الخاصة التى تقوم بدور الوسيط أنها تقدم خدمات اضافية ، مبررة بذلك تحصيلها لرسوم ·

غير أن اشكالية المعلومات تمتد الى أبعد من مثل هذه الاهتمامات بكثير ·

وكلما توغلنا فى الاقتصاد فائق الرمزية الجديد بدت قضايا المعلومات أقل غموضا وبعدا · فالجمهور الذى أصبح يعتمد فى كسب عيشه بدرجة متزايدة على معالجة الرموز يغدو أيضا أكثر احساسا بما تنطوى عليه هذه الرموز من معانى القوة ، ويطالب هذا الجمهور حاليا بقدر أكبر من المعلومات بشكل متزايد خاصة عن كل ما يمس الظروف المرتبطة ارتباطا مباشرا برفاهيته ·

ففى عام ١٩٨٥ كشف مسح أجراه مكتب احصائيات العمل فى الولايات المتحدة أن أكثر من نصف قوة العمل التى تعرضت لاجراءات استغناء جماعى – وقوامها ٢ر٢ مليون عامل – أخطرت بقرار الفصل قبل ٢٤ ساعة فقط من طردها الى الشارع ، ولقد طالبت المنظمات النقابية منذ عام ١٩٨٧ بقانون يلزم الشركات التى تعتزم اجراء تخفيضات كبيرة فى عدد العاملين بها أن تخطر هؤلاء العاملين بذلك قبل تنفيذ القرار بستين يوما وأن تبلغ كذلك سلطات الدولة والسلطات المحلية المعنية ·

غير أن أصحاب العمل عارضوا بشدة هذا القانون المقترح مشيرين الى أن اعلان مثل هذه المعلومات من شأنه تقويض الجهود المبذولة من جانب المسئولين لانقاذ الشركة ، اذ من سيقدم على الاستثمار فى مثل هذه الشركة أو الاندماج معها أو التعاقد أو الموافقة على منحها تمويلا

ما عندما يعرف أنها ستقوم بعمليات استغناء جماعية عن العـــاملين بهـــــا ؟

لكن الرأى العام أبدى تعاطفا متزايدا مع هــذا القـــانون وأعلن رئيس المجموعة الديمقراطية فى مجلس الشيوخ آنذاك « ان القضية ليست قضية تشريع عمالى وانما هى مسألة عدل محض » ٠

وفى عام ١٩٨٨ كانت المعركة على أشدهــا فى واشنطـــن بين كونجرس يساند بشدة القانون المقترح والبيت الأبيض الذى يعارضـــه تماما ٠ وأخيراً تمت الموافقة على القانون بالرغم من التهديد باستخدام رئيس الجمهورية لحق الفيتو ٠ وبات من حق العاملين الأمريكيين أن يعرفوا مقدما متى سيفقدون وظائفهم بسبب اغلاق مصنع ما ٠

ويتوقع الأمريكيون مزيداً من المعلومات عن الظروف التى يعملون فى ظلها ٠ فجماعات الدفاع عن البيئة وتجمعات عديدة من المواطنين على امتداد الولايات المتحدة تطالب بالحاح السلطات الحكومية بمعلومات مفصلة عن النفايات السامة والمواد الملوثة الأخرى ٠

لقد انتاب هذه الجماعات سخط شديد عندما علمت مؤخراً أن مصنعا للأسلحة النووية يقع قرب أيكن بكارولينا الجنـــوبية تعرض خلال الفترة من ١٩٥٧ الى ١٩٨٥ لثلاثين حادثة تسرب نووى ـ وصـــفها أحـــد المتخصصين فيما بعد بأنها « حوادث مفاعل على جانب كبير من الخطورة» ـ أى بمعدل أكثر من حادثة فى العام ٠ ومن ضمن هذه الحوادث حـادث «تسرب» واسع النطاق لاشعاعات نووية وحادث انصهار لوقود نووى ٠ الا أن سكان المناطق المجاورة للمصنع لم يخطروا بذلك ولا الجمهـــور العريض أيضاً ٠ كما لم يتخذ أى اجراء عندما قـدم المتخصصـــون تقاريرهم عن هذه « الحوادث » ، ولم تر القضية النور الا أثناء تحقيق أجرته احدى لجان الكونجرس فى عام ١٩٨٨ ٠

كانت شركة « دوبونت أند سى » هى التى تقــوم بتشغيل المصـــنع لحساب حكومة الولايات المتحدة ٠ واتهمت الشركة بأنها اخفت الوقائع ، غير أنها أصدرت على الفور تكذيبا مشيرة الى أنها أبلغت وزارة الطاقة بتلك الحوادث طبقا للاجراءات المعتادة ٠

وعندئذ تقبلت وزارة الطاقة اللوم على كتمانها للمعلومات ٠ وقد كانت هذه المؤسسة مشبعة بمبادىء السرية العسكرية وبالتقاليد الموروثة

من مشروع منهاتن الذى أدى الى انجاز القنبلة الذرية أثناء الحـــرب العالمية الثانية · غير أن ضغط الرأى العام المطالب بالشفافية أثار صراعا داخليا بين وزير الطاقة جون هرينجتون الذى كان يناضل من أجل قدر أعلى من معايير الأمان والسلامة وقدر أكبر من المكاشفة ، والمسئولين الميدانيين فى وزارته الذين كانوا يقاومون مثل هذه الاجراءات ·

ولكن فى الوقت الذى كان فيـه هذا الصراع محتدما ، بدأ تطبيـــق قانون ثورى جديد ، يطالب ولأول مرة باعطـــاء الجمـــاعات المحليـــة فى جميع أنحـــاء الولايات المتحدة معلومات مفصـــلة عن النفـــايات الســـامة والنواتج الخطرة الأخرى التى قد تتعرض لها هذه الجماعات · ويقول ريتشارد سيجيل – وهو مستشار لشركة قامت بمساعدة ٣٠٠ مصنع على الالتزام بضوابط الحد من التلوث : « لأول مرة ســيعلم الجمهـــور كل شىء عن المواد الملوثة التى تتصاعد من المصنع الواقع فى نهايـــة الشارع » · لقد كان ذلك انتصاراً جديداً وجليا لحق الجمهـــور فى الوصول الى المعلومات ·

ان هذه المطالبة المتزايدة بالشفافية ليست ظاهرة أمريكية فقط ، كما أنها لا تقتصر على المشكلات الداخلية ·

ففى أوساكا باليابان ، أنشأت مجموعة من المواطنين « شبكـــة كانساى من أجل حق المعرفة » · ونظمت هـــذه الشبكة منـــذ تكوينهـــا ما يسمونه بـــ « جولات » فى الدوائر الحكومية والبلدية فى جميع أنحاء المقاطعة للمطالبة بحق الوصول الى المعـــلومات التى كانت سرية حتى ذلك الحين · ولقد تمت الاستجابة لستة طلبات من بين ١٢ طلبا كانت قد تقدمت بها الشبكة للادارات المختلفة فى المقاطعة ، فى حين تم رفض البـــاقى على وجه السرعة · وكان من بين الطلبات المرفوضة طلب لمعـــرفة المزيد عن حساب نفقات الحاكم ·

أما رد بلدية أوساكا فكان ، اذا جاز التعبير ، أكثر لباقة عندمـــا طالبت المجموعة بالملف الخاص بشراء مجلس المدينة للوحة موديليـــانى ، وهى اللوحة التى تعتبر درة متحف أوســـاكا للفن الحديث · لم ترفض السلطات الطلب ولكنها ببساطة لم ترد عليه · غير أن الضغوط من أجل الوصول الى الوثائق الرسمية ذات الأهمية المحلية أو القومية على حد سواء لن تفتر قط ·

ان نمو ما يمكنتسميته بالوعى المعلوماتى بالتوازى مع نمو الوعى بالاقتصاد المبنى على أجهزة الكمبيوتر والمعلومات والاتصالات ، أرغـــم

الحكومات على أن تولى اهتماما مستمرا بالمشـــكلات المتصـلة بالمعرفة مثل مشكلات السرية وحق الجمهور فى الوصـول للمعـلومات واحترام الحياة الخاصة ٠

فمنذ عام ١٩٦٦ ، وهو تاريخ اجازة الولايات المتحدة لقانون حرية المعلومات الذى وسع حق المواطنين فى الوصول الى المستندات والوثائق الرسمية ، انتشر هذا المفهوم بانتظام فى الدول ذات الاقتصادات المتقدمة ٠ ففى عام ١٩٧٠ أقرت كل من الدنمارك والنرويج هذا القانون ثم فرنسا وهولندا فى عام ١٩٧٨ ثم كندا واستراليا فى عام ١٩٨٢ ، غير أن هذه القائمة لا تعبر عن كل الحقيقة ٠ لأن عدداً أكبر بكثير من المدن والأقاليم والولايات قد تبنت تشريعات مماثلة ـ أحيانا حتى قبل أن تقوم الدولة ذاتها بذلك ٠ ففى اليابان مثلا أقرت خمس مقاطعات وخمس مـــدن كبرى ومنطقتان خاصتان وثمانى مدن متوسطة قانون حـرية المعـلومات منذ عام ١٩٨٥ ٠

كما شهدت نفس الفترة الانتشار السريع لقوانين تحدد حق احترام الحياة الخاصة ٠ ففى عام ١٩٧٣ أقرت السويد تشريعات لحماية الحياة الخاصة تلتها الولايات المتحدة فى عام ١٩٧٤ ثم تبعتهما كندا وفرنسا وألمانيا الغربية فى عام ١٩٧٨ وانضمت بريطانيا الى الركب فى عـــام ١٩٨٤ ٠ وتنشىء العديد من البلدان هيئات مسئولـة عـن « حمـاية البيانات » تهدف الى حماية الحياة الخاصة من الاستخدام التعسفى لأجهزة الكمبيوتر ٠ وقد تختلف بالطبع الشروط والأساليب من بلد الى آخر وكذلك الفاعلية ، ولكن النسق العام واضح وجلى : فكلما تطـور الاقتصاد فائق الرمزية تتخذ قضايا المعلومات فى كل مكان مزيداً من الأهمية السياسية ٠

قنابل ارهابية وضحايا الايدز :

وتدور حرب معلومات متصلة فى كل مكان بين سدنـة السريـــة ومجموعات المواطنين التى تقـاتل من أجل المزيد من حـــرية الوصـــول للمعلومات ٠

ولكن قد يحدث مثلا أن يصطدم هـذا المطلب بضرورات الأمـــن والسلامة التى يقرها الجميع علنا ٠ فبعد حادث انفجار قنبلة على متن الرحلة ١٠٣ لشركة بان أمريكان فوق بلدة لوكربى فى اسكتلندا يوم ٢١

ديسمبر ١٩٨٨ ، والذى ذهب ضحيته ٢٥٩ راكبا وأفراد طاقم الطائرة ، كشفت الصحافة أن السلطات كانت قد تلقت تحذيرا قبل وقوع الحادث ٠ وأراد الرأى العام العالمى الغاضب أن يعرف لماذا لم يتم تحذير الجمهور العريض فى حينه ٠ وتحول جزء كبير من الغضب الموجه للارهابيين وانصب على السلطات ٠

وأدى رد الفعل العنيف هذا الى قيام لجنة فرعية من لجان مجلس النواب بتحقيق سريع ونشرت قائمة طويلة للتعليمات الأمنية التى كانت الادارة الفيدرالية المسئولة عن الطيران قد وجهتها الى شركات الطيران٠ غير أن هذا الانتهاك للسرية المحيطة بهذه التعليمات أثار بدوره وزير النقل الأمريكى الذى اتهم اللجنة الفرعية بأنها تعرض بهذا الاجراء « حياة الركاب للخطر بكشفها بعض التعليمات الأمنية » ٠

ولكن كارديس كولينز رئيسة اللجنة الفرعية لم تستسلم ووصفت هجوم الوزير بأنه « مضلل » ٠ وقالت أن نشر تعليمات الادارة الفيدرالية للطيران كشف فى الواقع عن وجود عيوب خطيرة فى نظام التحذير برمته وخدم بالتالى الجمهور ٠ الا أن شركات الطيران الأمريكية وحدها تتلقى سنويا حوالى ٣٠٠ تهديد بوجود قنابل ، وقد يؤدى نشر التعليمات الى شل كل حركة الملاحة الجوية لأنه يتيح للارهابيين امكانية ارباك النظام ، فى أى وقت ، مقابل ثمن مكالمة هاتفية ٠

وسرعان ما وجدت الهيئات التنفيذية والتشريعية نفسها ، وكذلك شركات الطيران ووكالات الرقابة والشرطة وغيرها ، متورطة فى معركة عامة ـ لا تزال مستمرة حتى الآن ـ من أجل السيطرة على هذه المعلومات٠

وفى ديسمبر ١٩٨٩ ، أى بعد عام فقط من مأساة لوكربى تلقت شركة طيران نورث ويست تهديداً بنسف طائرتها القائمة بالرحلة رقم ٥١ بين ديترويت وباريس ٠ وقررت الشركة ، وذكرى حادث العام السابق ما زالت حية فى ذاكرتها ، أن تخبر الركاب الحاجزين على هذه الرحلة بأمر التهديد ، على أن تقوم بذلك عند بوابة الخروج الى الطائرة ، أى قبل الاقلاع مباشرة ٠ الا أن صحيفة سويدية نشرت نبأ التهديد مما دفع شركة الطيران لتحذير الركاب مقدما عن طريق الهاتف مقترحة عليهم المساعدة فى عمل ترتيبات بديلة اذا رغبوا فى ذلك ٠ (جميع الركاب سافروا على نفس الرحلة التى تمت دون حوادث) ٠

كما تصطدم المطالبة بقدر أكبر من المعلومات بمتطلبات احترام الحياة الخاصة التى سبق الاشارة اليها آنفا ٠ ومن بين أكثر مشـكلات المعلومات حساسية تلك التى يثيرها وباء الايدز ٠ فبينما كان المرض ينتشر بسرعة فى العـديد من البلدان ، حاملا معه قدرا غير قليل من الهلع، طالب بعض المتطرفين بوسم ضحايا الايدز وعزلهم ٠ وحاول أوليـــاء الأمور ، الذين استبد بهم الذعر ، طـرد الأطفــال المصابين بالايدز من الفصول الدراسية ٠ كما طالب وليام بينيت ، الذى كان وزيرا للتعليـــم آنذاك والمعروف بتشدده ، باجراء فحوص اجبارية للايدز لفئات معينة من بينهـا كل مرضى المستشفيات والراغبـون فى الزواج والمهـــاجرون والسجناء ٠ وكان يريد أيضا أن يتم حصر كل زوج أو زوجة أو شريك جنسى سابق لأى شخص يثبت التحليل أنه حامل لفيروس الايدز ٠

وأثار موقف بينيت استنكارا عاما لدى المسئولين عن الصحة العامة ورجال القانون ودعاة الحريات المدنية ، وجميعهـم يؤيـدون الفحص التطوعى ٠ ومما يدعـو للدهشـــة تناقض مواقف الذين ناضلوا من أجـل حماية الحياة الخاصة فى هذه الحالة بالذات ، ففى مواقف أخرى كانوا هم أنفسهم الذين قادوا الحملات من أجل الكشف عن المعلومات ٠

كان البعض يؤكد أن الاختبارات الطبية ليست أكيدة ١٠٠٪ ، واذا ما أعلنت نتائجها فان الضحايا سيتعرضون لتمييز واضطهاد فى العمل أو المدرسة فضلا عن العديد من الأضرار الأخـرى التى ستلحق بهـم ٠ زد على ذلك أنه اذا أصبحت الفحوص اجبارية فقد يختبىء الضحـــايا المحتملون أو يرفضون التماس العلاج ٠ وهاجم الجراح العام ايفرت كوب الذى يمثل أعلى سلطة طبية رسمية فى الولايات المتحدة موقف وزيـر التعليم الأمريكى علنا ٠

ولازال الجدل محتدما ليس فقط فى واشنطن ولكن فى عواصـــم العديد من البلدان ٠ ان الحقوق المتبادلة للفرد والجماعة وكذلك مسألة التناقض بين « الخاص » أو السرى و « المفتـــوح » ـ أى الذى يجب كشفه ـ لازالت مشوشة وغامضة وبعيدة تماما عن الوضوح ٠

ومن ناحية أخرى نجد العديد من صراعات المصالح تتولـــد من القوانين الحالية المثيرة للبلبلة التى تنظم بعض المجـالات ، مثـل مجـال حقوق النشر والتأليف وبراءات الاختراع والأسرار المهنية والمضاربـة بالأسهم من داخل البورصة والاطلاع على أسرار دون وجه حق والاستفادة

منها ، وتعتبر كل هذه المجالات جزءاً لا يتجزأ من جدول أعمال المعارمات الذى فى طريقه لأن ينتقل الى فلك السياسة · ومع استمرار تطـــور الاقتصاد فائق الرمزية قد تبرز أخلاقيات للمعلومات تناسب الاقتصادات المتقدمة · أما فى الوقت الحالى فلم تتبلور بعد أخلاقيات مترابطة وبالتالى يتم اتخاذ القرارات السياسية فى ظل فراغ أخلاقى مربك ، فنـــادراً ما توجد قواعد لا تتعارض وتتناقض مع قواعد أخرى ·

ويفتقر العديد من مناطق العالم لأبسط درجات حرية المعلومات وتضطر شعوبها لمواجهة القهر الثقافى والرقابة القــاسية على الصحف ووسواس السرية المرضى لقادة تلك المناطق · أما فى البلدان الديمقراطية ذات التكنولوجيا المتقدمة ، حيث حرية التعبير مضمونة بدرجة أو أخرى فتبدأ سياسة المعلومات فى الارتفاع الى مســتوى أكثر مهارة وبراعة ·

التغذية الارتجاعية العالمية الجديدة :

نظراً للطابع المتداخل والمتشابك للتطورات التكنولوجية ولمشكلات البيئة وشئون المال والاتصالات اللاسلكية ووسائل الاعلام فان نظما جديدة للتغذية الارتجاعية فى مجال الثقافة بدأت تعمل عملها بحيث غـــدت سياسة المعلومات فى بلد ما موضع اهتمام كل البلدان الأخـــرى · وبالتالى يصبح جدول أعمال المعلومات الآن ذا صبغة عالمية · فعندما أطلق مفاعل شيرنوبل سحب الاشعاع الذرى فوق بعض مناطق القـــارة الأوروبية ثارت موجة عارمة من الغضب ضد السوفيت لتأخرهم فى ابلاغ الحكومات المعنية بمسار الغبار الذرى · وأكدت هذه الدول أن من حقهـــا معرفة الحقائق فى حينها ·

ومعنى ذلك أنه ليس من حق أى بلد أن يقرر وحده اخفاء الحقائق وان أخلاقيات المعلومات – حتى وان كانت ضمنية – تتجاوز المصالح الوطنية · ولذا عندما ضربت كارثة أخـــرى الاتحـــاد السوفيتى – زلزال أرمينيا – تعلمت السلطات الدرس وأبلغت على الفور الصحافة العالمية ·

ولكن وفقا لهذا المبدأ الضمنى ، لم يكن الاتحاد السوفيتى الدولة الوحيدة المخالفة · فبعد حادث شيرنوبل بقليل انتقد الأدميرال ستانسفيلد تيرنر المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية بلاده علنا لأنها لم تنشر القدر الكافى من المعلومات عن تلك الكارثة ، وهى المعلومات التى قامت أقمار التجسس الأمريكية بجمعها · ويـــدون أن يفشى أى أسرار أعلن تيرنر « ان قدرتنا على جمع المعلومات [···] تتيح لنـــا امكانية اعلام الناس بشكل صحيح على امتداد العالم كله » ·

ان وسائل الاعلام الجديدة القادرة على بث المعلومات والتى تحيط بكوكب الأرض ، ميسرة بذلك العالمية المكتسبة بواسطة النظام الجديد لخلق الثروة ، تجعل اخفاء المعلومات داخل الحدود الوطنية أو احتواءها فى الخارج أكثر صعوبة ٠

وهو ما نسيته الحكومة البريطانية فى قضية « صائد الجواسيس »٠ فعندما كتب بيتر رايت كتابا يحمل هذا العنوان وضمنه اتهامات خطيرة ضد أعضاء سابقين فى جهاز مكافحة التجسس البريطانى تدخلت حكومة تاتشر لمنع نشره ٠ وردا على ذلك قام رايت بنشر الكتاب فى الولايات المتحدة وبلدان أخرى ٠ وأدت محاولة لندن لحجب هذا الكتاب الى جعله من اكثر الكتب مبيعا دوليا ٠ وخصصت محطات التليفزيون والصحف فى كل مكان مساحات لعرض الكتاب ، ضامنة بذلك أن المعلومات التى أرادت الحكومة البريطانية حجبها ستأخذ طريقها الى بريطانيا وتنفذ اليها ٠ وبسبب عملية التغذية الارتجاعية اضطرت الحكومة البريطـانية الى التراجع عن موقفها ، وأصبح كتاب رايت من أكثر الكتب مبيعا فى بلده أيضا ٠

ومن الممارسات الآخذة فى الشيوع أيضا استخدام وسائل الاعلام خارج حدود ما للتأثير على بعض القرارات السياسية داخله ٠ ففى بون ، نفت حكومة كول أن تكون الشركات الألمانية قد ساعدت رجل ليبيا القوى معمر القذافى فى بناء مصنع للأسلحة الكيماوية على بعد ٧٥ كيلومترا من العاصمة طرابلس ٠ وعندئذ قامت أجهزة الاستخبارات الأمريكية بنشر أدلتها ، التى حصلت عليها بواسطة أقمـار التجسس الخاصة بها ، فى وسائل الاعلام الأمريكية والأوروبية ٠ ودفع ذلك مجلة « شتيرن » الألمانية الى أن تقـوم بتحقيق صحفى متعمق أدى بدوره الى ارغام الحكومة الألمانية ، وهى فى حالة شديدة من الارتبـاك ، على الاقرار بأنها كانت تعرف ما ادعت عدم معرفته ٠

وتتوالى الحالات التى نجد فيها المعلومات ـ من يملكها وكيفية الحصول عليها ـ فى قلب النزاعات والصراعات السياسـية ، سواء الداخلية أو الدولية ٠ والسبب الأساسى للأهمية الجديدة التى تكتسبها سياسة المعلومات تكمن فى تزايد اعتماد السلطة ، بكل أشكالها ، على المعرفة ٠ وكلما انتشر الوعى بهذا الانتقال التـاريخى زادت أهميـة وقوة المعلومات السياسية ٠

غير أن كل ما يحدث حتى الآن ليس سوى مناوشات بالمقارنة بما قد يتبين انه اهم حرب معلومات فى العقود القادمة ٠

شفرة انديانا جونز :

ان أكشاك الشوارع من بين اكثر المناظر انتشارا فى تايلانـد ، ويستطيع المرء أن يشترى منها اشرطة الفيديو والأشرطـة الموسيقية وغيرها من المنتجات باسعار زهيدة ٠ والأسباب وراء ذلك أن هـذه المنتجات ، مثل منتجات اخرى كثيرة يتم تداولها فى انحاء مختلفة من العـالم ، ليست اصلية وانما هى نسخ مقـلدة للمنتج الأصلى يتم انتاجها بدون ترخيص ٠ ومعنى ذلك حرمان المؤلفين والناشرين وشركات التسجيل الأصلية من حقوقهم التى من المفروض أن تعود اليهم ٠

ويتم فى مصر نشر كتب غربية مترجمة الى العربية دون دفع شيء للمؤلفين وأصحاب حقوق النشر ٠ وتشير مجلة « ميدل ايست » الشهرية التى تصدر فى لندن الى أن « عمليات نشر الكتب دون اذن مؤلفيها ودون دفع حقوق نشر بلغت فى الشرق الأوسط درجة لا يضاهيها سوى ما يتم من عمليات مماثلة فى الشرق الأقصى وباكستان » ٠ وفى هونج كونج القت الشرطة القبض على ٦١ شخصا اثر تفتيشها لـ ٢٧ مكتبـة حيث عثرت على ٦٤٧ عملا جاهزا للطبع بشكل غير قانونى ٠

الا أن العديد من البلدان لا تعتبر عمليـات القرصنة هذه مشروعة فحسب بل يتم تشجيعها نظرا للاسهام الذى يمكن أن تقدمه فى عمليات التصدير ٠ كما أن التقنيات الجديدة تجعل عمليات القرصنة أقل تكلفة وأكثر يسرا ٠

لقد كلفت هذه الممارسات صناعة السينما الأمريكية حوالى ٧٥٠ مليون دولار سنويا ، ولذلك قررت هوليوود فى منتصف الثمانينيات أن تقوم بهجـوم مضاد ٠ فعندما تم عرض فيلم «انديانا جونز والمعبد الملعون» كانت كل نسخة من الفيلم تحمل شفرة غير محسوسة تحدد هويتها دون احتمال لأى خطأ ، بحيث يستطيع المحققون اكتشاف مصدر أى نسخ غير قانونية تطبع منها ٠ ومنذئذ بدات كبرى شركات الانتاج السينمائى فى استخدام شفرات مماثلة ٠

بيد أن تايوان مثلا كانت تأوى حتى عام ١٩٨٩ (١٢٠٠) قاعـة عرض خاصة صغيرة تسمى بـ « صالونات التليفزيون » ٠ وكان المراهقون

يتجمعون فى هذه القاعات لمشاهدة شرائط فيديومنسوخة بشكل غير قانونى لأحدث الأفلام الأمريكية · وكانت طوابير الشباب تنتظر على امتداد البنايات دورها فى الدخول · ولاقت هذه العروض غير القانونية رواجا كبيرا حتى أنها خفضت مبيعات تذاكر دور السينما العادية · وفى النهاية ، اضطرت الحكومة فى تايوان الى معاقبة هذا النشاط غير المشروع تحت ضغوط شركات هوليوود ·

وبالتوازى مع عمليات النسخ والطباعة بغير ترخيص اندلعت حرب براءات الاختراع ، اذ رفض العديد من البلدان دفع حقوق الاختراع ـ أى المبالغ التى تدفع للمخترع عن كل سلعة مباعة من اختراعه ـ عن عقار طبى جديد مثلا رصدت لابتكاره وتجربته استثمارات ضخمة وأنجزه باحثون متخصصون ·

وبالاضافة الى عملية النسخ والطباعة بدون ترخيص ، أى القرصنة الصريحة ، وأصبحت عمليات تقليد المنتجات صناعة عالمية واسعة النطاق · فلقد تم اغراق الأسواق بمنتجات مقلدة رخيصة الثمن ، مثل تقليد موديلات بيوت الأزياء الكبرى · ولكن الأخطر من ذلك هو سرقة برامج الكمبيوتر أو نسخها بطريقة غير قانونية ، ليس على مستوى الأفراد للاستخدام الشخصى ولكن على مستوى كبير بواسطة موزعين ـ قراصنة على امتداد العالم كله · لقد ازدادت كل هذه المشكلات حدة مع ظهور وانتشار التقنيات الأكثر حداثة ·

وقد أثارت المشكلات التى طرحتها قضية حماية « الملكية الفكرية » ـ التى تعد الأساس لجزء كبير من النظام الجديد لخلق الثروة ـ خلافات سياسية بين البلدان منذ عام ١٩٨٩ · وتشمل الملكية الفكرية ـ وهو اصطلاح فى حد ذاته محل جدل ـ ملكية عناصر غير مادية ناتجة عن عمل ابداعى فى مجالات العلوم والتقنية والفنون والآداب والتصميم ومعالجة المعرفة بشكل عام · ومع امتداد الاقتصاد فائق الرمزية تصبح هذه العناصر غير المادية أكثر ربحية من المنظور الاقتصادى ، ومن ثم يزداد طابعها السياسى ·

واندلعت فى واشنطن معارك سياسية ساخنة قادتها جماعات ضغط متنوعة ، يساندها ممثل لجنة التجارة الأمريكية ، للمطالبة باجراءات حاسمة ضد تايلاند لأنها لم تحظر عمليات قرصنة وتقليد المنتجات الابداعية الأمريكية · وطالبت هذه الجماعات الولايات المتحدة بأن تتخذ اجراءات انتقامية ضد تايلاند اذا رفضت حكومتها معاقبة هذه الممارسات

غير المشروعة · وهو ما يعنى المناداة بالغاء الاعفاءات الجمركية الممنوحة لبعض الصادرات التايلاندية مثل الزهور الاصطناعية وبلاطات الخزف والفاصوليا المجففة ومعدات الاتصالات اللاسلكية ·

وعلى النقيض من هذه المطالب نادت وزارة الخارجية الأمريكية ومجلس الأمن القومى بالترفق مع تايلاند ، واضعين بذلك المصالح الدبلوماسية والضرورات العسكرية قبل مصالح أصحاب حقوق النشر وبراءات الاختراع ·

كما رفض رونالد ريجان ، فى آخر يوم فى فترة رئاسته ، اقتراحات اكثر تشددا تطالبه باجراءات قمعية ضد القراصنة والمقلدين فى تايلاند وان كان قد الغى الاعفاءات الجمركية التى كانت تستفيد منها المنتجات التايلندية ، التى سبق الاشارة اليها ·

غير أن تايلاند ليست أكثر الدول انتهاكا للقوانين التى تحمى حقوق النشر وبراءات الاختراع بمفهومها فى الاقتصادات المتقدمة · وتوضح هذه المناوشات الصغيرة التى دارت فى واشنطن ما يدور على ما لا يقل عن مائة جبهة فيما تلعب منتجات الأنشطة الابداعية دوراً أكثر محورية فى جميع اقتصاديات التكنولوجيا المتقدمة ·

فى عام ١٩٨٩ ، طالب أصحاب حقوق النشر الأمريكيون ، بما فى ذلك صناعة الموسيقى وبرامج الكمبيوتر والناشرون ، الحكومة الأمريكية باتخاذ اجراءات ضد ١٢ بلدا لأنها تكبد ـ على حد زعمهم ـ الاقتصاد الأمريكي خسائر فى المبيعات تقدر بحوالى ١ر٣ مليار دولار سنويا · ومن بين هذه الدول الصين والسعودية والهند وماليزيا وتايوان والفلبيين ·

وان كان الأمريكيون من أشد المدافعين عن حماية الملكية الفكرية فان هذه القضية تشغل أيضا وبنفس القدر الجماعة الأوروبية واليابان· لقد طالبت المجموعة الأوروبية سلطات جمارك العالم كله بمصادرة ١٦ سلعة مقلدة وبفرض عقوبات جنائية على القراصنة الذين يقومون بتسويق هذه السلع ·

وتدور المعركة السياسية حول الملكية الفكرية بشكل خاص داخل مجلس الاتفاقية العامة للتعريفة الجمركية والتجارة حيث تصطدم الاقتصادات المتقدمة بمقاومة حازمة من جانب الدول الأقل تقدما التى

يردد مفاوضوها احيانا حجج الطلبة العرب الذين يشترون كتبا طبعت بدون ترخيص والتى تقول بأن « المفهوم الغربى لحقوق النشر هو مفهوم نخبوى يهدف الى حشو جيوب الناشرين » ٠

غير أن هذا الموقف لا يشكل تهديدا خطيرا للدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ، وانما التهديد الفعلى ينبع من الشك الفلسفى المحير الذى يدفع الى التساؤل عن طبيعة الملكية الفكرية وهل هى من نفس طبيعة ملكية الأصول المادية ؟ أم أن مفهوم الملكية برمته فى حاجة الى اعادة تفكير ؟٠

لقد تأمل هارلان كليفلاند ، المفكر المستقبلى والدبلوماسى السابق ، وفكر مليا فى « الجنون المتمثل فى رفض اقتسام ما لا يمكن امتلاكه » ٠ ويشير كليفلاند الى أن « ما يبنى شركة كبيرة أو بلدا عظيما ليس هو حماية ما تعرفه سلفا وانما هو اكتساب معارف جديدة نابعة من شركات وبلدان أخرى والتكيف معها ٠ كيف يمكن « حماية » « الملكية الفكرية » ؟ ان السؤال نفسه ينطوى على بذور غموضه والتباسه الذاتى : انه استخدام الفعل غير المناسب لاسم غير مناسب » ٠

ان هذا النوع من الحجج كثيرا ما يستخدم لتاييد رؤية عالم تنتقل فيه المعلومات بدون قيود أو موانع ٠ وهو حلم يتفق تماما مع المطالب الملحة للدول الأكثر فقرا التى تحتاج للعلم والتكنولوجيا اللازمين للتحرر من التخلف الاقتصادى ٠ ولكن السؤال الذى تطرحه الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ولم يجد اجابة حتى الآن هو : ماذا سيحدث للفقراء والأغنياء ـ على حد سواء ـ اذا ما نضب فيض الابداع التقنى فى العالم كله ، اذا عجزت شركة أدوية ، بسبب القرصنة ، عن تعويض النفقات الضخمة التى يتطلبها التوصل الى وسائل علاجية جديدة ، فمن غير المرجح أن تستمر هذه الشركة فى استثمار المزيد من الأموال فى البحث العلمى ٠ ان كليفلاند محق فيما ذهب اليه من أن كل البلدان ستحتاج فى المستقبل الى المعرفة والثقافة والعلم والفنون القادمة من الخارج ٠ ولكن فى هذه الحالة سيتطلب الأمر وضع قواعد أساسية تنظم بطريقة متحضرة عمليات التبادل ، ويجب أن تشجع هذه القواعد مواصلة الابداع والابتكار لا أن تعرقله ٠

ان التوصل لاعداد هذه القواعد الجديدة والأخلاقيات المعلوماتية فى عالم منقسم الى اقتصادات زراعية واقتصادات صناعية واقتصادات ما بعد العصر الصناعى قد تكون عملية متناهية الصعوبة ٠ الا أنه من الواضح والجلى أن هذه المشكلات ستكتسب وباطراد مزيدا من الأهمية ٠

ان السيطرة على اللاماديات ـ أى الأفكار والثقافة والصور والنظريات والمعادلات العلمية والبرامج الاعلاماتية ـ ســوف تستنفد قدرا متزايدا من الاهتمام السياسى فى جميع البلدان ، بينما تهدد عمليات القرصنة والتقليد والسرقة والتجسس التكنولوجى المصالح الحيوية الخاصــة والوطنية بشكل متزايد الخطــورة ٠

ففى دراسة أجراها عبده سعيد ولويز سيمونز عـن الشركــات متعددة الجنسيات بعنوان « السادة الجدد » يشيران الى أن « طبيعـة السلطة تمر الآن بتحول جذرى ٠ اذ أصبح سوء توزيع المعلومات هــو المحدد الرئيسى للسلطة ٠ ان التفاوت الذى ظل مرتبطا لأمد طويل بالدخــل أساسا ، يرتبط الآن بشكل متزايد بعوامل تكنولوجية وكذلك بالسـيطرة السياسية والاقتصادية على المعارف » ٠

لقد كانت الدول خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تخوض الحروب من اجل الاستحواذ على المــواد الخــام اللازمــة لاقتصاداتها المصنعية ٠ أما فى القرن الحادى والعشرين فان المعرفـة ستكون اكثر المواد الخام أساسية ٠ فهل ستكون المعرفة هى رهان الحروب والثورات الاجتماعية فى المستقبل ؟ واذا كان الأمر كذلك فما هو الدور الذى ستلعبه وسائل الاعلام فى هذه الأحداث ؟٠

الفصل السادس والعشرون

صانعو الصور

ان بنيامين داى الطباع ذا الثلاثة والعشرين ربيعا ، صاحب الأفكار المجنونة ، هو الذى غير تاريخ ما نسميه الآن بوسائل الاعلام : كان ذلك فى عام ١٨٣٣ وكان عدد سكان مدينة نيويورك ٢١٨ ألف نسمة الا أن عدد المشتركين فى أكبر صحيفة يومية بالمدينة لم يكن يتعدى ٤٥٠٠ مشترك • وكان دخل العامل الحضرى الأمريكى فى هذه الفترة ٧٥ سنتا فى اليوم فى حين كان ثمن الصحيفة سنتين وبالتالى كانت قلة قليلة هى التى تستطيع دفع هذا المبلغ يوميا ثمنا لصحيفة • كما كان يتم طبع الصحف بآلات طباعة يدوية معدل انتاجها لا يتعدى بضع مئات من النسخ فى الساعة •

ولكن داى اقدم على مجازفة مجنونة •

ففى يوم ٣ سبتمبر ١٨٣٣ طرح فى الأسواق صحيفة « نيويورك صن » وحدد سعر النسخة ببنس واحد لا غير • وأطلق فى الشوارع حشدا من الصبية لبيعها ، وكان ذلك ابتكارا جديدا حينذاك • وكلف طباع آخر ، زميل له ، بالتردد على قاعات المحاكم وتغطية ما يعرض فيها من قضايا وحوادث ، مقابل أربعة دولارات فى الأسبوع ــ وكانت هذه احدى أوائل المرات التى يستخدم فيها « المخبر الصحفى » • وتمكنت صحيفة الـ « صن » خلال أربعة شهور من جذب أكبر عدد من قراء المدينة. وفى عام ١٨٣٥ اشترى داى أحدث تقنية فى مجال الطباعة آنذاك وهى آلة طباعة تعمل بالبخار • وبلغ توزيع صحيفته رقما خارقا : ٢٠ ألف نسخة يوميا • واخترع داى بذلك الصحافة الشعبية بكل ما تتميز به من أخبار الحوادث والجرائم وغيرها •

وفى نفس الفترة تقريبا كانت ابتكارات « مهووسين » آخرين تسير

فى خطوط موازية لداى ، ففى انجلترا أصدر هنرى هزرينجتون صحيفة « توبينى ديسباتش » وفى فرنسا صدرت صحيفة « لابريس » لأميل جيراردا • كان هذا النوع من الصحف الرخيصة الذى كان يسمى فى انجلترا بـ « صحافة الفقراء » اكثر من مجرد قضية تجارية ، اذ كانت له آثار سياسية باقية ، لقد ساهمت هذه الصحافة الى جانب تشكيل أولى النقابات المهنية وبدايات التعليم الجماعى ، فى دفع الطبقات الفقيرة الى خضم الحياة السياسية للأمم •

ومنذ السبعينات من القرن الماضى بدأ رجال السياسة من جميع الاتجاهات يأخذون فى اعتبارهم شيئا اسمه « الرأى العام » • وكتب أحد المفكرين الفرنسيين يقول : « من الآن فصاعدا لا توجد حكومة أوروبية لا تأخذ فى حسابها الرأى العام ولا تشعر أنها ملزمة بتقديم حساب عن أعمالها وان توضح مدى توافق هذه الأعمال مع المصلحة الوطنية ، أو أن تسوق الصالح العام لتبرير أية زيادة فى سلطتها أو امتيازاتها » •

ويعد بنيامين داى بقرن ونصف عنت لرجل « جامح » آخر فكرة كانت كفيلة حتما باعلان افلاسه • هذا المهووس الطويل القامة الفظ النافد الصبر والنابه هو تيد تيرنر الذى ورث عن أبيه ــ بعد موته منتحرا ــ شركة للوحات الاعلانات • بدأ تيرنر بتنظيم هذه الشركة ثم اشترى محطات اذاعية وتليفزيونية • وكان يتساءل عما يتعين عمله بعد ذلك عندما لاحظ أمرا غريبا : فمحطات التليفزيون الكابلى ، الذى كان ينتشر بسرعة كبيرة فى انحاء الولايات المتحدة ، كانت تعانى من نقص حاد فى البرامج والاعلانات • وفى الوقت نفسه كانت هناك أجهزة تدور عاليا فى السماء يطلق عليها اسم « الأقمار الصناعية » •

وجمع تيرنر اثنين زائد اثنين وحصل على خمسة • فقد قام ببث البرامج من محطته فى مدينة أطلنطا الى أحد الأقمار الصناعية ، الذى قام بدوره باعادة بثها الى المحطات المتعطشة الى البرامج • وبذلك منح رجال الدعاية والاعلان بضربة واحدة سوقا واسعة بامتداد الولايات المتحدة بعد أن كانوا لا يريدون تكليف انفسهم عناء شراء مدد اعلان على العشرات من محطات الكابل الصغيرة • وأصبحت «محطته الفائقة» فى أطلنطا حجر زاوية لامبراطورية متنامية •

وفى يوم ١٩ يونيو ١٩٨٩ انتقل تيرنر الى المرحلة التالية والأكثر مجازفة • اذ أنشأ ما أطلق عليه النقاد حينذاك « شبكة الفراخ بالمكرونة»

(Chicken Noodle Network) سخرية من اختصار CNN وهى شبكة الأنباء الكابلية · واصبحت CNN سخرية كل اقطاب الاعلام ابتداء من ملوكه فى منهاتن الى استوديوهات لوس انجلوس · وكانت وول ستريت متأكدة من أن هذه الشبكة ستنهار وقد تجر وراءها أعمال تيرنر الأخرى · اذ لم يحاول أحد من قبل انشاء شبكة لبث الأنباء لمدة اربع وعشرين ساعة يوميا ·

اما حاليا فان شبكة CNN تعد من اكثر مصادر الأنباء التليفزيونية تاثيرا فى جميع انحاء الولايات المتحدة ، فاجهزة التليفزيون فى البيت الأبيض وفى البنتاجون مضبوطة باستمرار على قناة CNN والشىء نفسه يتكرر فى السفارات وفى ملايين البيوت على امتداد الولايات المتحدة ·

غير ان احلام تيرنر الجامحة تجاوزت حدود الولايات المتحدة وتعمل حاليا شبكة CNN فى ٨٦ بلدا · وهو ما يجعلها اكثر شبكات التليفزيون انتشارا ، مثيرة انبهار واعجاب شيوخ الشرق الأوسط والصحفيين الأوروبيين ورجال السياسة فى أمريكا اللاتينية بسبقها فى تغطية احداث مثل اغتيال الرئيس المصرى انور السادات وقمع المظاهرات فى ميدان تيانانمين ببكين فى عام ١٩٨٩ والغزو الأمريكى لبنما وحرب الخليج وقصف بغداد · كما يصل ارسال CNN عبر الأثير او عبر الكابل الى غرف الفنادق والمكاتب والمنازل بل والى اجنحة الركاب على متن « كوين اليزابيث الثانية » ·

وأحد كنوز تيرنر السرية شريط فيديو يصور لقاء خاصا مع فيدل كاسترو ·ويشير كاسترو خلال اللقاء الى انه يشاهد الـ CNN بانتظام ، وعندئذ طلب منه تيرنر ــ الذى لا يتراجع امام شىء للدعاية لشركاته ــ اذا كان يقبل أن يكرر ما قاله على الهواء كدعاية للشبكة · فجذب كاسترو بضعة انفاس من سيجاره واجاب قائلاً : « لم لا فى الواقع ؟ » لم يتم قط اذاعة ذلك على الهواء ولكن تيرنر يخرج الشريط من وقت لآخر ليعرضه على الأصدقاء ·

تيرنر شخصية فريدة ، فهو وسيم ذو صوت أجش ، غريب الأطوار ومتقلب المزاج ، يملك مزرعة لتربية الثيران الأمريكية (البيسون) وهى ثيران لها عند اكتافها شبه سنام · كما يملك فريق (أطلنطا بريفز)

للبيسبول ومكتبة أفلام مترو جولدوين ماير للأفلام القديمة وكذلك ـ على حد قول منتقديه ـ أطول لسان فى جنوب الولايات المتحدة كله ·

وعلاوة على أن تيرنر نصير شرس للشركة الحرة فقد كان داعية للسلام قبل أن يرتبط بالممثلة جين فوندا بوقت طويل ونظم دورة « ألعاب الصداقة » فى موسكو فى فترة كان القيام بذلك يتطلب شجاعة سياسية ومالية نادرة · كما تبث شبكاته العديد من البرامج لصالح حماية البيئة :

ويعتبر تيرنر حاليا أكثر أقطاب الاعلام قدرة على التخيل والحلم ، هؤلاء الأقطاب الذين يقومون حاليا بتغيير وسائل الاعلام تغييرا ثوريا أعمق بكثير مما فعل بنيامين داى ، والذين ستحدث جهودهم المشتركة على المدى الطويل ، تحولا للسلطة فى العديد من البلدان ·

المجتمع المتعدد القنوات :

ان التغير الجذرى فى التوجه الذى طرأ على وسائل الاعلام ابتداء من عام ١٩٧٠ ، على أقل تقدير ـ عندما تنبأ كتاب « صدمة المستقبل » بحدوث تجزئة لجماعية ما يبث عبر موجات الأثير ـ ينصب على تجزئة الأعداد الكبيرة من المستمعين والمشاهدين الى شرائح ومجموعات فرعية بحيث يستقبل كل منها تركيبة مختلفة من البرامج والرسائل · ولقد صاحب ذلك اتساع ونمو كبير فى كم الصور التى يبثها التليفزيون فى شكل مواد إخبارية وترفيهية ·

هناك سبب لهذه الزيادة الضخمة فى الصور

فمنذ الأزل تبادل البشر تصورات رمزية للواقع · وفى ذلك يكمن كل دور اللغة وعليه تقوم المعرفة · الا أن المجتمعات المختلفة تتطلب قدرا متفاوتا من التبادل الرمزى · والانتقال الى اقتصاد قائم على المعرفة يزيد فجأة الطلب على الاتصال محدثا بذلك تشبعا للنظم القديمة لنقل الصور ·

وتتطلب الاقتصادات المتقدمة أيدى عاملة معتادة تماما على الاعداد والتحضير الرمزى · ومن جانبها تحتاج هذه الأيدى العاملة الى سبل وصول فورية ـ وحرة الى حد كبير ـ الى كل أنواع المعلومات التى كانت

تعتبر حتى الآن غير ذات صلة بانتاجيتها · كما أنها تحتاج الى عناصر قادرة على التكيف السريع جداً مع التغيرات المتكررة فى طرق العمل والتنظيم والحياة اليومية ، بل وقادرة على توقعها ·

ان أفضل العاملين هم أولئك الذين ينتبهون جيدا لما يحدث حولهم فى العالم ، ويحسنون استقبال الأفكار الجديدة وما يفضله العملاء والتغيرات الاقتصادية والسياسية ، والذين يدركون ضغوط المنافسة والاتجاهات الثقافية وأشياء أخرى كثيرة كانت تبدو فى الماضى أنها لا تعنى سوى الصفوة الادارية ·

ان هذا التنوع الكبير فى المعارف لا يتم الحصول عليه من خلال المحاضرات والكتيبات التقنية فقط وانما من خلال التعرض المستمر للأنباء المذاعة عبر التليفزيون والصحف والمجلات والراديو · كما يتم الحصول عليها بشكل غير مباشر من خلال البرامج الترفيهية التى يقوم الكثير منها بامداد المشاهد ، بشكل غير مقصود ، بمعلومات عن الأنماط الحياتية الجديدة والعلاقات الشخصية بين الأفراد والمشاكل الاجتماعية بل وأساليب الحياة والأسواق الأجنبية ·

كما أن بعض المسلسلات التليفزيونية ، مثل حلقات « مورفى » التى تقوم ببطولتها الممثلة كانديس بيرجن ، تتخذ ــ عن قصد ــ الأنباء والأحداث الراهنة محورا للدراما أو الكوميديا التى تعرضها · لكن حتى اذا لم تتم الأمور بهذا الشكل فإن العروض التى يقدمها التليفزيون تعطى ــ بالرغم عنها أحياناً ــ صوراً عن الواقع ·

صحيح أن المضمون المقصود للعرض التليفزيونى ــ أى عقدته وسلوك الشخصيات الرئيسية فيه ــ كثيراً ما يرسم صورة زائفة عن الواقع الاجتماعى ، غير أن كل البرامج والاعلانات وكذلك الأفلام السينمائية تتضمن مستوى تكميليا ، أى ما يمكن أن نسميه « المضمون غير المقصود » ·

وهو يتألف من تفاصيل فى خلفية المشهد ــ كالمناظر الطبيعية والسيارات ومشاهد الشوارع والطرز المعمارية والهواتف ، فضلا عن أحداث تكاد لا تسترعى الانتباه مثل المداعبات المتبادلة بين نادلة وعميل لحظة جلوس البطل على الطاولة فى محل من نوع « اخدم نفسك » · وعلى نقيض المضمون المقصود فان التفاصيل غير المقصودة تعطى فى أغلب الأحيان صورة صحيحة جداً عن الواقع اليومى · بالاضافة الى

ذلك ، فان أى فيلم بوليسى عادى يوضح الصراعات والتقليعات السائدة والمواقف الشعبية تجاه الجنس والدين والمال والسياسة .

ولا ينسى المشاهد أو يتجاهل أى شىء من كل ذلك ، فهو يختزنه فى عمق ذاكرته ليتشكل بذلك بنك معارفه العامة عن العالم . ومن ثم تؤثر المشاهد جيدة كانت أو سيئة على مخزون القناعات التى سيأتى بها كل فرد الى مكان العمل . (والمفارقة أن جزءا كبيرا من الصورة التى يكونها العامل عن العالم والذى يؤثر بشكل متزايد على الانتاجية الاقتصادية يتم استيعابه خلال ساعات « الترفيه »)

ولذلك لم تعد « التسلية البسيطة » « بسيطة » كما كانت فى السابق .

باختصار ، لم يعد الاقتصاد الجديد شديد الارتباط بالمهارات النظرية والتقنية القديمة فحسب بل بالثقافة الشعبية أيضا وبسوق الصور التى تعيش فترة ازدهار وتوسع . وهذه السوق لا تنمو فقط وانما تتعرض فى الوقت نفسه لعملية اعادة هيكلة . اذ يعاد حاليا تشكيل فئاتها وتصنيفاتها . وسواء أكان ذلك للأفضل أم للأسوأ فان الحدود القديمة التى كانت تفصل بين صناعة العروض السينمائية أو المسرحية والسياسة وبين الترفيه والعمل وبين المواد الاخبارية والمنوعات قد أخذت تتهاوى كلها ، أصبحنا معرضين لاعصار من الصور التى غالبا ما تكون مجزءة وقابلة لتكوين أشكال مختلفة ودائمة التغير .

مقدم عصر الاختيار :

حتى وقت قريب كانت شبكات التليفزيون الكبرى هى المورد الرئيسى لهذه الصور ، أما حاليا فان سلطة هذه الشبكات تنهار فى الولايات المتحدة حيث عملية تفكك جماعية وسائل الاعلام أكثر تقدما وتطورا . فبينما كانت تتربع شبكات (ABC) و (NBC) و (CBS) وحدها على العرش أصبح هناك حاليا ٧٢ محطة قومية من مختلف الأنواع ، وتستعد شبكات أخرى للاعلان عن وصولها ، ولقد جاء فى (هوليوود ريبورتر) أن « الجديد فى مجال التليفزيون الكابلى هو ظهور مجموعة جديدة من الشبكات تمنح « مواقع متميزة » فى سوق الاعلانات والدعاية » . وسيضاف الى ذلك قريبا شبكة مخصصة لمسرح المنوعات وشبكة أخرى للاستهلاك وثالثة للخيال العلمى . وبالاضافة

الى ذلك تقـــوم القنـــاة الأولى (Channel one) ببث برامج الى الفصـــول في المـــدارس ، كمـــا تســـتخدم شـــبكة (National College Television) الأقمار الصناعية لارسال برامج متخصصة الى طلاب الجامعات ·

لقد بين كتاب « صدمة المستقبل » منذ عام ١٩٧٠ أن « اختراع التسجيل الالكترونى للصـــورة والصوت (الفيديو) وانتشار التليفزيون الكابلى وامكانية البث مباشرة من الأقمار الصناعية [····] كل ذلك يدعو الى توقع تطورات عملاقة فى تنوع البرامج » ·

ويتم حاليا استقبال التليفزيون الكابلى فى ٥٧٪ من المنازل الأمريكية، والكثر التوقعات تحفظا ترفع هذه النسبة الى ٦٧٪ خلال السنوات العشر القادمة · ولدى المستخدم المتوسط لهذا النوع من الارســـال فرص الاختيار بين اكثر من ٢٧ قناة ، وقريبا سيصل هذا الرقم الى خمسين قناة · ففى مدينة صغيرة مثل مدينة روشستر بولاية مينوسوتا تتـــاح لمشاهدى التليفزيون فرص الاختيار بين اكثر من أربعين قناة مختلفة ، تقدم تنوعا واسعا من الموضوعات ابتداء من برامج منوعات موجهة للسود وبرامج بالأسبانية الى برامج متخصصة فى التدريب الطبى موجهة الى الطائفة الطبية الكبيرة المقيمة حول مستشفى ماير كلينيك الشهير ·

ان التليفزيون الكابلى كان أول من بدأ فى تفكيك جمهور المشاهدين· ثم قامت أشرطة الفيديو والبث المباشر من الأقمار الصناعية (التى تبث اشاراتها الى المنازل نفسها لا الى المحطات الكابلية فحسب) باحداث مزيد من التفكك · اذ تتيح أشرطة الفيديو للمشاهدين فرصة الاختيار بين آلاف الأفلام والبرامج · ولقد قامت مؤخرا أربع شركـــات كبيرة بتوحيد جهودها لتزويد المشاهدين الأمريكيين بـــ ١٠٨ قنوات تليفزيونية (ارسال عادى وارسال ذو وضوحية عالية) ، وذلك عن طـــريق بث الاشارات من أقوى قمر صناعى تجارى فى العالم مباشرة الى أطبـــاق استقبال مزودة بها المنازل « لا يزيد حجمها عن مناديل الجيب » ·

فضلا عن ذلك فان عدد المحطات التى تعمل مستقلة عن الشبكات الكبرى تضاعف أربع مرات منذ نهاية السبعينيات · ولقد تجمع العديد منها فى تنظيمات دائمة أو مؤقتة لمنافسة « الشبكات الكبرى » فى تقديم البرامج ذات النوعية الرفيعة · وطبقا لمجلة « نيوزويك » كان تأثير كل هذه القوى ــ المفتتة لجماعية المشاهدين ــ على الشبكات الكبرى التى كانت حتى وقت قريب قوية وقادرة « كتأثير الكارثة » ·

ويصرح روبرت ايجر المسئول عن برامج المنوعات فى شبكة (ABC) بأن « كلمتى السر فى كل ذلك هما : الاختيار والبدائل · وهو ما كان غير متاح للناس فىعام ١٩٨٠ وأصبح متوفراً لديهم الآن » · ولكن ذلك هو بالمضبط ما كانت الشبكات الرئيسية تعمل على منعه · ففى الواقع ان شبكات (CBS) و (ABC), و (NBC), هى شركات مصنعية تنتمى للموجة الثانية ، اعتادت التعامل مع الجماهير العريضة وليس مع أسواق ميكروية غير متجانسة ، ومن ثم فهى تجد صعوبة فى التكيف مع الاقتصاد بعد المصنعى ، اقتصاد الموجة الثالثة ، مثلها فى ذلك مثل شركات جنرال موتورز واكسون · ان القرار الذى اتخذته شبكة (NBC) بالمشاركة فى مغامرة البث المباشر بالأقمار الصناعية يوضح مدى قلق الشبكات الكبرى بهذا الشأن ·

وعندما سئل آل بيرتون وهو من كبار المنتجين المستقلين عما سيحدث للشبكات الرئيسية الثلاث أجاب قائلا : « كان هناك ذات يوم ثلاث شبكات اذاعية كبيرة · أما الآن فلا أحد تقريبا يتذكر انها كانت موجودة ! » ·

التليفزيون الأوروبى قادم :

اذا كانت عملية تفكيك جماعية وسائل الاعلام قد بدأت فى الولايات المتحدة فان أوروبا فى طريقها لأن تلحق بها ·

كان الارسال الاذاعى والتليفزيونى فى الولايات المتحدة مقصورا -ولا يزال- على القطاع الخاص ، فى حين ظلت الاذاعة والتليفزيون فى أغلب الدول الأوروبية ولعقود طويلة تحت سيطرة الحكومات ، أو يتم تمويلها بضرائب خاصة يدفعها المستمعون والمشاهدون · ونتج عن ذلك أن الاختيار المتاح للأوروبيين كان أضيق مما هو متاح للأمريكيين فى العصر الذى كانت تسيطر عليه الشبكات الكبرى ·

أما فى الوقت الراهن فثمة تغيرات لافتة للنظر ، اذ يوجد الآن أكثر من خمسين قمرا صناعيا للبث التليفزيونى فى أوروبا · وتخطط الاذاعة البريطانية للبث عبر الأقمار الصناعية (BSB) لتقديم خمس خدمات بث مباشر بينما تعد المؤسسة المنافسة لها (Sky Television) لبث ست خدمات ·

ويتصارع (BSB) وسكاى صراعا مستميتا ، فكل منهما يهدد

بتحطيم الآخر وينفقان فى سبيل ذلك مبالغ طائلة دون أى منظور ربحية مباشرة ، فعيونهما مشدودة الى مورد الثراء المتوقع اذا صحت ولو جزئيا تقديرات ساتشى آند ساتشى ، وهى وكالة الاعلانات الأولى فى بريطانيا • فطبقا لهذه التقديرات سيتم تزويد أكثر من نصف المنازل البريطانية ، خلال عقد من الزمان ، بمعدات استقبال البث المباشر من الأقمار الصناعية • وسيجنى هذا النوع من البث مبلغا يقدر بـ ١ر٣ مليار دولار فى شكل عائدات اعلانات ودعاية • وكانت مبيعات أطباق الاستقبال بطيئة فى أول الأمر ثم تزايدت سرعتها الآن ، ولقد تجاوز عددها ٧٠٠ ألف طبق •

وسيتاح للمشاهدين البريطانيين فى وقت قريب حوالى ١٥ قناة للارسال التليفزيونى تغذيها الأقمار الصناعية بعد أن ظل اختيارهم لسنوات طويلة قاصرا على قناتى (بى • بى • سى) ، ولم يحصلوا على قناة رابعة الا فى عام ١٩٨٢ •

وفى عام ١٩٨٦ أنهت فرنسا بحركة سياسية مفاجئة ومهمة احتكار الدولة للتليفزيون عندما بدأت القناة الخامسة (La cinq) عملها فى احتفال حضره عدد كبير من النجوم ، وقص شريط بدء ارسالها المغنى والممثل الشهير شارل أزنافور • وخلال فترة قصيرة زاد عدد شبكات الخدمة العامة من ثلاث شبكات الى ست شبكات ، أربع منها ملك القطاع الخاص • وتنتشر الشبكات ذات الرسوم مثل كنال بلاس فى فرنسا وفى كل من سويسرا وهولندا •

أما فى ايطاليا فان الهيئة الحكومية للراديو والتليفزيون (RAI) تواجه الآن منافسة أربع شبكات على الأقل ، وتتباهى مدينة روما بأن لديها حوالى ٢٥ قناة تليفزيونية •

كما تزودت ألمانيا الاتحادية بقناتين تجاريتين جديدتين وهى تقوم بمد شبكات الكابل بسرعة كبيرة منذ عام ١٩٨٥ ، وهو التاريخ الذى بدأت فيه أول شبكة تستخدم هذه التقنية ارسالها على نغمات سيمفونية العالم الجديد للموسيقار دفوراك • ولقد تم الآن ربط ستة ملايين منزل فى ألمانيا الغربية بشبكة التليفزيون الكابلى • وحتى لا تتأخر أسبانيا عن الركب افتتحت ثلاث شبكات جديدة خاصة لتتنافس مع الشبكات العامة•

ويتغير الموقف بسرعة كبيرة بحيث تصبح هذه البيانات قديمة بدون شك عندما يتم نشرها • ولا أحد يعلم يقينا عدد القنوات الجديدة

التى ستضيفها اوروبا خلال السنوات القادمة ليتضاعف اجمالى عدد القنوات لديها مرتين او ثلاث مرات · وذلك دون أن ناخذ فى الحسبان الانفجار المحتمل فى ارسال الراديو والتليفزيون فى بلدان أوروبا الشرقية التى تحررت من السيطرة الشيوعية · ومن المتوقع ان تنمو هناك الشبكات التعددية نموا سريعا ·

واثناء ذلك كانت اليابان رائدة التليفزيون ذى الوضوحية العالية ابطأ بكثير فى نشر التليفزيون الكابلى وفى زيادة عدد القنوات · ولكن طبقا لسوابق اليابان التاريخية عندما تتخذ قرارها النهائى فانها ستتحرك بسرعة مذهلة ·

لننا نشهد اذن ظاهرتين متناقضتين ظاهريا ، فعلى المستوى المالى هناك ادماج وتماضد أما على مستوى ما يشاهده الجمهور فعليا فيوجد تنوع متزايد يغذيه التكاثر المذهل للقنوات ووسائل الاعلام الجديدة ·

« التسويق العالمى » :

ان وجود تصور عالمى للسوق قاد بعض الشركات بما فى ذلك شركات وسائل الاعلام الى استنتاج خطى بسيط مؤداه أن اللحظة قد حانت « لجعل نشاطها عالميا » ، بمعنى انها ستحاول أن تفعل على الصعيد العالمى ما كنت تقوم به سابقا وبنجاح على الصعيد الوطنى ·

وقد اتضح أن هذه الاستراتيجية الخطية خاسرة ·

فالانتاج المتطور للثروة يفترض بالطبع تدويل جزء كبير من عملية الانتاج مع تطور متواز لوسائل التوزيع على صعيد الكرة الأرضية · لذلك عندما بدأت بعض الشركات فى عقد تحالفات ، بل وعمليات اندماج، عبر الحدود الوطنية فى مجالى الانتاج والتوزيع ، سارت وكالات الاعلان فى نفس الدرب · فعلى سبيل المثال استفادت مؤسسة (WPP) البريطانية للاعلان من انخفاض سعر الدولار وقامت بضم عملاقين أمريكيين فى مجالهما هما (ج · وولتر تومبسون) و (أوجيلفى آند ماثر) · كما التهمت شركة ساتشى آند ساتشى ، فى سعيها لكى تصبح أكبر وكالة اعلان فى العالم ، كلا من شركة كومبتون للاعلان ودانسر فيتز جيرالد سامبل ضمن شركات اخرى ·

وكان من المفترض نظريا أن تتمكن هذه الوكالات عبر الوطنية أن تعرض اعلاناتها الموحدة النمط الصادرة عن شركات عبر وطنية بأقل جهد ممكن من خلال وسائل اعلام عبر وطنية أيضا · اذ يكفى أن تتم ترجمة نفس النصوص الى عدة لغات وسرعان ما تتدفق عمــولات أكبر على وكالات الاعـــلان ·

وتعتمد استراتيجية « التسويق العالمى » على قاعدة نظرية قدمها أحد كبار خبراء التسويق هو ثيودور ليفيت من جامعة هارفارد ، الذى بشر بأن « احتياجات ورغبات العالم قد تجانست بشكل نهائى » واحتفل بقدوم منتجات وماركات « عالمية » ، ومعنى ذلك أنه اذا لاقى منتج معين تسانده دعاية معينة رواجا تجاريا فى بلد ما فانه سيلاقى نفس الرواج فى البلدان الأخرى · فالتوحيد القياسى المميز للصناعة والذى طبق فى الماضى على الصعيد الوطنى سيتم تطبيقه من الآن فصاعدا على المستوى العالمى أيضا ·

ولكن الخلل فى هذه النظرية يكمن فى أنها لا تميز كثيراً بين أسواق العالم ومناطقه المختلفة · فبعض البلدان لازالت فى مرحلة سابقة عـلى سوق الجملة فى حين وصلت بلدان أخرى الى هذه المرحلة ، بينما تمر بلدان ثالثة بتجربة تفكك جماعية الانتاج والاستهلاك الذى يميـز الاقتصاد المتقدم · وفى هذا النوع من البلدان يطالب المستهلكون بمنتجات ذات طابع فردى وشخصى ويرفضون تماما بعض السلع والخدمات المتجانسة· وفى هذه الحالة لا يمكن اذن توقع نجاح نفس أساليب التسويق والدعاية فى جميع هذه المناطق ·

ان نظرية ليفيت تقلل وبشكل خطير من أهمية التأثير الاقتصادى للأذواق والمفاهيم الثقافية فى وقت تزداد فيه أهمية الثقـافة بدلا من أن تقل · والدراسة التى أجراها بنك هيل صامويل التجارى فى عام ١٩٨٨ لصالح اتحاد الصناعات البريطانية تدفع الى الاعتقاد بأنه لا يمكن اعتبار أوروبا الموحدة متجانسة · ويشير هذا التقرير الى أن ربات البيـوت الفرنسيات تفضلن الغسالات التى تعبأ من أعلى فى حين تميل البريطانيات أكثر الى تلك التى تعبأ من الأمام · ويعتبر الألمان أن حالات انخفاض الضغط تحتاج الى علاج قوى بينما لا يقاسمهم الأطباء البريطانيون هذا الرأى ، كمـــا يثير اضــطراب « قلبى ـ هضمى » يعـــرف باســـم « الاسبازموفيليا » قلق الفرنسيين فى حين لا يعترف الأطباء البريطانيون حتى بوجوده · وهل ستكون المواقف حيال الغذاء أو الجمال أو الحب أو العمل أو التسلية أو السياسة أقل تباينا وتنوعا ؟ ·

من الناحية العملية ، سببت هذه النظرية البسيطة لحد السذاجة ـ نظرية « التسويق العالمى » ـ كوارث للشركات التى طبقتها · ولقد وصف مقال نشر فى الصفحة الأولى من صحيفة « وول ستريت جورنال » هذه النظرية بأنها فشل مكلف · وذكرت الصحيفة بالتفصيل العذاب الذى عانت منه شركة باركر بن عندما حاولت تطبيق هذه النظرية (عجز كبير وفصل المسئولين عن الكارثة وفى نهاية المطاف بيع قسم انتاج أقلام الحبر) · كما انتهت محاولة دفع الاستراليات ، ذوات البشرة الفاتحة ، الى شراء مستحضرات تجميل ، من انتاج شركة ايرنو لاسزلو، تناسب الايطاليات ذوات البشرة التى لوحتها الشمس بالفشل الذريع ، وهو ما لا يثير أية دهشة · حتى مطاعم ماكدونالد تأخذ فى الاعتبار الاختلافات الوطنية ، فهى تبيع البيرة فى المانيا والنبيذ فى فرنسا ، وكانت فى وقت ما تقدم فطيرة لحم الخراف فى أستراليا ، وفى الفيليبين قدمت ماكدونالد مكرونة سباجتى خاصة بها · واذا كان التنوع ضروريا للمنتجات الاستهلاكية فهل يمكن أن يكون اقل ضرورة فى مجال الثقافة أو البرامج السياسية ؟ · وهل حقا وسائل الاعلام العالمية ستجعل الاختلافات بين الشعوب تتلاشىعن طريق المجانسة ؟·

فى الحقيقة ، تتجه الثقافات أيضا ـ فيما عدا بعض الاستثناءات ـ الى فقدان صفة الجماعية شأنها فى ذلك شأن المنتجات ، وتعمل تعددية وسائل الاعلام ذاتها على تسارع هذه العملية · ومن ثم سيضطر المتخصصون فى الترويج و « بيع » المرشحين السياسيين أو الأفكار السياسية الى التعامل مع درجة قصوى من التنوع بدلا من التماثل والانتظام الذى اعتادوا عليه · واذا كانت المنتجات تفشل ـ باستثناء حالات نادرة ـ عندما تحاول الاستيلاء على السوق العالمية ، فلماذا نتوقع أن ينجح السياسيون أو النظريات السياسية ؟·

وبدلا من العمل على تجانس كوكب الأرض كما فعلت وسائل اعلام الموجة الثانية فان النظام العالمى الجديد قد يعزز التنوع فى العالم · ان الدعوة الى العالمية لا تعنى الدعوة الى التجانس · فبدلا من قرية عالمية واحدة ـ كما تنبأ المنظر الاعلامى الكندى الراحل مارشال ماكلوهان ـ من المحتمل أن نرى نمو وانتشار عدد وافر من القرى العالمية المختلفة تماما فيما بينها والتى سترتبط جميعا بالنظام الجديد لوسائل الاعلام ، وان كانت ستعمل جميعا جاهدة على الحفاظ على وتعزيز هويتها الثقافية أو العرقية أو القومية أو السياسية ·

البارونـــات الجـــدد :

ان عملية اضفاء الصبغة العــالمية على وسائل الاعلام ، وهى عملية ضرورية للاقتصاد الجديد ، تتحقق فى الواقع بخطى عملاقة ٠

لقد اهتزت بعنف صناعة السينما عندما قامت شركة سونى اليابانية بشراء شركة كولومبيا للانتاج السينمائى والتليفزيونى الأمريكية مقــابل ٥ مليارات دولار ، مستأثرة بذلك بأكبر مكتبة افلام فى هوليوود ، وهى تضم أفلاما ذات نوعية متميزة مثل لورنس العرب وكرايمر ضد كرايمر٠ بالاضافة الى ٢٢٠ دارا للعرض و ٢٣ الف حلقة تليفزيونية ٠ ان شـــركة سونى التى تعد الآن لعملية واسعة النطاق لبيع أفلام الفيديو ٨ مم التى تنتجها ، كانت تريد « برامج وأنظمة التشغيل » التى تناسب « معداتهــا واجهزتها » ٠ غير أن هذه الصفقة ليست سوى واحدة من صفقات عديدة تعمل حاليا على تعديل هياكل صناعة المرئيات ٠

فلقداشترت مجموعة فوجيسانكى للاتصالات حصة فى شركـــة فيرجن ميوزيك ، واشترت شركة (TV South) البريطانية شركة (MTM) وهى الشركة التليفزيونية التى اسستها مارى تايلر مور ٠ كمـــا تملك مجموعة بيرتلزمان الألمانية ــ وهى واحدة من أهم مجموعات وسائـــل الاعلام فى العالم ــ شركات فى أكثر من عشرين دولة ٠ وتضم امبراطوية روبرت مردوخ ، التى تمتد عبر ثلاث قارات ، صحفا ومجلات ودور نشر وانتاج أفلام وشبكة تليفزيون فى الولايات المتحدة ٠

ومن النتائج الثانوية لهذا النشاط المحموم ظهور مجموعة متــالقة من بارونات الاعلام العالمى ، ويحتل الاسترالى مردوخ موقعا طليعيــا بينهـــم ٠

وبالرغم من اتهامه (ظلما احيانا) بانه يفسد ويدنى من قـــدر الصحف التى يشتريها ويعامل النقابات باحتقار وفظاظة وأنـــه منافس لا يرحم ، فانه يتميز أيضا ببعد النظـــر ويـــدرس بانتظـــام احـــدث التكنولوجيات واذا تركنا جانبا الصحف التى يملكها أو يســـيطر عليهـــا فى استراليا والولايات المتحدة وبريطـــانيا فان مردوخ يبنى بعنـــاية امبراطورية اعلامية متكاملة رأسيا تغطى الكرة الأرضية ٠

فهو يمتلك نصيبا كبيرا فى شركة فوكس للقرن العشرين التى تملك

بدورها حقوق آلاف الساعات من العروض السينمائية والبرامج التليفزيونية · كما يمتلك شبكة فوكس التليفزيونية ومجلة دليل التليفزيون فى الولايات المتحدة ·

وكان مردوخ من رواد البث التليفزيونى عبر الأقمار الصناعية فى أوروبا · وهو يمتلك ٩٠٪ من شبكة تليفزيونية رياضية جديدة تسمى (Sky Channel) وكذلك قناة للأخبار تبث الأنباء على مدى ٢٤ ساعة يوميا وتستمد جزءا من مادتها من الصحف المملوكة له التى تصدر فى لندن · وبالاضافة الى كل ذلك فهو شريك بالمناصفة مع شركة آمستراد البريطانية لانتاج أطباق استقبال رخيصة الثمن مصممة لاستقبال بث الأقمار الصناعية مباشرة فى المنازل ·

هل سيحقق التكامل الرأسى فى نهاية المطاف « التآزر » المطلوب ؟ يبقى اثبات ذلك · فالصناعات الأخرى ـ كما رأينا ـ تبتعد عن التكامل الرأسى · غير أن مردوخ سواء كسب أو خسر فانه بعث طاقة جديدة فى كل مؤسسات النشر والراديو والتليفزيون ·

وفى بريطانيا هناك نظير لمردوخ يدعى روبرت ماكسويل ، هذا البولدوزر المتعجرف ـ الذى يلقب أحيانا من وراء ظهره بـ « التشيكى الوثاب » أو « الاعصار الأسود » أو « كابتن بوب » · وقد خدم ماكسويل ـ المولود فى تشيكسلوفاكيا ـ كضابط فى الجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية قبل أن يتم انتخابه فى مجلس العموم · وكان قد بدأ مشواره فى عالم الاعلام بنشر سلسلة صغيرة من الدوريات الجامعية المحدودة الانتشار ·

وانطلاقا من هذه القاعدة الصغيرة من المطبوعات العلمية شيد امبراطورية تتألف من أجزاء من العديد من محطات التليفزيون القائمة، بما فى ذلك (TFI) فى فرنسا والقناة العاشرة فى أسبانيا و (Central Television) فى بريطانيا وقناة خاصة بالأفلام السينمائية وقناة أخرى تليفزيونية · وتضم ممتلكاته العديد من المجلات والصحف ودار نشر ماكميلان فى الولايات المتحدة ·

ثم هناك راينهارد موهن ، النقيض الحى لكل من ماكسويل وتيرنر، فهو رجل متواضع ذو عقلية فلسفية وأفكار أعدت بعناية عن الادارة ومشاركة العاملين والمسئوليات الاجتماعية للملكية ·

كان موهن أسير حرب ألمانيا فى كونكورديا بولاية كنساس الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية . ولقد تأثر ، خلال فترة أسره بالديمقراطية الأمريكية وكذلك بنادى كتاب الشهر . وعنـدما عاد الى مدينة جوترسلوه الصغيرة فى ألمانيا تولى ادارة دار النشر الخاصة بأسرته والمتخصصة فى نشر الكتاب المقدس . وعكف على بناء مجموعة بيرتلزمان ، حتى أصبحت مولداً للطاقة بالنسبة لجميع وسائل الاعلام . وتملك بيرتلزمان أندية كتب وتسجيلات اسطوانات وأشرطة فى كل من ألمانيا وفرنسـا وأسبانيا والبرازيل والولايات المتحدة وفى ١٨ بلداً آخر . كما أنها تملك مجموعة (بانتام دبلداى ديل) للنشر ودار نشر (بلاتسـا ياخانز) فى أسبانيا فضلا عن ٣٧ دورية فى خمس دول وماركات أسـطوانات مثـل (RCA/ARIOLA) وعددا كبيرا من الأنصبة فى الراديو والتليفزيون .

أما الايطالى سيلفيو بيرلوسكونى فان حصـة محطـات التليفزيون التابعة له تمثـل ٦٠٪ من اجمالى ميزانيات الدعاية فى ايطـاليا . كمـا امتدت أعماله الى فرنسا حيث يشارك فى ملكية القناة الخامسة والى ألمانيـا حيث يمتلك نصيبا كبيرا فى قنـاة (Tele-S) والى موسكو التى اختارته ليكون متعهدها الوحيد للدعاية والاعـلانات الأوروبية الموجهة الى الاتحاد السوفييتى . ويحـاول بيرلوسـكونى كسب ود كـل من يوجوسلافيا وأسبانيا وتونس .

كيف يتشكل الرأى العام العالمى :

عندما تؤثر عمليات انتقال السلطة المالية على وسائل الاعلام فانهـا تثير مناقشات محمومة . أما الآن فان حجم الامبراطوريات الاعلاميـة وحده هو مصدر القلق . وتشعر الشبكات العتيدة ووسائل الاعـلام الراسخة بالتهديد . كما أن تركز السيطرة المالية بين أيدى أباطرة مثل مردوخ وبيرلوسكونى يعيد الى الأذهان شبح كبار أقطاب الصحافـة فى الزمن الماضى ، أمثال وليام راندولف هيرست فى الولايات المتحـدة أو لورد نورثكليف فى بريطانيا ، وما كان لهم من نفوذ سـياسى ضخم لم يكن محل استحسان الجميع بأية حال من الأحوال .

أول الانتقادات وأكثرها شيوعا اليوم هو ذلك الذى يقول بأن وسائل الاعلام العالمية الجديدة ستساهم فى جعل العالم متجانسا . غيـر أن اخفاق نظرية « التسويق العـالمى » يوضح أن هذه المخاوف مبالغ فيها .

لقد أحدثت وسائل الاعلام الجماهيرى أقوى وأوضح آثارهـا

التجانسية عندما كان لا يوجد سوى بضع قنوات وعدد قليل من وسائل الاعلام المختلفة وبالتالى كان هامش الاختيار محدودا للغاية بالنسبة للمشاهدين · أما فى المستقبل فان نقيض ذلك هو الذى سيسود · قد يكون مضمون كل برنامج على حدة جيداً أو رديئا الا أن « المضمون » الجديد والأهم هو وجود التنوع ذاته· ان الانتقال من بيئة اعلامية محدودة الاختيار الى بيئة غنية جدا بالاختيارات ، لا يحمل تأثيرات ثقافية فحسب بل وسياسية أيضا ·

وستواجه حكومات الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ، مستقبلا تتعرض فيه شعوبها الى وابل متصل من الرسائل المتعددة والمتعارضة التى تم تفصيلها وفقا للاستخدامات التجارية ووفقا للتقاليد الثقافية والسياسية أيضا · وذلك بدلا من رسالة واحدة ترددها بالاجماع بضع وسائل اعلام عملاقة · ان سياسة « التعبئة الجماهيرية » القديمة و« صنع الاجماع » تصبحان الآن أصعب بكثير فى هذا السياق الاعلامى الجديد·

ان اتساع مجال الاختيار أمام المشاهدين والمستمعين ـ فى حد ذاته ـ هو أمر ديمقراطى بالطبع · ولذلك فهو يعقد حياة رجال السياسة الذين يقدمون الى مواطنيهم نظرة شاملة دون امكانية اختيار ·

وتستهدف مجموعة أخرى من الانتقادات بارونات الاعلام الجديد وبشكل خاص خياراتهم السياسية · فمردوخ متهم بأنة محافظ متشدد أما ماكسويل فهو قريب أكثر من اللازم من حزب العمال البريطانى · وتيرنر لا يمكن تحديد موقفه كما لا يمكن توقع ما سيفعله · واذا كانت كل هذه الاتهامات حقيقية فلن يلبث أن يلغى بعضها بعضا ·

غير أن الأهم من اختياراتهم الشخصية هى المصالح التى يدافعون عنها معا · فكلهم بطبيعة الحال رأسماليون يعملون فى ظل نظم رأسمالية ومن ثم يمكننا أن نفترض أن لون الميزانية يهمهم بشكل عام اكثر بكثير من لون الأحزاب ·

ان الدعم الذى يقدمه بارونات الاعلام ـ بعملهم اكثر منه باقوالهم ـ لأيديولوجية « العالمية » أهم بكثير من كونهم يميلون يمينا و يسارا · ان هذه الأيديولوجية العالمية ـ أو على الأقل فوق الوطنية ـ هى التعبير الطبيعى للاقتصاد الجديد المقدر له أن يتجاوز الحدود الوطنية ، ومن مصلحة أقطاب الاعلام الجدد نشر هذه النظرية ·

غير أن هذه المصلحة الشخصية تصطدم بمصلحة أخرى : فالنجاح المالى لصحفهم ومجلاتهم ومحطات الراديو والتليفزيون التابعة

لهم مرهون بقدرتهم على التوجه الى جمهور غير جماعى · أى انهم سيضطرون الى البحث عن أسواق صغيرة ذات مواصفات محددة والى بث برامج متخصصة لها والاستناد الى مصالح محلية تماماً · ان الشعار المألوف القائل « فكروا عالميا وتصرفوا محليا » يحدد بدقة المحتمات الجديدة لوسائل الاعلام ·

الا ان وجود وسائل اتصال قوية وقادرة على اجتياز المحيطات سيؤدى فى حد ذاته الى تحول فى السلطة من القادة السياسيين الوطنيين الى المجتمع العالمى الجديد · ومن ثم فان بارونات الاعلام الجدد يعملون الآن ـ دون أن يقصدوا ذلك بالضرورة ـ على تغيير دور « الرأى العام العالمى » تغييرا جوهريا ·

وكما حدث فى القرن الماضى عندما كان القادة الوطنيون مضطرين الى تبرير أعمالهم أمام محكمة « الرأى العام » فى بلادهم ، فان قادة الغد سيجدون أنفسهم فى مواجهة « رأى عام عالمى » مدعم الى حد كبير · ومثلما أتاح العمل الذى قام به بنيامين داى أو هنرى هذرينجتون أو أميل دى جيراردا للطبقات الكادحة أن تشارك فى الحياة السياسية للأمم ، ستجعل أنشطة بارونات الاعلام الحاليين ملايين جددا من البشر يشاركون فى عملية صنع القرار الدولى ·

ان الدول تتحدى حاليا الرأى العام العالمى دون أن تهتم كثيراً بعواقب ذلك · فالرأى العام العالمى لم يتمكن من انقاذ ضحايا أوشويتز أو الشعب الكمبودى أو الأسيويين الفارين ، من الجوع والقهر ، على متن القوارب قبل سنوات قليلة · كما لم يمنع الرأى العام العالمى قادة الصين من اقتراف مذبحة الطلاب المحتجين فى بكين ·

غير أن الرأى العام العالمى تمكن أحيانا من أن يقيد أيدى الأنظمة الباطشة · فتاريخ حقوق الانسان يزخر بحالات أدت فيها الاحتجاجات العالمية الى وقف تعذيب أو اعدام مسجون سياسى فى بلد ما · فمثلا لم يكن من المرجح أن ينجو أناتولى شارانسكى من تجربته فى معسكرات الاعتقال السوفيتية لو لم يقم العالم الخارجى بالضغط على موسكو لاطلاق سراحه · كما تحسنت فرص نجاة أندريه سخاروف عندما حصل على جائزة نوبل للسلام وأصبح اسمه على كل لسان ، عقب الاهتمام المستمر الذى أولته له وسائل الاعلام فى العالم كله ·

ليس معنى ذلك أن النظام الجديد سيدفع الدول الى أن تتصرف كأفراد الكشافة ولكنه سيجعل تحدى الرأى العام العالمى أكثر تكلفة · ففى العالم

الذى يشيده بارونات الاعلام سيكون لما يقوله الخارج عن بلد معين وزن داخل حدود هذا البلد أكثر من أية فترة سابقة ·

وبالطبع ، ستخترع الحكومات أكاذيب أكثر مهارة وتعقيداً لتبرير القرارات التى تخدمها وللتلاعب بوسائل الاعلام التى أصبحت شـاملة وعامة بشكل مطرد · كما ستزيد من جهود الدعاية الرامية الى تحسين صورتها فى الخارج · لكن اذا أخفقت تلك الجهود قد تعانى هذه الحكومات من عقوبات اقتصادية خطيرة من جراء تصرفاتها التى لا يقـــرها باقى العـــالم ·

تستطيع جنوب افريقيا أن تدعى أن العقوبات لم تضر باقتصـــادها أو أن صورتها كدولة منبوذة عن بقية العالم لم تسبب لها أى أذى ، الا أن قاداتها يعلمون تمام العــلم أن ذلك ليس صحيحا · فالرأى العام العالمى يمهد الطريق للفعل العالمى ·

وحتى لو لم يفرض العالم الساخط والمحتج عقوبات رسمية عــلى نظام منحرف وشرير فان المنظمات الدولية مثل البنك الدولى قد ترفض طلبات اقراض هذا النظام والتى تبلغ عدة مليارات من الدولارات · وقد تحجم البنوك الخاصة عن مساعدة مثل هذه الأنظمة ويتوجه المستثمرون الأجانب والسياح الى بلدان أخرى · والأسوأ من كل ذلك هو أن الشركات والدول التى توافق على التعامل مع أحد هذه البلدان المدانـــة دوليا ستكون فى وضع يسمح لها بفرض شروط أكثر تشددا ممــا لو كانت فى ظروف أخرى · ان ميزان القوى فى المفاوضات سيكـــون ، من الآن فصاعدا ، وقفا على الصورة العالمية لكل طرف ·

وبالاضافة الى ذلك ، فان الأهمية المتزايدة للرأى العام العــالمى بالتوازى مع انتشار وسائل الاعلام « الشاملة » ستجعـــل المتبارين ، الأكثر ذكاء ومهارة ، فى معترك السلطة يحاولون استخدام الرأى العام العالمى كسلاح غير تقليدى · ولن يقتصر هذا الاستخدام على انقاذ بعض السجناء السياسيين أو على توصيل امدادات اغاثة عاجلة الى المناطق المنكوبة ، وانما سيمتد ليشمل الحيلولة دون وقوع بعض الكوارث البيئية التى قد تصيب كوكبنا ·

فعندما هاجم الأزريون فى باكو الأرمن سرعان مــا علم بذلــك المواطنون الأرمن فى لوس انجلوس وقاموا بتعبئــة القـــوى الســياسية · وعندما تم اغتيال رهبان جيزويت فى السلفادور على يد فرقة من فــرق

الموت علم بذلك العالم كله · وحين تعرض نقابى فى جنوب أفريقيـــا للسجن انتشر النبأ فى أنحاء الأرض · ان وسائل الاعلام العالمية الجديدة وان كانت تعمل أساسا بهدف الربح فانها ترفع لا اراديا مستوى العمل السياسى العابر للحدود الوطنية بفعــل اعداد متزايدة من الجمعيـــات والروابط المناضــلة ·

ان مردوخ وماكســـويل وتيرنر وموهن وبيرلوسكونى وغيرهم من بارونات الاعلام الجدد يخلقون الآن ـ عن غير قصد ـ أداة رائعة وقوية ويضعونها فى يد المجتمع الدولى ·

ولكن ذلك يكاد لا يمثل شيئا بالمقارنة بما يجرى الآن بالفعل تحت عيوننا · فكما سنرى فى الفصل التالى أصبح النظام الاعلامى العــالمى الجديد بالفعل الأداة الرئيسية للثورة الجارية فى عـــالم اليوم الذى أصبح مرتعا للانقلابات والتحولات السريعة ·

الفصل السابع والعشرون

وسائل الاعلام المحرضة على الثورة

فى يوم ٣٠ يونيو ١٩٨٨ تلقى مأمور شرطة مدينة فيكتور فيـــل القريبة من لوس انجلوس شكوى تفيد بأن خمسة مكسيكيين يعزفـــون موسيقى صاخبة ويتجرعون الجعة بكميات كبيرة ويتبولون على النجيل · واستمرت هذه الجلبة لمدة ١٢ ساعة · وعندما وصل ستة من رجـــال الشرطة الى المكان وحاولوا تهدئة هؤلاء المسوسين بدأت تنهال اللكمات وضربات المطرقة · لم يكن فى كل ذلك أى شىء غير عادى بالنسبة لرجال الشرطة ، فيما عدا احدى التفاصيل ·

ففى غفلة منهم ، وبينما هم منهمكون فى قمع هؤلاء الخمســـة المخلين بالنظـــام مستخدمين مطارقهم وحركات الجـــودو ، وجـــه أحـــد الجيران آلة تصوير فيديو فى اتجاههم وقام بتصوير المشهد ·

واشتعل الرأى العام لنبأ اســـتخدام الشرطة للعنف فـــور عـــرض الفيلم ، الذى لا تتعدى مدته أربع دقائق ، أمام الطائفة « اللاتينية » فى المدينة · وأعقب ذلك احتجاجات باسم الحقوق المدنية ثم تم رفع دعوى قضائية ضد رجال الشرطة بتهمة الافراط فى اســـتخدام العنف · وأعـــلن أرماندو نافارو مدير معهد العدالة الاجتماعية ـ وهو منظمة محليـــة للحقوق المدنية ـ « اننى اناضل منذ واحـــد وعشرين عاما فى مجـــال النشاط الاجتماعى لكننى لم أر قط شيئاً مماثلا يجسد العنف بألوانه الحقيقية » ·

ومن جانبهم ، أكد المدافعون عن رجال الشرطة أن الفيلم لا يقول الحقيقة لأنه لا يبين ما حدث قبل ان تبدأ آلة التصوير عملها ، أى عندما كان العنف يمارس ضد رجال الشرطة ـ على حد قولهم ·

واتخذت القضية أبعاداً أكبر عندما اختفى الشخص الذى صور

الفيلم وعندما بدأ رجل من قنصلية المكسيك فى لوس أنجلوس يظهر فى قاعة المحكمة لمتابعة المرافعات معربا عن قلقه ازاء التمييز العنصرى ضد المكسيكيين المنتشر فى لوس أنجلوس · وأخيراً أصدرت محكمة فيدرالية حكمها لصالح المكسيكيين وقررت لهم تعويضا قدره مليون دولار ·

من غير المحتمل أن يكون الثوار الذين أسقطوا الحكومة الشيوعية فى تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٨٩ قد سمعوا عن قضية « خماسى فيكتور فيل » · ولكن فى نواصى شوارع براغ وضع الطلاب أجهزة تليفزيون ليعرضوا أشرطة فيديو تبين عنف وقسوة السلطات فى محاولتها قمع المظاهرات المناهضة للحكومة · كما كان الطلاب يعرضون أيضا تسجيلات لخطب كاتب المسرح فاسلاف هافيل الذى انتقل بعد ذلك من السجن فى قضية رأى الى رئاسة الجمهورية · وفى تايوان أيضا استخدمت المعارضة السياسية هذه الوسائل الاعلامية لكشف ــ ما أطلقت عليه ــ « أعمال العنف القمعية » ·

ففى كل أنحاء العالم يتم استخدام وسائل الاتصال الجديدة ــ أو يجرى استغلال الوسائل القديمة بأساليب جديدة ــ من أجل تحدى سلطة الدولة أو أحيانا الاطاحة بها · ويقول ليخ فاليسا ، مؤسس نقابة تضامن ، واصفا الاضطرابات السياسية التى وقعت فى أوروبا الشرقية : « ان هذه الاصلاحات هى نتاج التمدن ــ فأجهزة الكمبيوتر والأقمار الصناعية للبث التليفزيونى [وغيرها من الابتكارات] تقدم حلولا جديدة » ·

الرجل الصغير البغيض على شاشة التليفزيون :

من الواضح أن موجة الثورات التى تفجرت فى أوروبا الشرقية خلال عام ١٩٨٩ كانت محصلة لثلاثة عوامل متضافرة : فشل الاشتراكية على المدى الطويل ، لعجزها عن توفير الثراء الاقتصادى الذى وعدت به، واعلان الاتحاد السوفيتى أنه لن يساعد الحكومات الشيوعية بالتهديد بالتدخل العسكرى وأخيراً وابل الأنباء التى تدفقت على الدول الشيوعية عبر وسائل الاتصال الجديدة بالرغم من كل جهود الرقابة ·

وعلى امتداد ربع قرن من حكم نيكولاى شاوشيسكو الديكتاتورى فرضت رقابة تفوق فى صرامتها تلك المفروضة فى كل النظم الشيوعية فى أوروبا الشرقية ، حيث كان يتم مراقبة كل ما ينشر فى الصحافة وبشكل خاص كل ما يظهر على شاشة التليفزيون · وكان شاوشيسكو

نفسه مولعا بالتليفزيون خاصة حلقات « كوجاك » البوليسية الأمريكية التى كان بطلها تيلى سافالاس · ولكن بالرغم من الساعات التى كان يقضيها أمام الشاشة الصغيرة لم يدرك شيئا من الثورة الاعلامية ودفع حياته ثمنا لذلك فى ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٨٩ ·

ولو أنه درس الدور الذى قام به النظام الاعلامى العالمى الجديد فى اسقاط فرديناند ماركوس فى الفيليبين مثلا لعرف أن فرض الرقابة على وسائل الاعلام لا يكفى لابقاء شعب ما فى الجهل وأن الأحداث السياسية الداخلية تدار بشكل متزايد على مسرح عالمى ·

ويوضح البروفسير وليام آدمن وهو أحد خبراء الاعلام فى جامعة جورج واشنطن « أن ما حدث فى الفيليبين كان خطوة ملحمية نحو نوع جديد من الثورة ـ الثورة بواسطة وسائل الاعلام وبواسطة الرموز » ·

نظراً للروابط التاريخية الوثيقة بين الفيليبين والولايات المتحدة ولوجود قواعد عسكرية أمريكية هناك التمس كل من ماركوس والمعارضة السياسية الرئيسية له دعم واشنطن · وسعى المعسكران للحصول على مساندة الصحفيين الأجانب لكى يقدم كل طرف روايته للأحداث ·

ومع تزايد المعارضة وافق ماركوس على مضض على اجراء انتخابات فى عام ١٩٨٦ · وتم تغطية الحملة الانتخابية بواسطة محطات التليفزيون الأمريكية التى جذبها سحر كورازون اكينو ، أرملة بطل تم اغتياله تواجه ديكتاتورا عجوزا فاسدا ·

فى البداية ساند الرئيس ريجان ماركوس · ولكن عندما واصلت شبكات التليفزيون الأمريكية تغطية الأحداث ، تمكن الأمريكيون من مشاهدة المتظاهرين المسالمين الظرفاء والمنتمين للطبقات المتوسطة وهم يتعرضون لشراسة زبانية ماركوس المأجورين · وبدأ موقف ريجان فى التحول · كتب الناقد التليفزيونى لصحيفة « واشنطن بوست » يقول : « لم يكن من المستحسن أن يكون المرء حليفا لهذا الرجل الصغير البغيض الذى يظهر على شاشة التليفزيون » ·

وأرسل ريجان وفدا رسميا الى مانيلا لمراقبة شرعية الانتخابات وسجل الوفد الذى كان برئاسة السناتور ريتشارد لوجار عددا كبيرا من حالات الفساد والغش وكشفها لمشاهدى التليفزيون حتى قبل عرضها رسميا على الرئيس · وزاد تقرير الوفد من حرج موقف ماركوس وحملته

الانتخابية · وكان ما يشاهده الأمريكيون على شاشات التليفزيون يرتد على الفور الى الفيليبين ·

وأثرت هذه التغطية أيضا على البيت الأبيض الذى انتهى به الأمر الى مساندة جماعة عسكرية معارضة لماركوس ، وأرغم تحالف القوة مع المعلومات الديكتاتور على التخلى عن الحكم ، وفى مواجهة المحتوم هرب ماركوس وحصل على حق اللجـوء الى هاواى ·

غير أن أحد المحللين السياسيين قال فما بعد : « لو كان ماركـوس من كبار طغاة القرن العشرين لطرد وسائل الاعلام من بلاده واسـتخدم المدافع الرشـــاشة » ·

ولكن قد يكون العكس صحيحا أيضا ، ففى حالة شاوشيسكـو ، لو كان قد سمح بدخــول وسائل الاعلام وتفادى استخدام المدافع الرشاشة لكان من المحتمل أن ينجو من هــذه النهاية المأساوية · لقــد تمت الاطاحة بالأنظمة الشيوعية فى بلدان شرق أوروبا الأخرى أساسا بطرق سلمية خلال شتاء ١٩٨٩ المثير · فلم تستخدم المدافع الرشاشة الا فى رومانيا فقط ·

فقد كان آخر أعمال الديكتاتور هو اصدار الأمر بمذبحة تيمشوارا · وعندما انتشرت الجماهير بعد ذلك فى شوارع بوخارست اندلعت المعارك بين العسكريين وعملاء البوليس السياسى التـابع لشاوشيسكو المعـروف باسم السيكورتيات · واستمر القتال عدة أيام وواصل البوليس السياسى المقاومة حتى بعد موت الديكتاتور وزوجته اللذين تمت محاكمتهما محاكمة سريعة بواسطة مجلس عسكرى وتم اعدامهما رميا بالرصاص ·

فى تلك اللحظة كان استوديو ٤ لـ « تليفزيون رومانيا الحـرة » هو مركز الثورة · وبينما كان بعض قوات الكوماندوز وبعض القنـــاصة الفرادى يحاولون استعادة المبنى كان قادة الثورة المسيطـــرون على موجات الأثير يعرضون المرة تلو الأخرى صور جثتى الديكتاتور وزوجته · ولم تتوقف اراقة الدماء الا بعد عرض هذه الصور ·

وبعد ذلك بقليل كتبت صحيفة « نيويورك تايمز » تقول انه تم استبدال ديكتاتورية شاوشيسكو بـ « فيديوقراطية » ·

أما صحيفة الـ « فايننشيال تايمز » فكانت تهـلل معبـــرة عن فرحتها لسقوط النظم الشيوعية فى أوروبا الشرقية قائلة : « لقد اتضح أن

وسائل الاعلام ليست أدوات استعباد كما كان جورج أورويل يعتبرها وانما هى أدوات تحرير ، فحتى شاوشيسكو لم يتمكن من وضع عصابة على عيون شعبه » ·

غير أن الانبهار بالتليفزيون جعل عددا من المراقبين يتجاهلون القضية الأشمل · ففى الواقع ليس التليفزيون وحده الذى يتصف بالثورية وانما « التفاعل » المشترك بين العديد من التكنولوجيات المختلفة ·

فملايين أجهزة الكمبيوتر وأجهزة الفاكس وآلات النسخ وأشرطة الفيديو والهاتف المتطورة الى جانب تقنيات الكابل والأقمار الصناعية تتفاعل كلها فيما بينها ، ولا يمكن فهمها اذا اخذنا كلا منها على جدة · ان التليفزيون ليس سوى عنصر من عناصر هذا النظام الأكثر اتساعا ورحابة والمرتبط فى العديد من النقاط بالشبكات الالكترونية الذكية المستخدمة فى مجال الأعمال والمال لتبادل بيانات مخزنة فى أجهزة الكمبيوتر ·

هذا النظام الاعلامى الجديد ، الذى يمكن وصفه بأنه محيط ، هو فى الوقت نفسه أساس الاقتصاد الجديد القائم على المعرفة ورد فعل لسلطانه وتاثيره · فهو يمثل قفزة نوعية ضخمة فى طريقة استخدام البشر للرموز والصور · ولا يوجد جزء من هذا النسيج الضخم منفصلا تماما عن الكل ، وهو ما يجعله فى المقابل أداة محتملة لبث العصيان والثورة ، ليس فقط بالنسبة لأمثال شاوشيسكو ، الذين لا يزالون منتشرين فى العالم ، لكن أيضا بالنسبة لكل من بيده السلطة · ان النظام الاعلامي الجديد يقوم بدور المعجل ، فهو يسرع عمليات تحول السلطة ·

ثلاث طرق للاتصال :

افضل طريقة لفهم سطوة الثورة الاعلامية الحالية هى وضعها فى منظور تاريخى والتمييز بوضوح بين ثلاث طرق اتصال مختلفة ·

يمكننا القول ــ مع التبسيط الشديد ــ ان غالبية الاتصالات فى ظل اقتصاد الموجة الأولى ، أى اقتصادات المجتمعات الزراعية ، كانت تنتقل من الفم الى الأذن أو خلال حديث ثنائى داخل مجموعات صغيرة · وفى عالم بدون صحف أو اذاعة أو تليفزيون كانت الوسيلة الوحيدة لتبليغ

رسالة الى جمهـور كبير هى تجميع حشد من الناس فى مكان واحد · ويمكن القول ان ذلك كان فى الواقع أول شكل من أشكال الاتصـــال الجماهيرى ·

يستطيع الحشد أن « يرفع رسالة ما » الى رئيسه أو زعيمه ، بل ان حجم الحشد فى حد ذاته رسالة · ولكن أيا كان مضمون الرســالة فان الحشد ينقل أيضا رسالة موحدة لكل المشاركين فيه · هذه الرسالة التى قد تكون محرضة فعلا على العصيان تقول ببساطة : « أيها المشارك انك لست وحدك » · اذن لقد لعب الحشد دورا جوهريا فى التاريخ ، غير أن مشكلته كوسيلة اتصال هى طابعه المؤقت بشكل عام ·

لم يكن الحشد وسيلة الاعلام الجماهيرية الوحيدة فى فترة ما قبل التكنولوجيا · ففى الغرب ، أثناء القرون الوسطى ، كانت الكنيســة الكاثوليكية بفضل تنظيمها المتفرع أشبه ما تكون بنظــام اتصال جماهيرى مستمر · وهو النظام الوحيد القادر على نقل نفس الرسالة الى العديد من التجمعات السكانية « عبر الحدود السياسية » · ولقد منحت هــذه القدرة الفريدة قوة هائلة للفاتيكان فى مواجهة الملوك والأمراء الأوروبيين المتحاربين دوما · ويفسر ذلك ــ ولو جزئيا ــ الصراعات بين الكنيســة والدولة التى أغرقت أحداثها القارة الأوروبية فى بحور من الدماء لعدة قـــرون ·

فى ظل اقتصاد الموجة الثانية كان هناك احتياج لمزيد من الاتصـــال عن بعد ، ومن ثم أوجد نظام خلق الثروة القائم على الانتاج الصناعى بالجملة ، البريد والتلغراف والهاتف · غير أن المصانع الجديدة كانت تحتاج أيضا الى أيد عاملة متجانسة ، لذلك تم اختراع وســائل الاعلام الجماهيرية التى تعتمد على التقنية · وأصبحت الصحف والمجـــلات والأفلام والاذاعة والتليفزيون ، التى فى مقدور كل منها أن تنقل بشــكل متزامن نفس الرسالة الى ملايين الأشخاص ، هى الأدوات الرئيســية لجماعية وسائل الاعلام فى المجتمعات الصناعية ·

وعلى النقيض من ذلك ، يجسد نظام الموجــة الثالثة الجــديد احتياجات اقتصاد ما بعد الانتاج بالجملة الناشىء · وكمــا تفعل المصانع الحديثة ذات « الانتاج المرن » فان النظام الاعلامى الجديد ينتج حسب الطلب ، منوعا صور منتجاته ومرسلا عروضا وأفكارا ورموزا مختلفة لشرائح سكانية معينة ولأسواق بعينها ولفئات سنية ومهنية ولمجموعات عرقية أو اجتماعية مستهدفة بدقة ·

هذا التنوع الجديد والمتطور للغاية للرسائل ولوسائل الاعلام أمر ضرورى ، لأن النظام الجديد لخلق الثروة يتطلب أيدى عاملة وجماهير أكثر تباينا · ان عملية تفكك جماعية وسائل الاعلام التى تنبأ بها كتاب « صدمة المستقبل » وتم تطويرها فى كتاب « الموجة الثالثة » أصبحت سمة حاسمة للنظام الاعلامى الجديد · غير أن ذلك لا يمثل سوى احدى سماته ·

التحام وسائل الاعلام :

على نقيض وسائل اعلام الموجة الثانية ، التى كان كل منها يعمل مستقلا بدرجة أو بأخرى عن بقية الوسائل ، تتسم وسائل الاعلام الجديدة بترابطها الوثيق وبالالتحام فيما بينها اذ تتبادل البيانات والصور والرموز · والأمثلة على هذا الالتحام كثيرة ·

كان برنامج اذاعى يعتمد على الاتصال الهاتفى المباشر بين المستمعين والمذيع موضوعا لفيلم (Talk Radio) المنتج فى عام ١٩٨٨ ، وتم بث هذا الفيلم عبر التليفزيون الكابلى وقدمت الصحافة نقدا له · ثم من يدرى ؟ قد يقوم ذات يوم مشاركون فى برنامج اذاعى آخر بمناقشته ·

ولنأخذ مثلا فيلم « اذاعة الأخبار » الذى يدور حول مقدمى برامج التليفزيون · فبعد أن عرض فى العديد من قاعات العرض السينمائية تم عرضه على الشاشة الصغيرة وتولت الصحافة الاعلان عنه ·

وفى هذا الصدد كتبت مجلة « نيوزويك » تقول : « من المشاهد المألوفة الآن مشهد مزارع فى ولاية أيوا يجرى معه أحد الصحفيين حوارا بينما يلتقط له المصور صورا ، كما يقوم فريق من التليفزيون بتصويره ، كل ذلك لتحضير موضوع مقال عن وسائل الاعلام فى احدى المجلات » · ويصاحب مقال النيوزويك صورة لهذا المشهد ·

وعلى مستوى أعمق من ذلك ، نجد أن قاعات التحرير فى الصحف تتابع شاشات التليفزيون للاطلاع على آخر الأحداث ، كما يشاهد عدد من المراسلين الأوروبيين فى واشنطن التغطية الحية التى تقدمها شبكة (CNN) . ثم يكتبون تحقيقاتهم الصحفية على أساس ما قدمه لهم التليفزيون · وبذلك تحول التليفزيون من أداة للاعلام الى مصدر له ·

ومن ناحية أخرى ، يحصل معدو برامج الحوار والمناقشات فى التليفزيون على أفكار موضوعاتهم من الصحف كذلك بالنسبة لاختيار الشخصيات التى يتعين دعوتها . كما يعتمد كل شىء على أجهزة الفاكس والكمبيوتر ومعالجات النصوص والصور الرقمية والشبكات الالكترونية والأقمار الصناعية وغيرها من التقنيات المترابطة .

ان هذا التداخل الشديد هو الذى يحول وسائل الاعلام المنفصلة الى « نظام » . ويقلل هذا التداخل ، بالتضافر مع التوجه الى العالمية ، من تأثير أى من وسائل الاعلام منفردة - قنوات أو مطبوعات أو تكنولوجيات - مقارنة بالوسائل الأخرى مجتمعة . غير أن هذا التداخل يزود اجمالى نظام وسائل الاعلام بسلطة متنامية بدرجة هائلة تعم كل الكرة الأرضية . ان الظاهرة الفعالة الآن ليست « الفيديوقراطية » وانما « التحام وسائل الاعلام » .

أودية الجهل :

من المناسب اضافة تعبير « الانتشار » الى « الالتحام » ، لأنه لم يعد هناك مكان فى العالم معزول تماما عن الباقى . فالرسائل تعبر أكثر الحدود حماية .

فبالرغم من الرقابة الصارمة التى فرضها شاوشيسكو على وسائل الاعلام فى بلاده تمكن العديد من الرومانيين من التقاط برامج التليفزيون البلغارى . وكان البلغار بدورهم يفضلون فى كثير من الاحيان التليفزيون الروسى على تليفزيونهم . فحتى قبل الثورة كان الرومانيون يعرفون أسماء المنشقين عن النظام الذين كان يتهددهم السجن نتيجة لتظاهرهم من أجل حقوق الانسان . هذه الأسماء أصبحت مألوفة بفضل الاذاعات الأجنبية الموجهة لرومانيا .

كما كان أغلب مواطنى ألمانيا الشرقية يستطيعون استقبال محطات تليفزيون ألمانيا الغربية التى كانت تبلغهم بما كانت حكومتهم تفضل اخفاءه . ففى عام ١٩٨٩ عندما وقعت مظاهرات ضخمة معادية للحكومة فى لايبزج علم بها ألمان الشرق من خلال وسائل الاعلام الألمانية الغربية . كما علموا بعد ذلك وبالطريقة نفسها بفتح الحدود المجرية للاجئين من ألمانيا الشرقية وبأن سور برلين بدأ يتصدع . وكان سكان منطقة درسدن لا يصلهم فى الغالب الارسال الألمانى الغربى ولذلك سميت هذه المنطقة « بوادى الجهل » . غير أن هذا النوع من الأودية فى تناقص مطرد .

ان « مسامية » الحدود ليست بالأمر الجديد ولا قيام محطـات الاذاعة الغربية ـ مثل صوت أمريكا وراديو أوروبا الحرة والـ بى·بى·سى ومحطات أخرى ـ ببث برامج على الموجات القصيرة موجهة الى الدول الشيوعية · فخلال المظاهرات من أجل الديمقراطية فى الصـين ، التى سبقت مذبحة ميدان تيانانمين ، كانت محطة صوت أمريكا تبث ١١ ساعة ونصف الساعة يوميا وكان ارسالها يصل الى جمهور يقدر بحوالى مائة مليون صينى · حتى انها كانت تذيع ارشـادات موجزة لاحباط محاولات السلطات الصينية للتشويش على الارسـال ·

غير أن الأمر المختلف الآن هو استراتيجية وسائل الاعلام المحرضة على العصيان التى يلجأ اليها الثوار حاليا ·

الاستراتيجية الاعلامية للثوريين :

ما لم يتمكن شاوشيسكو من كشفه ـ وهو لم يكن الوحيـد فى ذلك ـ هى تلك الأساليب الاستراتيجية التى يمكن من خلالها الجمع احيانا بين أشكال اتصال الموجة الأولى والثانية والثالثة أو جعلها تتعارض فيما بينها ·

ويقدم الدين مثالا حيا لذلك : كانت الكنيسة الكاثوليكية التى تعرضت لاضطهاد طويل من قبل النظم الشيوعية ، التى لم تتمكن رغم ذلك من القضاء عليها ، من أكبر المستفيدين من ثورات عام ١٩٨٩ فى أوروبـا الشرقية · أن الكنيسة ـ كما سبق الاشارة ـ تمثل فى حد ذاتها نظـام اتصال جماهيرى · وذلك منذ زمن بعيد وقبل أن يقوم أشخاص مثل جيم باكرز وجيمى سواجارت وبات روبرتسـون حاليا بتطـويع النفـوذ الهائل للتليفزيون للدعـوة لمذاهبهم ونحلهم الدينية ·

واذا كانت الكنيسة تمارس حاليا سلطة فى العالم فذلك يرجـع جزئيا الى تأثيرها المعنوى والى مواردها الاقتصادية ، فضلا عن حقيقة أنها لا تزال تعمل كوسيلة اتصال جماهيرية · فهى قادرة على الوصـول الى ملايين وملايين البشر صباح كل يوم أحد ، بحيث تجعل جمهور أكثر البرامج شعبية فى العالم يبدو ضئيلا بالمقارنة · أن الكنيسة على اتصال بالطبع بأتباعها خلال أيام الأسبوع الستة الأخرى ، كما أنها فى عالم اليوم تستخدم الصحافة وركائز اعلامية أخرى لتدعيم طريقة اتصالها المباشرة ·

وطالما أن الكنيسة الكاثوليكية ـ أو أية ديانة منظمة أخـــرى ـ تستطيع حشد اعداد ضخمة من التابعين لها ومن ثم الوصـــول الى

جماهير عريضة من المتلقين فستضطر كل الحكومات أن تأخذ ذلك فى الحسبان · لقد حاول بعض الحكومات اقتلاعها (وهو أمر شبه مستحيل) فى حين سعت حكومات أخرى لنشر عقيدة بديلة تعتمد أساسا علــى القومية أو الماركسية أو غيرها من المبادىء · كما أن هنــاك فريقا ثالثــا يلجأ الى الفساد ويحاول أن يجعلها شريكة له ·

وفى الدول الشمولية ، يمثل وجــود وسيلة اتصال جماهيرية ـ غير خاضعة لها ولا تنضوى تحت لوائها ـ بين أيدى الكنيسة خطرا مستمرا يهدد هذه الدول · لأن هذه القناة قد توضع تحت تصرف المعارضـــة السياسية · وهو ما يفسر الضراوة التى حاولت بهـا الدول الشيــوعية القضاء على الكنيسة أو شراءها عندما اتضح استحالة القضاء عليها ·

ان الاعتراف بالدين المنظم كوسيلة اعلام جماهيريـــة يسهم فى تفسير عدد من التحولات الأخيرة للسلطة ·

هذا الاعتراف يساعد على توضيح لماذا يتم توجيــه السخط الشعبى، سواء أكان ذا طبيعة اقتصادية أم غيرها ، الى حــركات دينية فى بلدان مختلفة اختلاف ايران فى ظل الشاه وكوريا الجنوبية فى ظل تشن دوهوان· ففى ايران أدى تحويل السخط الى شكل دينى الى سقوط نظــام الامبراطور العلمانى ، وفى كوريا الجنوبية نجم عن ذلك نمو مدهش للمسيحية ، سواء أكانت كاثوليكية أم بروتستانتية · وفى كــلا البـلدين حــل الـدين المنظم محل المعارضة السياسية أو انصهر معها ·

ومن سخريات القدر أنه كلما فرضت حكومة شمولية رقابة صارمة وفعالة على كل وسائل التعبير الأخرى اكتسبت وسيلة التعبير من خلال الكنيسة أهمية متزايدة كقنــاة محتملة لفــكر المنشقين · وربما تكون هى الطريقة الوحيدة للتعبير عن المعارضة لنظام ما ·

ولكن عندما تفتح الكنيسة « قناتها » وتعبر عن السخط الشعبى من أعلى منبرها فان الوسيط يعدل الرسالة ويعيد صياغة الاستياء ، الذى قد يكون الجوع أو أى سبب مادى آخر هو مفجره ، فى تعبيرات دينية · وهو ما يفسر لماذا تحولت حركات انطلقت لبلوغ أهداف لا صلة لها مباشرة بالدين الى جهاد دينى ·

ففى ايران دمج آية الله الخومينى الحقد الطبقى والغضب القومى مع الحمية الدينية · وأصبح حب الله + كراهية الامبريالية + معــاداة الرأسمالية = تعصبا متفاقما أحال الشرق الأوسط الى برميل بارود ·

غير أن الخوميني لم يكتف بصهر هذه العناصر الثلاثة في انفعال وشعور أوحد وانما جمع أيضا بين وسائل اعلام الموجة الأولى - أي قيام الأئمة التابعين له بتحريض المؤمنين مباشرة وجها لوجه من خلال الخطب - وتكنولوجيا الموجة الثالثة - في شكل أشرطة تسجيل مسجل عليها رسائل سياسية تهرب سرا الى المساجد حيث يتم الاستماع اليها ونسخها بواسطة أجهزة تسجيل رخيصة الثمن ٠

ولمواجهة الخوميني استخدم الشاه وسائل اعلام الموجة الثانية ، الصحافة والاذاعة والتليفزيون ٠ وبمجرد أن خلع الخوميني الشاه وسيطر على زمام الدولة استولى بدوره على هذه الأدوات المركزية ٠

ان هذه الاستراتيجية التي ترتكز على استخدام وسائل اعلام الموجة الأولى والموجة الثالثة لمحاربة وسائل اعلام الموجة الثانية منتشرة بين الحركات الثورية٠ بل كانت أكثر وضوحا في الصين أثناء مظاهرات ١٩٨٩ المطالبة بالديمقراطية ٠ ان شيوخ بكين ، الذين ارتعدوا عندما سقط شاوشيسكو في بوخارست بعد ستة شهور من قتلهم الطلاب الصينيين على مقربة من ميدان تيانانمين ، لم يقدروا قوة هذه الاستراتيجية حق قدرها ٠

في الصين أيضا تصادمت ثلاثة أنماط من الاتصال في معركة السيطرة على الفكر ٠

في هذا البلد كانت مجلات الحائط أداة احتجاج تقليدية من أدوات الموجة الأولى، ومنذ بداية عام ١٩٨٩ بدأت تظهر هذه المجلات على الجدران القريبة من جامعة بكين مهاجمة الفساد وساخرة من أبناء قيادات الحزب المتمتعين بمزايا ليست من حقهم ومطالبة بديمقراطية موسعة ومنادية باقالة رئيس الوزراء حينذاك لي بينج وآخرين ٠

وقرب نهاية ربيع ذلك العام تم استخدام وسيلة اتصال أخرى من وسائل الموجة الأولى ألا وهي الحشد ٠ ففي يوم ٢٢ أبريل تجمع طلاب من جامعة بكين في ميدان تيانانمين بحجة تأبين ذكرى هو ياو يانج ، وهو زعيم شيوعي ذو نزعة اصلاحية ٠ كانت مطالب المحتجين معتدلة في البداية ، اذ تركزت أساسا على حرية التعبير ووضع حد للفساد ، لكن الحكومة رفضت هذه المطالب بعنف وفظاظة مما دفع المتظاهرين الى البقاء في الميدان وبدءوا اضرابا عن الطعام ٠ وتزايدت الحشود المسالمة

وسرعان ما انضمت اليهم حشود العمال حاملين لافتات كتب عليها « ها هم اخوانكم الكبار يأتون ! » · ولما لم تحرك الحكومة ساكنــا تدعمت الحــركة الى أن بلغت ذروتها فى يومى ١٨ و ١٩ مايو بنزول أكثـر من مليون متظاهر سلمى من جميع طبقات المجتمع الى الشارع · كان حجم الحشد الكبير رسالة فى حد ذاته ·

وخلال الفترة نفسها دارت معركة شرسة بين القادة الصينيين حول كيفية الرد · حاولت الحكومة برئاسة لى بينج استخدام وسائل اعلام الموجة الثانية ــ الصحف والاذاعة والتليفزيون ــ ضد المتظاهرين · ولكن الحزب بقيادة زاو زيانج كان يسيطر على جزء كبير من هذه الوسائل بما فى ذلك « صحيفة الشعب » لسان حال الحزب ·

وبينما كان هذا الصراع على السلطة يتأرجح من معسكر الى آخر ، كانت التغطية الاخبارية بواسطة وسائل اعلام الموجة الثــانية تتــأرجح هى أيضا · فعندما كان لأنصار زاو اليــد العليا كانت « صحيفة الشعب » والتليفزيون الصينى يعربان عن تعاطفهما مع مطــالب الطــلاب · وعلى النقيض ، عندما رجحت كفة المتشــددين كــان المعلقــون والمحـــررون والصحفيون يضــطرون للتــلاعب بالأنبــاء على حساب المتظاهرين ، مستخدمين فى ذلك وسائل اعلام الموجة الثانية لاضعاف الرسالة المنقولة عبر وسائل اعلام الموجة الأولى ·

ولكن فى الوقت نفسه بدأت معركة السيطرة على أدوات الموجــة الثالثة الأكثر تطوراً ، مثل الأقمار الصناعية وأجهزة الفاكس وكاميرات التليفــزيون المنقــولة وأجهــزة الكمبيــوتر والآلات الناســخة وشــبكات الاتصـــالات الدولية ·

ووجــد « المتشددون » أنفســهم أمــام مشــكلة مزدوجة · اذ كــان يتعين عليهم أن يحكموا سيطرتهم وبشكل جاسم ليس على وسائل الاعلام الداخلية فحسب وانما على التغطية التى تقوم بها الصحافة الأجنبيــة أيضا · غير أن المعضلة التى واجهت السلطات الصينية هى وجود عدد كبير من الصحفيين ورجال الاذاعة والتليفزيون الأجانب الذين كانوا قد قدموا الى الصين لتغطية قمة دينج ــ جورباتشوف · وهؤلاء المراسلون الذين كانوا يستخدمون الأقمــار الصناعية وأجهزة الكمبيوتر وأدوات أخــرى متطورة من أدوات الموجة الثـــالثة بقوا فى بكين لتغطيــــة ما يدور فى الشوارع ·

وكانت شـــبكة (CNN) من أكثرها تأثيـــراً ، اذ كان لا يقتصر استقبال تغطيتها التى تستمر ٢٤ ساعة يوميا على البيت الأبيض وعلى

ملايين المنازل على امتداد العالم فحسب وانما كان ـ وهو أمر لا يقل أهميـة ـ يمتـد أيضا الى بعض فنـادق بكين نفسـها ٠ وبينما المعركة السياسية محتدمة قطعت السلطات الصينية اتصالها مع العالم الخارجى عبر الأقمار الصناعية ثم اعادته ثم طلبت من الصحفيين الأجانب استخدام ترددات التليفزيون الصينى ! وبلغت البلبلة ذروتها ٠

ونظرا لادراك « المتشددين » للأهمية المتزايدة للرأى العـام العالمى حاولوا باستماتة قطـع كل الروابط بين المحتجين وأنصـارهم خـارج الصين ٠ غير أن هذه المحاولة بدت غاية فى الصعوبة نظـرا لأن الصين كانت قد عقدت منذ عهد قريب عـلاقات اقتصادية واسـعة مع العـالم الخارجى وسمحت للشباب بالدراسة فى الخـارج ٠

وقام المحتجون بتوجيه رسائلهم مباشرة الى المشاهدين الأجـانب ٠ وظلوا يكررون ويترجمون مطالبهم للمراسلين وفرق التليفزيون الأجنبية ٠ وكتبوا الشعارات بلغـات أجنبية لكى يتمكن المشاهدون خارج الصـين من فهمها على الفور ٠ وكان شعار « ١٧٨٩ الصـينى » المكتوب باللغـة الفرنسية يقـارن انتفاضتهم بالثـورة الفرنسية ٠ كما كانوا يغنـون للمشاهدين الأمريكيين أغنية « سوف ننتصر » واقتبسوا كلمـات باتريك هنرى « أعطنى الديمقراطية أو أعطنى الموت » ٠ وقوبلت استراتيجيـة اليد الممدودة هذه بمسيرات تعاطف فى كل من هونج كونج وتايـوان وأستراليا وفى جميع أنحـاء الولايات المتحدة ٠

وفى غضون ذلك أقام طالب صينى فى جامعة هارفـارد وصلة هاتفية بين بكين وبوسطن ٠ وكانت أنباء ميدان تيانانمين تصل عبر هذا الخط الى شقته الصغيرة طوال الـ ٢٤ ساعة ٠ ومن هنـاك يعـاد ارسالها بالهاتف والفاكس والكمبيوتر الى الطلبة الصينيين فى جميع أنحاء الولايات المتحدة ٠

كما أنشأ الطلاب فى جامعتى ستانفورد وبيركلى ما أسموه « الجسر الجوى للأنباء » ٠ حيث كانوا يرسلون بواسطة أجهزة الفـاكس الى المضربين آخر الأنباء التى نشرت عنهم فى الصحافة الأمريكية ٠ وكانت المذكرات توجه الى مقار شركات فى بكين أو فى مدن أخرى على أمل أن تقوم أيد صديقة بنقلها الى الطلاب المضربين ٠ وكان عـدد أجهزة الفاكس فى الصين يقـدر بـ ٣٠ ألف جهاز وعدد خطوط الهاتف فى بكين وحدها بثلاثة ملايين خط ٠

وكذلك قام الطلبة الصينيون فى الولايات المتحدة ، وأكثرهم من أبناء كبار المسئولين فى الحكومة والحزب ، بتسجيل لقاءات هاتفية مع المضربين على أشرطة وكانوا يسلمونها الى اذاعة صوت أمريكا لكى تبثها مرة أخرى الى الصين ·

لقد استمرت هذه المعركة العالمية للسيطرة على المعلومات ووسائل الاتصال حتى بعد أن لجأ « المتشددون » الى الجيش وقتلوا العديد من المتظاهرين وسحقوا الاضراب · واستخدمت الحكومة الصينية مرة أخرى وسائل اعلام الموجة الثانية ، فقامت ببث صور بعض الطلبة و « قادة » الاضراب وكذلك أرقام هواتف لكى يستخدمها المخبرون فى حالة التعرف على الهاربين ·

غير أن هذه الرسالة المرئية نقلت الى خارج الصين ، فعمل بعض مشاهدى التليفزيون ، من كندا الى ايطاليا ، بجد واجتهاد على عرقلة الاتصالات مستخدمين الخطوط الهاتفية الدولية المباشرة لمنع الوشاة الصينيين من الاتصال بالسلطات · وهى أول محاولة معروفة للتدخل بهذا الشكل عبر الحدود الوطنية يقوم بها مواطنون عاديون ·

لقد ثبت فى الصين مرة أخرى صحة مقولة ماوتسى تونج بأن السلطة على فوهة بندقية · لكن اتضح جليا أن « المتشددين » الذين سيطروا على الموقف لن يستطيعوا التمتع فى سلام بانتصارهم ، كما أكدت ذلك أحداث أوروبا الشرقية وغيرها ، لأن ما حدث لم يكن سوى بداية دخول الصين الى القرن الحادى والعشرين ·

لقد كشفت أحداث الصين وبوضوح أخاذ عن الاستراتيجيات الاعلامية للثورة والثورة المضادة · ولا تزال وسائل اعلام الموجة الثانية الجماعية تمارس تأثيرا ضخما فى الوقت الراهن · ولكن مع تقدم العالم – بأقصى سرعة – فى عصر تحول السلطة فان أدوات السيطرة على الأذهان التى كانت ساحقة فيما مضى ستسحق بدورها بواسطة وسائل اعلام الغد المحرضة على التمرد والعصيان ·

الفصل الثامن والعشرون

جيل الشاشة الصغيرة

فى منتصف القرن العشرين نشر جورج أورويل كتيبا ساخنا ضد الشمولية عنوانه « ١٩٨٤ » . رسم هذا الكتيب صورة لحكومة تسيطر بالكامل على وسائل الاعلام . ولقد دخلت التعبيرات الجديدة التى ابتكرها الكاتب فى اللغة اليومية ، وأصبح الكتاب سلاحا هجوميا قويا فى الصراع ضد الرقابة والتلاعب بالعقول . ولذلك ظل محظورا فى الاتحاد السوفيتى لعدة عقود .

ومع أن كتاب أورويل قد نجح فى حشد القوى المناهضة لاخضاع العقل فلقد اتضح أن تصوره للمستقبل لم يكن سليما تماما .

تنبأ أورويل بدقة بتقنيات مثل شاشات التليفزيون ثنائية الاتجاه ، التى يمكن استخدامها لتوصيل الدعاية الرسمية للمشاهدين والتجسس عليهم فى آن واحد . أما بالنسبة لتحذيراته بشأن انتهاك الحياة الخاصة، فهى تظل أقل من الواقع . غير أنه لم يتوقع ــ كما لم يتوقع أحد فى ذلك الوقت ــ أهم ثورة فى عصرنا ألا وهى الانتقال من الاقتصاد القائم على العضلات الى اقتصاد يعتمد على الذكاء .

ومن ثم فهو لم يتنبأ بالانتشار المذهل الحالى لأدوات الاتصال الجديدة . ان عدد وتنوع هذه التكنولوجيات وسرعة تغيرها بلغ حاليا درجة تحير الخبراء أنفسهم . ان مواجهة حشد الاختصارات التقنية مثل HDTV و ISDN و VAN و CD-I وغيرها أشبه بالتلازج فى قار حقيقى من الحروف الأبجدية . بل ان مجرد استعراض اعلانات السلع الاستهلاكية المقابلة لهذه التقنيات يصيب بالدوار .

ولكن اذا ارتفعنا فوق هذه الجلبة تصبح الحدود الرئيسية لوسائل اعلام الموجة الثالثة واضحة تماما .

ستكون للبنية الأساسية الالكترونية للاقتصادات المتقـــدمة ست سمات متميزة ، بعضها يعلن عن وصوله بالفعل · وهذه السمات التى تعد مفاتيح المستقبل هى : التفاعلية وقابلية الحـركة والتحويلية أو قابلية التحويل والتوصيلية والشيوع والعالمية ·

ان هذه المبادىء الستة مجتمعة تنبىء بتحول شامل ليس فى طريقة تبادلنا للرسائل فحسب ولكن فى طريقة تفكيرنا ورؤيتنا لمكاننا فى العالم، ومن ثم فهى تنبىء بتحول فى علاقاتنا مع من يحكموننا · ان هذه المبادىء مجتمعة ستجعل من المستحيل على الحكومات (أو على معـــارضيها الثوريين) التلاعب فى الأفكار والصور والبيانات والمعلومات والمعرفة كما كانت تفعل فى الماضى ·

لاعب جـولف طوع أمرك :

فى مبنى قصير ومتين من مبانى شارع سانتا مونيكا بلوس انجلوس كان جوردن ستولبرج ، وهـو مدير سابق بشركة فوكس للقـرن العشرين السينمائية ، يمزح مع برنارد لسكن وهو أخصائى فى العلاج النفسى ورئيس سابق لاحدى الكليات كما كان يرأس كونسرتيوم تعليميا لعـلوم الكمبيوتر بكاليفورنيا · ويشرف الرجـلان معـا على فريق وسائل الاعلام الأمريكية المتفاعلة والذى يضم مربين وفنانين ومبرمجين · ويستعـــد هذا الفريق لتقديم الانجاز المقبل فى تكنولوجيا الاسطوانة المدمجة وهى « الاسطوانة المدمجة المتفاعلة » (CD - 1) .

ويعتزم هذا الفريق أن ينتج اسطوانات يتم عرض محتوياتها على شاشات أجهزة التليفزيون العائلية بحيث تسـمح للمشاهد بالتـدخل فى المشهد الذى يراه عن طريق جهاز توجيه عن بعد يمسك به فى يده وابهامه على مقبض لعب صغير · ويطلق على احدى هذه الاسطوانات اسـم « الجولف المتفاعل » ، وهى تتيح للمشاهد أن يلعب مبـاراة جـولف ضد لاعب آخر عن طريق التحكم فى لاعب جولف آلى يحركه على الشاشـة كيفما يشاء · اذ يمكنه أن يجعله يلف يمينا أو يســارا أو يغيـر دورانه وتسديده للضربة ، باختصار يستطيع مستخدم هذه الاسطوانة أن يتحكم فى كل ما يدور على الشاشة ·

كمـا تسمح اسطوانة « دائرة معارف جروليبه » باستدعاء معلومات سمعية بصرية عن أى من الموضوعات المسجلة عليها ، وتقدم النصوص والصور والرسوم المتحركة شرحا وتفسيرا لعمل محرك سيارة مثلا أو

لجزىء الحامض النووى (DNA) ، كما يستطيع مستخدم هذه الأسطوانة أن يتعامل مع هذه المعلومات ويتفاعل معها .

وهناك اسطوانات متفاعلة أخرى لنفس المجموعة تضم ألعابا وقصصا من التوراة ونوعا جديدا من الأطلس ودروسا فى التصوير الفوتوغرافى تم اعدادها بالتعاون مع مجلة تايم لايف . كما تصحبك اسطوانة أخرى فى زيارة لمتحف سميثونيان وتسمح لك بفحص الأشياء المعروضة أثناء مرورك بها .

ان شركة وسائل الاعلام الأمريكية المتفاعلة التى تملكها شركة (Polygram Records) التابعة لشركة فيليبس الهولندية العملاقة للالكترونيات ليست سوى واحدة من عدة شركات تعمل فى مجال تكنولوجيا الفيديو المتفاعل . وتهدف هذه الشركات الى جعل مشاهدة التليفزيون تجربه ايجابية أكثر منها سلبية ، أى أن يشارك المشاهد بدلا من الاكتفاء بالتلقى .

وفى الوقت نفسه فان شركة الألعاب التليفزيونية المتفاعلة ، وهى شركة مقرها شمال كاليفورنيا وتحصل على تمويلها جزئيا من مجموعة يونايتد آرتست وجنرال الكترونيكس ومجموعة فيديوترون ليميتد ، تسلك طريقا مختلفا للوصول الى نفس الهدف . فهى تقوم بصنع جهاز سيتيح للمشاهدين المشاركة من منازلهم فى برامج الألعاب التليفزيونية المعروفة مثل عجلة الحظ ، بحيث يرسل اللاعبون اجاباتهم الى كمبيوتر مركزى يقوم بمراجعة كل الاجابات واختيار الفائز .

غير أن القفزة الأكثر ثورية فى اتجاه التفاعلية ـ والتى لا تزال حتى الآن فى طور التصور ـ تتمثل فى شبكة واسعة من أجهزة التليفزيون المتفاعلة والتى تعمل فى الوقت نفسه كأجهزة كمبيوتر ، وقد أطلق عليها جورج جيلدر اسم « التليكمبيوتر » .

وبالاضافة الى الأسطوانات والأشرطة فان الحياة ستدب فى التليفزيون ذاته بين يدى مستخدمه على حد قول جيلدر ، الذى درس عن قرب الحدود التكنولوجية فى مجال الفيديو والكمبيوتر . ويوضح جيلدر أن « الخط الفاصل بين « التليفزيون » ـ الذى تسيطر اليابان حاليا على صناعته ـ و « أجهزة الكمبيوتر » ـ التى تملك فيها الصناعة الأمريكية أفضل الوسائل ـ يختفى تدريجيا » . وان الاندماج المقبل بين هاتين التكنولوجيتين سينقل السلطة من شبكات التليفزيون القديمة الى

المستخدمين متيحا لهم « تعديل الصور على هواهم » ٠ ان هـذا الجهـاز الهجين يمكنه أيضا نقل السلطة من اليابان الى الولايات المتحدة ـ على حـد قـول جيلدر ٠

وسواء أكان هذا التوقع صحيحا أم لا فان تيـارين قويين للتطـور الاقتصادى سيصبان معا نحو انتشار ضخـم للتفـاعلية فى مجـال المرئيـات ٠

ترف متفسـخ :

المبـدأ الثانى للنظـام الجـديد هـو الحركية أو قابلية الحـركة : ان الهاتف اللاسلكى الموجود فى كابينة الطائرة أو فى السيارة بدأ يعـود المستخدمين على فكرة امكانية الاتصال بأى مكان ومن أى مكان مـع الاستمرار فى الانتقال والتنقل ٠

فى البداية اعتبر استخدام هاتف السـيارة الذى يعتمد على تقنيـة اللاسلكى الخلوى ترفا متفسخا ٠ (كما اعتبرت من قبل أول أجهزة الهاتف فى القرن التاسع عشر) ٠ ـ أما الآن فهى منتشرة على نطاق واسع فى الولايات المتحدة ٠

وفى انجلترا يقوم الآن كونسرتيوم يسمى فون بـوينت ـ يمثل مؤسسة البريد والبرق الألمانية (بوندسبوست) وفرانس تيليكوم ونيناكس وهى شركة هاتف نيويوركية بالاضافة الى بريتيش تيليكوم ـ بادخـال « هاتف جيب » متطور الى الخدمة بأقصى سرعة ٠ هذه الأجهزة المتنقلة ليست مجرد رموز رفاهية أو مكانة اجتماعية ، لقـد أصبحت أداة عمل تزيد من الانتاجية بالنسبة للمندوبين التجاريين والأطبـاء والسـباكين وغيرهم ٠ وبينما يعمل الناس ويلعبون وهم يتنقلون يشتعل الطلب على وسائل اتصال أبسط وأرخص وفى المتناول دائما ، وهو ما يوفر قـاعدة المرحلة التالية الا وهى اختـراع هاتف مدمج فى سوار مثل هاتف ديك تراس ٠

غير أن الهاتف ليس سوى واحد من العديد من الأجهزة الجديدة التى لا حصر لهـا التى تتحرر من قاعدتها الثابتة ومن مسـامير تثبيتها ٠ فشركة سونى تقدم ناسخة وزنها ١٥٠ جراما كما أن هناك جهاز فاكس للسيارة وفيديو للجيب وجهـاز كمبيوتر يمكن وضعه على الركبتين وطباعة نقالة وكلها أجهزة تنتشر بسرعة كبيرة ٠ ان الحركية أو قابلية التحرك تمثل ثانى سمة مميزة ٠

تأتى بعد ذلك قابلية التحويل أو التحويلية ، وهى القدرة على نقل المعلومات من وسيلة الى أخرى · اننا الآن مثلا نتجه نحو التكنولوجيات المعتمدة على الكلمة والتى تستطيع تحويل الرسالة الشفوية الى رسالة خطية وبالعكس · ان الآلات القادرة على تسجيل ما يملى عليها من عدة أشخاص فى آن واحد وتحويله الى خطابات مطبوعة لن يطول الوقت لكى تصبح حقيقة ·

ان مثل هذه الأدوات قد تقلب رأسا على عقب العديد من المجالات ابتداء من مجال التوظيف وتنظيم العمل المكتبى الى دور القراءة والكتابة فى الحياة اليومية ، غير أن قيمتها تتضاءل مقارنة بشكل آخر من التحويل الا وهو الترجمة الآلية · ان ترجمة الوثائق والمستندات التجارية من لغة الى اخرى حتى وان لم تكن فى شكلها الأمثل موجودة فعلا فى فرنسا مع نظام مينى تل كما سبق أن أشرنا الى ذلك فى الفصل العاشر · وتجرى اليابان أبحاثا مكثفة للوصول الى ترجمة دقيقة (فاليابان تعتبر لغتها اعاقة اقتصادية) · كما تنتظر المجموعة الأوروبية بصبر نافد حدوث تقدم فى هذا المجال نظرا لاضطرارها الى ترجمة أى نص الى لغات أعضائها الاثنى عشر ·

أما المبدأ الرابع للبنية الأساسية الالكترونية الجديدة وهو التوصيلية فقد أصبح كلمة شائعة بين مستخدمى الكمبيوتر والاتصالات اللاسلكية فى العالم كله · فهم يطالبون بالحاح بامكانية توصيل أجهزتهم بتنويعة واسعة من الأجهزة الأخرى بغض النظر عن الشركة المنتجة لها أو بلدها الأصلى ·

وبالرغم من المعارك السياسية الضارية بشأن النظم القياسية والمعايير ، فان جهودا ضخمة تبذل من أجل دفع التوافق بين الأجهزة بحيث يمكن ربط جهاز « التليكمبيوتر » المتفاعل والمتحرك مع أحد أنظمة IBM الكبيرة فى شيكاغو أو مع جهاز كمبيوتر متنقل صغير من انتاج توشيبا مستخدم فى فرانكفورت أو سوبر كمبيوتر « كراى » فى وادى السليكون أو هاتف ديك تراس لربة أسرة فى سيول ·

أكثر من مجرد تعاطف :

ان مفهوم الشيوع الذى يمثل المفتاح الخامس ، نقصد به الانتشار المنهجى للنظام الاعلامى الجديد فى كل أرجاء العالم وكذلك داخل كل طبقات المجتمع ·

ان كابوسا محتملا يقلق حكومات البلدان ذات التكنولوجيا المتقدمة ، ألا وهو انقسام الناس داخل نفس المجتمع الى أغنياء معلوماتيا وفقراء معلوماتيا · ان أية حكومة لا تتخذ التدابير المادية الكفيلة بتفادى هذا التمييز تعرض نفسها لقلاقل سياسية خطيرة فى المستقبل · غير أن هذا الاستقطاب الخطير ليس أمرا محتما ·

واذا تصور المرء امكانية توفر قدر كبير من المساواة فى حرية الوصول الى المعلومات داخل المجتمع الجديد ، فان ذلك لن يكون بدافع من التعاطف أو الفهم السياسى السليم من جانب الصفوة الغنية ، وانما بسبب ما يمكن تسميته بقانون الشيوع ·

يوضح هذا القانون أن دوافع تجارية وسياسية قوية ستظهر لتجعل البنية التحتية الالكترونية الجديدة شاملة أكثر منها مانعة أو حاضرة ·

وفى بداية عصر الهاتف كان هذا الجهاز يعتبر نوعا من الترف · وكانت فكرة أن يمتلك كل شخص ذات يوم جهازا للهاتف تبدو غريبة · فلماذا بالله سيحتاج كل الناس الى امتلاك هاتف ؟ ·

واذا كان كل مواطن تقريبا فى الدول الصناعية ـ ثريا كان أم فقيرا ـ لديه الآن هاتف فان ذلك لا يرجع الى أى مشاعر خيرية وانما الى حقيقة مفادها أنه كلما زاد عدد المستخدمين المرتبطين بنظام ما ، ارتفعت قيمته بالنسبة للجميع وخاصة فى مجال التجارة ·

لقد ثبتت صحة هذه الحقيقة ، كما رأينا ، فى المراحل الأولى لتطور الخدمات البريدية · فالاقتصاد الصناعى آنذاك كان يحتاج الى وسيلة مريحة لارسال الفواتير والقيام بالدعاية وبيع الصحف والمجلات لكل مواطن وليس للأغنياء فقط ·

وحاليا ، بينما بدأت أجهزة الفاكس تحل محل بريد العصر الصناعى نشهد ضغوطا مماثلة تعمل على التعجيل بانتشار التكنولوجيا الجديدة ·

ففى عام ١٩٨٩ كان فى الولايات المتحدة ٥ر٢ مليون جهاز فاكس تقوم سنويا بطرح مليارات الصفحات ، وتضاعف عدد المستخدمين كل عام ، خاصة أن أول مستخدمى الفاكس ألحوا على الأصدقاء والعملاء والأهل أن يسارعوا بشراء أجهزة فاكس لكى يتسنى لهم تبادل الرسائل

معهم · وكلما زاد عدد أجهزة الفاكس المستخدمة ، زادت قيمة النظام بالنسبة لكل الأطراف المعنية ·

اذن ، فمن مصلحة البلدان الغنية ، بكل تأكيد ، أن تجد الوسائل الكفيلة بأن يضم النظام الجديد من هم أقل ثراء بدلا من أن يقصيهم ·

وكما حدث بالنسبة لأجهزة الهاتف والتليفزيون فان أجهزة الفاكس ستظهر فى أكثر البيوت تواضعا ، مدفوعة بقانون الشيوع ·

وينطبق الشيء نفسه على الألياف الضوئية والتكنولوجيات المتقدمة الأخرى سواء ادفع ثمنها الأفراد أم مجموع الشعب أو بعض المستخدمين الذين ستمول مدفوعاتهم هذه الخدمة بالنسبة لغير القادرين على تكاليفها ·

ان الانتشار الأقصى لقدرات الاتصال جزء لا يتجزأ من النظام الجديد لخلق الثروة · وكل شيء يشير الى أننا نتجه نحو « خدمة شاملة » ـ على حد تعبير شركة «بل» القديمة للهاتف ـ أى خدمة تتمتع بالشيوع فضلا عن التفاعلية وقابلية التحريك والتحويل والتوصيل ·

وأخيرا ، فان نطاق البنية التحتية الجديدة هو الكرة الأرضية · فبينما يجتاز تدفق رؤوس الأموال الحدود فى جميع الاتجاهات بفضل الشبكات الالكترونية متنقلا من زيورخ الى هونج كونج ومن هونج كونج الى النرويج ومنها الى طوكيو ومن طوكيو الى وول ستريت فى أجزاء من الألف من الثانية ، فان المعلومات تسلك أيضا طرقا لا تقل عن ذلك تعقيدا· ان أى تعديل فى سعر الفائدة فى الولايات المتحدة أو فى سعر الين مقابل المارك الألمانى يعلم به العالم كله فى الحال · وينطبق ذلك على كل الأحداث المهمة التى تقع فى أى جزء من الكرة الأرضية ، فهى تكون فى اليوم التالى موضع نقاش بين الناس فى جميع انحاء العالم · لقد أصبحت الحدود الذهنية لأية دولة لا تقل نفاذية عن حدودها المالية ·

ان الجمع بين هذه المبادىء الستة يمنح الكرة الأرضية نظاما عصبيا ثوريا قادرا على نقل كميات متعاظمة من البيانات والمعلومات والمعرفة بمعدلات بث ومعالجة أسرع بكثير من ذى قبل · انه نظام أكثر تكيفا وذكاء وتعقيدا عما كان يمكن تخيله اطلاقا فى الماضى ·

العنف والتطـرف الالكتـرونى :

ان مولد نظام اعلامى جديد ، يتطابق مع متطلبات نظام جديد تماما لخلق الثروة ، يشكل تحديا لمن بيدهم السلطة ، وذلك لأنه يمهد الطريق لبروز تجمعات انتخابية جديدة وأساليب واستراتيجيات وتحـــالفات سياسية جـــديدة ·

وكما كان الناس فى القرن الثامن عشر مثلا غير قادرين على تخيل التغيرات السياسية النابعة من تطور الاقتصاد المصنعى ، فالتنبؤ الآن بالاستخدامات السياسية للنظام الاعلامى الذى لا يزال فى طور الظهور أمر شبه مستحيل ، الا اذا لجأنا للخيال العلمى ·

ولنأخـذ التفـاعلية كمثـــال :

ان السماح للمشاهدين باستخدام الشاشة بدلا من الاكتفاء بالنظر اليها يمكن أن يغير الحملات الانتخابية والمرشحين أيضا · فوسائـــل الاعلام المتفاعلة تجعل من الممكن اجراء استطلاعات رأى عام أكثر دقة بكثير عن ذى قبل · فبدلا من طرح أسئلة لا تتضمن سوى الاجابـــة بـ «نعم» أو «لا» ، ســتكون لدى من توجه لهم الأسئلة فرصة الاختيار بين العديد من الخيـــارات ·

غير أن الامكانات تتجاوز بكثير عمليــات الاقتراع أو اســتطلاعات الرأى فى حد ذاتها · فمستخدمو الفيديو المتفاعل يمكنهم توجيه أسئلة محددة مثل : هل سيقوم المرشح اذا تم انتخابه بخلق فرص عمل من أجل تحسين البيئة ؟ واذا كانت الاجابة بنعم فكم عدد هذه الفرص ؟ · وكيف سيكون رد فعله ، فى ظل ظروف مختلفة ، تجاه عملية اختطاف رهائن مثلا أو فتن عنصرية أو كارثة نووية ؟ ثم بدلا من تقييم مميزات رئيس جمهورية محتمل ومدى سلامة أحكامه عن طريق الاستماع الى « أفلام دعاية » انتخابية مدتها لا تزيد عن ثلاثين ثانية سيكون فى وسع مستخدمى الفيديو المتفاعل غدا اختيار برنامج أو تشغيل اسطوانة صغيرة تظهـــر المرشح وهو يتناقش ويتخذ قرارات فى ظل مختلف الظـــروف التى يقترحها الناخب نفسه ·

كما سيكون من الممكن اصدار البرامج الانتخابية للمرشحين أو الأحـــزاب فى شكل جداول بيانية اعلاماتية تتيح للناخبين حساب تقديراتهم الخاصة بالميزانية وطرح أسئلة من نوع « وماذا لو حدث هذا الشىء أو ذاك ؟ » ·

وبما أن أعداداً كبيرة جداً من المشاهدين تستطيع المشاركة فى برنامج ألعاب يتمتع باقبال جماهيرى كبير مثـل برنامج « المخاطرة » بمساعدة كمبيوتر يتولى احصاء الاجابات الصحيحة ، فان الأمر لا يتطلب خيـالا واسعا لادراك أنه يمكن تكييف مثل هذه التقنية من أجل فرز وعد بطاقات الاقتراع أو لاتخاذ قرارات جماعية ، ومن ثم لقيام تنظيم من نوع جديد للنشـاط السـياسى ٠

ولقد تنبأ علماء مستقبليون ومتخصصون فى المحاكاة منذ وقت طويل بامكانية تنظيم أعداد كبيرة من المواطنين للمشاركة فى « ألعاب » سياسية ٠ ففى أواخر الستينيات كان البروفيسير خـوزيه فيلجـاس من جامعة كورنيل قد وضع نماذج لمثل هذا النوع من النشاط ٠ وكانت هذه النماذج تضـم برامج ترفيهية يمكن أن يشارك فيهـا سـكان المعـازل والأحياء الفقيرة وذلك كنوع من التوعية السياسية ٠٠ أو الاحتجـاج السـياسى ٠

وكان ما ينقص البروفسير فيلجاس لتحقيق تلك النمـاذج هـو التكنولوجيا ٠ وسيؤدى تطور التفاعلية من خـلال الشـبكات الى ادخال أدوات « الألعاب » السياسية الى ملايين المنازل ٠ وبواسطـة هـذه الأدوات سيتمكن المواطنون ـ مبدئيا على الأقل ـ من اجـراء استطلاعات رأى خاصة بهم وتشكيل « أحزابهم الالكترونية » أو « جمـاعات ضـغط الكترونية » حول مختلف القضايا ٠

كما يمكن أيضا تخيل عمليات تخريب الكترونية ، ليس على غـرار عمليات التخريب التى يقـوم بها مخـربون فرديون ، ولكن كمنـاورات احتجاج أو ابتزاز سياسى ٠ ففى الساعة الثانية والربع بعد ظهر يوم ١٥ يناير ١٩٩٠ لاحظ المهندسون فى بيد مينستر بولاية نيوجـرسى أنوارا حمراء تومض على الشـاشة التى تعـرض حالة شبكة (ايه ٠ تى آند تى) لهواتف المكالمات البعيدة ، وعددها ٧٥ شاشة ٠ وكل ضوء كان يشير الى وجود مشكلة ٠

قال وليم ليتسن ، مدير مركز تشغيل الشبكة : « لقد حـدث ذلك دفعة واحدة ٠ صوت طقطقة ثم توقف كل شىء فجأة » ٠

و « الطقطقة »المعنية أدت الى تعطل كامل لشبكة الهاتف الأمريكى للمسافات الطويلة استمر تسع ساعات ، ويقدر عدد المكالمات التى تعذر اجراؤها خلال هذه الساعات بـ ٦٥ مليون مكالمة ٠

وانتهى المحققون فى شركة (ايه · تى · آند تى) الى ان العطل نجم عن خطأ فى برامج التشغيل الا انهم لم يستبعدوا « بشكل قاطع » وجود عمل تخريبى وراء ذلك · اذ كان يوم ١٥ يناير عيداً قوميا تخليداً ليوم ميلاد الزعيم الزنجى مارتن لوثر كنج ، وكان بعض الأمريكيين الذين يمقتون كنج بشراسة يشعرون بالسخط الشديد من أن يخصص له عيد قومى · ان ما حدث لشبكة (ايه · تى · آند تى) قد يكون مجرد صدفة، ولكن ليس من قبيل المبالغة فى الخيال تصور عمليات احتجاج أو تخريب الكترونية فى المستقبل ·

ومنذ الآن ، يمكن بشكل مادى رصد التوترات الاجتماعية العميقة الناجمة عن ظهور شكل جديد من الاقتصاد – مشكلات ترتبط بطريقة نشر المعرفة داخل المجتمع ·

هــوة المعلومات :

تعانى حاليا المجتمعات ذات التكنولوجيا المتقدمة ، خاصــة فى الولايات المتحدة ، من سوء توزيع المعــلومات لأن قانون الشيوع لم يكتمل تأثيره بعد · فهناك « هوة » لا يقل عمقها عن عمق الأخــدود العظيم (الجراند كانيون) ·

ان وجود طبقة المعدمين أو ما يسمى بـ « الطبقة الدنيا » يمثــل مشكلة مستعصية ظاهريا بالنسبة للعديد من هذه المجتمعات · فوجود مثل هذه الطبقة لا يعتبر فقط سبة معنوية بالنسبة لمجتمعات الوفرة وانما يمثل أيضا تهديدا للسلام الاجتماعى ، وفى نهاية المطــاف تهديــدا للديمقراطية · غير أنه من الحمق الاعتقاد بأن كل المنتمين لهذه الطبقة « ضحايا » المجتمع أو البطالة لأن كثيرين منهم ، ان لم يكن أغلبهم ، وصلوا الى ذلك لأسباب أخرى ·

فقد بات من الواضح باضطراد أن العمل يتطلب معارف أكثر تطورا، حتى انه لو توفرت فرص العمل ، فان أغلبية أفراد هذه الطبقة لا ينطبق عليها الشروط المطلوب توافرها لشغل هذه الفرص ·

فضلا عن أن المعرفة المطلوبة يجب أن تتجاوز المهارات الخاصة بالمهمة المطلوب انجازها ، فلكى يكون الشخص صالحا لعمــل يجب أن تتوفر لديه بعض المفاهيم الثقافية الضمنية المتعلقة بالوقت والملابس وآداب السلوك والنقود واللغــة والســببية · وفوق كل ذلك يجب أن يكون قادرا على تبــادل المعــلومات ·

ان هذه المهارات الثقافية العامة لا يمكن الحصول عليها من خلال الكتيبات التقنية أو دورات التدريب فقط ، بل انها تقتضى نوعـــا من الألفة مع ما يدور فى العالم فيما وراء الشارع الذى يسكن فيه طالب العمل • ويتم الحصول على هذا النوع من المعارف بشكل متزايد عن طريق البيئة الاعلامية • فانطلاقا من هذه البيئة يستنتج الناس المعايير الاجتماعية وأيضا « الحقائق » الخاصة عن الكيفية التى تســير بها الأمور •

ان طبيعة وسائل الاعلام والصور التى تبثها والجمــاعات التى تستهدفها والتغــذية الارتجاعية التى تحدثها ترتبط ارتباطا مبـاشرا بكل من مشكلة العمالة ومشكلات الانحطاط الطبقى الحادث •

ومن ناحية أخرى ، فان الهوة الثقافية بين الطبقات الدنيا والتيار الرئيسى للمجتمع تزداد اتساعا مع انتشار النظام الاعلامى الجديد •

ويؤكد جيفرى موريتس رئيس المعهد القــومى للتليفـزيون ، الــذى يستخدم الأقمار الصناعية لبث برامج متخصصة لطلبة الجامعات عــلى مدى ٤٢ ساعة أسبوعيا ، أن هذه البرامج تصل الى ٧٠٠ ألف مواطن تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشرة والرابعة والثلاثين ، ويمثل هؤلاء قادة الغــد المحتملين • انهم بالضبط نقيض شــباب الطبقــات الدنيــا • (وكما يشير موريتس فان مجتمع طلاب الجامعات الأمريكية الراهن قــد يضم رئيسين من رؤساء الولايات المتحدة مستقبلا ومئات من أعضاء مجلس الشيوخ وآلافا من رؤساء الشركات) •

وهكذا يصفهم موريتس : « ان الطالب ذا العشرين ربيعا الآن يمثــل « الجمهور الأكثر تطورا ومعرفة باستخدام الأجهزة السمعية البصرية » فى التــاريخ [•••] فمنــذ عشرين عاما بدأ بث برنامج Sesame Street « شارع سمسم » ، وكان يستهدف بشكل خاص تدريب الصغار والأطفال فى سن ما قبل المدرسة على التقنيات البصرية التليفزيونية المتطورة بمــا فى ذلك الأفلام شديدة القصر التى لا تتجاوز (٩٠ ثانيــة) والمؤثرات المرئية الخاصة والمشاركة المتفاعلة وأبطال جدد • ومع زيادة عمر هذا الجمهور انتقل الى برامج أخرى [مثل] الفرقة الكهربائية وزووم ثم نيكلو ديون ، وكان كل برنامج من هذه البرامج يمثل مرحلة من التقدم المستمر [•••] ان جمهور المشاهدين الذى نشأ على برامج شارع سمسم أعاد الآن تشكيل التليفزيون برمته » •

ان البرامج المذكورة تعرض كل مساء على الشبكات ذات التوجه التربوى أو على الشبكات الكابلية وليس على الشبكات الكبرى شبكات الموجة الثانية ٠

ويستخدم موريتس تعبير « جيل الشاشة الصغير » للاشارة الى هذا الجيل المتخم بالصورة المرئية والذى هضم آلاف الساعات من العروض التليفزيونية متشربا ما فيها من « منطق فيديوى » ٠ وبالاضافة الى كل ذلك فان الكثيرين من هذا الجيل أمضوا عدد ساعات مماثلا فى ممارسة ألعاب الفيديو المتفاعلة ـ والأهم ـ فى العمل على أجهزة الكمبيوتر الشخصى الخاصة بهم ٠ انهم لا يخضعون لمنطق مختلف فحسب وانما هم معتادون أيضا على جعل الشاشة تقوم بأشياء ، وهو ما يجعلهم عملاء ممتازين للخدمات والمنتجات المتفاعلة التى ستظهر قريبا فى الأسواق ٠ وقبل كل شىء انهم قد اعتادوا على الاختيار ٠

ان الهوة العميقة التى تفصل شباب الطبقات الدنيا وجيل « الشاشة الصغيرة » والتى تميز حاليا الولايات المتحدة سوف تتسع أيضا فى أوروبا واليابان وفى مجتمعات التكنولوجيا المتقدمة الأخرى ما لم تتخذ تدابير لبناء جسر على هذا الأخدود المعلوماتى العظيم ٠

التحالف الجديد :

فى الاقتصاد الذى يعتمد على المعرفة لم تعد أهم قضية سياسية داخلية هى قضية توزيع (أو اعادة توزيع) الثروة وانما توزيع المعلومات ووسائل الاعلام التى تنتجها ٠

ان ثورية هذا الانقلاب تجعل من المستحيل قياسه بالمقاييس السياسية التقليدية ٠ فالنظام الجديد لخلق الثروة سيجبر رجال السياسة ـ سواء أكانوا يزاولون السياسة عمليا أم يضعون نظريات سياسية وسواء اعتبروا أنفسهم يساريين أو يمينيين ، راديكاليين أو محافظين مناصرين لحقوق المرأة أو تقليديين ـ على اعادة التفكير فى كل المفاهيم التى تبلورت خلال العصر المصنعى ٠ ان هذه المفاهيم نفسها قد تعداها الزمن بالفعل ٠

تعتمد العدالة الاجتماعية والحرية بشكل متزايد على الطريقة التى يعالج بها كل مجتمع ثلاث قضايا : التعليم وتكنولوجيا المعلومات (بما فى ذلك وسائل الاعلام) وحرية التعبير ٠

بالنسبة للتعليم ، يقتضى الأمر الآن عملية أعادة صياغة للمفاهيم الخاصة به ، وهى عملية عميقة جدا بحيث تتجاوز بمراحل المسائل المتعلقة بالميزانية وعدد التلاميذ فى الفصول وأجور المعلمين وكذلك الخلافات التقليدية بشأن المناهج ، وبالتالى يصعب معالجة هذه القضية الحيوية هنا . أن نظمنا المصوغة من أجل التعليم الجماهيرى أصبحت الى حد كبير باطلة شأنها فى ذلك شأن شبكات تليفزيون الموجة الثانية (أو كل الصناعات المصنعية) . سيتطلب التعليم ، تماما كما هو الحال بالنسبة لوسائل الاعلام ، انتشار قنوات جديدة وزيادة كبيرة فى تنوع البرامج . فلكى تعد المدارس الناس ليعيشوا بشكل صحيح فى مجتمع الموجة الثالثة وليلعبوا دورا منتجا فى ذلك المجتمع يتعين أن يحل نظام غنى بالاختيارات محل نظام يفتقر الى حرية الاختيار .

ان الروابط بين التعليم والمبادىء الستة للنظام الاعلامى الجديد ـ التفاعلية والحركية والتحويلية والتوصيلية والشيوع والعالمية ـ لم تستكشف بعد الا بالكاد . غير أن محاولة تجاهل العلاقات بين النظام التعليمى والنظام الاعلامى المستقبلى يعنى الاستهزاء بمن سيتم تشكيلهم بواسطة كل من النظامين .

كما تجدر الاشارة الى أن التعليم له الأولوية ليس فقط بالنسبة للآباء والمعلمين وحفنة من المصلحين التربويين وانما بالنسبة للعديد من القطاعات الطليعية فى الاقتصاد ، حيث بدأ المسئولون فى هذه القطاعات يعترفون بشكل متزايد بالارتباط بين التعليم والقدرة على المنافسة العالمية .

ونفترض أن القضية الثانية هى التعميم السريع لسبل الوصول الى اجهزة الكمبيوتر وتكنولوجيا المعلومات ووسائل الاعلام المتطورة . لا يوجد بلد يستطيع تشغيل اقتصاد ينتمى الى القرن الحادى والعشرين دون بنية تحتية الكترونية متوافقة هى أيضا مع القرن الحادى والعشرين أى تشمل أجهزة كمبيوتر ووسائل اتصال ناقلة للبيانات ووسائل اعلام حديثة أخرى . وهو ما يتطلب من الجماهير أن تعتاد وتألف هذه البنية التحتية المعلوماتية كما اعتادت على البنية التحتية للنقل والمواصلات الخاصة بالعصر المصنعى وعلى السيارات والشوارع والطرق السريعة والقطارات وغيرها .

ان الأمر لا يستدعى بالطبع أن يكون كل شخص مهندس اتصالات لاسلكية أو خبير كمبيوتر كما لا يحتاج كل شخص أن يكون ضليعا فى

ميكانيكا السيارات ٠ ولكن يجب أن تكون سبل الوصول الى النظـــام الاعلامى ، بما فى ذلك أجهزة الكمبيوتر والفاكس والاتصالات اللاسلكية المتطورة ، حرة وميسرة كما هو الحال الآن بالنسبة لسبل التعامل مــع نظام النقل والمواصلات ٠ اذ يتعين أن يكون الهدف الأولى لكل من يريد اقتصاداً متقدما هو الاسراع فى تطبيق قانون الشيوع ـ أى ضمان سبل وصول جميع المواطنين ، الفقراء والأغنياء ، الى أكبر قدر ممكن من وسائل الاعلام المفتوحة للجميع ٠ وأخيرا ، اذا كانت قاعدة الاقتصاد الجديــد تكمن فى المعرفة فان حرية التعبير ـ التى هى غاية ديمقراطية ـ تصــبح أولوية سياسية مطلقة وليست اهتماما ثانويا ٠

ان الحكومة ـ أية حكومة ـ تهدف أساسا الى البقــاء فى السلطة ولذلك ستبحث عن وسائل تسخير ثورة الاتصالات الأخيرة لخدمـــة مخططاتها وأهدافها أيا كانت التكاليف الاقتصادية التى يتحملهــا كــل منا من جراء ذلك ، وستفرض قيودا على حرية تداول المعلومات ٠

وكما ابتكرت الدولة أشكالا جديدة للسيطرة على العقول عندما أوجدت الثورة الصناعية وسائل الاتصال الجماهيرية فانها ستبحث عن أدوات وتقنيات جديدة تسمح لهــا بالحفاظ ولو جــزئيا على سيطرتها على الصور والأفكار والرموز والمعتقدات التى يتم نشرها بين الجماهير بفضل البنية التحتية الالكترونية الجديدة ٠

ان الحماس الذى أثارته طريقة استخدام وسائل الاعلام فى الاطاحة بالنظم الشمولية فى أوروبا الشرقية يجب ألا يعمى المواطنين عن الأساليب الأكثر تطوراً للتلاعب بالعقول التى ستحاول الحكومات ورجال السياسة اللجــــوء اليهــا فى المستقبل ٠

ولا يوجد بالطبع مجتمــع يستطيع أن يسمح بحــرية معلومات مطلقة، لأن شيئا من السرية ضرورى لأى حياة اجتماعية ٠ فقد تؤدى حريــة المعلومات الكاملة الى نقص كامل فى حماية الحياة الخاصة ٠ ان هناك لحظات أزمة قصوى ولحظات خطر « صريح ومباشر » تغرى فيها الحرية المطلقة مشعلى الحرائق بصب البنزين على نار مهلكة ٠

لذا ، فان الحرية المطلقة فى مجال التعبير ليست قابلة للتحقيـــق شأنها شأن أى مطلق آخر فى أى من المجالات ٠

ولكن كلما تقدم المجتمع نحـــو اقتصــــاد فائق الرمزية ازدادت أهمية اتاحة المجال واسعا الى أبعد حد للاختلاف ولحـــرية التعبير ٠

وكلما جمدت حكومة ما أو قطعت هذا التدفق من البيانات والمعلومات والمعرفة ــ بما فى ذلك الأفكار الغريبة والابتكارات بل وحتى تضارب الآراء السياسية ــ أبطأت بذلك تقدم الاقتصاد الجديد ٠

ذلك لأن الامتداد الضخم للنظام « العصبى » العالمى يتطابق فى الواقع مع أهم تغير طرأ على دور حرية التعبير منذ الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية على أقل تقدير ٠

ففى الماضى الزراعى ، كانت الأفكار الجديدة تمثل فى الغالب تهديداً للبقاء والاستمرار فى تلك المجتمعات التى كانت تعيش على الكفاف مستخدمة أساليب هذبت وتحسنت على امتداد القرون وكان أى انحراف يشكل خطرا على اقتصاد لايملك سوى هامش بسيط للمخاطرة ٠ وبالتالى كان مفهوم حرية التفكير ذاته غريبا عليها ٠

ومع تطور العلم والثورة الصناعية تجسدت فكرة جديدة تماما ألا وهى أن العقول المحررة من قيود الدين والدولة ضرورية « للتقدم » ٠ غير أن عدد من كان يمكن تطبيق هذه الفكرة عليه كان لا يمثل سوى قلة قليلة من السكان ٠

ومع الانطلاق الثورى للنظام الجديد لخلق الثروة لم يعد الأمر يتعلق بطبقة هزيلة من جموع العاملين ولكن بعدد ضخم ومتزايد باستمرار من القوى العاملة التى تتوقف انتاجيتها تماما على حرية خلق كل شىء ابتداء من التصميمات الموجهة للمنتجات الى البرامج الاعلامانية والاستعارات البلاغية والاكتشافات العلمية المبهرة ومفاهيم المعرفة ٠ ان الاقتصادات فائقة الرمزية تتطور انطلاقا من الثقافات التى تحفزها دائما أفكار جديدة وغالبا ما تكون معارضة ، بما فى ذلك النظريات السياسية ٠

ان النضال من أجل حرية التعبير الذى كان حتى وقت قريب حكراً على المثقفين أصبح بذلك قضية كل أنصار التقدم الاقتصادى ٠ ان حرية التعبير مثلها مثل التعليم الملائم وسبل الوصول الكافية لوسائل الاعلام الجديدة لم تعد رفاهية سياسية وانما شرط مسبق للقدرة على التنافس الاقتصادى ٠

ان هذا الاكتشاف يرسى قواعد ائتلاف سياسى مستقبلى غير مألوف ، تحالف يجمع بين مجموعتين متعارضتين منذ الأيام الأولى

للثورة الصناعية : المجموعة الأولى تضم المثقفين والعلماء والفنانين ودعاة الحقوق المدنية ، فى حين تضم المجموعة الثانية متخذى القرارات المتطورين وحملة الأسهم والرأسماليين · ان كلا الجانبين يدرك أن مصالحهما تعتمد من الآن فصاعدا على الرغبة فى احداث ثورة فى النظام التعليمى وتوسيع سبل وصول المواطنين جميعا الى أجهزة الكمبيوتر ووسائل الاعلام الجديدة الأخرى وفى حماية بل وترسيع حرية التعبير ·

ان مثل هذا الائتلاف هو أفضل ضمان للتقدم الاقتصادى والثقافى فى مجتمعات القرن الحادى والعشرين ·

لقد كانت الحرية بالنسبة لماركس تعنى الاقرار بالحاجة أما بالنسبة لمن يطمحون فى بناء اقتصادات القرن الحادى والعشرين فقد يقرون بأن الحاجة هى أم الحرية ·

الخـــاتمة

التطلع الى عصر ظلمات جديد

سوف نتناول الآن التحول النهائى للسلطة · والخيار هو بين اعادة تشكيل الديمقراطية من أجل القرن الحادى والعشرين أو السقـوط فى عصر ظلمات جديد ·

الخيار الأول هو الطريق لنقل السلطة من الدولة الى الفرد ، أما الخيار الآخر فيهدد بتحويل هذا الفرد نفسه الى عدم ·

لا يوجد فى المستقبل المنظور ما قد ينتزع البندقية من يد الدولة ، كما لا يوجد ما يمنع هذه الدولة من استنزاف الثروات واستخدامهـا لأهدافها الخاصة ولزيادة سلطتها · ولكن ما قد يتغير ، على الأرجح ، كما بدأنا نرى بالفعل هو قدرة الدولة على السيطرة على المعرفة ·

فالاقتصاد الجديد يزدهر فى ظل قدر أكبر من حرية التعبير وتغذية ارتجاعية أفضل بين الحكام والمحكومين ومشاركة شعبية أوســـع فى صنع القرارات · قد يفرز الاقتصاد الجديد حكومات أقل بيروقراطيـة وأكثر لا مركزية ومرونة ، كما قد يولد قدراً أكبر من الاستقلال الذاتى للفرد ويؤدى الى تحول السلطة بعيدا عن الدولة ــ ليس بهدف «تعجيزها» وانما من أجل اضفاء صبغة انسانية عليهـا ·

غير أن أى تحالف جديد بين الجماعات الديمقراطية سيتعين عليه مواجهة ثلاث قوى عملاقة تندفع حاليا الى الأمام لتتلاقى فى جهاد عالمى يمكن أن يغرقنا ، اذا لم نأخذ حذرنا ، فى عصر ظلمات جديد ·

ســـعار مقـــدس :

كان الدين المنظم يحتكر بشكل أو بآخر انتاج وتوزيـــع المعـارف المجردة فى عصر ما قبل الصناعة ، أى قبل عصر التنـــوير وظهــــور

الديمقراطية فى الغرب . والآن هناك قوى تعمل جاهدة لاستعادة هـذه السلطة الاحتكارية على العقول .

قد يبدو أن انبعاث الدين السياسى على امتداد العالم لا صلة له بظهور الكمبيوتر والاقتصاد الجديد ، غير أن العكس هو الصحيح .

ان نظام خلق الثروة القائم على المعرفة والذى يعتبر الكمبيوتر رمزا له يسدل الستار على ثلاثة قرون سيطرت خلالها الدول الصناعية على كوكب الأرض . ولقد تميزت هذه الفترة فى هذه الدول بصراع من أجل السيطرة على العقول بين القوى الدينية المتحالفة مع الصفوة ذات النفوذ المنتمية للعصر الزراعى والقوى العلمانية التى ناضلت من أجل « التحديث » الصناعى وديمقراطية الجماهير .

وفى منتصف العصر الصناعى تقريبا ، تمكنت القوى العلمانية من ازاحة الدين المنظم مضعفة بذلك من سيطرته على المدارس والتقاليد بل وعلى الدولة ذاتها .

وبمقدم الستينيات ، كان ضعف نفوذ الدين قد بلغ درجة جعلت مجلة « تايم » تطرح على غلافها سؤالا يقول : « هل مات الرب ؟ » . وجمعت الكنيسة الكاثوليكية التى أصابها الارتباك مجمع الفاتيكـان الثانى ، الذى يعد من أهم الأحداث منذ قرون . فحيث استقر التصنيع وفرض نظامه تقلصت القوة الاجتماعية والمعنوية والسياسية للديانات الثلاث الكبرى فى الغرب .

غير أنه فى هـذه اللحظـة بالذات بدأ الكمبيوتر فى قلب طريقة خلق الثروة رأسا على عقب . فالتكنولوجيات التى ستعمـل جذريـا على تقويض اقتصاد ذوى الياقات الزرقاء القائم على المصانع ، بدأت تخرج سريعا من المعامل ثم من وحدات الانتاج العامة أو الخاصة لتصبح ذات استخدام عام .

وواكب هذا الاتجاه الثورى ـ الواضح فى الولايات المتحدة بشكل خاص ـ ظهور حركة الهيبيز التى شنت هجمات سخط عنيفـة على القواعد الثقافية للعصر الصناعى بما فى ذلك علمانيته .

وكان الشعر الطويل ورهاب التكنولوجيا المتصاعد وجهى عمـلة واحدة ، الى جانب اهتمام واسع النطاق بالتصوف والمخدرات والحكمة

الشرقية وعلم التنجيم والديانات الغريبة وغير المعروفة · ان حركة الهيبيز عندما قررت أن المجتمع الصناعى يثير اشمئزازها ، وكانت تدعو الى العودة الى ماض روحانى مكتس بكل السحر والجمال · وكانت نزعة العودة الى الأرض وولع الهيبيز بالحلى الخرزية التى لا قيمة لها وعصابات الرأس الهندية رمزاً لرفضهم للعصر الصناعى كله والتطلع الى العودة لثقافة ما قبل عصر التصنيع · وكان ذلك بمثابة البذرة التى نشأت منها حركة « العصر الجديد » « New Age » المزدهرة حاليا والتى تتميز بعدد لا يحصى من المعتقدات وبحثها عن كل ما هو مقدس ·

وخلال السبعينيات والثمانينيات تعددت علامات الأزمة فى كل مكان داخل المجتمع الصناعى القديم · فالنفايات الصناعية الملوثة للبيئة باتت تهدد الحياة ذاتها ، كما بدأت الصناعات الأساسية تتراجع أمام المنتجات السلعية والخدمية الجديدة ذات التقنية المتقدمة · وغرق التخطيط العمرانى وهياكل الصحة العامة والتعليم فى بحر من الأزمات، واضطرت أكبر شركات العصر الصناعى الى القيام بعمليات اعادة هيكلة ، وضعفت قوة النقابات العمالية ، ومزقت الصراعات المعنوية التجمعات السكانية كما دمرتها المخدرات والجريمة والتفكك الأسرى وغيرها من القلاقل الاجتماعية الحادة ·

وأثار الرفض الوثنى الموجه من الهيبيز للمسيحية التقليدية سخط الأصوليين المسيحيين ، كما أدى انهيار عالمهم المألوف الى حدوث بلبلة بين صفوفهم ، مما دفعهم الى القيام بهجمة مضادة قوية على العلمانية سرعان ما اتخذت شكل حركة سياسية فعالة للغاية · وهنا أيضا ، اتسم الأمر برفض عنيف لحاضر فوضوى وأليم مصحوب ببحث عن يقين الماضى المطلق ·

وبالتالى التقت حركة الهيبيز الوثنية والحركة المسيحية المضادة لها ، بالرغم من التناقض بينهما ، فى الهجوم على المجتمع العلمانى الذى ينكر قيمه الروحية ·

لم يكن من شنوا هذا الهجوم يعتبرون أنفسهم اعداء للديمقراطية، بل ان هذه الفكرة كانت ستصيب أغلبهم بصدمة ، اذ كان بعض الهيبيز فوضويين ، من أنصار الحرية المطلقة · الا أن ذلك لم يمنع أن العلمانية التى هاجموها كانت أحد أعمدة الديمقراطية الحديثة ·

وفى غضون ذلك ، كانت ثمة مؤشرات لصحوة دينية مصحوبة بتطرف أصولى فى العديد من أنحاء العالم الأخرى ·

فمنذ الحرب العالمية الأولى استولى على السلطة فى الشرق الأوسط قادة مثل أتاتورك فى تركيا ورضا بهلوى ثم الشاه فى ايران · وكان هؤلاء الرجال قد تعهدوا بـ : تحديث » بلادهم ، فشرعوا فى بناء مجتمعات علمانية لا تترك لرجال الدين سوى أدوار ثانوية ·

غير أن هذه النظم العلمانية ظلت مرتبطة بالاستعمار الغربى ، وازدهر فى ظلها الاستغلال والفساد ضاربة عرض الحائط بكل مبادىء الأخلاق · وكانت الصفوة الحاكمة تقضى أغلب وقتها فى التزلج على الجليد فى جستاد بسويسرا أو فى الاجتماع بمصرفييها الشخصيين فى زيورخ ، بدلا من تأمين توزيع أوسع للثروة الوطنية · وأثناء الحرب الباردة ، كانت أجهزة مخابرات العديد من الدول الصناعية ، الرأسمالية منها والشيوعية على حد سواء ، تجد أن من مصلحتها أحيانا أن تدعم المتطرفين الدينيين فى الشرق الأوسط ·

وظلت كل هذه العوامل تشعل نيران الأصولية التى أصبح رمزها فى نهاية المطاف الحمية المقدسة للخمينية بهجومها الشامل على العالم الحديث وعلى العلمانية التى يفتخر بها ·

كان يمكن أن يكون لهذه الهجمة المتعصبة صدى أقل اذا لم تكن الحضارة الصناعية نفسها – بؤرة العلمانية – تعانى من أزمة أخلاقية واجتماعية ، بحيث لم تعد تقدم لباقى العالم نموذجا مشجعا · ففى الواقع ، لم تعد هذه الدول الممزقة فى أعماقها تبدو منيعة كما كانت منذ عهد قريب ، فلقد بات – على ما يبدو – فى وسع مختطفى الرهائن والارهابيين وملوك البترول ابتزاز أموال هذه الدول ·

وبالتالى ، بينما يقترب العصر المصنعى من نهايته تتعرض فلسفته العلمانية السائدة لهجوم من الداخل والخارج فى آن واحد ، وتصبح للأصولية والدين بشكل عام اليد الطولى ·

ففى الاتحاد السوفيتى ، حيث كان جورباتشوف يحاول اصلاح الاقتصاد والنظام السياسى بدأت نيران الأصولية الاسلامية تلامس كل

الحدود الجنوبية للبلاد · وسرعان ما بدأ الأذريون المسلمون والأرمن المسيحيون يقتتلون فى منطقة القوقاز كلهـا ، وعندما تم ارسـال قوات سوفيتية اليها لاستعادة الأمن والنظام ، وجهت الحكومة الايرانيـة تحذيراً لموسكو بعدم استخدام القوة ضد المسلمين · وتصاعد اللهب · وبفضل اصلاحات جورباتشوف ، التى وفرت قدرا أكبر من حرية التعبير، تم رصد علامات صحوة أصولية مسيحية أيضا ·

ولقد وقعت ظواهر مماثلة فى أماكن أخرى : ففى اسرائيل تعرض اليهود الذين لا يمارسون الشعائر للضرب ورجمت سياراتهم بالحجارة من قبل أصوليين يهود شكلت أفكارهم ونماذجهم الاجتماعية قرون من العيش فى تجمعات اليهود الصغيرة المتسمة بطابع مـا قبـل العصر الصناعى فى أوروبا الشرقية وفى الشرق الأوسط · وفى الهند ، مـزق التطـرف الاسلامى ولاية كشمير كما مزق التطـرف الهندوسى باقى شـبه القارة الهندية ·

أما فى اليابان ، حيث تتعايش الديانة البوذية وديانة الشنتو ، لا يتسنى تعريف الدين بنفس مفاهيم الغرب ، ومن ثم لا يمكن تطبيـق مفهوم الأصولية على اليابان · ومع ذلك ، ثمة دلائل على اهتمام جديـد بالأشكال القديمة للديانة الشنتوية التى استغلها النظام العسـكرى لأغراضه السياسية قبل الحرب العالمية الثانية · ففى عام ١٩٨٩ ، اتخذت وزارة التعليم اليابانية مبادرة ـ كانت محل جدل شديد ـ تقضى بأن يتم تعليم التلاميذ احترام الامبراطور ، الكاهن الأعلى للشنتو ·

ان ما نشهده هو هجوم منظم على أفكار عصر التنوير التى ساهمت فى تمهيد الطريق للعصر الصناعى ·

وعلى الرغم من أن كل هذه الحركات الدينية مختلفة ، بطبيعـة الحال ، وأنها تتصادم بعنف فيما بينها فى أغلب الأحوال ، وعلى الرغم من أن بعضها متطرف والبعض الآخر غير متطرف ، الا أنها جميعا ، سواء أكانت مسيحية أم يهودية أم مسلمة أم منتمية لحركة العصر الجديد، تتلاقى فى نقطة واحدة ألا وهى العداء للعلمانية التى هى الأساس الفلسفى لديمقراطية الجمـاهير ·

اننا نشهد الآن تراجع العلمانية فى بلد بعد الآخر · فما الذى أعده أنصار الديمقراطية بديلا لها ؟ ·

حتى الآن لم يتمكنوا من تجديد هياكل ديمقراطية الجماهير التى تجاوزها الزمن كما لم يتمكنوا من تجديد الفكر الفلسفى الذى تعتمد عليه هذه الهياكل ·

ان الدين ليس عدوا للديمقراطية · ففى مجتمع علمانى متعدد الأديان ، يتمتع بفصل واضح بين الكنيسة والدولة ، يضيف تنوع المعتقدات الى ديناميكية هذا المجتمع · ففى العديد من البلدان ، تمثل الحركات الدينية القوة الوحيدة المعارضة لسيطرة الدولة على مقدرات الشعوب · ان الأصولية لا تمثل فى حد ذاتها تهديداً · ولكن فى قلب هذه الصحوة الدينية الجبارة التى تعرفها كل البلدان - وليس ايران وحدها - يتكاثر المتعصبون الذين يحاولون باستماتة اقامة سيطرة ثيوقراطية على العقول والتقاليد ، بينما يقدم لهم آخرون دعما لا شعوريا · ان التسامح تجاه التنوع هو أول وصايا المجتمع اللاجماعى ، بما فى ذلك التسامح - الى حد معين - مع غير المتسامحين ·

ان الأديان ذات الدعوة العامة التى تأمل فى الانتشار فى كل بقاع الأرض بحيث تضم كل البشر تحت لوائها يمكن ان تتوافق مع الديمقراطية · والشىء نفسه ينطبق على الأديان التى تطالب بممارسة سيطرة تامة على كل جوانب حياة المؤمنين بها ، ولكنها لا تحاول قط فرض هذه السيطرة على من لا يؤمنون بها ·

أما الأديان (أو الايديولوجيات السياسية أيضا) التى لا تتوافق مع الديمقراطية فهى تلك التى تجمع بين الشمولية والكلية · ان مثل هذه الحركات تتناقض مع كل التعريفات الممكنة للديمقراطية ·

غير أن بعض الحركات الدينية - ومن بين أكثرها نفوذا وأسرعها نموا فى العالم اليوم - يتمثل فيها بالتحديد هذا التركيب المهلك الذى يجمع الشمولية والكلية ·

ان هذه الحركات مصممة على التحكم فى حياة وعقول البشر فى أمم وقارات كاملة ، بل وفى كوكب الأرض كله · انها مصممة على الاستيلاء على سلطة الدولة فى كل مكان يمكنها فيه ذلك ، كما أنها عازمة على خنق الحريات التي تكفلها الديمقراطية ·

ان هذه الحركات أدوات لعصر ظلمات جديد ·

الثيوقراطية ـ البيئية :

وفى غضون ذلك ، يأخذ المد الأخضر أيضا اتساعا على امتداد العالم كله · وتعد هذه الحركة ، التى تهدف الى حماية البيئة والصحة مثالا ايجابيـا لحركة مواطنين عاديين تمكنت من فرض اتجاه معين على قادتهم أنفسهم · ان سلسلة من الكوارث غير المسبوقة هى التى دفعت بحماية البيئة الى قمة اهتمامات وأولويات العالم · ومن بين هـــذه الكوارث حادثة مفــاعل (ثرى مايل آيلاند) وكارثة تشيرنوبل وتسـرب الغاز القاتل فى منطقة بوهال بالهند والتسرب البترولى الخطير عـلى سواحل آلاسكا ·

لقد بلغ المجتمع الصناعى أقصى حدوده ، بمعنى أنه بات من المستحيل الاستمرار فى تكديس النفايات السامة فى الأفنية الخـــلفية لمنازلنا وفى تجريد الأرض من غاباتها وافراغ المخلفات البلاستيكية فى محيطاتنا واحداث ثقوب فى طبقة الأوزون · ان الحركة العالمية لحماية البيئة هى اذن رد فعل أطلقته غريزة البقاء فى مواجهة تهديد الحياة على كوكب الأرض ·

غير أن لهذه الحركة أيضا هامشا مضاداً للديمقراطية · فبعض أنصارها يدعون الى العودة الى الظلام وبعض هؤلاء مستعد أن يصادر على الحركة سعيا وراء تحقيق مخططاته السياسية أو الدينية الخاصة·

ان المشكلات من التعقيد والصعوبة بحيث بات من المرجح أن تنقسم حركة الخضر الى أربع فصائل على الأقل ·

وستواصل احدى هذه الفصائل عملها طبقا للأسلوب الديمقراطى والشرعى البعيد عن العنف ، ولكن قد ينتقل جناح ثان للحركة ـ موجود بالفعل حاليا فى شكل جنينى ـ اثر سلسلة من الأزمات والمآسى البيئية ، من مكافحة التخريب البيئى الى ارهاب بيئى واسع النطاق ، من أجل تغليب متطلباته الخاصة ·

وثمة نقطة شقاق أخرى ستزيد من حدة الحرب الأيديولوجية التى تمزق بالفعل حركة الدفاع عن البيئة ·

فمن ناحية ، هناك من يدافعون عن التقدم التكنولوجى والاقتصادى فى اطار قيود بيئية شديدة الصرامة ، رافضين بذلك التخلى عن ثقتهم

فى قدرة التخيل والذكاء البشرى · فهم يؤمنون بقدرة العقل أى بقدرتنا على تصميم تقنيات تستخدم قدراً أقل من الموارد وتسبب درجة أقـــل من التلوث ، وفى الوقت نفسه تعيد معالجة كل النفايات لتصنع منهـا مواد صالحة للاستخدام · ويؤكد هذا الفريق أن الأزمة الحالية تتطلب تغيرات ثورية فى الطريقة التى يتم بها تنظيم الاقتصاد والتكنولوجيا · ويشكل هؤلاء المتوجهون نحو المســـتقبل التيار الرئيسى للمدافعين عن البيئـــة ·

غير أن ثمة من ينازعهم السيطرة الأيديولوجية على الحركة · ويريد هؤلاء الذين يصفون أنفسهم بـ « الأصوليين » اعادة المجتمع الى فترة القرون الوسطى وتقشف ما قبل التكنولوجيـــا · انهم «اللاهوتيون ــ البيئيون » · وتتفق بعض وجهـات نظرهم مع رؤى المتطرفين الدينيين ·

يؤكد هؤلاء اللاهوتيون البيئيون أن التكنولوجيا لا يمكنها أن تمنح أى عزاء أو فرج وبالتالى فاننا محكوم علينا بالسقوط مرة أخرى فى الفقر الذى ميز العصور قبل الصناعية · وهم يعتبرون هذا الاحتمال نعمة ربانية ·

لقـد نشرت مجلة « نيو بريسبيكتيفز » الفصلية سلسلة من المقالات تعرض فيها بجلاء الخطوط العريضة لوجهة نظرهم · فالمسألة بالنسبة لهؤلاء المنظرين الداعين للعودة الى الوراء ليست بيئية فى المقام الأول وانما هى دينية · انهم يودون استعادة ذلك العالم المشبع بالدين الـذى لم يعد له وجود فى الغرب منذ القرون الوسطى · وتوفر لهم حركـــة حماية البيئة مطية مناسبة لتحقيق ذلك ·

ان هذه الفئة تختزل تاريخ علاقاتنا بالطبيعـة الى رموز بلاغيـة مستمدة من التوراة · ففى البداية كان هناك « عصر ذهبى » بيئى عاش فيه البشر فى تناغم وانسجام مع الطبيعة وعبدوها ، ثم سقط الجنس البشرى خارج « جنة عـدن » هذه مع قدوم العصر الصـــناعى ، عندما سيطر « الشيطان » ــ أى التكنولوجيا ــ على شئون البشر · والآن يتعين علينا ان ننتقل الى « فردوس » جديد مصنوع من انسجام تام والا فان نهاية العالم تهدد الجنس البشرى ·

ان المغالاة فى فرض حكمة ورموز غربية ــ بل ومسيحية ــ عـلى التاريخ المعقد للغاية لعلاقاتنا بالطبيعة هى منهج جديد بلاهوتيى البيئـة الذين ينسبون الكمال الى الحياة فى قرية القـرون الوسطى ·

ويؤكد رودورلف باهرو ، وهـو من منظرى « جماعة الخضر » ذوى التأثير والمكانة ويعيش حاليا فى ألمانيا الغربية ، ان ما نحن فى حاجة اليه هو « علم لاهوت وليس علم بيئة ــ اننا نحتاج الى ميلاد عصر ذهبى جديد ينمى [....] النبل فى الانسان » .

ويرجع بنا باهرو الى القرن الثالث عشر ليستشهد بأداء ايكهارت مؤسس التصوف الألمانى « الذى عاش فى وادى الراين المدمر الآن » ، وكان يقول ان كل الكائنات تحوى الله داخلها . كمـا وجد باهرو نفس الفكرة فى أشـعار ميختيلد أوف ماجـدبيرج التى عاشت أيضا فى القرن الثالث عشر والتى ينقل عنها تعبيرها الشعرى الجميل الذى يعتبر كل مخلوق « ومضة من النعمة الالهية » .

اذن ، فالخلاص البيئى بالنسبة له هو قضية دينيـة ، وأمـر لـن يسـتطيع قط العالم الدنيـوى أن يؤمنه . حتى ان باهرو يؤيد آية الله خومينى عندما قال لجورباتشوف ان اللجـوء الى الله أفضل من اللجـوء الى الاصلاحات الاقتصادية لحل مشكلات الاتحاد السوفيتى .

ويهاجم منظر آخر هو وولفجانج ساش من جامعة بنسـلفانيا معهد « ورلد ووتش » ــ وهو معهد مرموق لأبحاث البيئة ــ ويتهمه بأنه يلجأ الى « وجهة نظر حديثة بشكل خاص » ، كما طعن فى الوقت نفسه فى آراء أمورى لفينس المطالبة بكفاءة أعلى فى استخدام موارد الطاقة . ان ما يريده ساش هو « اقتصـاد منزلى جيد » فى حدود تقاليد وأعـراف « الأسر الموجهة نحو مجرد الكفاف » .

أما ايفان ايليخ ، وهو من أكثر النقاد الاجتماعيين خيالا وله عدة مؤلفات باهرة عن النظريات البيئية ، فيعارض كلا من « فاشية الادارة » والدعوة الساذجة الى تدمير الآلات الصناعية . الا انه يدعو الى «البقاء بدون تنمية » ، أى انه يدعو باختصار الى الركود .

يرى ايليخ أن البساطة والزهد فى المأكل « هو » قدر الانسان ويجب ثقيلة على هذا النحو . ومن ثم فمنـذا الذى يحتاج لتنمية ؟ وطبقا له ، فان النظام الجديد لخلق الثروة بعث حياة جـديدة فى منطق التصنيع المنهك . وان كان يرى أن النظام التكنولوجى الجديد القائم على المعرفة لا يتعارض مع المنطق القديم للتصنيع فى نقاط عديدة .

بالنسبة لايليخ أيضا ، فان قضية البيئة قضية لاهوتية أساسا ، اذ يقول : « كان الله منسق الكون » فى زمن كان العيش على حد الكفاف

مقبولا كأمر طبيعى وعادى . وهى الحالة التى يجب أن نعود اليها . لقد ظلت البشرية والطبيعة فى حالة انسجام وتناغم طوال حقبة القرون الوسطى التى وجه فيها الدين العقل . الا أن « الانسان ، وهو عامل عدم الاتزان » خرب هذا الانسجام تحت وطأة الثورة العلمية . ويعتبر ايليخ أن فكرة « نظام بيئى قابل للانضباط علميا من خلال آليات تغذية ارتجاعية متعددة » خداع ووهم . وهو يوضح بجلاء أن العودة الى عالم زاهد مركزه الله أفضل من ذلك بكثير .

كما تتضمن البلاغة اللاهوتية ـ البيئية أكثر من اشارة الى المفهوم المسيحى ليوم الحساب ، ولقد كشف الكاتبان مارك بايفورد ولندا بيلمز أن جماعات الخضر المنتمين الى هذا الاتجاه تعتبر أن « الاستهلاك اثم » ولذلك فهى ترى فى الكوارث البيئية « عقابا للنزعة الاستهلاكية المفرطة والتبذير وفقدان الروحانية » . وكما يحدث فى موعظة الأحد فنحن مدعوون « أن نتوب ونصلح من أنفسنا » ، أو ـ ان جاز لنا أن نضيف ـ حذار من لهيب الجحيم ! .

لا مجال هنا لمحاولة حل المشكلات الخطيرة التى يثيرها الجدل البيئى والذى لا يقل أهمية ، على الصعيد الفلسفى ، عن الجدل الذى أثاره مفكرو عصر التنوير فى فجر العصر الصناعى . ان ما يهمنا هنا هو التأكيد على التطابق بين وجهات نظر اللاهوتيين الخضر والأصوليين الدينيين فى عدائهم العميق للديمقراطية العلمانية .

فالطرفان يؤكدان على المطلقات ، وعلى ضرورة فرض قيود صارمة على الاختيار الحر للأفراد (لجعل سلوك الناس « أخلاقيا » أو « لحماية البيئة ») وهو ما يدفع الى توقع هجوم مزدوج ضد حقوق الكائن البشرى. مع ذلك ، فان عددا من المدافعين عن البيئة يعرب عن قلقه صراحة من ظهور « آيات الله خضر » أو « فاشيين بيئيين » يريدون فرض نظرتهم الخاصة للخلاص . ومن ثم يحذر باهرو من أنه « عند تعرض البشرية لأزمات عميقة تلعب الكاريزما دائما دورا ، وكلما كانت الأزمة خطيرة كانت الشخصية الكاريزمية التى تبرز أكثر كآبة [....] هل سنحصل على أدولف هتلر أخضر أم لا ؟ [....] يتوقف ذلك على ما سيتحقق من تطور فى العقليات من الآن وحتى وقوع تشيرنوبل أخرى » .

وقد يعجب المرء بنزاهة وابداع مفكر مثل ايليخ الذى لا يتصف بالطبع بأية صفة من صفات الفاشية . الا أن ذلك لا يمنع من الكشف عن

المضامين المضادة بعمق للديمقراطية التى ينطوى عليهـا بحثه عن المطلق والدائم والثابت والمقدس · ويحذر عالم الاجتماع الفـرنسى آلان تورين ، فى معرض نقده للاهوتيين البيئيين من « اننا اذا نبـذنا العقــل بدعوى الحفاظ على طبقة الأوزون فاننا بذلك نتجـــه نحو أصـولية خضراء وثيوقراطية بيئية من طراز آية الله خومينى » ·

واذا كان مثل هذا الخوف قد يبدو مبالغا فيه فعلينا أن نتذكــر حركة فوندر فوجيل الشبابية فى ألمانيا فى العشرينات من هـذا القرن ـ مع ملاحظة أن حركة الخضر فى ألمانيا الآن هى الأشد تطرفا · وكان أعضاء حركة الفوندر فوجيل التى ظهرت فى ظل جمهورية فايمر أشبه بـ « هيبيز خضر » ، فكانوا يجوبون البلاد بحقائبهم على ظهورهم حاملين الزهور والجيتار وينظمون مهرجانات تدعو بشدة الى الروحانية والعــودة الى الطبيعة ·

وبعد ذلك بعشر سنوات فقط كان هتلر فى السلطة · وكان هتلر ايضا يمجد قيم ما قبل العصر الصناعى ، مصورا المدينة النازية الفاضلة على انهــا المكان « الذى يسترد فيه الحـداد كـور حدادته ويسـير فيهـا المزارع وراء محراثه » ·

ويقول البروفسير ج·ب· شـتيرن ان هتـلر يسـتدعى هنا « صورة شعرية ريفية قبل صناعية » ، وكان أيديولوجيو هتلر يمتدحون دائمـا كل ما هو « عضوى » ويؤكدون على اللياقة البدنية ويسـتخدمون أوجه التناظر البيولوجية لتبرير أكثر الأحقـاد العـرقية دناءة · كتب جـورج موس فى كتابه « أزمة الأيديولوجية الألمانية » يقول : « انضم مئات الآلاف من الشباب الى هذه الحركة الشبابية ، ولم يجد عـدد كبير منهم صعوبة كبيرة فى التكيف مع المواقف الأيديولوجية النازية » ·

هل يمكن حقا للمرء أن يتخيل حزبا للخضر الجـدد يرتدى أفراده الشارات والأحذية العسكرية الثقيلة ويحتشدون لفرض وجهات نظـر الحزب حول الطبيعة على باقى المجتمع ؟! ·

بالطبع لا فى ظل ظروف عادية وطبيعية · ولكن ماذا اذا لم تعـد الظروف كذلك ؟! ·

ولنتخيل عواقب كارثة بيئية أخرى من نوع كارثة بوهال تقع هذه المرة فى سياتل مثلا أو شـتوتجارت أو شفيلد ، تتبعها حوادث مماثلة

فى أماكن أخرى مصحوبة بفوضى فساد وارتباك بشع فى مجال اغاثة المتضررين · كل ذلك وسط صياح الأصوليين بأن الكارثة أنزلها الله عقابا للفسق و « الاباحية » · تصوروا وقوع هذه الأحداث فى فترة كساد اقتصادى حاد ، ثم تخيلوا « أدولف هتلر ــ بيئى » ساحرا وبليغا يتعهد للناس لا بحل الأزمة العاجلة فحسب ولكن « بتطهير » المجتمع ماديا ومعنويا وسياسيا ــ فقط اذا ما منح سلطات استثنائية «خاصة» ·

وتنطوى بعض موضوعات الخطابة اللاهوتية ــ البيئية الحالية على شىء ما عبثى شأنها فى ذلك شأن خطب أدولف هتلر وأيديولوجييه · كان رجال الدعاية النازية يمجدون العصور الوسطى (خاصة الفترة التى هيمنت فيها الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة على أوروبا) باعتبارها الحقبة التى بلغت فيها الثقافة « ذروتها » ·

أما اليوم فيكتب أحد الأصوليين البيئيين البريطانيين فى رسالة لمجلة « الايكونومست » قائلا : « ان أهداف الأصوليين الخضر من أمثالى [····] هى العودة الى أوروبا التى كانت موجودة فى الماضى البعيد [····] بين سقوط روما وقدوم شارلمان » ، حيث كانت وحدة المجتمع الأساسية هى « الملكية الريفية التى كانت تتجاوز بالكاد الضيعة الصغيرة [····] وان الطريقة الوحيدة لكى يعيش البشر فى انسجام مع الطبيعة هى التمسك بالكفاف » ·

غير أن ما لا يقوله لنا عادة حماة البيئة الداعون للعودة الى القرون الوسطى هو الثمن السياسى الذى يتعين دفعه · فهم نادراً ما يشيرون الى غياب الديمقراطية عن تلك القرى الريفية التى يطرحونها كنموذج ــ قرى خاضعة لسلطة النظم الأبوية القاسية وللتسلط الدينى على الضمائر وللجهل الاقطاعى ولضروب القسر والضعف · هذه هى الثقافة التى مجدها النازيون · لم يطلق على الفترة بين سقوط روما وقدوم شارلمان تعبير عصر الظلمات عبثا ·

لو كان اللاهوتيون البيئيون وحدهم لما استحقوا التوقف طويلا عند حالتهم ، لأنهم لا يمثلون سوى شريحة صغيرة على أطراف حركة حماية البيئة · لكن من الخطأ اعتبارهم ظاهرة منعزلة ولا أهمية لها · فحركة الصحوة الدينية وحركة « الخضر » على حد سواء يولدان نماذج رجعية متطرفة يسعدها للغاية اسقاط الديمقراطية · ويمكن للأجنحة المتطرفة لهاتين الحركتين أن تتلاقى لفرض قيود جديدة على السلوك الشخصى والسياسى ، من أجل مجد الله و « الخضرة » · ومعا يدفعان الى تحول السلطة نحو الماضى·

المصابون الجدد بكراهية الأجانب :

هناك سمة أخرى مميزة لقرية العصور المظلمة ألا وهى الكراهية الشديدة للأجانب حتى ولو كانوا من القرية المجاورة · وبقدوم العصر الصناعى انتقل ولاء الأفراد والجماهير تدريجيا الى الأمة ، غير أن كراهية الأجانب والتعصب الوطنى (الشوفينية) ظلا من أدوات سلطة الدولـــة ·

ان الانتقال الراهن الى اقتصاد قائم على المعرفة يتطلب مزيداً من الاعتماد المتبادل المتخطى لحدود الدول مقارنة بالاقتصاد الصناعى · وهو ما يحد حتما من حرية واستقلالية حركة كل بلد ، الأمر الذى يثير بدوره رد فعل معـــاد للأجانب فى جميع المجـــالات ، ابتداء من التجارة الى الثقافة ·

ففى الوقت الراهن ، تستعد الحكومات فى جميع انحاء أوروبـا لاستقبال هجوم الثقافات الوافدة ـ من خلال التليفزيون والسينما اساسا ـ عقب تكامل دول السوق الأوروبية · ان اكثـر ما يثير قلق الحـكومات الأوروبية هى المواد الاخبارية المعالجة بواسـطة الأجـانب · وتؤكــد صحيفة « لوموند » الفرنسية أن مشروع الجماعة الأوروبية « تليفـزيون بلا حدود » ، « قد يسارع فى زرع المنتجين والموزعين الانجلوسكسونيين الذين حققوا تقدما حاسما فى اقامة شبكات عبر أوروبا » · كمــا يخشى الأوربيون من احتمـال قيـــام شــــبكة مغـــربية ببث برامج باللغـــة العربية ، بواسطة الأقمار الصناعية ، لحوالى ١١ مليون مهاجـر من شمال أفريقيا مقيمين فى أوروبا وأغلبهم من المسلمين ، ولقد تزايد هـذا القلق عندما سجل الأصوليون المسلمون نجاحا فى الانتخابات التى أجريت فى الجزائر العلمانية ·

غير أن ذلك ليس سوى نذير لما يمكن أن يحـــدث ، فتكنولوجيا الأقمار الصناعية وغيرها من أجهزة وأدوات الاعلام الجديدة تحطـم وتتخطى كل متاريس وتحصينات الثقافات الوطنية · ويؤكد دان جولدين خبير الأقمار الصناعية أن أجهزة الاستقبال المنزلى للبث بالأقمار ستباع قريبا بجزء من سـعرها الحالى المنخفض سلفا · وبالتالى سيتمكن ملايين البشر عبر العالم من التقاط البرامج الأجنبية ـ برنامج منوعات برازيلى ونشرة أخبار نيجيرية ومادة درامية من كوريا الجنوبية وبرنامج دعاية ليبى · والحالة هذه فان هذه الاتصالات المتقاطعة والمتعددة تهـدد «الهوية الوطنية » التى تسعى الحكومات لصيانتها وترسيخها لمصلحتها الخاصة ·

وتصبح الهوية مشكلة متفجرة عندما تستنفر مخاوف الاقتلاع الثقافى نتيجة للهجرة الواسعة النطاق ٠

ان دعاة السوق الأوروبية الموحدة يحولون بدعوتهم الى فتح الحدود لرؤوس الأموال والثقافات والبشر ، استبدال مشاعر الانتماء الوطنى التقليدية بمشاعر « فوق قومية » ٠

ولكن لما كان الاقتصاد الجديد يزداد تكاملا على مستوى العالم مصدرا البطالة والتلوث والثقافة بنفس قدر تصديره للمنتجات والخدمات، فاننا نشهد صحوة للنزعة القومية ولمضاعفاتها فى عالم يتميز بتكنولوجيا متطورة ٠

فحركة لوبان فى فرنسا بشعاراتها المناهضة بشراسة للعرب ، والتى يقودها ضابط مظلات سابق يسمح لنفسه أن يصف أفران الغاز بأنها « تفاصيل ثانوية » ، تستثير ردود فعل بافلوفية كارهة للأجانب ٠ وهذا الحزب له الآن عشرة مقاعد فى البرلمان الأوروبى ٠

أما فى ألمانيا ، فان الحزب الجمهورى المتطرف ، الذى أسسه فرانز شوينهوبر ـ وهو صف ضابط سابق ـ لا يهاجم العمال الأتراك المهاجرين فحسب وانما يهاجم أيضا اللاجئين من أصل ألمانى القادمين من بولندا والاتحاد السوفيتى متهما اياهم بأنهم يستولون على عمل وسكن ومعاشات « الألمان الحقيقيين » ٠ وحصل الحزب الجمهورى ، الذى يرتبط بحزب لوبان فى فرنسا وبأحزاب متطرفة أخرى فى أوروبا ، على ١١ مقعدا فى برلمان ألمانيا الغربية عام ١٩٨٩ ، كما فاز بستة مقاعد فى البرلمان الأوروبى ٠

وتحت شعار « ألمانيا أولا » ، يصف شوينهوبر ألمانيا ـ التى هى أحد أغنى بلاد العالم ـ بأنها « ضحية » ، وهو ما فعله هتلر من قبل بعد معاهدة فرساى ٠

وكتب جوزيف جوف ، عالم اللغة والثقافة الألمانية المرموق ، فى صحيفة« وول ستريت » مقالا ذكر فيه أن شوينهوبر وجه « نداء الى حمل السلاح ضد باقى العالم الذى يحاول قهر ألمانيا بتكبيلها الى ماضيها » ـ أى أن العالم لا يريد أن يتركها تنسى جرائم هتلر ٠ (غير أن شوينهوبر ترك الحزب منذ ذلك الوقت ناعتا اياه بأنه غير متطرف بما فيه الكفاية)٠

عندما يتعرض بلد ما لتأنيب دائم ومستمر عن اخطاء جيل سابق فمن المتوقع بالطبع حدوث رد فعل قد يتخذ شكل التأكيد على الاعتداد الوطنى · ولكن الاعتداد بماذا ؟ فبدلا من حث ألمانيا لكى تصبح قوة ذات اشعاع عالمى ، وذلك عن طريق اقامة ديمقراطية متقدمة تنتمى للقرن الحادى والعشرين ، يسترجع القوميون الألمان الجدد أمراض بلادهم الماضية المناهضة للديمقراطية ، ليعطوا بذلك جيران ألمانيا سببا وجيها كى لا يجعلوها تنسى جرائمها السابقة ·

ومع سقوط سور برلين واعادة توحيد ألمانيا ، أضحى لما يحدث فى بون وفى برلين (التى ستكون قريبا بلا ريب عاصمة ألمانيا الموحدة) نتائجه وأصداؤه فى جميع أنحاء أوروبا · ومن ثم فان عيونا كثيرة تراقب عن كثب الحزب الجمهورى ·

غير أنه توجد حركات قومية مماثلة فى العديد من دول أوروبا الغربية ابتداء من بلجيكا حتى ايطاليا وأسبانيا ، وفى كل مكان يهدد التدفق الحر للثقافات والاتصالات وحركات الهجرة ، المفاهيم القديمة التى وضعتها الأمم لنفسها ·

ان انبعاث موجة كراهية الأجانب ليس قاصرا على أوروبا ، ففى الولايات المتحدة أيضا تزداد ردود الفعل القومية اتساعا · فالخوف من أن تعانى أمريكا من أفول اقتصادى وعسكرى بالاضافة الى السأم من تكرار اتهام الأمريكيين بالامبريالية والمادية والعنف والفظاظة دفعا المواطن الأمريكى العادى الذى لا يهتم عادة بالسياسة الى الاستجابة للديماجوجية القومية ·

كما يشجع المتطرفون البيئيون مشاعر العداء المتنامية للهجرة ، اذ يدعون أن تدفق المهاجرين المكسيكيين يضر بالبيئة فى الولايات المتحدة · غير أن بعث هذه النزعة « الأهلانية » (*) ليس سوى أحد مظاهر نزعة تعصب قومي جديدة ·

فعندما قررت المحكمة الدستورية العليا فى عام ١٩٩٠ أن احراق العلم شكل من أشكال حرية التعبير السياسى ، ومن ثم يحميه القانون الأمريكى ، أثارت بذلك عاصفة من مشاعر الغضب · وتعرض مقدمو

(★) هى سياسة تقوم على حماية مصالح أهل البلاد الاصليين وتقديمها على مصالح المهاجرين ·

برامج التليفزيون لحصار من المكالمات والنداءات الغاضبة ، وسرعان ما اقترح البيت الأبيض ادخال تعديل فى الدستور لحظر تلك الممارسة ·

ومن أعراض هذه العقلية الجديدة الحملات المضادة لليابان ، والتى أصبحت لعبة شائعة فى الآونة الأخيرة بين دعاة الحماية الجمركية والمواطنين العاديين الذين يثير قلقهم عجز الموازنة الأمريكية وعمليات الشراء المكثفة التى يقوم بها اليابانيون لشركات وعقارات أمريكية ·

وفى الوقت نفسه ينمو احساس قومى متطرف فى اليابان · فالقوميون الذين ظهروا مرة أخرى يطالبون بتعديل فى الدستور يسمح باعادة بناء جيش قوى ، فبالنسبة لهم « لم تقترف اليابان شيئا يدعو للخجل » خلال الحرب العالمية الثانية · وهى وجهة نظر تثير قلق الصين والدول الأخرى المجاورة التى اكتسحتها اليابان ابان تلك الفترة · لقد تعرض عمدة ناجازاكى لمحاولة اغتيال لمجرد أنه ألمح الى أن الامبراطور هيروهيتو ربما يتحمل جزئيا مسئولية الحرب العالمية الثانية · ومن ناحية أخرى حذرت صحيفة « أساهى شيمبون » اليومية واسعة الانتشار ، بعد اغتيال أحد محرريها على أيدى القوميين — كما هو مرجح — قبل حادث عمدة ناجازاكى بقليل ، من أن أعمال العنف تلك « ستؤدى الى الفاشية » ·

ويدعى المتطرفون القوميون أن اليابان لها « روح » ولغة مختلفتان عن روح ولغة أية أمة أخرى ، وأسمى منهما بالطبع ، كما تلقى عقيدة « اليماتوئية » التى تشجع نمو مثل هذه الأفكار اهتماما متزايدا وذلك لتعويض فقدان الهوية القومية الناجم عن عملية اضفاء الصبغة الغربية على يابان ما بعد الحرب العالمية الثانية ·

ان نغمة القومية أصبحت تجد الآن فى اليابان آذانا صاغية بعد أن ظلت الولايات المتحدة تعامل اليابانيين — منذ الحرب — معاملة الراعى المنان ، وبعد أن ضاقوا ذرعا من لوم الآخرين لهم على السياسة الاقتصادية التى حققت لبلادهم نجاحا باهرا ·

ولا ينقص هذا الشعور الوطنى الرائع ، الذى يواكب نجاحا ماليا خارقا على الساحة العالمية وقدرة عسكرية متنامية ، سوى الارتباط بالقوى الأكثر مناهضة للديمقراطية داخل المجتمع اليابانى ·

وأخيراً ، ان ما يجعل الانبعاث الواسع النطاق للقومية أمراً مذهلا هو ظهورها مرة أخرى كقوة سياسية لها وزنها فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا · ففى الواقع ، يمكن وصف انقلابات التى وقعت فى هذه المناطق بأنها انتفاضات قومية بنفس قدر كونها انتفاضات ديمقراطية ، فى بلدان خضعت للسلطة الروسية قرابة نصف قرن ·

ان من أهم المهام التى تنتظر العالم خلال العقود المقبلة وأكثرها اثارة للعواطف ، مهمة اعادة صياغة مفهوم « الأمة » ، والتى ستكون مهمة حاسمة · وفى الوقت نفسه ، من الضرورى ابقاء سيطرة الدولة على بعض الوظائف لتفادى اكتسابها طابعا « محليا » أو « عالميا » · غير أن التعصب القبلى والقومى الأعمى يعتبر عامل ارتداد ونكوص خطير ويؤدى ارتباطه بمفهوم التفوق العنصرى أو الحق الالهى الى العنف والقمع ·

وانه لأمر له دلالته أن ترتبط غالبا هذه الحركات فى الاتحاد السوفيتى ــ حيث هزت المشاعر العرقية الدولة نفسها ــ بحماية البيئة أو بالأصولية الدينية · فالأفكار البيئية يجرى استغلالها لاثارة المشاعر العرقية ضد موسكو · وفى طشقند بدأت حركة تسمى بيرليك بوقف بناء مصنع للمكونات الالكترونية ، ثم اتخذت بعد ذلك صبغة اسلامية أصولية ·

وما هو اكثر دلالة أيضا من العنف المتزايد فى مطالبة دول البلطيق وأرمينيا وجورجيا وأذربيجان وجمهوريات أخرى فى الاتحاد السوفيتى بالحكم الذاتى أو الاستقلال ، هو تصاعد النزعة العرقية بين المواطنين الروس الذين يمثلون أغلبية الاتحاد السوفيتى · وفى معرض حديثه عن تولستوى ، وصف المؤرخ بل جنسون القومية الروسية بكلمات يمكن أن تنطبق على ما يحدث الآن ، اذ قال : « انها تتسم بفكر شوفينى مشبع بقناعة أن الروس هم جنس متفرد يحظى بصفات معنوية وأخلاقية فريدة (متجسدة فى الفلاح) كرسه الله للقيام بدور فى هذه الدنيا » ·

هذا الموقف ، يتجسد بشكل متطرف فى تنظيم البايمات المناهض للسامية وللأجانب والذى يدعى أن له ثلاثين فرعا على امتداد الاتحاد السوفيتى و ٢٠ الف عضو فى موسكو وحدها · ويرتبط هذا التنظيم بروابط وثيقة مع الجيش وال (كيه· جى· بى) ، كما يتمتع بمساندة

موظفى الصفوف المتوسطة ويضم العـديد من الكتاب المشهورين وبعض الوجوه الثقافية · وهذا التنظيم الذى يواجه حاليا اتهاما قضائيا بالحض على الكراهية يذكر بحركة « المائة السوداء » العنصرية التى كانت تنظم المذابح ضد اليهود فى ظل القيصرية فى بداية القرن الحالى ·

ويدعى تنظيم بايمات ومجموعات أخرى مماثلة انهم لا يهتمـون الا بانقاذ المبانى الأثرية القديمة وبحماية البيئة ، غير أن هدفهم الحقيقى هو اعادة تشكيل وخلق نفس المجتمع القائم على الوحدة القروية الذى يمجده هنا أصوليون « الخضر » · وبعض هذه الجماعات تطالب أيضـا بعودة القيصرية المرتبطة بالأرثوذكسية الدينية ·

ان البايمات شأنهم فى ذلك شأن شوينهوبر فى المانيا ، الذى ينفى معاداته للسامية بينما يردد أكاذيب عهد هتلر عن اليهود ، فهـم يشـنون هجوما شديدا على كل من « حول كنائسنا ومعـابدنا وأديرتنـا وقبـور الأبطال القوميين لوطننا الحبيب الى حالة مأسـاوية » وكذلك « بيئـة بلادنا » · وينادى البايمات بعودة جماعية للأرض ـ « فلتسقط المـدن العملاقة ! » ـ وباحياء « الفلاحة بالمحراث التى تعود الى قرون خلت »·

هنا اذن ، نجد نزعة عرقية كارهة للأجانب مختلطـة صراحـة بالأصولية الدينية والنزعة « البيئية القرن أوسطية » فى بوتقة واحـدة جديرة بعصور الظلمات ·

وبذلك يتوفر خليط قابل للاشتعال لقوى قد تنفجر فى وجه النظم الديمقراطية فى أى مكان · وفى أسوأ الحالات فان هذا الخليط يطرح صـورة دولة عنصرية أو قبلية أو دولة يسـودها نظـام أخضر فاشي ولاهوتي ـ وهى الوصفة المثـلي لالغـاء حقـوق وحرية الفكر فضلا عن الملكيـة الخـاصة ·

قد يكون من الصعب تخيل مثل هذه الدولة الا كمحصلة لأزمـة أو مأساة هائلة أو تشنج ـ بيئى يجسد اضطرابا بيئيا وازمة اقتصادية عميقة وفزعا أو حربا ·

غير أن الأمر لا يتطلب تصور أسـوأ السـيناريوهات لكى نشعر بالقشعريرة ، فلا حاجة لأن تستولى مثل هذه الحركات ، منفصلة أو

متحالفة ، على دولة ما لكى تقيد أو تدمر بعنف شكلا من الديمقراطية يعانى بالفعل من الضعف ، حتى فى الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ، نتيجة اختلاف الطور الذى يزداد وضوحا باطراد بينه وبين الاقتصاد والمجتمع البازغين ·

فالحكومات التى يسيطر عليها المتطرفون أو التى يؤثرون عليها بشكل واضح لن تظل طويلا ديمقراطية ، لأن هؤلاء المتطرفين يقدمون نمطهم الخاص فى العقيدة أو البيئة أو القومية على قيم الديمقراطية ·

ان نظام خلق الثروة المتطور الذى ينتشر حاليا فى العالم يفتح احتمالات وامكانات جديدة للديمقراطية ، فهو لأول مرة ، كما رأينا ، يجعل من حرية التعبير ضرورة اقتصادية وليست مجرد وسيلة سياسية للنجاح · لكن فيما يبدأ المجتمع الصناعى القديم هبوطه الدوامى النهائى تبرز قوى مضادة قد تدمر الديمقراطية وامكانات التقدم الاقتصادى فى آن واحد ·

ولانقاذ كل من التطور والديمقراطية ، يتعين أن تقفز النظم السياسية الى مرحلة جديدة كما يفعل الاقتصاد حاليا · ولكن هل يمكن النهوض بهذا التحدى الضخم ؟ ستحدد الاجابة على هذا السؤال ما اذا كان التحول النهائى للسلطة الذى يرتسم فى الأفق سيحمى الفرد أم سيستعبده ·

ان الصراع الأيديولوجى الرئيسى فى عصر تحول السلطة الذى ينفتح أمامنا الآن لن يكون بين الديمقراطية الرأسمالية والشمولية الشيوعية بل بين ديمقراطية القرن الحادى والعشرين وظلام القرن الحادى عشر ·

البـــاب الســادس

انتقال الســلطة عــلى نطاق العــالم

الفصل التاسع والعشرون

عامل « المعرفة »

نادرا ما حدث في زمن السلم انتقال مذهل للسلطة مثل الذى أعقب التفكك السريع للكتلة السوفيتية،التى كانت فى السابق صلبة ومتماسكة· لقد استعادت فجأة كل من وارسو وبراغ وبودابست وبوخارست وبرلين ، السلطة التى ظلت طوال نصف قرن متمركزة فى موسكو · وتفكك « الشرق » خلال بضعة شهور حاسمة ·

وصاحب تفكك ما يسمى بالجنوب انتقال آخر للسلطة · فلم تتمكن قط « الدول الأقل تقدما اقتصاديا » من تشكيل جبهة حقيقية موحدة فى مواجهة العالم الصناعى ، بالرغم من الجهود التى بدأت فى عام ١٩٥٥ بعقد مؤتمر باندونج فى أندونيسيا · وفى السبعينات كرست الأمم المتحدة كل فن الخطابة لديها للاحتياجات المشتركة « للجنوب » · وبدأ تنفيذ برامج تبادل تكنولوجى « جنوب ــ جنوب » وأشكال أخرى من التعاون ، كما نظمت حملات لتعديل شروط التجارة بين الشمال والجنوب · وانتقلت السلطة ولكن ليس كما كان يتمنى دعاة الجنوب الموحد ·

ففى الواقع ، تفككت « الدول الأقل تقدما اقتصاديا » الى مجموعات متميزة لكل منها احتياجات مختلفة تماما · تتكون المجموعة الأولى من بلدان شديدة الفقر تعتمد اعتمادا كبيرا على العمل الزراعى المميز للموجة الأولى ، فى حين تضم المجموعة الثانية بلدانا مثل الهند والبرازيل والصين ، وهى وان كانت تنتمى للموجة الثانية وتمثل قوى صناعية قوية فان مجموعات كبيرة من سكانها لا تزال تستمد قوتها من الزراعة قبل الصناعية · أما المجموعة الثالثة فتتكون من بلدان مثل سنغافورة وتايوان وكوريا الجنوبية ، وهى بلدان صناعية تتقدم بأقصى سرعة فى طريق التكنولوجيا المتطورة التى تميز الموجة الثالثة · وبالتالى فهناك تفكك للسلطة فى الكتلة الشرقية كما فى الجنوب ·

ويمثل بروز اليابان وأوروبا كمنافسين للولايات المتحدة الانتقال المهم الثالث للسلطة (فكل طرف يكافح من أجل السيطرة على القرن الواحد والعشرين) • ومن ثم ف « الغرب » بدوره فى طريقه للانقسام •

وبالرغم من أن رجال السياسة والدبلوماسيين ووسائل الاعلام يتعاملون مع هذه التحولات على أنها ظواهر منعزلة ، فان هناك رابطة عميقة نسجت أواصرها بين هذه التحولات الثلاثة • لقد تحطم البنيان العالمى الذى كان يجسد تجانس القوى الصناعية المنتمية للموجة الثانية مثل تحطم كرة بلور تحت ضربة مطرقة حداد •

يوجد فى الأصل ، بطبيعة الحال ، العديد من الأسباب لمثل هذه التطورات التاريخية ، ولا يستطيع تفسير واحد أن يعلل وحده هذه التطورات • ان اختزال التاريخ الى قوة وحيدة أو عامل وحيد ، يمثل تحديا للتعقيد والتركيب والصدفة ولدور الأشخاص وعدد كبير من التغيرات الأخرى • ولكن فى الجانب المقابل فان اعتبار التاريخ مجرد توال وتعاقب لأحداث لا تربط بينها علاقة ولا تخضع لنموذج ما ، يمثل أيضا اتجاها اختزاليا •

ان تحديد هوية القوى المشتركة التى تستند اليها كل من هذه التحولات يسمح بتكوين تصور عن نماذج السلطة المستقبلية على امتداد العالم ، بدلا من اعتبارها أحداثا معزولة • اننا نعتقد أن هذه التحولات التاريخية مرتبطة ارتباطا وثيقا بأفول التصنيع ، وببروز الاقتصاد الجديد المتمحور على المعرفة •

اهرامات ورحلات الى القمر :

لقد كان التقدم الذى تحقق فى مجالات العلوم والتكنولوجيا منذ الحرب العالمية الثانية خارقا ، حتى انه كان يصعب تخيل المزيد • واذا كانت هذه الفترة لم تشهد سوى اكتشاف الاعلاماتية والحامض النووى لأمكن اعتبار فترة ما بعد الحرب أكثر فترات تاريخ العلوم ثورية ، الا أن ما حدث فى الواقع أكثر من ذلك بكثير •

لم نكتف بتحسين تكنولوجياتنا وصولا بها الى حد الكمال ولكننا بدأنا نؤثر على الطبيعة بشكل أعمق وأدق ، بحيث أصبحنا حاليا قادرين

على تكوين طبقة من المادة رقيقة لدرجة لا تصدق ، حتى ان « الالكترونات داخل هذه الطبقة تنتقل في بعدين فقط » ، طبقا لكلمات مجلة « ساينس »، وذلك بدلا من التعامل مع قطع كبيرة من المادة • كما تمكنا من حفر خطوط لايزيد عرضها عن ٢٠ × ١٠ ^-٦ ملليمتر بواسطة ماء النار ، وقريبا سنتمكن من تجميع الأشيـاء ذرة ذرة •• ان ذلك ليس « تقدما » ولكنه انقـلاب حقيقى •

ففى عام ١٩٨٩ وضعت أكاديمية الهندسة الوطنيـة فى الولايات المتحدة قائمة لما اعتبرته أهم عشرة وعود تقنية خلال الخمسة والعشرين عاما الأخيرة • وتصدر القائمة أول هبوط لمركبة الفضاء أبوللو على سطح القمر ، وهو ما يعادل فى التاريخ بناء الأهرامات المصرية • ويأتى بعد ذلك تطوير الأقمار الصناعية والمعالجات الميكروية وأشعة الليزر والطائرات النفاثة الضخمة ومنتجات الهندسة الوراثية وغيرهـا من الاكتشافـات المثيرة الأخرى •

ومنـذ بداية الخمسينات ، عنـدما بدأ نظام خلق الثروة الجديد يبرز فى الولايات المتحدة ، شق الانسان لأول مرة فى التاريخ طريقا نحو النجوم وحدد هوية البرنامج الوراثى للحياة واخترع أدوات ذكية لا تقل أهمية عما كانت عليه الكتابة • انه كم من الانجازات غير مسبوق بالنسبة لجيل واحد •

لم يكن التقدم الملحوظ الذى تحقـق مقصـورا على المعرفة العلمية أو التكنولوجية ، ففى كل المجالات حدث انقلاب فى قاعدة المعرفة ، ابتداء بنظرية التنظيمات وحتى الموسيقا ، ومن دراسة النظام البيئى الى فهمنا لتكوين وتركيب المـخ ، ومن الدراســات اللغوية الى نظرية التـدريب والتمهير (*) ، والى دراسة النظـم غير المستقرة والهياكل الفوضـوية والمتبددة • وبينما يحدث هذا الانقلاب يعثر الباحثون العاملون فى مجالات مثل الشبكات العصبية والذكاء الاصطناعى على وسيلة لتوفير معرفة جديدة عن المعرفة ذاتها •

قد يبدو ظاهريا أن هذا التقدم ، الذى يتخذ شكل تحولات ، بعيد عن عالم الدبلوماسية والسياسة ، لكنه فى الحقيقة مرتبط بشكل حتمى بالانفجارات التى حدثت مؤخرا فى مجـال الجغرافيا السياسية • لقـد أصبحت المعرفة أحد عوامل صراعات السلطة على نطاق العالم •

(★) طريقة تتيح اقامة علائق بين عدد من المنبهات والاستجابات فى الكائنـات الحية يتأتى عنها اكتسابها مهارات خاصة للتكيف مع بيئتها •

اقتصادات سياسية مستهلكة :

لنفحص مثلا تأثيرات « عامل المعرفة » على السلطة السوفيتية • فكما سبق أن رأينا ، جعلت التحولات التاريخية الراهنة للسلطة ، مصدرين من أهم مصادرها ـ وهما العنف والثروة ـ تابعين بشكل متزايد لمصدر السلطة الثالث ، ألا وهو المعرفة • ونظرا لانتشار التكنولوجيا المعتمدة على المعرفة والتداول الحر نسبيا للأفكار ، تمكنت الولايات المتحدة واليابان وأوروبا من أن تسبق على الصعيد الاقتصادى الدول الاشتراكية بمسافات شاسعة • ولقد أتاحت هذه التكنولوجيا ذاتها تحقيق قفزة عملاقة فى مجال القوة العسكرية •

ان الطائرة المقاتلة القاذفة تكافىء حاليا جهاز كمبيوتر مجنح • اذ تكاد فاعليتها تعتمد كلية على المعرفة المختزنة فى أجهزتها الالكترونية الخاصة بالطيران ، وفى التسليح المزودة به ، كذلك على المعرفة المختزنة فى مخ الطيار • لذلك ، من المرجح أن يكون المبرمجون العسكريون السوفيت قد عانوا من آلام القرحة عندما دمر الطيارون الاسرائيليون فى عام ١٩٨٢ ، ٨٠ طائرة ميج روسية يقودها طيارون سوريون ، بينما لم يفقد الاسرائيليون طائرة واحدة • ولم يكن أداء الدبابات الروسية أفضل فى مواجهة المدرعات الاسرائيلية •

وبالرغم من أن لدى الاتحاد السوفيتى علماء نابغين بين صفوف جيشه ، ويملك أسلحة ذرية تكفى لتدمير العالم كله ، فان ذلك لا يقلل من كونه تخلف فى سباق التسلح فى مجالى الأسلحة التقليدية ذات التكنولوجيا المتطورة ونظم الدفاع الاستراتيجية • ان التطور المتنامى للأسلحة التقليدية المعتمدة على المعلومات (والتى هى فى الواقع ليست تقليدية البته) يهدد التفوق السوفيتى على أرضه ، أى فى أوروبا الشرقية •

وفى الوقت نفسه ، تهدد مبادرة الدفاع الاستراتيجى (أو حرب النجوم) ، الغنية جدا بالمعرفة ، بجعل الصواريخ السوفيتية طويلة المدى لا قيمة لها • وان كان المناهضون لمبادرة الدفاع الاستراتيجى يعتبرون أن تحقيق ذلك مستحيل ، فان مجرد احتمال التهديد أثار قلق موسكو • فاذا تمكنت هذه المبادرة من ايقاف كل الصواريخ النووية الروسية قبل أن تصل الى الولايات المتحدة ، تصبح هذه الصواريخ لا جدوى منها • كما يعنى ذلك أن الولايات المتحدة يمكنها شن هجوم نووى دون أن تخشى أي هجوم مضاد • حتى وان ظلت هذه المبادرة محدودة الفاعلية نسبيا ،

ولا تستطيع ايقاف سوى جزء من القنابل الذرية المعادية ، فان ذلك يفرض على المبرمجين العسكريين السوفيت معرفة عدد الصواريخ الأمريكية التى ظلت سليمة ويمكنها بالتالى شن هجوم مضاد • وفى الحالتين ، جعلت مبادرة الدفاع الاستراتيجى من غير المحتمل نظرية لجوء السوفيت الى سلاحهم النووى ، بل وجعلت ذلك أمرا ينطوى على قدر أكبر من المخاطرة •

ومن ثم أصبح السوفيت يواجهون تهديدا مزدوجا على الأرض وفى الفضاء •

وفى مواجهة هذا الواقع التعيس – دون الاشارة الى أفولها الاقتصادى – توصلت موسكو بطريقة عقلانية الى أنها لم تعد قادرة على أن تحمى دول أوربا الشرقية عسكريا ، الا بتكلفة غير مقبولة وفى زيادة فلكية • وبالتالى أصبح من الضرورى ، لأسباب اقتصادية وكذلك عسكرية، خفض التزاماتها تجاه البلدان الأخرى من امبراطوريتها •

الا أن ما هزم السوفيت لم يكن السلاح ولا الاقتصاد ولكن « عامل المعرفة » • هذه المعرفة الجديدة التى تعتمد عليها بشكل متزايد القوة العسكرية والقدرة الاقتصادية •

ويفسر « عامل المعرفة » انقسام « البلدان الأقل تقدما اقتصاديا » الى ثلاث مجموعات متميزة • فمنذ أن اتجهت الاقتصادات الأكثر تقدما نحو الاعلاماتية وتكنولوجيات المعلومات وأنتجت منتجات ذات قيمة مضافة أعلى ، نقلت عددا من العمليات القديمة ، التى تعتمد بدرجة أقل على المعلومات وترتبط بدرجة أعلى بالعمل العضلى ، الى بلدان مثل كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وحاليا تايلاند • بمعنى آخر ، بينما كانت أوروبا واليابان والولايات المتحدة تنتقل الى أشكال خلق الثروة الخاصة بالموجة الثالثة ، تخلت عن مهام الموجة الثانية لبلدان أخرى ، مسارعة بذلك عملية تصنيع هذه البلدان التى تركت باقى دول الجنوب وراءها •

ويدخل عدد من هذه « الاقتصادات الصناعية الجديدة » بدوره فى السباق لنقل عمليات الموجة الثانية للبلدان المتخلفة اقتصاديا والأكثر فقرا – مع ما يصاحبها من تلوث وأضرار أخرى – فى حين تحاول هذه الاقتصادات الارتفاع الى انتاج أكثر ثراء معرفيا • وبذلك حفرت ايقاعات التنمية الاقتصادية المختلفة هذا الفارق بين دول الجنوب •

أما بالنسبة للتنافس داخل المعسكر الرأسمالى ، بين أوروبا واليابان والولايات المتحدة ، فيرجع تفسيره الى النجاح الباهر للسياسة الأمريكية فى فترة ما بعد الحرب ، وهى السياسة التى شجعت وساعدت

على اعادة البناء الاقتصادى واصلاح وتجديد الهياكل الصناعية الأوروبية واليابانية التى دمرتها الحرب • ولقد أتاح ذلك لأوروبا واليابان فرصة بداية جديدة وامكانية استبدال آلاتها القديمة بتكنولوجيات جديدة تماما • فى حين كان على مصانع الولايات المتحدة التى لم تدمر فى الحرب أن تستهلك بنيتها التحتية القائمة •

وتمكنت اليابان من أن تكون فى المقدمة ، وذلك لأسباب عدة فى مقدمتها العمل الخارق ، والقدرة على الابتكار التى يتمتع بها جيل ما بعد الحرب ، بالاضافة الى ثقافة موجهة بشكل أكبر نحو المستقبل ، فضلا عن التنشيط الاقتصادى الاقليمى الذى نجم عن حرب فيتنام • وكانت عيون اليابان تنظر دائما نحو القرن الواحد والعشرين كما أكدت ثقافتهاعلى الدوام على أهمية التعليم وتنمية الحس التجارى والمعرفة بشكل عام • واستحوذت على الكمبيوتر وكل مشتقاته فى مجال الالكترونيات وعلى تكنولوجيا المعلومات بحماس وعشق •

وكانت النتائج التى حققتها اليابان ، مرورا من النظام القديم لخلق الثروة الى النظام الجديد ، مذهلة ووضعتها حتما فى تنافس مع الولايات المتحدة • وأوروبا بدورها ، بعد أن ظلت لسنوات فى المؤخرة ، شعرت بالخوف وانطلقت فى استراتيجية تكامل اقتصادى وسياسى •

وسنعود فيما بعد الى هذه التطورات • أما الآن فمن الجوهرى الاعتراف بأن النظام الجديد لخلق الثروة القائم على المعرفة ، كان يمثل فى كل مرحلة اسهاما مهما أو سببا أصليا لتلك العمليات الكبيرة والتاريخية لانتقال السلطة والتى تعيد حاليا تشكيل عالمنا • وكما سنرى ، فان نتائج وتأثيرات هذه الظاهرة على مستوى الكرة الأرضية لن تكف عن ادهاشنا ومفاجأتنا •

الفصل الثلاثون

المسرعون والمبطئون

من أكبر حالات اختلال توازن السلطة على هذه الأرض ، هى تلك التى تقسم العالم حاليا الى دول غنية ودول فقيرة • لكن هذا التوزيع غير المتساوى للسلطة ، والذى يؤثر على حياة الملايين منا ، لن يستمر طويلا وسيتبدل كلما انتشر النظام الجديد لخلق الثروة •

منذ الحرب العالمية الثانية والعالم منقسم الى رأسماليين وشيوعيين والى شمال وجنوب • وفى الوقت الذى تفقد فيه هذه التقسيمات معناها ، يولد تقسيم جديد • حيث سينقسم العالم ، من الآن فصاعدا ، الى الأكثر سرعة والأكثر بطئا •

ان مفاهيم السرعة والبطء ليست مجرد صياغات ، بل يمكن التمييز ماديا بين اقتصادات سريعة وأخرى بطيئة • فالجهاز العصبى للكائنات البدائية بطىء فى حين يعالج الجهاز العصبى البشرى ، الأكثر تطورا ، الاشارات بسرعة أكبر • وينطبق الشىء نفسه على الاقتصادات البدائية والاقتصادات المتقدمة • لقد انتقلت السلطة تاريخيا من الابطأ الى الأسرع ، سواء تكلمنا عن أنواع الكائنات أم عن البلدان •

فى الاقتصادات السريعة ، تعمل التكنولوجيا على تسارع الانتاج • ويتم تحديد سرعة هذه الاقتصادات بناء على سرعة المعاملات المالية والتجارية ، والوقت اللازم لاتخاذ القرارات (خاصة فيما يتعلق بالاستثمارات) والايقاع الذى تخرج به الأفكار الجديدة من المعامل وسرعة وصولها الى السوق ، وسرعة حركات رأس المال • وبالاضافة الى كل ذلك وقبله ، سرعة دوران البيانات والمعلومات والمعرفة خلال النظام الاقتصادى • ومعنى ذلك ، أن الاقتصادات السريعة تولد الثروة – والسلطة – بسرعة أكبر من الاقتصادات البطيئة •

وعلى النقيض من ذلك ، تبدو العمليات الاقتصادية فى المجتمعات الفلاحية وكأنها لا تتحرك • فالعادات والتقاليد والجهل تحد اجتماعيا من الاختيارات المقبولة ، فضلا عن أن الاتصالات غير متوفرة ووسائل النقل محدودة • وقبل ظهور اقتصاد* السوق كأداة تسمح باجراء اختيارات استثمارية ، كانت التقاليد تحكم القرارات التكنولوجية • كما كانت هذه التقاليد تستند الى « القواعد والمقدسات لحماية تقنيات انتاج أثبتت قابليتها للتطبيق على امتداد مسيرة التطور البيولوجى والثقافى البطيئة » ـ على حد قول الاقتصادى دون لافواه •

ولأن غالبية الأفراد كانت تعيش عند حد الكفاف ، كانت التجارب محفوفة بالمخاطر ، وكان يتم ابعاد المبتكرين والمجددين ، لذلك لم يتضح تقدم وسائل خلق الثروة الا ببطء شديد حتى انه كان يدرك بالكاد من جيل الى آخر • وخلال قرون من الركود ، لم تسجل سوى لحظات ابتكار وتجديد نادرة •

ان الانفجار التاريخى الذى نطلق عليه الآن اسم الثورة الصناعية نشط عملية الأيض الاقتصادى • وتحسنت الطرق والاتصالات وبدأ رجال الأعمال ، مدفوعين بالربح ، يجددون ويبتكرون بهمة ونشاط • وأصبح المجتمع يستطيع تجربة تقنيات تقريبية وبدائية دون التعرض لخطر اجتماعى كبير ، مستفيدا فى ذلك من فائض أرباح ضخم • ويشير لافواه الى أن « طرق الانتاج [يمكنها] أن تتغير بسرعة أكبر مما هى عليه لأن التجربة التكنولوجية حاليا أقل تكلفة » • غير أن كل ذلك ، لا يرسم سوى الاطار الذى سيتطور فيه الاقتصاد الرمزى الفائق السرعة الذى نراه يولد أمام أعيننا •

ان شفرة القضبان السوداء والبيضاء على علبة سجائر مارلبورو ، والكومبيوتر الموجود فى شاحنة فيدرال اكسبريس ، والماسح الالكترونى لدى خزينة تحصيل سيف واى ، وقطع التذاكر والحجز الآلى ، وامتداد شبكات البيانات « الذكية » على كوكب الأرض ، والربوتات الموجهة من بعد ، وتحويل رأس المال الى معلومات الكترونية ، كل ذلك لا يمثل سوى المراحل الأولية لاقامة اقتصاد القرن الواحد والعشرين ، الذى ستكون سرعة تشغيله قريبة من الوقت الحقيقى •

وعلى المدى الطويل ، ستصبح الدورة الكاملة لخلق الثروة معروضة بشكل لحظى على شاشات الكمبيوتر •

وسيتم أيضا تأمين تغذية ارتجاعية مستمرة ، انطلاقا من أجهزة الرصد المدمجة فى التكنولوجيا الذكية ، والماسحات الضوئية الموجودة فى المحلات ، وأجهزة اللاسلكى فى الشاحنات والطائرات والسفن التى ترسل الاشارات الى الأقمار (حتى ان المديرين سيتمكنون من متابعة تحركات كل شاحناتهم لحظة بلحظة) • وستقترن هذه المعلومات بنتائج استطلاعات الرأى والمعلومات الواردة من آلاف المصادر الأخرى •

وعندما تصبح كل وحدة زمن تم توفيرها ، ذات قيمة «أعلى» من وحدة الزمن السابقة لها فان تأثير التسارع يولد عقد تغذية ارتجاعية تسارع التسارع •

ان النتائج التى سوف تنجم عن ذلك لن تكون مجرد تطور ولكن ثورة حقيقية ، لأن العمل فى الوقت الحقيقى سيفرض على الادارة والمالية طرق عمل مختلفة جذريا عن أكثر الطرق تقدما المستخدمة حاليا • ومع ذلك ، وفى الوقت الراهن ، وحتى قبل أن تصبح العمليات فى الوقت الحقيقى معممة ، غدا الوقت ذاته عاملا من عوامل الانتاج الأكثر أهمية • وبالتالى ، استخدمت المعرفة لتقليص الفواصل الزمنية فى عملية الانتاج •

وفى هذه الحالة ، ينجم عن تسارع الردود العصبية لاقتصاد الدول ذات التكنولوجيا العالية عواقب غير مرئية — حتى الآن — على الاقتصادات ذات التكنولوجيا المنخفضة •

فكلما زادت قيمة الوقت ، قلت قيمة عوامل الانتاج التقليدية الأخرى — مواد أولية وعمل — ويتوقف الأمر فى أغلب الحالات على ما تبيعه هذه البلدان •

وكما سنرى ، فان تأثير التسارع سيبدل كل الاستراتيجيات الحالية للتنمية الاقتصادية •

العودة للوطن :

يتميز النظام الجديد لخلق الثروة بانتشار شبكة عالمية من الأسواق والبنوك ومراكز الانتاج والمعامل ، التى تتصل فيما بينها بشكل لحظى وتتبادل بشكل مستمر تدفقات ضخمة من البيانات والمعلومات والمعرفة •

ان اقتصاد الغد « السريع » ، والديناميكية الجديدة الناجمة عن تسارع انتاج الثروة ، سيكونان مصدرا للتقدم الاقتصادى • ولكنه كذلك سيصبح أيضا مصدرا لسلطة كبيرة ، والابتعاد عنه يعنى الطرد من المستقبل •

وهذا هو المصير الذى ينتظر العديد من الدول الأقل تقدما اقتصاديا ٠

وعندما تزداد قوة وسيطرة النظام العالمى لانتاج الثروة ، سيتعين على البلدان التى تريد أن تبيع منتجاتها أن تعمل بسرعة المشترين ٠ ومعنى ذلك ، أن الاقتصادات البطيئة ستضطر الى زيادة سرعة ردودها العصبية والا فقدت العقود والاستثمارات واضطرت لترك السباق ٠

يمكن حاليا رصد المؤشرات الأولى لمثل هذا الموقف ٠

لقد أنفقت الولايات المتحدة خلال عقد الثمانينات ١٢٥ مليار دولار سنويا على الملابس ، وقام بانتاج ٥٠٪ من هذه الملابس عمال ذوو أجور رخيصة فى مصانع منتشرة من هايتى الى هونج كونج ٠ وفى الغد ، سيعود جزء كبير من هذا العمل الى الولايات المتحدة لتلبية المتطلبات الجديدة للسرعة ٠

ان الضرائب والرسوم والتعريفات وأسعار الصرف وعوامل أخرى ، مازالت تؤثر بالطبع على الأعمال عندما تتم عمليات الاستثمار أو الشراء فى الخارج ٠ ولكن على المدى الطويل ، ستتدخل تغيرات أكثر جذرية من ذلك بكثير فى هيكل التكاليف ٠ ان الانتقال نحو النظام الجديد لخلق الثروة ، قد دق بالفعل ساعة عودة المصانع والعقود « التى يصعب السيطرة عليها » الى الولايات المتحدة واليابان وأوروبا ٠

فشركة تاندى مثلا – وهى منتج وموزع مهم للمعدات الالكترونية – أعادت مؤخرا توطين انتاجها من أجهزة الكمبيوتر من كوريا الجنوبية الى تكساس ٠ وبينما كان المصنع الآسيوى أتوماتيكيا ، فان مصنع تكساس يعمل فى شكل تدفق « مستمر تماما » ولديه معدات وتجهيزات مراقبة أكثر تطورا ٠ ومن ناحية أخرى ، أقام تاندى فى فرجينيا وحدة تعمل بالكامل بالربوت ، وتنتج يوميا خمسة آلاف من مكونات مكبرات الصوت وتبيعها لمنتجين يابانيين كانوا يحصلون عليها من قبل بسعر أقل فى الكاريبى ٠

ان الصناعة الاعلاماتية تتقدم بالطبع بسرعة قصوى ، الا أن ذلك يظل صحيحا بالنسبة للأنشطة الأكثر بطئا ٠ فشركة Arrow ، وهى من أكبر منتجى القمصان فى الولايات المتحدة ، أعادت مؤخرا توطين ٢٠٪ من انتاجها بعد ١٥ عاما من الغربة ٠ أما فريدريك اتكينز – وهى شركة تشترى سلعا لكبرى سلاسل المحلات الأمريكية – فقد رفعت نسبة مشترياتها من الانتاج الأمريكى من ٥٪ الى ٤٠٪ فى مدى ثلاث سنوات ٠

وترجع هذه الانتقالات ، ولو جزئيا ، الى الأهمية المتزايدة للوقت فى الاقتصاد ٠

وتقول مجلة فوربز : « ان التكنولوجيا الجديدة تعطى منتجى الملابس الوطنيين ميزة كبيرة على منافسيهم الآسيويين ٠ فنظـرا لتقلبات الموضـة وهوس تغيير الطرز ست مرات على الأقل فى العام ، يريد تجار التجزئة أن يتمكنوا من الاحتفاظ بالحـد الأدنى من المخزون ٠ وهو ما يتطلب ردا سريعا من منتجى الملابس الذين يمكنهم توريد كميات صغيرة تضم كل الطرز والمقاسات والألوان ٠ أما الموردون الآسيويون الواقعون على الجانب الآخر من الكرة الأرضية فيطالبون بأن تكون الطلبيات لثلاثة أشهر مقدما على الأقـل » ٠

ان مجموعة بنيتون الايطالية تسـلم طلبيـات جديـدة للخريف أو الربيع فى أقل من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ٠ وبفضل شبكة الكترونية يستطيع Haggard Apparel فى دالاس أن يجدد حاليا مخزون البنطلونات لـ ٢٥٠٠ عميل فى مدى ثلاثة أيام مقابل سبعة أسابيع سابقا ٠

ولنقارن ذلك مع وضـع الصناعيين أو الحرفيين فى الصـين الذين يحتاجون الى الصلب ٠

ففى عام ١٩٨٨ تعرضـت الصين لأسوأ أزمة صلب ، لم يشهد العالم مثلها من قبل ، حيث ظل ٤٠٪ من الانتاج السنوى الكلى للبـلاد مكدسا ومغلقا عليه بالأقفال فى مخازن الشركة العامة للتخزين والنقل ، بالرغـم من احتياج المصانـع الشديد الى هذا المخزون ٠ لماذا ؟ لأن هذه الشركة لا تقوم بتسليم الصلب الا مرتين فقط فى العام – مهما بدا ذلك غير قابل للتصديق بالنسبة لمن يعيش فى ظل اقتصاد سريع ٠

ولم يتمكن مديرو الشركة العامة للتخزين والنقل من التصرف أمام الزيادة الجنونية فى أسعار الصلب ٠ كما لم يهتموا قط بالسوق السوداء الناجمة عن النقص ، ولا بعمليات التهريب المتزايدة ولا بالأزمة التى تعانى منها المصانـع التى تحتاج الى الصلب غير المتوفر ٠ ان تنظيم الشركة لم يكن ، ببساطة ، مهيأ لعمليات تسليم متكررة ٠ ان « جدارا كبيرا » يفصل الدول السريعة عن الدول البطيئة ، وهذا الجدار يزداد اتساعا مع مرور السنين ٠

ويفسر هذا الحاجز الثقـافى والتكنولوجى الكبير – ولو جزئيـا – نسبة حالات الفشل العالية للمشروعات المشتركة بين البلدان السريعة والبلدان البطيئة ٠

وينهار العديد من التعاملات عندما لا يتمكن مورد من بلد بطيء من احترام مواعيد التسليم • ان اختلاف ايقاع الحياة الاقتصادية فى كلا العالمين يطرح مشكلة ثقافية • ولا يدرك قادة الدول البطيئة الأهمية التى يوليها شركاؤهم للوقت ، أو لا يفهمون لمـــاذا يبدو الوقت بهذه الأهمية بالنسبة لهم • ان دواعى السرعة تبدو لهم غريبة بقدر ما هى وقحة • غير أنهـــا حاسمة للشريك المنتمى لبلد سريع • فالتأخير فى التسليم لا يقل خطورة تقريبا عن الغاء التسليم •

ان التكلفة المتزايدة لنقص الوثوقية ، والمفاوضات التى لا تنتهى ، والاجراءات والردود المتأخرة على طلبات المعلومات العاجلة ، تقلل من الميزة التنـــافسية للعمـــل العضـــلى ذى الأجر المنخفض فى الاقتصـــادات البطيئة •

وينطبق الشيء نفسه على النفقات الناجمة عن التأخير والمخالفـــات وعدم الانتظام والشلل البيروقراطى والبطء فى اتخاذ القرارات ، ذلك بالاضافة الى الرشاوى المقنعة التى لا غنى عنها غالبا لزيادة سرعة الأمور •

فى الاقتصادات المتقدمة ، تغدو تدريجيـــا سرعة اتخاذ القرارات معيـــارا رئيسيا • ولا تقل أهمية قائمة « القرارات الجارية » بالنسبة لبعض الكوادر ، عن أهمية قـــائمة « العمـــل الجارى » • وتحاول هذه الكوادر استبدال اتخاذ القرارات بشكل تسلسلى ب « معالجات متوازية »، لاغـــين بذلك البيروقراطيـــة • ويتـــكلمون عن « سرعـــة طرح المنتجات فى الأسواق » و « الردود السريعة » و « دورة الزمن القصيرة » و « التنافس القائم على الوقت » •

ان الدقة المتزايدة فى تحديد المدد ، والوقت المطلوب بالنسبة لنظم مثل التسليم « فى الوقت المحدد » ، تعنى أنه يتعين على البائع أن يلبى متطلبات مواعيد تسليم أكثر الزاما عن ذى قبل وأكثر صرامة •

ومن جانبهم ، يطـــالب المشترون بأن تكون عمليـــات التســـليم أكثر تكرارا وانضـــباطا ، مما يضطر موردى الدول البطيئة للاحتفاظ بمخزون ضخم ومكلف ــ مع المجازفة بأنه سرعان ما تصبح المنتجات المخزونة بالية وغير قابلة للبيـــع •

ان ضرورات الاقتصـــاد الجديد واضحة : يتعين على الموردين فى البلدان الأقل تقدما اقتصاديا أن يطوروا تكنولوجياتهم،لكى تلبى معايير السرعة العالمية، والا فقدوا أسواقهم فجأة ، وراحوا ضحايا لتأثير التسارع•

ممتلكات عقارية استراتيجية :

ان احتمال أن يجد عـدد من البلدان الأكثر فقرا نفسـه معزولا عن ديناميكية الاقتصاد العالمى ، ويحكم عليه بالتالى بالركود والاهمال ، تدعمه ثلاثة عوامل قوية أخرى ، ناجمة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، عن قدوم النظام الجديد لخلق الثروة ٠

ان احدى طرق تصور السـلطة الاقتصادية للدول الأقـل تقـدما اقتصاديا فى المستقبل ، أو غيـابها ، تكمن فى التساؤل عما يمكن لهذه الدول بيعه لباقى العالم ٠ ونستطيع أن نبدأ بمورد نادر ، بامكان بعض الدول فقط أن تقدمه للآخرين فى أية لحظة ، ألا وهو الموقع الاستراتيجى ٠

ان الأملاك العقارية ذات الأهمية الاستراتيجية عسكريا ، لا يعتبرها الاقتصاديون عادة موردا قابلا للبيع ، لكن ذلك هو الوضع بالنسبة للعديد من الدول الأقل تقدما اقتصاديا ٠

فالدول التى تسعى لامتلاك القوة العسكرية والسياسية ، تكون فى الغالب مستعدة لدفع الأموال من أجل الحصول على هذه القوة ٠ وقد قام العديد من الدول الأقل تقدما اقتصاديا - مثل كوبا - ببيع أو تأجير مواقع منشآت للاتحـاد السـوفيتى والولايات المتحـدة أو دول أخـرى لأغراض عسكرية أو سياسية أو لأغراض الاستخبارات ٠ وحصلت كوبا مثـلا على مساعدة سنوية من الاتحاد السوفيتى تقدر بحوالى ٥ مليارات دولار مقابل سماحها للروس بأن يكون لهم موطىء قدم على أراضيها ، على بعد ١٥٠ كيلو مترا من السواحل الأمريكية ، وبأن يمارسوا تأثيرا متناميا فى كل أمريكا الوسطى ٠

وكان معنى « الحرب الباردة » ، طوال فترة تصل الى حوالى نصف قرن ، أن حتى أفقر البلدان كان لديها شىء تبيعه لأفضل مشتر (طالما انها تمتلك موقعا استراتيجيا) ٠ ولقد تمكنت بعض الدول ، مثل مصر (*)، من أن تبيع خدماتها أولا لاحدى القوتين العظميين ثم بعد ذلك الى القوة الأخرى ٠

ولكن ، بينما كان العالم يعرب عن ابتهاجه للانفراج بين الأمريكيين والسوفيت ، كانت البلدان التى باعت حق الوصول الى مواقعها الجغرافية الاستراتيجية ، مثل الفيليبين وكوبا وفيتنام ونيكاراجوا الساندينية ،

(★) لم يحدث اطلاقا أن أجرت مصر قواعد لا للسوفيت ولا للأمريكيين - (المترجم)٠

تشعر بالحزن العميق • ومن الآن فصاعدا ، من غير المحتمل أن يزايد أكبر عميلين للمواقع الاستراتيجية كما كانا يفعلان فى الماضى القريب •

فضلا عن ذلك ، فانه مع التنامى المستمر فى وسائل تموين الجيوش ونقلها وايوائها ، وزيادة مدى الطائرات والصواريخ وعدد الغواصات ، وتزايد سرعة العمليات العسكرية بواسطة الجسور الجوية ، يقل الاحتياج الى قواعد فيما وراء البحار ومنشآت صيانة و احتياطات محددة المواقع مسبقا •

وبالتالى ، على الدول الأقل تقدما اقتصاديا أن تتوقع نهاية تجارة المواقع الاستراتيجية • الا اذا تم استبدال هذه التجارة بأشكال أخرى من المساعدة الدولية ، ومن ثم سينضب فيض « المساعدة الخارجية » و « الدعم العسكرى » الذى تدفق حتى الآن على الدول الأقل تقدما اقتصاديا والذى يقدر بمليارات الدولارات •

وكما سنرى ، فان الوفاق الأمريكى – السوفيتى هو الرد السوفيتى على النظام الجديد لخلق الثروة فى الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة • ويمثل انهيار تجارة المواقع الاستراتيجية احدى نتائجه غير المباشرة •

وأيا كانت القوى العظمى فى المستقبل ، حتى وان استمرت فى زرع القواعد واقامة محطات تنصت للأقمار الصناعية ، أو بناء مطارات وقواعد للغواصات فى أراض أجنبية ، فان الاتفاق حول هذه « الحقوق الممنوحة » سيكون لفترات زمنية أقصر • ذلك أن تسارع التغيرات فى الوقت الراهن ، يجعل كل التحالفات هشة وأقصر عمرا الأمر الذى لا يشجع القوى الكبرى على القيام باستثمارات طويلة المدى فى مواقع ثابتة •

وسوف تندلع الحروب والتهديدات وحركات التمرد فى أماكن غير متوقعة • لذلك سيركز أركان حرب القوى الكبرى على قوات التدخل السريع والقوى البحرية والعمليات الفضائية ، أكثر من تركيزهم على الانشاءات الثابتة • وسيقلل كل ذلك من قدرة مساومة البلدان التى تتمتع بمواقع للايجار •

وفى نهاية المطاف ، فان بروز القوة العسكرية اليابانية فى المحيط الهادى قد يدفع الفليبين ودولا أخرى فى جنوب شرق آسيا « لاستقبال » الأمريكيين أو قوى أخرى ، لموازنة التهديد اليابانى الوليد • واذا دفعنا هذا التفكير الى حده الأقصى ، يمكن أن يقودنا الى أن « تدفع » هذه الدول ثمن الحماية بدلا من الحصول على ثمن تأجير المواقع الاستراتيجية •

ان اندلاع الحروب الاقليمية مرة أخرى ، أو انطلاق موجات جديدة من العنف الداخلي في العديد من مناطق العالم ، ستستمر في تأمين ازدهار صناعات التسليح • ولكن ، مهما حدث ، سيكون من الأصعب بكثير الحصول على منافع أو مغانم من الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي وسيضر ذلك بالتوازن الهش لعلاقات القوة بين الدول الأقل تقدما اقتصاديا ـ مثل الهند وباكستان مثلا ـ وسيولد أيضا انتقالات للسلطة ، من المحتمل أن تكون عنيفة ، « داخل » هذه البلدان ، خاصة بين الصفوة المرتبطة ارتباطا وثيقا (أحيانا بشكل فاسد) ببرامج المساعدة والمنشآت العسكرية وعمليات المخابرات •

باختصار ، لقد مضى العصر الذهبى « للحرب الباردة » • وتنتظرنا انتقالات للسلطة أكثر تعقيدا • أما بالنسبة لسوق المواقع الاستراتيجية فى الدول الأقل تقدما اقتصاديا فلن تكون أبدا كما كانت •

فيما وراء المواد الأولية :

وهناك ضربة ثانية تنتظر البلدان التى تعتمد برامج تنميتها على تصدير المواد الأولية مثل النحاس والبوكسيت •

وهنا أيضا بدأت انتقالات السلطة تبدو للعيان • فاذا كان الانتاج بالجملة يتطلب كميات كبيرة من عدد صغير من الموارد ، فان انتشار طرق الانتاج بكميات صغيرة وعلى حسب الطلب ، سيزيد من الاحتياج الى موارد متعددة ولكن بكميات أقل بكثير •

ومن ناحية أخرى ، سيؤدى الأيض الأسرع لنظام الانتاج العالمى الجديد الى أن تغدو الموارد التى تعتبر حيوية الآن ، لا قيمة لها غدا ، مثل كل صناعات استخراج المواد الأولية والمناجم ومنشآت الموانى والوسائل الأخرى اللازمة لنقل المواد الأولية • وعلى النقيض من ذلك ، فان النفايات التى تبدو فى الوقت الراهن غير مفيدة قد تكتسب فجأة قيمة كبيرة •

لقد ظل البترول لفترات طويلة يعامل على أنه مادة غير قابلة للاستخدام ، الى ان ظهرت التكنولوجيات الجديدة ـ خاصة المحرك الانفجارى ـ التى جعلته حيويا • كذلك مادة التيتان التى لم تكن سوى مسحوق أبيض لا قيمة له الى أن جعلته صناعة الطائرات والغواصات يتميز بخواص لا غنى عنها • ولكن ايقاع ظهور التكنولوجيات الجديدة كان بطيئا ، أما الآن فلم يعد الأمر كذلك على الاطلاق •

ان التوصيلية الفائقة - مثلا - ستقلل من استهلاك الطاقة نتيجة لخفض مستوى الفاقد أثناء نقل الكهرباء ، ولكن فى الوقت نفسه سيتطلب استخدامها مواد أولية جديدة ، وليس ذلك سوى مثال واحد من بين العديد من الأمثلة • وربما فى المستقبل ، لا تعتمد معدات السيارات الجديدة المضادة للتلوث على البلاتين • وقد تتطلب المنتجات الصيدلانية الجديدة مواد عضوية غير معروفة حاليا أو مواد لا قيمة لها الآن • وعندئذ قد تصبح بلدان فقيرة موردا مهما لهذه الموارد ، مما يضعف فى الوقت نفسه وضع كبار المصدرين الحاليين •

بالاضافة الى ذلك ، « ترتبط حاليا كل زيادة فى الدخل الفردى فى المجتمعات المتقدمة والغنية ، بتناقص مطرد فى زيادة كميات المواد الأولية والطاقة المستخدمة » ، على حد قول Umberto Colombo رئيس لجنة العلوم والتكنولوجيا فى الجماعة الأوروبية • ويذكر كولمبو أرقام صندوق النقد الدولى التى تبين أن « اليابان [•••] استهلكت فى عام (١٩٨٤) ٦٠٪ فقط من المواد الأولية المستخدمة فى عام ١٩٧٣ لنفس حجم الانتاج الصناعى » •

ان تقدم المعرفة ، يتيح لنا انتاجا أكثر باستخدام مواد أولية أقل ، مما يضعف بالتالى سلطة كبار المنتجين •

ومن ناحية أخرى ، يزيد الانتشار السريع للمعرفة العلمية من امكانات ابتكار بدائل للموارد المستوردة • وستتمكن الاقتصادات المتقدمة ، قريبا ، من خلق مجموعات كبيرة من المواد الجديدة يتم انتاجها حسب الطلب • وكلما احتلت البلدان ذات التكنولوجيا المتقدمة طليعة الابتكار قل اعتمادها على المواد الأولية المستوردة بكميات كبيرة من الخارج •

ان النظام الجديد لخلق الثروة شديد التغير والسرعة ، بحيث يصعب ربطه وتكبيله ببعض المواد الأولية « الحيوية » • وبالتالى ، ستنتقل السلطة من كبار منتجى المواد الأولية الى الذين يسيطرون « بنظام التنقيط » على كميات المواد التى لا غنى عنها مؤقتا ، ومنهم الى الذين يتحكمون فى المعرفة اللازمة لخلق موارد جديدة تماما •

الأيدى العاملة « الرخيصة » غالية :

كان التأثير السلبى لكل ذلك على البلدان الأقل تقدما اقتصاديا سيكون أقل اذا لم تكن معرضة لضربة ثالثة قوية ستصيبها على حين غرة وتقلب رأسا على عقب علاقات القوة بينها •

لقد واصل الصناع الرأسماليون ، منذ فجر العصر الصناعي بحثهم عن أيد عاملة رخيصة • وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، شهد العالم سباقا محموما نحو مصادر الأيدى العاملة الأجنبية • وراهن العديد من الدول النامية بكل مستقبلها الاقتصادى على النظرية القائلة بأن بيع أيد عاملة رخيصة سيؤدى الى التحديث •

وفازت بعض البلدان مثل نمور الشرق الأقصى الأربعة - كوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج وسنغافورة - بالرهان • وساعدهم فى تحقيق ذلك أخلاقيات عمل قوية وعوامل ثقافية فريدة ، كما ساعدهم أيضا صراعان محمومان ، الحرب الكورية فى الخمسينات وحرب فيتنام فى الستينات وأوائل السبعينيات ، واللذان صبا مليارات الدولارات فى المنطقة • وقد قارن بعض اليابانيين هذا التدفق المالى ب « نفحة الهية » •

ونظرا للنجاح الذى حققته هذه البلدان ، أصبح من المعترف به عالميا أن الانتقال من صادرات المنتجات الزراعية أو المواد الأولية ، الى صادرات مصنعة بأيد عاملة رخيصة يؤدى الى التنمية والنمو • غير أنه لا يوجد ما هو أبعد عن الحقيقة من ذلك على المدى الطويل •

من المؤكد ان السباق للحصول على أيد عاملة رخيصة لا يزال منتشرا فى جميع أنحاء العالم • فحتى وقتنا هذا ، تنقل اليابان المصانع والعقود من تايوان وهونج كونج ، نظرا لارتفاع الأجور ، الى تايلاند وماليزيا والصين ، حيث الأجور عشر مثيلتها فى اليابان • وسيكون لدى الدول الغنية فرص عديدة لتحديد مخزون من الأيدى العاملة الرخيصة فى البلدان الأقل تقدما اقتصاديا •

الا أن عملية بيع الأيدى العاملة الرخيصة ، مثلها مثل تأجير القواعد العسكرية أو تصدير المعادن ، تتجه نحو بلوغ نهايتها •

فكلما امتد النظام الجديد لخلق الثروة ، أصبحت تكلفة الأيدى العاملة لا تمثل سوى جزء متزايد التناقص من سعر التكلفة الكلية للانتاج • ففى بعض الصناعات لا تمثل تكلفة الأيدى العاملة سوى ١٠٪ فقط ، ومعنى ذلك أن وفرا يقدر ب ١٪ من تكلفة الأيدى العاملة ، لا يمثل سوى واحد على ألف من سعر التكلفة الكلية •

وفى الجانب المقابل ، فان التقنيات الأكثر تطورا ، وتدفقات المعلومات المتزايدة السرعة وذات النوعية الأفضل ، وتخفيض المخزون والتنظيم القائم على نهج علمى، قد يحقق وفرا أعلى بكثير مما تحققه العمالة الرخيصة •

وبالتالى ، قد يكون أكثر ربحية أن يتولى شخص ما رئاسة شركات متقدمة فى اليابان أو الولايات المتحدة ، يعمل بها عمال مدربون تدريبا عاليا ويحصلون على أجور مرتفعة ، عن أن يتولى رئاسة مصنع بدائى فى الصين أو البرازيل ، يستخدم جموعا من العمال غير متعلمين ويحصلون على أجور زهيدة ٠

وطبقا لأمبرتو كولمبو ، فان العمالة الرخيصة « لم تعد تكفى لتأمين وصول الدول النامية الى السوق العالمية ٠

السرعات الفائقة :

يرتسم فى الأفق ، اذن ، خط فاصل خطير بين الاقتصادات السريعة والاقتصادات البطيئة ٠ وسيولد هذا الخط انتقالات ضخمة للسلطة على امتداد « الجنوب » ٠ وتدريجيا ، سيكون لهذا الخط الفاصل آثاره الكبيرة على امتداد الكرة الأرضية وعلى جميع الأصعدة ٠

ويمكن بفضل النظام الجديد لخلق الثروة تصور مستقبل أفضل لطبقات واسعة من سكان العالم الذين ينتمون حاليا الى الطبقات الفقيرة ٠ غير أننا لا نستطيع استبعاد أن يتصرف قادة الدول الأقل تقدما اقتصاديا بحيث لا تحدث هذه التغيرات ، ويحكمون بذلك على شعوبهم بفقر لا شفاء منه ويحكمون على أنفسهم بالعجز ٠

لأنه فى الوقت الذى ينتظر فيه الصناعيون الصينيون الحصول على الصلب ، أو تتقدم فيه الاقتصادات التقليدية بايقاع متناهى البطء ، تعمل الولايات المتحدة واليابان وأوروبا ــ والسوفيت أيضا فى هذه الحالة بالذات ــ من أجل تنفيذ مشروعات بناء الطائرات فوق الصوتية القادرة على نقل ٢٥ طنا (ركاب وبضائع) بسرعة ٥ ماخ ، وهو ما يجعل نيويورك وسيدنى ولندن ولوس أنجلوس على بعد ساعتين ونصف الساعة من طوكيو ٠

ان Jimo Tokuyama ، المستشار الرئيسى لمعهد أبحاث Mitsui والذى تولى من قبل منصب مدير معهد أبحاث نومورا الشهير ، يقوم حاليا بدراسة عن الاتصالات والنقل والسياحة تحت رعاية مؤتمر التعاون الاقتصادى لدول المحيط الهادى ٠ وتهتم هذه الدراسة بثلاثة عوامل رئيسية فى ١٥ بلدا ، ومن المتوقع أن تزيد هذه العوامل من تسارع العمليات الاقتصادية فى المنطقة ٠

ويتوقع Tokuyama أن يصل عدد الركاب الذين تقوم الشركات الجوية الباسيفيكية بنقلهم سنويا الى ١٣٤ مليون راكب ، فى نهاية القرن • ويضيف أن رابطة الشركات الفضائية اليابانية تقدر انه يتعين انتاج ما بين ٥٠٠ وألف طائرة فوق صوتية ، من الآن وحتى عام ٢٠٠٠ • وسيسلك عدد من هذه الطائرات طرق الباسفيك ، مما يؤدى الى تسريع التنمية الاقتصادية لهذه المنطقة وتزويدها بوسائل الاتصالات اللاسلكية • ويعرض Tokuyama بوضوح ، فى مقال عن الاتصالات والنقل والسياحة ، التأثيرات التجارية والاجتماعية والسياسية لهذا التطور •

ويشير أيضا فى هذا المقال الى اقتراح تقدمت به شركة بناء يابانية Taisei ـ يهدف الى بناء جزيرة صناعية طولها خمسة كيلو مترات لتكون مطارا ذا قيمة مضافة ، « يمكنه استقبال طائرات فوق صوتية ويضم مركزا دوليا للمؤتمرات وآخر تجاريا بالاضافة الى استعدادات وتجهيزات أخرى • وسيتم ربط هذا المطار بالمناطق ذات الكثافة السكانية العالية بواسطة قطارات فائقة السرعة » •

ومن جهة أخرى ، يشيد الملياردير Ross Perot مطارا فى تكساس سيتم تزويده بتجهيزات صناعية متقدمة • وتتلخص فكرته فى أن تهبط الطائرات نهارا أو ليلا حاملة معها مكونات تستخدم فى تصنيع منتجات نهائية خلال ليلة واحدة ، أو أن يتم تجميعها فى المنشآت الواقعة فى محيط المطار ، بحيث تستطيع الطائرات الاقلاع مرة أخرى بحمولتها من المنتجات صباح اليوم التالى الى أركان العالم الأربعة •

وفى الوقت نفسه ، تستثمر الاقتصادات المتقدمة مليارات من الدولارات لاقامة البنية التحتية الالكترونية التى لا غنى عنها لعمليات اقتصاد فائق السرعة •

ويتقدم انتشار وامتداد الشبكات الذكية بخطى واسعة ، والمطلوب حاليا هو خلق شبكات متخصصة من الألياف الضوئية بسرعة أكبر لربط أجهزة السوبر كمبيوتر على امتداد الولايات المتحدة بآلاف المعامل ومجموعات البحث ، (الشبكات القائمة التى تحمل ١٫٥ مليون بيت فى الثانية ، تعتبر بطيئة للغاية • أما الشبكات الجديدة فسترسل ٣ مليارات بيت فى الثانية ـ أى ٣ « جيجابيت » ـ على امتداد الولايات المتحدة) •

ويقول المدافعون عن هذه الشبكة الجديدة انها ضرورية ، طالما أن الشبكات القائمة أصبحت مشبعة • ويطالبون بأن يحصل المشروع على دعم الحكومة لأنه يستحق ذلك ـ على حد قولهم ـ نظرا لأنه سيساعد

الولايات المتحدة ، التى تحتل الصدارة فى هذا المجال ، على الاحتفاظ بتقدمها على أوروبا واليابان •

ان الأمر لا يتعلق بأصوات معزولة ، وانما يؤكد هذا المطلب ميتش كابور ، مؤسس شركة لوتس عملاق برامج الكمبيوتر ، اذ يقول : « اننا نحتاج الى بناء بنية تحتية قوية ، ستكون فى مجال المعلومات بمثابة المكافىء لبناء الطرق السريعة خلال الخمسينات والستينات » • وقد يكون التماثل أوضح اذا قارنا البنية التحتية الالكترونية للاتصالات اللاسلكية الآن بشبكات الطرق والسكك الحديدية فى بداية الثورة الصناعية •

نحن اذن ، نشهد بزوغ نظام عصبى الكترونى متكيف مع الشكل الجديد للاقتصاد ، وبغير هذا النظام سيحكم على أى بلد ، مهما كان عدد مصانعه ، بالتخلف •

هوة الكترونية واقليات ديناميكية :

تنبع السلطة فى البلدان الأقل تقدما اقتصاديا – كما فى باقى العالم – من فوهة المسدس وحافظات النقود والكتب ، أو من أجهزة الكمبيوتر حاليا •

واذا كنا لا نريد عالما فوضويا مزدحما بمليارات الفقراء ، وتحكمه حكومات غير مستقرة يقودها قادة لا يخضعون لسيطرة ، ومستعدون لشن حرب نووية أو كيميائية أو بكتريولوجية فى أية لحظة ، فاننا نحتاج الى استراتيجيات عالمية كفيلة بأن تمنع تزايد عمق الهوة التى تهددنا •

وطبقا لدراسة قام بها خبراء أمريكيون بعنوان « متطلبات المخابرات لعقد التسعينات » ، فان الدول الأقل تقدما اقتصاديا ستحصل خلال العقد القادم على أسلحة جديدة متطورة ، وستستكمل ترسانتها بقوة ضاربة ضخمة •

لماذا ؟

لأنه كلما تناقصت القوة الاقتصادية للدول الأقل تقدما اقتصاديا فسيواجه قادة هذه الدول معارضة سياسية ، ويغدو بالتالى وضعهم مزعزعا للغاية • ومن المرجح ، فى مثل هذه الظروف أن يتصرفوا كما فعل الحكام دائما منذ فجر التاريخ ، أى أن يتزودوا بأكثر أشكال السلطة بدائية ، ألا وهى القوة المسلحة •

اذن ، ما ينقص الدول الأقل تقدما اقتصاديا وبشكل حاد هو المعرفة الملائمة اقتصاديا • ان طريق التنمية والقوة الاقتصادية فى القرن الواحد والعشرين لم يعد يمر باستغلال المواد الأولية وقوة العمل ولكن ـ كما سبق أن رأينا ـ بأداء وانجازات العقل البشرى •

فلا معنى لاستراتيجيات التنمية اذا لم نأخذ فى الحسبان الدور الجديد للمعرفة فى خلق الثروة وضرورة التسارع التى تصاحبه •

ونظرا لأن المعرفة (التى تتضمن فى تعريفنا مفاهيم مثل الخيال والقيم والصور والحافز ، كما تتضمن وبالقدر نفسه المهارات التقنية من حيث كونها كذلك) تلعب بشكل متزايد دورا مركزيا فى الاقتصاد ، يتعين على البرازيليين والنيجيريين وهنود بنجلاديش وسكان هايتى أن يفكروا فى أفضل طريقة لامتلاك هذه الموارد ، أو أن يولدوها بأنفسهم •

ومن الواضح أن كل طفل يحكم عليه بحياة الفقر فى العالم الثالث ، أو بالتخلف العقلى نتيجة لسوء التغذية يمثل خسارة لا تعوض بالنسبة للمستقبل • وسيكون من الضرورى تبنى أشكال جديدة للتعليم ذات طابع ثورى لاتعتمد على النماذج القديمة للعالم الصناعى •

ولا غنى عن اكتساب المعرفة الواردة من الخارج • وقد يكتسى هذا النشاط أشكالا غير تقليدية ـ بل وغير مشروعة أحيانا ، حيث تمثل سرقة الأسرار التكنولوجية تجارة مزدهرة بالفعل • ويتعين علينا أن نتوقع أن ينضم الى هذه التجارة بعض من يتميزون بالدهاء من مواطنى الدول الأقل تقدما اقتصاديا •

ويعد تنظيم هجرة « العقول » طريقة أخرى للحصول على المعرفة والمهارة • ان هذه الهجرة يمكن أن تتم بأعداد صغيرة ، وذلك بشراء أو جذب فرق الباحثين • ولكن أدرك من هم أكثر ذكاء أنه يوجد فى جميع أنحاء العالم أقليات ديناميكية ـ غالبا ما تكون جماعات مضطهدة ـ قادرة على انعاش وتنشيط اقتصاد ما اذا ما توفرت لهم الوسائل • وهكذا لعب الصينيون فى جنوب شرق آسيا ، والهنود فى شرق أفريقيا ، والسوريون فى غربها ، والفلسطينيون فى بعض مناطق الشرق الأوسط ، واليهود فى أمريكا واليابانيون فى البرازيل ، هذا الدور ، فى فترة أو أخرى •

ان زرع هذه الأقليات فى ثقافة مختلفة ، يجعل كل جماعة لا تكتفى بجلب طاقتها وديناميكيتها وتميزها التجارى أو التقنى ، لكن أيضا موقفها الايجابى تجاه المعرفة ـ حيث النهم لأحدث المعلومات والأفكار والمهارات الجديدة • وتحقق هذه الجماعات نوعا من القوة الاقتصادية الهجين فى

المجتمعات التى تعيش فيها . فهى تعمل بحمية وتبتكر وتزود أطفالها بالتعليم المناسب ، واذا ما جمعت ثروة أثناء مشوارها فانها تحفز ردود أفعال اقتصاد البلد المستقبل لها وتعمل على تسارعها . وسنرى بدون شك ، مختلف الدول الأقل تقدما اقتصاديا تضع يدها على مثل هذه الجماعات ، وتدعوها للاقامة داخل حدودها لكى تحقن اقتصادها بما يحتاجه من الأدرينالين . أيضا ، تشجع الحكومات الذكية نمو الجمعيات والمنظمات غير الحكومية ، لأن مثل هذه الجماعات تسارع انتشار المعلومات النافعة اقتصاديا عن طريق النشرات والاجتماعات والمؤتمرات والرحلات الى الخارج . فاتحادات التجار ومهندسى البتروكيمياء والعاملين والمبرمجين ونقابات العمال والمصرفيين والصحفيين .. الخ ، توجه التبادل السريع للمعلومات عن الايجابيات والسلبيات فى قطاعاتهم المختلفة . ورغم أن هذه التجمعات تمثل وسيلة اتصال مهمة الا أنه غالبا للأسف ما يتم اهمالها .

كما يتعين على الحكومة التى تتناول بجدية ظروف التنمية لديها ، أن تعترف بالمعنى الاقتصادى الجديد لحرية التعبير . ان رفض السماح بتبادل وانتقال الأفكار الجديدة ـ بما فى ذلك الأفكار الاقتصادية والسياسية حتى وان كانت لا تجامل القيادات والحكام ـ يعد دائما علامة على ضعف الدولة . ومعنى ذلك ، أن من بيدهم السلطة يعتبرون موقعهم أهم بكثير من تحسين ظروف حياة مواطنيهم . ان الحكومات التى اختارت أن تكون جزءا لا يتجزأ من العالم الجديد ستفتح بشكل مطلق صمامات الحوار العام .

وستنضم حكومات أخرى الى « كونسرتيوم المعرفة » ـ وهو شكل من أشكال الشراكة مع بلدان أخرى أو شركات ذات أبعاد عالمية ـ لاستكشاف مردوذات العلم والتكنولوجيا ، وبشكل خاص امكانية خلق مواد جديدة .

وبدلا من الاستسلام لمفاهيم قومية بالية ، فان هذه الحكومات ستتابع بشغف ـ ولكن بذكاء ـ مصلحتها الوطنية الخاصة . وبدلا من رفض دفع الجعالة لمعامل الأدوية الأجنبية بدعوى متغطرسة أن الصحة فوق هذه الاعتبارات الفظة ، كما فعلت البرازيل ، فانها ستدفعها عن طيب خاطر ـ طالما أن هذه النقود ستبقى داخل البلد لعدد متفق عليه من السنين ، وسيتم استخدامها فى مشروعات بحثية بالتعاون مع خبراء معامل هذا البلد . ويمكن فى هذه الحالة ، اقتسام الأرباح التى حققها الانتاج الناجم من هذا البحث المشترك بين البلد المضيف والشركة الأجنبية متعددة

الجنسية • وبهذه الطريقة ستمول الجمالات انتقال التكنولوجيا والتكنولوجيا ذاتها • وعندئذ يحل شعور قومي فعال ، محل شعور قومي مدمر للذات ولا يخلو من مغالطات تاريخية •

كما أن الحكومات الذكية ستستقبل آخر ابتكارات الاعلاماتية دون اهتمام بمعرفة من الذى أنتجها ، وذلك بدلا من محاولة اقامة الصناعة الإعلاماتية الخاصة بها ، وراء حواجز جمركية لا تمنع فقط دخول المنتجات الجديدة ، لكنها تمنع أيضا دخول المعرفة المتقدمة •

ان الصناعة الاعلاماتية تتطور بسرعة كبيرة على مستوى الكرة الأرضية ، بحيث لا يستطيع أى بلد ، ولا حتى الولايات المتحدة أو اليابان، أن تبقى فى السباق بدون مساعدة الآخرين •

لقد نجحت البرازيل بالطبع فى اقامة صناعتها الاعلاماتية ، فيما عدا بعض أجهزة الكمبيوتر والبرامج الهامشية • ولكن بالمقارنة بما يتم فى الخارج ، فان منتجاتها لم تعد حديثة • بمعنى آخر ، تستخدم البنوك والصناعيون ورجال الأعمال البرازيليون تقنيات غير فعالة مقارنة بتقنيات منافسيهم الأجانب • أى أنهم يدخلون حلبة المنافسة وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم • لذلك خسرت البرازيل حيث تصورت أنها حققت انتصارا •

لقد خالف هذا البلد القاعدة الأولى للنظام الجديد لخلق الثروة ، ألا وهى : « افعلوا ما تريدون مع الصناعات التى تتطور ببطء ، لكن ابتعدوا عن طريق صناعة فى حالة تطور سريع » • وفى هذه الحالة يتعلق الأمر بصناعة تعالج أهم الموارد ، وهى المعرفة !

وستتفادى بعض البلدان الأقل تقدما اقتصاديا هذه الأخطاء • بل يمكن الذهاب الى حد التفكير فى أن بعض هذه البلدان ، سيستثمر بشكل متواضع فى صناديق الايداع ذات المخاطر ، الموجودة فى الولايات المتحدة أو فى أوروبا أو اليابان ، شريطة أن يرافق فنيوهم وعلماؤهم وطلابهم هذا الاستثمار ، وأن يتمكنوا من التدريب على المهارة والتقنية التى تملكها المجتمعات المتقدمة • وبهذه الطريقة ، يستطيع البرازيليون أو الأندونيسيون أو النيجيريون أو المصريون أن يحتلوا المواقع المتقدمة فى صناعات الغد • واذا تمت ادارة مثل هذه البرنامج بذكاء ، فمن الممكن أن يقوم بتمويل نفسه ذاتيا بل وتحقيق مكاسب أيضا •

بالاضافة الى ذلك ، ستتناول الدول الأقل تقدما اقتصاديا دور ومكانة الزراعة بطريقة جديدة جذريا ، باعتبارها قطاعا يمكن تحديثه بفضل أقمار الأرصاد والاعلاماتية والبيولوجية الوراثية وكل التكنولوجيات

الجديدة الأخرى ، بحيث تصبح مشاركة الزراعة فى التقدم أكبر بكثير من كل المصانع والمناجم الموجودة على امتداد العالم ، بدلا من اعتبارها قطاعا اقتصاديا « متخلفا » بالضرورة · ان الزراعة القائمة على المعرفة يمكن أن تصبح غدا طليعة التقدم الاقتصادى ·

ومن ناحية أخرى ، لن تكتفى الزراعة بانتاج المواد الغذائية ، لكنها ستساهم فى زيادة انتاج مصادر الطاقة ، ومواد أولية ستفتح الطريق لانتاج مواد جديدة ·

وتلك مجرد بضعة مجالات قد يتم استكشافها فى السنوات القادمة ·

غير أن هذه الجهود ، لن تؤتى ثمارها اذا لم يصبح البلد المعنى جزءا لا يتجزأ من الاقتصاد العالمى ، ذى الايقاع السريع وشبكة الاتصالات اللاسلكية والمعلوماتية التى يعتمد عليها هذا الاقتصاد ·

ان سوء توزيع الاتصالات اللاسلكية فى عالم اليوم أكثر خطورة ومأساوية من سوء توزيع المواد الغذائية · اذ تستحوذ تسع دول فقط على ٤٥٠ مليون جهاز هاتف من ٦٠٠ مليون جهاز موزعين على كوكب الأرض · كما أن التوزيع غير المتوازن لأجهزة الكمبيوتر وقواعد البيانات والمطبوعات التقنية والميزانيات المخصصة للبحث العلمى ، يكشف المستقبل المحتمل للأمم ، بدرجة أكثر بكثير من كل الأرقام الخاصة باجمالى الناتج القومى التى يمدنا بها الاقتصاديون ·

ولكى تواكب بلدان مثل الصين والبرازيل والمكسيك وأندونيسيا والهند ، وكذلك الاتحاد السوفيتى وبلدان شرق أوروبا ، الاقتصاد العالمى الجديد ، يتعين عليها أن تجد الموارد اللازمة لاقامة البنية التحتية الالكترونية الخاصة بها · الا أن الأمر لا يقتصر على اقامة خدمات هاتفية بسيطة ، وانما يشمل أيضا نظما حديثة وفائقة السرعة لنقل البيانات ، وقادرة على الارتباط بأحدث الشبكات ·

ولحسن حظ البلدان البطيئة ، أن لديها حاليا امكانية قفز مرحلة كاملة من تطور هذه البنية التحتية ، والانتقال بقفزة واحدة من اتصالات الموجة الأولى الى اتصالات الموجة الثالثة ، دون اضطرار الى استثمار المبالغ الضخمة اللازمة لاعداد شبكات ونظم الموجة الثانية ·

ان نظام Iridium مثلا الذى أعلنت عنه شركة موتورولا ، سيضع ٧٧ قمرا صناعيا صغيرا فى مدار منخفض ، مما يسمح للملايين من قاطنى المناطق النائية وذات الكثافة السكانية الضعيفة — مثل المناطق القطبية

فى الاتحاد السوفيتى أو الصحراء الصينية أو المناطق الداخلية من أفريقيا - أن يرسلوا ويستقبلوا الصوت والبيانات والصور الرقمية بواسطة هواتف يدوية ·

ولن يحتاج الأمر الى مد كابلات من النحاس أو حتى من الألياف الضوئية على امتداد آلاف الكيلومترات عبر الأدغال أو الجليد أو الرمال ، اذ ستتصل الهواتف المتنقلة مباشرة مع أقرب قمر لها ، والذى سيتولى بث الرسائل · كما ستعمل أوجه تقدم أخرى على خفض التكلفة شديدة الارتفاع للاتصالات اللاسلكية لتصبح فى متناول الدول الأكثر فقرا الآن · وسيساهم الانتاج الكبير والمنافسة الفائقة بين الموردين الأمريكيين واليابانيين والأوروبيين فى خفض الأسعار ·

ان المفتاح الجديد للتنمية والتطور الاقتصادى واضح : فالهوة التى يتعين سدها ذات طبيعة الكترونية واعلامانية · ولا يتعلق الأمر هنا بهوة بين الشمال والجنوب ولكن بتغيير الطور بين المسرعين والمبطئين ·

الفصل الحادى والثلاثون

صـدمة الاشتراكية مع المستقبل

ان الاختفـاء المذهل للاشتراكية فى أوروبا الشرقية والذى حدث على خلفية أليمة من اراقة الدماء فى بوخارست وباكو وبكين ، لم يكن ثمرة الصدفـة •

لقد دخلت الاشتراكية فى تصادم مع المستقبل •

ولم تنهر النظم الاشتراكية نتيجة مؤامرات دبرتها المخابرات المركزية الأمريكية أو حصار رأسمالى أو اختناق اقتصادى خارجى • لقد سقطت الحكومات الشيوعية فى أوروبا الشرقية بمجرد أن أعلنت موسكو أنها لن ترسل قوات لحماية هذه الحكومات من شعوبها • الا أن أزمة الاشتراكية كنظام فى الاتحاد السوفيتى والصين وأماكن أخرى لها جذور أكثر عمقا •

فكما أدى اختراع جوتنبرج للطباعة بواسطة حروف متحركة فى منتصف القرن الخامس عشر الى نشر المعرفة ، وحررها كما حرر الاتصالات من قبضة الكنيسة الكاثوليكية فى أوروبا الغربية ، فان ظهور الاعلاماتية وطرق الاتصال الجديدة فى منتصف القرن العشرين حطم سيطرة موسكو على الفكر فى البلدان التى كانت تحكمها أو تسيطر على السلطة فيها •

نقطـــة التصـــدع :

فى عـــام ١٩٥٦ ، كان الزعيم نيكيتا خروتشـوف يحلم « بدفن الغرب » • وفى ذلك العام نفسه ، ولسخرية التاريخ ، أصبح عدد « الياقات الزرقاء » فى الولايـات المتحدة ، ولأول مرة ، أقل من عدد المشتغلين فى مجال المعرفة والخدمات• وأعلن هذا التغيير الأفول القادم للحضارة المصنعية وظهور الاقتصاد فائق الرمزية •

ومن سخريات التاريخ أيضا ، اتهام الاقتصاديين الماركسيين (والعديد من الاقتصاديين التقليديين) العاملين الذهنيين بأنهم « غير منتجين » ،اذ أن هؤلاء العاملين « غير المنتجين » هم الذين أعطوا ، أكثر من غيرهم بدون شك ، دفعة خارقة للاقتصادات الغربية منذ منتصف الخمسينات ·

والآن ، فان الدول الرأسمالية ذات التكنولوجيا المتقدمة ، حتى مع كل « تناقضاتها » المزعومة التى لم تجد حلولا مرضية ، سبقت بمسافات كبيرة باقى العالم على الصعيد الاقتصادى ، لدرجة أن حلم خروتشوف أصبح مثيرا للشفقة · ان الرأسمالية القائمة على المعلوماتية هى التى أنجزت ، ما يطلق عليه الماركسيون ، « قفزة نوعية » وليست الاشتراكية المصنعية · وفى مواجهة امتداد وانتشار الثورة الحقيقية فى بلدان التكنولوجيا المتقدمة ، تحولت الدول الاشتراكية الى كتلة رجعية بشكل عميق يقودها شيوخ مشبعون بأيديولوجية القرن التاسع عشر · وكان ميخائيل جورباتشوف أول زعيم سوفيتى يعترف بهذه الحقيقة التاريخية ·

ففى خطاب له فى عام ١٩٨٩ ، أعلن : « لقد كنا تقريبا آخر من أدرك أن أفضل وسيلة للنجاح فى عصر علوم المعلومات هى المعرفة » ، وذلك بعد ظهور النظام الجديد لخلق الثروة فى الولايات المتحدة بحوالى ثلاثين عاما ·

لم يصل جورباتشوف الى قمة السلطة لكونه شخصا غير عادى أو فذا ، لكنه وصل اليها كممثل لطبقة جديدة من المواطنين السوفيت يتمتعون بمستوى تعليم أفضل وينتمون ، لدرجة كبيرة ، الى « الياقات البيضاء » ـ وهى الجماعة التى كان القادة السابقون يحتقرونها بالذات ، كما أنها الجماعة المرتبطة ارتباطا وثيقا بالانتاج الرمزى ·

لقد عرف ماركس شخصيا الظرف الثورى حين قال ان هذا الظرف يظهر عندما تحد « علاقات الانتاج » (بمعنى طبيعة ملكية الانتاج والسيطرة عليه) من التقدم فى تطوير « وسائل الانتاج » (التكنولوجيا تقريبا) ·

ان هذه الصيغة تصف تماما أزمة العالم الاشتراكى · فكما أعاقت « علاقات الانتاج » الاقطاعية النمو والتطور الصناعى ، فان « علاقات الانتاج » الاشتراكية منعت البلدان المسماة اشتراكية من الاستفادة من النظام الجديد لخلق الثروة القائم على المعلوماتية والاتصال ، وفوق كل شىء وقبله ، على حرية الوصول الى المعلومات · ان الخطأ الأكبر المرتبط بتجربة الأمة الاشتراكية الكبيرة فى القرن العشرين ، يكمن فى الأفكار التى تنادى بها عن المعرفة والتى تجاوزها الزمن ·

آلة ما قبل السبرنطيقا :

فيما عدا بعض الاستثناءات ، لم تحقق الاشتراكية الوفرة أو المساواة أو الحرية ، ولكنها حققت نظام الحزب الواحد وبيروقراطية وفيرة وشرطة سرية بليدة وسيطرة حكومية على وسائل الاعلام ، كما أدت الى السرية وقمع الحرية الثقافية والفنية ٠

وبغض النظر عن أنهار الدم التى سالت من أجل اقامة النظام الاشتراكى ، فان نظرة سريعة عليه تكشف أن كل عنصر من عناصره ليس فقط طريقة لتنظيم حياة الأفراد ، وانما طريقة لتنظيم وتوجيه المعرفة والسيطرة عليها بشكل أعمق بكثير ٠

ان وظيفة أى نظام سياسى ذى حزب واحد هى السيطرة على الاتصال السياسى ٠ ونظرا لعدم وجود أى حزب آخر ، فانه يقيد تنوع المعلومات السياسية التى تتداول فى المجتمع حائلا بذلك دون حدوث رد فعل ارتجاعى ، ومضللا من بيدهم السلطة عن تعقيد وتركيب المشكلات ٠ وعندئذ يصعب للغاية أن يرصد النظام الأخطاء ويصححها طالما أن المعلومات ـ المتطابقة تماما ـ تصعد من القاعدة الى القمة عن طريق القنوات المسموح بها فقط ، كما تنزل الأوامر عن طريق القنوات نفسها ٠

وكانت السيطرة من أعلى الى أسفل السارية فى الدول الاشتراكية ، تعتمد على الكذب وتشويه الحقائق طالما أن نقل أنباء سيئة يكون أمرا محفوفا بالمخاطر ٠ ان الحكم طبقا لنظام الحزب الواحد يعنى فى الواقع اتخاذ كل القرارات فى مجال المعرفة ٠

والبيروقراطية المفرطة التى أقامتها الاشتراكية فى كل مجالات الحياة ، كانت هى أيضا ـ كما سبق أن رأينا فى الفصل الخامس عشر ـ وسيلة للحد من المعرفة ٠ فهى تحتجز المعرفة فى خانات مسبقة التحديد وتقصر الاتصال على « القنوات الرسمية » ، مع جعل الاتصال والتنظيم غير الرسمى أمرا غير مشروع ٠

وتشكل الشرطة السرية ووضع يد الدولة على وسائل الاعلام وتهديد المثقفين وقمع الحرية الفنية ، محاولات أخرى للحد من المعلومات والسيطرة عليها ٠

وترتكز كل هذه العناصر على مسلمة واحدة وحيدة عن المعرفة عفا عليها الزمن ٠ وهى مسلمة توحى بالاعتقاد الوقح القائل بأن من بيدهم السلطة ـ سواء أكانوا ينتمون للحزب أم للدولة ـ يعرفون ما يتعين أن يعرفه الآخرون ٠

وتنبع هذه الخواص المشتركة لكل البلدان الاشتراكية من مفهوم الآلة السابقة للسبرنطيقا الذى طبق على المجتمع والحياة ، وحققت هذه الخواص حماقة واضحة فى مجال الاقتصاد . ان آلات الموجة الثانية ــ مثل تلك التى كانت تشكل جزءا من عالم ماركس فى القرن التاسع عشر ــ تعمل فى الغالب بدون أى رد فعل ارتجاعى ، اذ يكفى توصيلها بمصدر كهربى وتشغيل محركها لكى تدور دون أن تأخذ فى الاعتبار ما يدور فى بيئتها الخارجية .

وفى المقابل ، فان آلات الموجة الثالثة ذكية . فهى مزودة بمجسات تلتقط المعلومات عن البيئة المحيطة وترصد التغيرات وتتكيف طبقا لذلك ، أي أنها ذاتيــة الضبط والتنظيم . ومن ثم يمكن القول ان هــذا الفرق التكنولوجى فرق ثورى .

عندما كان ماركس وانجلز ولينين يهاجمون بعنف فلسفة « المادية الميكانيكية » ، كان فكرهم ذاته ، مجسدا عصرهم ، لا يزال مشبعا ببعض أشكال التماثل والفرضيات القائمة على آلات لا تتمتع بالذكاء .

وهكذا ، كان صراع الطبقــات يمثــل « قاطرة التاريـخ » بالنسبة للاشتراكيين الماركسيين . وكان وضــع اليد على « آلة الدولة » احدى المهام الرئيسية . والمجتمع ذاته ، الذى يماثل الآلة ، يمكن برمجته بشكل مسبق لكى ينشر ويوزع الوفرة والحرية . وباستيلاء لينين على السلطة فى روسيا فى عام ١٩١٧ ، أصبح الميكانيكى الأعلى .

لقد فهم لينين كمثقف نابغة أهمية الأفكار . الا أنه كان يعتقد أن الانتاج الرمزى ــ والعقل ذاته ــ يمكن برمجته أيضا . وحيث كان ماركس يتكلم عن الحرية ، أخذ لينين على عاتقه ، باستيلائه على السلطة ، توجيه المعرفة . لذلك أصر على أن يكون الفن والثقافة والعلم والصحافة وكل نشاط رمزى بشكل عام فى خدمة استراتيجية كلية . على أن يتم فى الوقت المحدد تنظيم مختلف فروع التعليم فى « أكاديمية » مقسـمة الى أقسام ومزودة بدرجـات بيروقراطية محـددة وتخضــع جميعها للحزب ولسيطرة الدولة . ويعمل « العمال الثقافيون » فى مؤسسات تسيطر عليها وزارة الثقافة وتكون الاذاعة ووســائل النشر احتكارا للدولة ، وتصبح المعرفة ترسا فى آلتها .

ان هذا التنــاول الضيق للمعرفة ، المتنــاقض تماما مع المبــادىء الضرورية لأى تقدم اقتصادى فى عصر المعلوماتية ، شل أى تطور حتى فى الاقتصادات المصنعية ذات المستوى المنخفض .

تنـاقض الملكية :

يشكل الانتشار الحالى لنظام خلق الثروة الخاص بالموجة الثالثة ، تحديا للأعمدة الثلاثة للعقيدة الاشتراكية ٠
ولنأخذ مثـال الملكية ٠

لقد اتهم الاشتراكيون دائما الملكية الخاصة لوسائل الانتاج بأنها أصل الفقر والكساد والبطالة وسيئات التصنيع الأخرى ٠ والحل الوحيد لهذه المشكلات هو منح المصانع للعمال سواء من خلال الدولة أم عن طريق شركات جماعية ٠

وعند بلوغ هذه المرحلة ستختلف الأمور ٠ لن يكون هناك فوضى تنافسية وانما تخطيط عقلانى تماما ، وانتاج موجه نحو المنفعة بدلا من الربح ، واستثمار ذكى يستهدف تقدم الاقتصاد ٠ ولأول مرة فى التاريخ سيتحقق أخيرا حلم الوفرة للجميع ٠

وعندما تمت صياغة هذه الأفكار فى القرن التـاسع عشر ، كانت تبدو وكأنها تجسد المعرفة العلمية الأكثر تقدما ٠ وكان الماركسيون يدعون بالفعل أنهـم ذهبوا الى أبعد من المثاليين الطوبـائيين ، لقد وصلوا الى « اشتراكية علمية » حقيقية ٠ كان الطوبائيون يحلمون بوحدات تعاونية زراعية مستقلة ، فى حين كان الاشتراكيون العلميون يعرفون أن مثل هذه المفاهيم غير قابلة للتطبيق فى مجتمع مصنعى فى حالة نمو وتطور ٠ واذا كان أمثـال شارل فورنيه من الطوبائيين يتجهون نحـو الماضى الزراعى ، فان الاشتراكين العلميين كانوا يتجهون نحو ما كان يمثل حينذاك المستقبل الصناعى ٠

وهكذا ، عندما جربت النظـم الاشتراكية بعد ذلك التعاونيـات والادارة العمالية والتأميم وحلولا أخرى مماثلة ، أصبحت اشتراكية الدولة هى الشكل الغالب للملكية فى كل العالم الاشتراكى ٠ لقد امتدت سلطة الدولة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية قاطبة ، من البنوك الى الحانات ومن مصانع الصلب والتعدين الى المطاعم ٠ (كان هاجس ملكية الدولة كاملا لدرجة أن نيكاراجوا ، التى دخلت متأخرة الى العالم الاشتراكى فتحت ملهى ليليا ملكا للدولة !) ٠ فى كل مكان ، أصبحت الدولة ــ وليس العمال ــ هى المستفيد الرئيسى من الثورة الاشتراكية ٠

ولم تتمكن الاشتراكية من الوفاء بوعدها فيما يتعلق بتحقيق تحسين جذرى لظروف الحياة المادية للمواطنين ٠

وعندما انخفض مستوى المعيشة فى الاتحاد السوفيتى بعد الثورة ، نسبت هذه الظاهرة الى آثار الحرب العالمية الأولى والثورة المضادة ، وهو أمر لا يخلو من الحقيقة • وبعد ذلك ، ألقيت مسئولية العجز والنقص على الحصار الرأسمالى للدولة السوفيتية • وفيما بعد كانت الحرب العالمية الثانية هى المسئولة • ولكن بعد ثلاثين عاما من نهاية الحرب ، لا زالت المواد الغذائية الأساسية مثل البن والبرتقال ناقصة فى موسكو • وخلال الفترة التى سبقت البروسترويكا ، كان الغذاء الرئيسى لباحث يعمل فى معهد تابع للدولة فى موسكو عبارة عن خرشوف وبطاطس • وفى عام ١٩٨٩ ، أى بعد مرور أربع سنوات ، على بداية محاولة الاصلاح التى قام بها جورباتشوف ، كان الاتحاد السوفيتى يستورد سنويا ٦٠٠ مليون موسى حلاقة و ٤٠ مليون أنبوب معجون حلاقة •

والغريب ، أن الاشتراكيين التقليديين ـ وان كان عددهم فى تناقص ـ لا يزالون يطالبون بتأميم الصناعة وقطاع المال • فمن البرازيل الى بيرو مرورا بجنوب أفريقيا ، بل وفى البلدان الغربية الصناعية ، لا يزال هناك اشتراكيون يعتبرون « الادارة العامة » للبلاد موقفا تقدميا بالرغم من البراهين المضادة التى لقنها التاريخ ، ويرفضون قبول الغاء التأميم أو خصخصة الاقتصاد •

ان الاقتصاد العالمى الذى يتزايد تحريره وتحتفل به الشركات الكبرى المتعددة الجنسية بلا تبصر ، يظل اقتصادا غير مستقر وقد ينهار كقصر من ورق • فالديون الضخمة التى يستند عليها هذا الاقتصاد أشبه ببالون قد ينفجر بين يوم وليلة • كما قد تؤدى الحروب ، خلال العقود القادمة ، أو الانقطاع المفاجئ لامدادات الطاقة أو لأى موارد أخرى ، أو أى كارثة ، الى انهياره • ومن الممكن فى حالة حدوث كارثة ، تصور أنه من الضرورى أن تجرى بلا ابطاء عمليات تأميم مؤقتة •

الا أن العديد من الشواهد الدامغة ، تثبت أن سوء معاملة الشركات المؤممة لعامليها وللجمهور العريض وتلويثها للبيئة لا يقل عن الشركات الخاصة • وأصبح العديد من هذه الشركات غيلان فساد وجشع وعدم كفاءة • كما أن فشلها يشجع ، فى كثير من الأحيان ، على خلق سوق سوداء واسعة تقوض شرعية الدولة ذاتها •

ومن سخرية القدر أن الشركات المؤممة ، بدلا من أن تحتل طليعة التقدم التكنولوجى ، فانها كلها تقريبا رجعية •

فهى أكثر الشركات بيروقراطية ، وأبطؤها فى اعادة تنظيم نفسها ، والأقل استعدادا للتكيف مع احتياجات المستهلك المتغيرة ، وأكثرها خوفا من فكرة تقديم المعلومات للمواطنين ، وآخر من يتبنى التقنيات الجديدة ٠

وطوال قرن أو يزيد ، شكلت قضية الملكية الخاصة والملكية العامة نقطة مواجهة بين الاشتراكيين والمدافعين عن الرأسمالية ٠ وكرس مئات من الرجال والنساء حياتهم فعليا لهذه المعركة ٠ الا أن الذى لم يفكر فيه الفريقان أن نظاما جديدا لخلق الثروة قد يحيل كل حججهم تقريبا الى شىء قد عفا عليه الزمن ٠

وذلك ما حدث بالفعل ٠ ان أهم شكل من أشكال الملكية أصبح اليوم غير محسوس أو ملموس ، فهو فائق الرمزية ويسمى المعرفة ٠ ويستطيع عدة أشخاص استخدام ذات المعرفة فى وقت واحد لخلق الثروة وانتاج مزيد من المعرفة ٠ وعلى نقيض المصانع والمزارع ، فان المعرفة غير قابلة للنضوب ٠ ولم تنجح النظم الاشتراكية أو الاشتراكيون بشكل عام فى استيعاب هذه الظاهرة الثورية حقا ٠

كم عدد البراغى « يسارية اللولبة » ؟ :

كان التخطيط المركزى العمود الثانى لكاتدرائية النظرية الاشتراكية٠ فبدلا من ترك « فوضى » السوق تحدد الاقتصاد سيقوم التخطيط الذكى من أعلى الى أسفل ، بتركيز الموارد على قطاعات رئيسية والعمل على تسارع التطور التكنولوجى ٠

الا أن هذا التخطيط يعتمد على المعرفة ٠ ولقد وصف عالم الاقتصاد النمساوى لودفيج فون ميزس ، فى العشرينات من هذا القرن ، المعرفة غير المتوفرة لهذا التخطيط ـ أو طبقا لكلماته ذاتها « مشكلة الحساب » الخاصة بها ـ بأنها نقطة ضعف الاشتراكية ٠

كم حذاء يتعـين على مصـنع فى Irkoutsk أن ينتجها ؟ وما هى مقاساتها ؟ وكم عدد البراغى يسارية اللولبة أو ما نوع الورق ؟ وما هى النسبة التى يتعين تحديدها بين سعر الوقود والخيار ؟ وكم من الروبلات أو الزلوتيات أو الينات يجب استثمارها فى كل قطاع انتاج ، والبالـغ عددها ١٠ آلاف قطاع ؟

تتطلب الاجابة على هذه الأسئلة ، حتى فى اقتصاد بدائى ، كم معرفة أكبر مما يسـتطيع المخططون المركزيون أن يجمعوه أو يحللوه ، خاصة عندما يكون المديرون يخفون باستمرار حقائق الانتـاج الحقيقى تفاديـا

للمشكلات . وهكذا تكدست فى المخازن أحذية لا يريد أحد شراءها . وأصبح النقص فى السلع والخدمات والسوق السوداء مشكلات مزمنة فى أغلب الاقتصادات الاشتراكية .

وكانت أجيال من المخططين الاشتراكيين الذين يتميزون بالدقة يشدون شعورهم أمام هذه الصعوبة . كانوا يطالبون بمزيد من البيانات ويحصلون على المزيد من الأكاذيب ، ويقومون بتدعيم البيروقراطية . ولأنهم لا يستطيعون اللجوء الى مؤشرات العرض والطلب التى تولدها سوق تنافسية ، حاولوا قياس الاقتصاد بمقياس عدد ساعات العمل ، أو باحصاء الأشياء طبقا لكونها كذلك وليس لما تمثله من قيمة . ثم جربوا بعد ذلك نموذج الاقتصاد الرياضى وتحليل المدخلات والمخرجات .

ولم يعد هناك شىء يسير كما ينبغى ، فكلما زادت كمية المعلومات لديهم بات الاقتصاد معقدا وغير منظم . وبعد ٧٥ سنة من الثورة الروسية ، أصبح الرمز الحقيقى للاتحاد السوفيتى هو الطوابير أمام المجلات وليس المطرقة والمنجل .

ويتسابق الجميع الآن فى كل العالم الاشتراكى الحالى والسابق لادخال اقتصاد السوق ، بشكل شامل كما فى بولندا ، أو على استحياء داخل نظام مخطط كما فى الاتحاد السوفيتى . وحاليا يعترف الاصلاحيون الاشتراكيون بالاجماع ، بأن ترك العرض والطلب يحدد الأسعار — على الأقل فى بعض المجالات — يوفر ما لا تستطيع الخطة المركزية تأمينه ، ألا وهو المؤشرات التى توضح ما يحتاجه الاقتصاد ويطالب به .

ولكن عندما يناقش الاقتصاديون ضرورة استخدام هذه المؤشرات ، فانهم يهملون التغيير الأساسى الذى يستتبعه ذلك فى نظام الاتصال والعمليات الضخمة لانتقال السلطة الناجمة عنه . اذ يكمن الفرق الأساسى بين الاقتصاد المخطط واقتصاد السوق فى حقيقة أن المعلومات ، فى ظل النظام الأول ، تنتقل رأسيا ، فى حين ينتقل كم أكبر من المعلومات أفقيا أو قطريا داخل النظام الثانى ، حيث يتبادل البائعون والمشترون المعلومات على جميع المستويات وفى كل الاتجاهات .

ان هذا التغيير لا يهدد كبار موظفى التخطيط أو القادة فقط ، ولكن الملايين من صغار البيروقراطيين الذين كان مصدر سلطتهم الوحيد يعتمد على السيطرة على المعلومات المتداولة على امتداد القناة الرسمية .

وان عجز نظام التخطيط المركزى عن مواجهة المستويات المرتفعة للمعلومات يحد من التعقيد الاقتصادى الضرورى للنمو .

وتتطلب الطرق الجديدة لخلق الثروة كما هائلا من المعرفة والمعلومات والاتصال يتجاوز قدرة الاقتصادات المخططة • وبالتالى اصطدم ظهور الاقتصاد فائق الرمزية بقاعدة العمود الثانى ذاتها للنظرية الاشتراكية •

مزبلة التاريخ :

ان تأكيد الاشتراكية الزائد على المعدات الميكانيكية ، وطريقتها فى التركيز على الصناعة واهمالها للزراعة والعمل الذهنى ، تشكل جميعا العمود الثالث الذى انهار •

ففى السنوات التى تلت ثورة ١٩١٧، لم يكن لدى السلطة السوفيتية الأموال اللازمة لبناء السدود ومصانع الصلب والسيارات التى كان الروس فى حاجة اليها • لذلك ، تبنى القادة السوفيت نظرية « التراكم الاشتراكى البدائى » التى صاغها الاقتصادى اى • ايه • بريو بريجنسكى • وطبقا لهذا المفكر ، يمكن عن طريق خفض مستوى معيشة الفلاحين بالقوة الى حد الكفاف الحصول على رأس المال اللازم ، على أن يستخدم الفائض الذى تم استخلاصه بهذه الطريقة لتغذية الصناعة الثقيلة ودفع أجور العمال •

ان نيكولاى بوخارين ، الزعيم البلشفيكى الذى دفع حياته ثمنا لبصيرته الثاقبة ، توقع — وعن حق — أن تؤدى هذه الاستراتيجية الى انهيار الزراعة • ولقد أدت هذه السياسة الى القمع القاتل لطبقة الفلاحين على يد ستالين ، لأن مثل هذا البرنامج كان لا يمكن تحقيقه الا بالقهر والقوة • ومات ملايين الرجال من الجوع أو من الاضطهاد والتعذيب •

ونجم عن هذا « الموقف المنحاز صناعيا » — على حد تعبير الصينيين — أن أصبحت الزراعة قطاعا منكوبا فى كل الاقتصادات الاشتراكية تقريبا • ويمكن التعبير عن هذا الموقف بشكل مختلف ، بأن الدول الاشتراكية طبقت استراتيجية الموجة الثانية على حساب أفراد الموجة الأولى •

ومن ناحية أخرى ، دأب الاشتراكيون على التقليل من شأن قطاع الخدمات والياقات البيضاء • ان رغبتهم فى أن تعبر الفنون عن « الواقعية الاشتراكية » بلوحاتها الجدارية التى تمثل عمالا أقويا يعملون فى مصانع الصلب ، ليست اتجاها عارضا • لقد تم ابراز العمل العضلى لأن التصنيع بخطوات متسارعة كان الهدف الأول للاشتراكية • وكان العمل الذهنى يناسب فقط الامعات غير المنتجين •

ويتفق هـذا الموقف الواسع الانتشار ، تماما مع الاهتمام المطلق بالانتاج بدلا من الاستهلاك ، وبالسلع الانتاجية على حساب السلع الاستهلاكية .

وبينما كان بعض الماركسيين ، خاصة انطونيو جرامسكى ، يطرحون للمناقشة هذا الموقف ، كما كان ماوتسى تونج يؤكد على ضرورة انتصار النقاء الأيديولوجى على العقبات المادية ، تركزت الفكرة الأساسية للنظم الماركسية فى اعلاء قيمة الانتاج المادى وتقليل قيمة المنتجات الذهنية .

ويساند الماركسيون المتشددون وجهة النظر المادية التى تعتبر أن الأفكار والمعلومات والفن والثقافة والقانون والنظريات وكل منتج ذهنى آخر غير ملموس ماديا ، عبارة عن مكونات « بنية فوقية معلقة » ، اذا جاز التعبير ، فوق « القاعدة » الاقتصادية للمجتمع . وبما أن هناك نوعا من التفاعل المتبادل بين الاثنين فان البنية التحتية هى التى تحدد البنية الفوقية وليس العكس . وكان من يجاهر برأى مضاد يعامل على أنه « مثالى » — وهو تصنيف خطير فى تلك الفترة .

لقد أشار ماركس ، بتأكيده على أسبقية المادية ، الى نقطة ضعف هيجل . ويكشف النظام الجديد لخلق الثروة بدوره نقطة ضعف ماركس أو بتعبير أدق نقطة ضعف ماركس وهيجل .

وكانت الآلات والمعدات ، بالنسبة للماركسيين ، ذات أهمية أكبر من نظم وبرامج التشغيل ، فى حين تعلمنا الثورة المعلوماتية الآن أن العكس هو الصحيح . ان المعرفة هى التى تقود الاقتصاد وليس الاقتصاد هو الذى يقود المعرفة .

ولكن المجتمعات ليست آلات ولا أجهزة كمبيوتر ، ولا يمكن اختزالها الى أجهزة ومعدات مادية وبرامج ونظم تشغيل ، أو الى « قاعدة » و « بنية فوقية » . قد يكون النموذج الأنسب هو وصفها بأنها تتكون من عدد كبير من العناصر المرتبطة فى عقد ذات تأثير ارتجاعى غاية فى التركيب وفى حالة تغير مستمر . وبمجرد تزايد هذا التعقيد والتركيب تصبح المعرفة أكثر حيوية للاقتصاد ولسلامة البيئة .

باختصار ، لقد بدا هذا الاقتصاد الجديد الذى يتميز بمواد أولية غير ملموسة فى الظهور فى مواجهة اشتراكية عالمية غير مستعدة له . وكانت صدمة الاشتراكية مع المستقبل قاتلة بالنسبة لها .

واذا كانت الاشتراكية التقليدية لا تصلح الا « لمزبلة التاريخ » ، فلا يعنى ذلك موت الأحلام الرائعة معها • ان الرغبة فى خلق عالم تسوده الوفرة والسلام والعدالة الاجتماعية ، ستظل دائما رغبة نبيلة ولا خلاف عليها • غير أن مثل هذا العالم لا يمكن أن يولد على قواعد بالية عفا عليها الزمن • انه أهم ثورة يشهدها كوكب الأرض الآن هى بروز حضارة الموجة الثالثة المزودة بنظام جديد تماما لخلق الثروة • وكل حركة لم تدرك بعد هذه الحقيقة محكوم عليها بتجدد فشلها واحباطاتها • وكل دولة تحتفظ بالمعرفة أسيرة تحبس مواطنيها فى ماض من الكوابيس •

الفصل الثانى والثلاثون

ســـلطة التـــوازن

ما كاد عصر تحول السلطة يبدأ حتى استحوذ عليه المستقبل • فمع تفكك الكتلة الشرقية والانقسامات المستمرة بين دول الجنوب وتزايد سلطة الغرب ـ أوروبا واليابان والولايات المتحدة ـ نشهد سلسلة من المؤتمرات والقمم والمحادثات الدبلوماسية التى تهدف كلها الى اقامة نظام جديد •

ولكن بالرغم من النصائح والارشادات والخطب ، سيعتمد المعمار الجديد للسلطة العالمية على طبيعة السلطة التى يستطيع كل واحد أن يضعها على المائدة ، سواء على الصعيد الكمى أم الكيفى ، أكثر من اعتماده على الكلمات •

هل تمثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أمجادا قديمة ؟ واذا كان الأمر كذلك ، كم عدد القوى العظمى الجديدة التى ستهب لكى تحل محلها ؟

يتحدث البعض عن عالم جديد متمحور حول أقطاب ثلاثة : أوروبا واليابان والولايات المتحدة • فى حين يتوقع آخرون أن يقسم العالم بين ست أو ثمانى كتل اقليميـــة ، ويعتقـد البعض الآخر أن القطبية الثنائية ستتحول الى نجمة خماسية الفروع تحتـل الصين أحد أطرافها والهند الطرف الآخر • هـل ستمتد أوروبا الجـديدة من الأطلنطى الى الحـدود السوفيتية أم ستتجاوزها ؟ لا أحد يستطيع أن يصدر حكما قاطعا على هذه الافتراضات ، الا أن معيار تحول السلطة قد يساعدنا على قدر أكبر من وضوح الرؤية •

كل هذه التساؤلات تذكرنا أنه اذا كان العديد من العوامل يدخل لعبة السلطة ، ابتداء من الاستقرار السياسى الى النمو الديموغرافى ، فان العنف والثروة والمعرفة تظل هى المصادر الثلاثة الرئيسية التى يشتق منها كل أشكال السلطة الأخرى ، وهذه العناصر فى حالة ثورة مستمرة • ولنأخذ العنف كمثال •

دمقرطة الموت :

بينما كانت القوتان العظميان تنهيان حالة الحرب بينهما كثر الكلام عن « التقدم الذى يحققه السلام » ، حتى ان العالم لم يل اهتماما بالدول الأخرى التى تريد ، على ما يبدو ، ملء الفراغ الناتج عن ذلك •

فعلى سبيل المثال ، تعد الهند ، بالرغم من ظاهرها السلمى ، أكبر مشتر للسلاح منذ عام ١٩٨٦ • فلقد قامت فى عام ١٩٨٧ بشراء عتاد عسكرى أكثر من ايران والعراق مجتمعين • وأثارت هذه السياسة غضب اليابان وادانتها مما كان له رد فعل حاد فى نيودلهى • وتملك الهند أسلحة نووية وتأمل أن تتمكن قريبا من بناء صاروخ نووى يصل مداه الى ألفى كيلو متر • كما تمكنت باكستان ، التى تملك كل امكانات انتاج السلاح النووى ، من بناء صاروخ قصير المدى ، بمساعدة الصين •

وطبقا لوليم ويبستر مدير المخابرات المركزية الأمريكية الأسبق فان أكثر من ١٥ دولة سوف تتمكن من انتاج الصواريخ الباليستية خلال فترة تقل عن عشر سنوات ، ويقع أغلب هذه الدول فى الشرق الأوسط ذى المخاطر العالية • ولقد اتفقت مصر والعراق والأرجنتين على تنفيذ مشروع لانتاج صواريخ •

وتخفى هذه البيانات العديد من السيناريوهات المخيفة • اذ تتركز الأسلحة النووية السوفيتية فى أذربيجان والجمهوريات الاسلامية الأخرى ، حيث تحتدم الصراعات العرقية ، حتى ان بعض المتخصصين يتصورون « سيناريو كارثة » حين تستولى احدى هذه الجمهوريات على السلاح النووى • ويتساءل أحد كبار المسئولين الأمريكيين بقلق عما سيحدث لو « أصبحت كازاخستان يوما رابع قوة نووية » •

ان هذه الأخطار كبيرة لدرجة ان موسكو بدأت تسحب أسلحتها من بلدان البلطيق • واعترف مسئول سوفيتى فى حديث مع المؤلف قائلا : « لقد كنت ضد مبادرة الدفاع الاستراتيجى (المعروفة باسم « حرب

النجوم ») لكننى غيرت رأيى الآن ، لانه اذا تفــكك الاتحاد السوفيتى فسيجد العــالم نفسه فى مواجهة عشرة كيانات قومية مزودة بالأسلحة النووية » ٠

وقد يعنى احتمال نشوب حرب أهلية فى الاتحاد السوفيتى أو فى بلدان أخرى ان تستحوذ القوات المتمردة على الأسلحة النووية ، أو ان تتصارع القوات الموالية للنظام القائم والقوات المتمردة من أجل الاستيلاء على جزء من الترسانة النووية ٠

ومن ناحية أخرى ، أخذت بعض الدول النــامية (وليست ليبيــا والعراق وحدهما المعنيين) تتسلح بمنشآت تستهدف انتاج أسلحة كيماوية وبكتريولوجية ، وهو ما يمثل تهديدا أكبر ٠ باختصار ، ان التوزيع الحالى للتسليح فى العالم - بدءا بالسلاح النووى - لم يعد مستقرا ولا ثابتا ٠

لقد كانت القدرة على العنف النووى ، التى تعد مصدرا لقوة أية دولة ، متمركزة فى أيدى بعض الدول ٠ أما الآن ، فقد بدأت تتوزع بشكل أكثر ديمقراطية ، وان كان أكثر اثارة للقلق أيضا ٠

بالاضافة الى ذلك ، طرأ تحول عميق على طبيعة العنف ذاتها ، حيث أصبحت أكثر اعتمادا ، وبشكل مطرد ، على التكنولوجيات المتقدمة مثل الميكروالكترونيات والضــوء والذكاء الاصــطناعى والأقمــار الصــناعية والاتصالات اللاسلكية وبرامج الكمبيوتر شديدة التطور الخاصة بالمحاكاة ٠ لقد كان تشغيل طائرة من طراز اف - ١٦ يتطلب برنامجا يتكون من ١٣٥ ألف سطر ، فى حين تحتاج الطائرات المقاتلة التكتيكية الفائقة الحداثة الى مليون سطر من هذه البرامــج ٠ ولا تجسد هذه الانقلابــات فى النظام العسكرى مجرد عمليات انتقال للسلطة ، وانما ثورة فى طبيعة لعبة الحرب ذاتها على صعيد العالم ٠

ولقد أثــار شينتارو اشــيهارا - وهو عضو ســابق فى الحكومة اليابان - عاصفة من الاستنكار فى واشنطن مؤخرا عندما نشر كتابا بعنوان: « اليابان التى تستطيع أن تقول لا » ، جمع فيه كلمات وخطبا كان قد القاها فى مناسبات مختلفة مع أكيو موريتا أحد مؤسسى شركة سونى ٠

وأكد اشــيهارا أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى سيحتاجان الى أشباه موصلات متطورة يابانية الصنع ، لزيادة دقة أسلحتهما النووية ٠

وقال مشيرا الى الولايات المتحدة : « انها حتى اذا استمرت فى مد نفوذها العسكرى فهى قد وصلت الى وضع يهدد باصابتها بشلل تام اذا أوقفت اليابان تزويدها بالمكونات الالكترونية اللازمة لأسلحتها · ولو قصرت اليابان بيع رقائقها الالكترونية على الاتحاد السوفيتى مثلا ، فان ذلك كفيل بقلب توازن القوى العسكرية رأسا على عقب· وفى هذه الحالة ، قد يقول بعض الأمريكيين انهم لن يترددوا عن غزو اليابان · لقد بلغنا سنا نستطيع معها مواجهة هذا الاحتمال » ·

ان ملحوظة اشيهارا تبرز تنامى تبعية العنف للمعرفة واعتماده عليها · وهو ما يجسد التطور التاريخى للسلطة حاليا ·

محيط راس المال :

كلما انتشر النظام الجديد لخلق الثروة على امتداد الكرة الأرضية تعرض أيضا العنصر الثانى من عناصر السلطة ، وهو الثروة ، لتحولات ـ كما سبق أن رأينا فى الفصول السابقة ·

فالشركات ، وهى تنتج وتوزع انتاجها فيما وراء الحدود الوطنية وتشترى شركات أجنبية وتنطلق بحثا عن موارد ذهنية فى جميع أنحاء العالم ، تحتاج الى العثور على مال طازج فى العديد من الدول ، والحصول على هذه الأموال بسرعة · ولذلك نشهد سباقا لتحرير سوق رؤوس الأموال ، حتى تستطيع الاستثمارات عبور الحدود بسهولة ·

وسيتحرر بالتالى محيط من رؤوس الأموال من أية حدود · غير أن هذا الوضع يحرم البنوك المركزية والدول ، بصفتها كذلك ، من سلطتها ، كما قد يخلق أخطار فوضى مالية متصاعدة على نطاق عالمى ·

وكما سبق لنا أن كتبنا فى صحيفة « نيويورك تايمز » بعد انهيار البورصة فى أكتوبر ١٩٨٧ بقليل « فان بناء نظام مالى واحد مفتوح يتمتع بالحد الأدنى من الضوابط والتنظيم يشبه الى حد بعيد بناء ناقلة بترول ضخمة بدون حواجز عازلة · فأى نظام كبير يستطيع التغلب على عجز بعض أجزائه اذا كان يتمتع باجراءات أمان أو بوجود حواجز عازلة ، ولكن ، فى غياب مثل هذه الاحتياطات فان أقل ثغرة فى الهيكل قد تتسبب فى غرقها » ·

وقد أكد آلان جرينسبان رئيس بنك الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى أن خلق تنظيمات مالية متعددة الجنسية ، تشترى وتبيع وتستثمر فى العديد من البلدان ، يزيد من أخطار حدوث انهيار على مستوى واسع

للغاية . وقال : « ان حدوث « فجوة » فى احدى هذه المؤسسات أو فى العديد منها قد يؤدى الى وقوع اضطرابات خطيرة » تنتقل من بلد الى آخر .

وأصبحت الدول ، مع وجود هذه المنظمات المالية الضخمة ، مهددة بفقد السيطرة على أحد مصادر سلطاتها الرئيسية . فعلى سبيل المثال ، سيقلل احتمال وجود عملة أوروبية واحدة من هامش مناورة الحكومات الوطنية لتسوية مشكلاتها الاقتصادية . بل ان هناك اقتراحا يهدف الى منح مفوضى بروكسل سلطة رقابية على ميزانيات دول الجماعة الأوروبية أكبر من السلطة التى تمارسها الادارة الفيدرالية الأمريكية على ولاياتها الخمسين . وهو ما سيمثل فى هذه الحالة انقلابا ضخما فى السلطة .

المعمار الجديد للمعرفة :

ونصل الى العنصر الثالث من ثلاثية السلطة ، ألا وهو المعرفة .

يمثل الظهور السريع للكمبيوتر خلال العقود الأخيرة انقلابا لا يقل أهمية فى مجـال المعرفة عن اختراع الطبـاعة فى القرن الخامس عشر بل واختراع الكتابة .

وبالتوازى شهدنا مع هذا الانقلاب ، الامتداد غير المسبوق للشبكات ووسائل الاعلام المسئولة عن نقل المعلومات والبيانات .

وحتى اذا لم يتغير شىء سوى ذلك لاستحقت هذه التطورات وحدها أن تسمى « ثورة المعرفة » . لكننا نعلم أن هناك انقلابات أخرى تبدل أيضا نظام المعرفة فى عالمنا ذى التكنولوجيا المتطورة .

وتؤدى سرعة انتقال المعلومات الى تقادم « الأحداث » والبيانات بسرعة مضاعفة ، والى تناقص مطرد لعمر المعرفة التى تتضمنها . وللتغلب على ذلك ، يتـم حاليـا اعداد أدوات تكنولوجية وتنظيمية جديدة تهدف الى تسارع عمليات البحث العلمى والتطوير وعمليات التدريب . الأمر الذى يؤكد ان شدة أيض المعرفة فى تزايد .

وبالاضافة الى ذلك ، هناك نقطة أخرى مهمة ، ألا وهى أن المجتمعات ذات التكنولوجيا المتطورة بدأت تعيد تنظيم معارفها . وكما رأينا ، أصبحت المهارة اليومية لرجال الأعمال والمسئولين السياسيين أكثر تجريدا بمرور الأيام ، وبدأت فروع العلوم التقليدية تنهار .

وأتاح الكمبيوتر امكانية ربط بيان معين ببيانات أخرى أو تقطيعها بطرق مختلفة ، وهو ما يمكن المستخدم من تحليل المشكلة نفسها من زوايا مختلفة وتوليف نوع من المعرفة الأسمى ٠

وفى الوقت نفسه ، أفرز التقدم فى مجالى الذكاء الاصطناعى والنظم الخبيرة وسائل جديدة لتركيز المعارف ٠ وأدت كل هـذه الانقلابات الى تجديد الاهتمام بالنظريات الادراكية وطرق التدريب و « المنطق الغامض » والنيروبيولوجى ومجالات بحث أخرى تتناول معمار المعرفة ذاته ٠

باختصار ، أعيد تشكيل المعرفة بذات عمق اعادة تشكيل كل من العنف والثروة حتى ان كل عناصر ثلاثية السلطة تمر بثورة متزامنة ٠ الا أن مصدرى السلطة الآخرين يعتمدان تدريجيا وبشـكل متزايد على المعرفـة ٠

وترسم هذه العناصر الخلفية المتحركة التى يكتب عليها قدر الحضارات والبلدان نحو المجد أو الأفول ٠

وتفسر هذه العناصر أيضا لماذا غالبا ما تكون التأكيدات الشائعة عن السلطة خادعة ٠

الاتحاد السوفيتى وحيد الساق :

يحب الدبـلوماسيون كثيرا أن يتـكلموا عن « توازن السـلطة » أو القوة ، الا أن معايير تحول السلطة تسمح لنا بتحليل « سلطة التوازن » فضلا عن توازن السلطة ٠

يمكن تقسيم الأمم (أو التحالفات) الى ثلاثة أنواع : نوع تعتمد قوته أساسا على قائمة واحدة من القوائم الثلاث لركيزة السلطة (العنف والثروة والمعرفة) ٠ فى حين تستند قوة النوع الثـانى على قائمتين ، أما النوع الثالث والأخير فيعتمد على القوائم الثلاث كلها ٠

ولكى نتوقع كيف ستسيطر الولايات المتحدة أو اليابان أو أوروبا على الصراعـات القادمة ، يتعين تحليـل مصادر السلطة الثلاثة وتركيز الاهتمام على المصدر الثالث ألا وهو قواعد المعرفة ، لأن هذا العنصر الأخير سيحدد قيمة العنصرين الآخرين بشكل متزايد ٠

وتتضمن هذه القاعدة بالطبع الفروع العلمية التقليدية مثل العلوم والتكنولوجيا والتعليم ٠ كما تشمل المفاهيم الاستراتيجية لبلد ما وقدراته التجسسية ولغتـه ومعرفته بالثقـافات الأخـرى واشعاعه الثقـافى

والأيديولوجى على باقى العالم وتشعب نظام اتصالاته وكل رصيد الأفكار والمعلومات والصور الجديدة التى تنبع منه · وكل ذلك يغذى قوة الأمة ويحدد نوعية السلطة التى يمكنها ممارستها فى أى نزاع أو أزمة ·

وفيما وراء كل عنصر مكون لثلاثية السلطة ، تمدنا معايير تحول السلطة بمؤشرات نفيسة وتمنحنا الفرصة لكى نتساءل عن « العلاقة » بين العنف والثروة والمعرفة خلال فترة زمنية معينة ·

واذا اعتبرنا سلطة التوازن شيئا مختلفا ومتميزا عن توازن السلطة، فسندرك أنه خلال فترة الحرب الباردة كلها كانت سلطة الولايات المتحدة ترتكز على قاعدة شديدة الاتساع · فهى تمتلك قوة عسكرية ضخمة وتتمتع باقتصاد مزدهر كما تمتلك أفضل مصدر للمعرفة فى العالم كله : بحث علمى وتكنولوجى متطور بالاضافة الى ثقافة شعبية غنية يحسدها عليها باقى العالم ·

وعلى النقيض من ذلك ، كان الاتحاد السوفيتى ولا يزال غير متوازن على الاطلاق· فقد كان يدعى وضع القوة العظمى استنادا على قوته العسكرية وحدها ، بينما كان اقتصاده فى حالة تعيسة فى الداخل ولا وزن له عالميا · وبالرغم من أن البحث العلمى والتطور كان يشكل قطاعا طليعيا فى بعض المجلات المرتبطة بالدفاع ، فان مهاراته التكنولوجية لم تكن متقدمة بشكل عام ويعوقها خوف مرضى من التسرب · وكان نظام اتصالاته شديد السوء ونظامه التعليمى رديئا وكانت وسائل اعلامه الخاضعة للرقابة المركزية تعانى هى أيضا من تأخر ضخم ·

وخلال الحرب الباردة ، فازت فى السباق الولايات المتحدة ذات السلطة المتوازنة وليس الاتحاد السوفيتى بسلطته التى ترتكز على ساق واحدة ·

هذه الرؤية ، التى لم يفهمها تماما حتى اللاعبون أنفسهم ، تفسر بدرجة كبيرة سلوك أوروبا والولايات المتحدة واليابان فى السباق الذى سيقودهم نحو تصادم لا مفر منه ·

الفصل الثالث والثلاثون

ثالوث : طوكيو ــ برلين ــ واشنطن

حتى وقت قريب ، كانت اليابان بلدا يمشى على ساق واحدة ٠

واذا كان التأثير الشامل لأمة ما يرتكز أساسا على قدرتها العسكرية وثروتها ومعرفتها ، فان اليابان لم تكن تملك الا عنصرا واحدا من ثلاثية السلطة ــ مثلها فى ذلك مثل الاتحاد السوفيتى تقريبا ٠ ولكن بدلا من التسلح النووى والجيش الأحمر ، تملك اليابان المال ومزيدا من المال ٠

غير أن المقاعد التى تستند على رجل واحدة تكون غير مستقرة وغير ثابتة ٠ كما أن للثروة ذاتها حدودا ٠

لذلك ، تحاول اليابان الآن اعادة التوازن الى سلطتها ٠

المدفع الياباني :

لقد بدأ اليابانيون أول انفاق عسكرى لهم بعد الحرب العالمية الثانية بضغط شديد من واشنطن ٠ وفيما بعد ، لم تعد هناك حاجة لدفعهم الى زيادة قواتهم المسلحة ، كما لم تعد فكرة امتلاك اليابان للأسلحة النووية ، وهو ما كان أمرا غير وارد منذ هيروشيما ، افتراضا مطلق الاستبعاد ، حيث تلمع عيون بعض « الصقور » بالرغبة فى امتلاك السلاح النووى ٠

وتحتل الميزانية العسكرية لليابان ، حاليا ، الترتيب الثالث عالميا بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ٠ ويرغب « الصقور » الآن ــ على حد قول أعدائهم ــ فى مد تأثير اليابان العسكرى الى ما وراء مياهها الاقليمية المباشرة ، والتوصل الى توقيع معاهدة مساعدة متبادلة مع أى بلد مجاور ، لكى تحصل اليابان بذلك على اعتراف رسمى بدورها فى الحفاظ على النظام الاقليمى ٠ كما يريد « الصقور » تزويد البحرية اليابانية بحاملة طائرات لزيادة مدى عمل القوات اليابانية بدرجة واضحة ٠

وتسيطر المجموعة الصناعية العسكرية ، وهى فى أوج ازدهارها ، بصعوبة على لهفتها انتظارا لامكانية بناء طائراتها المقاتلة وصواريخها وأنواع التسليح المتطورة الأخرى . ان شركات مثل : Fuji Heay Industries, Mitsubishi, Nissan, Kawasaki Heavy Industries, Komatso تنتج عتادا عسكريا بتراخيص أمريكية . وتم طرح مشروع مشترك لبناء المقاتلة الفائقة الحداثة FSX ، بعد مفاوضات مريرة مع الولايات المتحدة. وتستخدم هذه الطائرة سبائك متطورة ونظاما راداريا ذا أطوار ايجابية والعديد من التكنولوجيات المتقدمة الأخرى . كما بدأت اليابان أبحاثا عن الدفاع المضاد للصواريخ .

ان اليابان ليست عدوانية ولا هى دولة غير مسئولة . فمنذ الحرب العالمية الثانية ، ظلت كوادرها العسكرية تحت السيطرة الصارمة للسلطة المدنية . وتدل كل استطلاعات الرأى على أن الرأى العام اليابانى أكثر تمسكا بالسلام عن الرأى العام فى الولايات المتحدة . الا أنه من الصعب تحديد المدة الزمنية التى سيسود خلالها هذا الشعور ، اذا ما استمرت التوترات بين واشنطن وطوكيو فى التفاقم . كما لا نستطيع أن نتخيل بوضوح الدور الذى يمكن أن تلعبه القوات المسلحة اليابانية فى جنوب شرق آسيا فى حالتين : أولا : اذا ما أصبحت القوات العسكرية الأمريكية أقل تواجدا فى هذه المنطقة مستقبلا ، أو تم سحبها تماما . وثانيا : فى حالة نشوب حرب أو ثورة تهدد الاستثمارات اليابانية الضخمة فى المنطقة .

وبينما يتزايد عدم الاستقرار السياسى فى هذه المنطقة ، ابتداء من بكين وهونج كونج الى مانيلا ، ينظر جيران اليابان بقلق الى اعادة تسليحها وتخلص الولايات المتحدة النسبى من التزامها بعد تجربتها الأليمة فى فيتنام وانسحاب قواتها من كوريا الجنوبية . وبشكل أكثر شمولا ، تخفيض انفاقها العسكرى .

ومن الآن فصاعدا ، تتجه اليابان نحو اكتفاء ذاتى عسكرى سيقودها ذات يوم ، بدون شك ، الى الاشارة بأكبر قدر من اللياقة ، الى أن وجود القوات الأمريكية لم يعد ضروريا فى الأرخبيل — ولا حتى فى باقى جنوب شرق آسيا .

ففى عام ١٩٨٨ ، طرح نوبورو تاكيشيتا الذى كان رئيسا للوزراء فى ذلك الحين ، قضية اعادة تسليح اليابان ، حيث أعلن فى أكاديمية الدفاع اليابانية أن البلاد فى حاجة الى قوة عسكرية تتناسب مع قوتها الاقتصادية الجديدة الرائعة . باختصار ، اليابان لا تكف عن محاولة اعادة التوازن الى ثالوث سلطتها .

عملاق اقتصادى :

ان « الساق » الثانية للسلطة اليابانية ، وهى الثروة ، كانت موضوعا للعديد من الدراسات ، بحيث لا يوجد ما يدعو الى اضافة المزيد هنا ، ففى عام ١٩٨٦ ، أصبحت اليابان البلد الدائن الاول فى العالم ، وفى عام ١٩٨٧ ، تجاوزت القيمة المجمعة للأوراق المالية والسندات المسعرة فى بورصة طوكيو اجمالى قيمة مثيلتها فى نيويورك . وغدت أكبر البنوك وشركات السمسرة فى الأوراق المالية يابانية . وفى الولايات المتحدة ، أثارت عمليات امتلاك اليابانيين لعقارات أمريكية ذات قيمة كبيرة - مثل استوديوهات كولومبيا أو مبنى راديو سيتى هول ، ذى القيمة الرمزية أيضا - موجة من المشاعر المضادة لليابان . وسجلت ردود أفعال مماثلة فى أوروبا واستراليا . وفى الوقت نفسه ، أصبحت الدولة الأمريكية تحت رحمة المستثمرين اليابانيين الذين يمولون ما يقرب من ثلث عجز ميزانيتها . وبدأ التخوف من أن يؤدى التوقف المفاجئ لهذا الدعم ، الى توجيه ضربة قاتلة للاقتصاد الأمريكى .

ان تعدد هذه الأمثلة ، دفع المحللين الى توقع أن تغدو اليابان غولا اقتصاديا قادرا على السيطرة على العالم خلال الخمسين عاما القادمة .

الا أن الصاروخ الاقتصادى اليابانى لا يمكنه البقاء فى مداره الى الأبد ، اذ ستصطدم حركة تصدير السلع ورؤوس الأموال ، تدريجيا ، بحركات مقاومة متزايدة وشروط تبادل واستثمارات أقل ملاءمة . وسيستتبع ذلك توتر مع البلدان الأكثر ثراء ، وقد يقود هذا التوتر اليابان الى مزيد من الاستثمار فى الدول الأقل تقدما اقتصاديا ، حيث الأرباح المحتملة أكثر ارتفاعا بالطبع وكذلك الأخطار .

واذا سحبت الولايات المتحدة جزءا كبيرا من قواتها المسلحة المتمركزة فى أوروبا ، وهو ما يبدو محتملا ، فان عجز ميزانيتها قد يتناقص مما يدعم الدولار ويضعف الين ، وبالتالى يبطئ من التوسع اليابانى فى الخارج . واحدى عواقب ذلك هو زيادة الفاتورة البترولية لليابان ، طالما أنها تسدد بالدولار .

ان معدل الادخار الذى يعانى حاليا من الانخفاض ، سيتجه الى مزيد من التناقص لأن المستهلكين سيطمحون الى المزيد من الترفيه والاستمتاع . وفى الوقت نفسه ، سيميل المسنون ، الذين يسجل عددهم زيادة كبيرة ومطردة ، الى انفاق المدخرات التى جمعوها خلال سنوات العمل . ان هذين التطورين المتوازيين يدفعان الى توقع زيادة فى سعر الفائدة مما قد يؤدى ، على المدى الطويل ، الى ابطاء النمو .

والأكثر خطورة ، أن الاقتصاد فى حالة توازن عارض وغير مستقر وهو يعتمد ، كما يعلم جميع اليابانيين ، على موجة ضخمة من المضاربة العقارية ، حتى ان أقل شيء يكفى لكسر هذه الموجة • وحينذاك ستدرك موجات الصدمة بورصة طوكيو غير المستقرة ، وسترتد على الفور الى وول ستريت وزيورخ ولندن •

وبالاضافة الى كل ذلك ، تجر اليابان وراءها مجموعة كاملة من المشكلات السياسية والاجتماعية التى طال اهمالها • اذ يعجز حزباها الرئيسيان عن التكيف مع الحقائق الجديدة ، فى ظل نظام سياسى يعانى من الفساد وعدم المرونة • فالحزب الليبرالى الديمقراطى يعتمد بدرجة بالغة على الناخبين الريفيين وتنقصه قاعدة حضرية • أما الاشتراكيون فيملكون هذه القاعدة الا أنهم غير قادرين ، على ما يبدو ، على التخلص من أفكارهم وعقيدتهم الاقتصادية والسياسية التى تجاوزها الزمن •

ان فترة النمو المطرد توشك على نهايتها ، وستكون اليابان خلال العقود القادمة أقل استقرارا بكثير عن اليابان اليوم •

سباق الـ « جوكو » :

ان المعرفة أهم من التسلح والثروة ، بل ويتزايد اعتمادهما عليها • ان العديد من الأطفال اليابانيين يذهبون الى ال « جوكو » — أى الى مدرسة خاصة بعد ساعات الدراسة العادية — لتحسين نتائجهم الدراسية • ولعقود عديدة ، كانت الأمة اليابانية كلها أشبه ب « جوكو » كبير حيث أمضت ساعات اضافية لتنمية قاعدة معرفتها ، التى هى مصدر قوتها فى نهاية المطاف •

منذ عام ١٩٧٠ ، انطلقت اليابان بعزم وحماس فى جهد مستمر يهدف الى بناء اقتصاد يعتمد على المعلومات ، بل ان انطلاق البحث والتطوير بدأ مبكرا عن ذلك • ففى عام ١٩٦٥ ، كانت نسبة العلماء والمهندسين لكل عشرة آلاف من العاملين تمثل حوالى ثلث هذه النسبة فى الولايات المتحدة • أما فى عام ١٩٨٦ ، فتجاوزت هذه النسبة الرقم الأمريكى • الأمر الذى يعنى أن كثافة المعرفة لدى القوة العاملة اليابانية قد انطلقت كالسهم •

وتحتل اليابان الآن الصفوف الأولى فى جميع المجالات المتطورة ، ابتداء من البيوتكنولوجيا الى التقنيات الفضائية كما تستطيع تكريس رؤوس أموال ضخمة للبحث والتطوير ، أو استثمار هذه الأموال فى انشاء شركات عالية التكنولوجيا فى جميع أنحاء العالم •

وحققت اليابان انجازات مهمة فى مجالات التوصيلية الفائقة والمواد الجديدة والروبوتية • وكانت الدولة الثالثة ، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، التى ترسل مركبة فضائية غير مأهولة الى القمر ، كما سجلت نجاحات مبهرة فى مجال صناعة أشباه الموصلات •

لكننا لسنا الا فى الأمتار الأولى من الماراثون العلمى والتكنولوجى الكبير الذى لازالت تعانى فيه اليابان من بعض التأخر • فاجمالى ما تدفعه اليابان حتى الآن لشراء براءات الاختراع ورخص التكنولوجيات الأجنبية يزيد بنسبة ٣ر٣ عما تحصل عليه من بيع براءات اختراعها • (٦٠٪ من اجمالى ما تنفقه فى هذا المجال يذهب الى الولايات المتحدة) • وتتركز نقاط ضعفها ، بشكل خاص ، فى مجالات مثل الهندسة الاعلاماتية المتوازية ، والمعالجة الاعلاماتية لديناميكا السوائل ، والتقنيات المتطورة الخاصة بالرادار •

ومهما كان تقدم اليابان فى صناعة المكونات الالكترونية وأجهزة الكمبيوتر ، فانها تظل متأخرة نسبيا فى مجال البرامج الاعلاماتية الأكثر أهمية وحسما • ان « مشروع الجيل الخامس » ، الذى يهدف الى تحقيق قفزة كبيرة فى مجال الكمبيوتر وصاحبت الاعلان عنه ضجة كبيرة ، لم يعط حتى الآن الا نتائج محبطة •

وكان من المفترض ، أن يصبح هذا المشروع الذى تموله ال « ميتى » (وزارة التجارة الخارجية والصناعة) بالنسبة لليابان ، المكافىء لمشروع سبوتنيك بالنسبة للاتحاد السوفيتى (مشروع أول مركبة فضائية) • ولقد أثار « مشروع الجيل الخامس » قدرا كبيرا من الحماس ، حتى ان الدكتور آكيرا أشيكارا ، بجامعة Aoyama Gakuin بطوكيو ، أكد فى عام ١٩٨٦ أن اليابانيين يرون فى هذا المشروع « ضمانا لبقائهم وأداة ••• لاكتفائهم ذاتيا » • الا أنه اتضح منذ عام ١٩٨٨ ، أن المشروع يواجه صعوبات خطيرة ترجع الى تخطيط غامض ينقصه الوضوح ، ومشكلات تقنية مختلفة ، ونقص التطبيقات المغرية تجاريا ، وحتى عام ١٩٨٩ لم يعلن الا عن نتائج متواضعة • لكن الحقيقة الأهم والأكثر حسما ، هى أن اليابان تعانى تأخرا فى اعداد « البرامج الاعلاماتية الأسمى » ، أى البرامج القادرة على انتاج برامج •

وقد اعترف ٩٨٪ من مديرى الشركات اليابانية – عند سؤالهم مؤخرا – بالتفوق الأمريكى فى مجال البرامج الاعلاماتية ، وأقر ٩٢ ٪ منهم بتقدم الولايات المتحدة فى مجال الذكاء الاصطناعى وأجهزة الكمبيوتر الضخمة ، كما أقر ٧٦٪ بالتقدم الأمريكى فيما يتعلق بالتصميم والانتاج بمساعدة الكمبيوتر •

وفى هذه المسافات الأولى من سباق البحث والتطوير تتراخى ، بالطبع ، الولايات المتحدة فى حين تكسب اليابان أرضا بسرعة ، الا أن خط النهاية لا يزال بعيدا ٠

غير أن السلطة القائمة على المعرفة لا تتلخص فى العلم والتكنولوجيا ، وهى نقطة تفهمها اليابان أفضل بكثير من الولايات المتحدة ٠ فالقاعدة القائلة انه يتعين عليك « معرفة عدوك » ، قاعدة حيوية فى المنافسة التجارية أو العلمية كما هى حيوية فى الشطرنج أو الحرب ٠

وبالتالى ، تعرف اليابان عن الولايات المتحدة أكثر بكثير مما تعرفه الأخيرة عنها ٠ فقد كان اليابانيون « فى حاجة » لمعرفة أمريكا بدرجة عميقة وكلية ، لأن بلادهم ظلت تابعة سياسيا وعسكريا للولايات المتحدة لعدة عقود ٠ ومن ثم إكتسبت القرارات الأمريكية أهمية قصوى بالنسبة لهم ٠

ولم يكف العديد من اليابانيين عن قطع الولايات المتحدة من أدناها الى أقصاها، من وادى السليكون الى واشنطن ووول ستريت ، ومن هارفارد الى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا وجامعة ستانفورد (كاليفورنيا) ٠ وزاروا آلاف الشركات والادارات والمعامل والمدارس والأسر ، للالمام قدر الامكان بالشىء الذى يجعل أمريكا تعمل ـ ليس فقط فى المجال السياسى الاقتصادى ، ولكن من المنظور الثقافى والنفسى والاجتماعى أيضا ٠ ولم يكن الأمر يتعلق بنشاط تجسس اقتصادى (وان لم تغب هذه السمة بالطبع عن هذا النشاط) بقدر ما كان تعبيرا عن الفضول المتأصل بعمق لدى اليابانيين بالنسبة للعالم الخارجى ، وبحثهم الدائم عن نموذج عمل ٠

فبعد أن ظلت اليابان معزولة عن العالم لمدة ثلاثة قرون ، انطلقت عقب ثورة عصر الميجى فى جهد محموم لتعويض الجهل الذى أجبرت عليه ، وأصبح الشعب اليابانى أكبر قارىء لصحف العالم ، والأكثر اهتماما بمعرفة سلوكيات الآخرين ، والأكثر نهما للرحلات والسفر ٠

وكانت هذه الرغبة العارمة فى التعلم والمعرفة تتناقض بشدة مع النزعة الريفية الأمريكية ٠ ان عجرفة القوة العالمية المسيطرة ، وتوفر سوق داخلية شاسعة تسمح باعتبار الصادرات قضية ثانوية ، والتسامح المتعجرف للمنتصر ، والعنصرية الكامنة التى أوحى بها لون الجلد الأبيض، فى أغلب الأحيان ، كل ذلك جعل الأمريكيين لا يهتمون بمعرفة أى شىء عن اليابان فيما عدا بعض السمات الغريبة والطريفة مثل الجيشا والحمامات العامة المختلطة ٠ ولم تصبح اليابان « موضة » الا بعد ذلك بكثير ٠

وبينما كان ٢٤ ألف طالب يتدافعون سنويا على الولايات المتحدة ، كان أقل من ألف أمريكي يقطعون الطريق العكسى ٠

وتعتبر اليابان أكثر بلدان العالم اهتماما بزيادة مجموع معرفتها ، وقد تساهم هذه السمة وحدها فى تفسير لماذا استطاعت اليابان أن « تبيع » بشكل جيد فى الولايات المتحدة ، فى حين تواجه الشركات الأمريكية صعوبات جمة فى تسويق منتجاتها فى اليابان ، مع افتراض أن كل العراقيل الجمركية رفعت بين ليلة وضحاها ٠

ومع ذلك ، لا تزال قاعدة المعرفة اليابانية تعانى من بعض الثغرات المهمة ، فهى تبدى بعض السذاجة فى تقييمها للعناصر العرقية ، مجسدة قيمها العنصرية الخاصة ، لذا تجد صعوبة فى تقدير المكانة التى تحتلها هذه العناصر فى اقتصاد يمتد ليشمل الكرة الأرضية ٠

أما النظام التعليمى اليابانى الذى طالما تم تمجيده ، واعتبره العديد من الجامعيين والمسئولين الاقتصاديين الأمريكيين — ببساطة وسذاجة — نموذجا ، فانه يتعرض لنقد قاس من جانب العديد من الخبراء ، لأن طرقه ومناهجه تعمل على كبت الابداع ، فهى طرق تؤدى الى التماثل والتشابه ٠ فنقابات المعلمين وبيروقراطية التعليم ، فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، ترفض أى اقتراح تجديدى ، دون حتى النظر اليه ٠ كما لم يحقق التعليم العالى السمعة المتميزة التى اكتسبتها المنتجات الصناعية ٠

لكن عندما يتعلق الأمر بنسيج شبكات الكترونية ذات ذكاء خارجى ، أو بالتليفزيون ذى الوضوحية العالية ، فان اليابان تحتل الصف الأول عالميا ٠ الا أنها تتأخر عن الولايات المتحدة وأوروبا فى مجالات تحرير اللوائح التنظيمية لوسائل الاعلام ، أو تشجيع التطور الكامل للتليفزيون الكابلى والبث المباشر عبر الأقمار ، وهى وسائل ستسمح بتنويع الصور والأفكار ، وهو تنويع ضرورى للغاية لازدهار القدرة الخلاقة لأية ثقافة وطنية ٠

وتمثل الصادرات الثقافية أكبر نقاط ضعف اليابان ٠ ورغم أنه لا ينقصها كبار الكتاب والفنانين والمهندسين المعماريين أو مصممى الرقص والسينمائيين ، الا انهم غير معروفين فى الخارج ، ولا تمارس القلة منهم المشهورة عالميا الا تأثيرا ضئيلا ٠

وفى محاولاتها لموازنة سلطتها ، شنت اليابان هجوما ثقافيا واسع المدى ، ابتداء بالمجالات ذات الأهمية الاقتصادية المباشرة مثل الموضة والتصميم الصناعى ، ثم تنتقل حاليا الى مجال الفنون الأكثر شعبية مثل

التليفزيون والسينما والموسيقا والرقص ، كذلك مجالى الأدب والفنون الجميلة • أما عملية تخصيص « جوائز البراميوم امبريال » مؤخرا تحت رعاية جمعية الفنون اليابانية ، فانها تهدف الى أن تصبح المكافىء اليابانى لجوائز نوبل • ويوضح ذلك ، الرغبة فى القيام بدور أكثر أهمية على الساحة الثقافية العالمية •

ولكن يصطدم انتشار الأفكار والثقافة اليابانية فى الخارج بعائق ضخم ، ألا وهو اللغة • وتؤكد صفوة يابانية مثقفة ذات نزعة قومية أن اللغة اليابانية تنطوى على عنصر روحانى لا يمكن ترجمته وأنها تملك نوعا من « الروح » الفريدة • ان أية لغة ، فى الحقيقة ، كما يعرف ذلك كل شاعر أو مترجم ، ليست قابلة تماما للترجمة ، لأن كل لغة تختلف عن غيرها بالنسبة للرسوم الخيالية الخاصة بها واستعمال المفاهيم والاستعارات • ويبقى أن اللغة اليابانية لا يتكلمها سوى ١٢٥ مليون شخص ، وهو ما يمثل اعاقة كبيرة لاكتساب اشعاع عالمى متوازن • لذلك ، تدفع اليابان أبحاثها حول الترجمة بواسطة الكمبيوتر ، بحماس وقوة أكثر من غيرها من البلدان •

الا أن التحدى الكبير الذى يواجه اليابان يظل تحدى التنوع ، وتحويل الانتاج بالجملة الى انتاج بالطلب ، ووسائل الاعلام الجماهيرية الى وسائل اعلام أكثر تنوعا وتخصصا ، أى تحويل أنشطة المجتمع ككل من التجانس الى التنوع ، وذلك فى مجتمع جعلته الدعاية الداخلية يعتقد طويلا أن التماثل فى حد ذاته فضيلة • لقد بين عالم الأنثروبولوجى كازوكو تسوروومى ، بجامعة صوفيا ، منذ أكثر من عشر سنوات ، وجود تنوع داخل المجتمع اليابانى أكثر وضوحا مما يريد قادة البلاد الاعتراف به • الا أن التنوع فى ذلك الوقت ، كان تنوعا نسبيا داخل اطار متجانس يتطابق مع مجتمع الموجة الثانية • أما حاليا ، فيتعين على اليابان مواجهة ضغوط متفجرة فى الاتجاه المضاد ، وهى تدخل عصر الموجة الثالثة •

وترتبط المعارضة التقليدية للتنوع الاجتماعى والاقتصادى والثقافى ارتباطا مباشرا بأخطر نقاط ضعف اليابان بالنسبة للمستقبل •

لم يعد اليابانيون تلك « الحيوانات الاقتصادية » ، كما كانوا يتهمونهم ، ولم تعد قوة اليابان ترتكز على عنصر واحد من عناصر ثالوث السلطة • الا أن ذلك لا يمنع أن اليابان لا تزال تحتفظ بتأخر خطير ، مقارنة بالولايات المتحدة ، فى مجال خلق ونشر الأفكار والمعلومات والصور والمعرفة ، وهو مجال أساسى فى سباق القوة •

وفى اللحظة التى يتعين فيها على اليابانيين نشر هذه المصادر المتنوعة للقوة ، لا يملك المسئولون الاقتصاديون والسياسيون استراتيجية دولية محددة المعالم . يوجد ، بالطبع ، فى القمة اجماع حول بعض الأهداف الداخلية الجوهرية ، مثل تشجيع النمو الداخلى بتقليل حجم الصادرات ـ وان كان من المفترض أنها ضرورية ـ وتحسين نوعية الحياة بتنمية مجالات الترفيه ، والاهتمام بالبيئة التى عانت من تدهور شديد واعادة الاعتبار اليها . ولكن بالنسبة للسياسة الاقتصادية التى يتعين انتهاجها فى مواجهة العالم الخارجى ، تنقسم الصفوة اليابانية انقساما عميقا ، وتتردد بالنسبة للدور العالمى الذى يجب على اليابان أن تلعبه فى المستقبل، على فرض أن هناك دورا سيؤول اليها .

تفترض احدى الاستراتيجيات أن العالم يتجه نحو التجزؤ الى مناطق كبيرة ، وبالتالى تستطيع اليابان أن تصبح القوة المسيطرة فى جنوب شرق آسيا . وفى ظل هذه الفرضية ، يتعين عليها تركيز الاستثمارات والمساعدات الثنائية فى هذه المنطقة . وفى الوقت نفسه ، الاستعداد بهدوء وتمهل لكى تصبح قوة الشرطة الاقليمية الكبيرة فى هذه المنطقة . ويتميز هذا الاختيار ، بأنه يجعل اليابان أقل عرضة للتأثر بالاجراءات والتدابير الحمائية الأمريكية أو الأوروبية .

ويقضى الافتراض الثانى ، بأن تركز اليابان جهودها على الاقتصادات النامية أينما وجدت . ويرتبط بذلك ، اعطاء الأولوية لخلق بنية تحتية الكترونية فى هذه البلدان النامية، التى هى فى أشد الحاجة اليها للانضمام والتكامل مع الاقتصاد العالمى . ويتطابق هذا الاختيار الاستراتيجى مع أحد الاحتياجات الرئيسية للاقتصادات المتخلفة ، كما يتطابق مع نقاط قوة التكنولوجيا اليابانية . وفى الوقت نفسه ، سيسهم ذلك فى احكام ربط علاقات هذه الدول الكترونيا مع القوة الاقتصادية اليابانية .

أما الاستراتيجية الثالثة ، والتى يبدو أنها تحظى حاليا بتأييد وموافقة عدد كبير من اليابانيين ، فتعتقد أن مهمة اليابان عالمية وترفض حصرها فى منطقة بعينها أو فى مجال محدد . ولا يحلم أنصار هذه الاستراتيجية بالسيطرة العالمية ، وانما يفكرون فقط أن الاقتصاد اليابانى قوى جدا وشديد التنوع ويعيش نموا سريعا للغاية ، بحيث يصعب حصر دوره فى جزء من العالم أو مجموعة محدودة من البلدان .

ولقد دفعت هذه النزعة « العالمية » اليابان الى ارسال وحدات من البحرية اليابانية الى الشرق الأوسط ، لمساعدة الولايات المتحدة وحلفائها فى حماية الخليج أثناء الحرب بين العراق وايران . كما يطالب ذات

المعسكر بمنح قروض لأوروبا الشرقية ، والاضطلاع بدور دبلوماسى متزايد على الساحة الدولية ، والحصول على مواقع مهمة فى قلب صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، والمؤسسات الأخرى ذات الصبغة العالمية ·

وعندما تحدد اليابان اختيارها بين هذه الاستراتيجيات الثلاث لن يكون ذلك بقرار حاسم · فلقد اعتادت اليابان التقريب بين وجهات النظر المختلفة فى داخلها ، الا أن المراقبين المستنيرين يمكنهم دائما ادراك الكفة الرجحة · وعندئذ ، سيشعر العالم بأول الآثار الحقيقية لما تهدف اليابان الى تحقيقه فى المستقبل القريب ·

الاستراتيجية الجديدة للانفتاح شرقا :

اذا كانت شـدة الصراع الداخلى فى العـالم الرأسمالى ستتجه الى الزيادة ، فذلك لأن الطموحات اليـابانية ستصطدم بطموحات اللاعبين الرئيسيين الآخرين ، الولايات المتحدة وأوروبا · ويجدر بالنسبة لأوروبا أن نشير الى هذه السطور التى كتبت فى ٢٣ أغسطس ١٩١٥ ·

« يمكن خلق ولايات متحدة أوروبية [···] ولكن لأية غاية ؟ من أجل غاية وحيدة وهى محو الاشتراكية فى أوروبا وحماية [···] الغنيمة معا ، ضد اليابان وأمريكا » ·

كان كاتب هذه الكلمات ثوريا مغمورا اسمه فلاديمير اليتش لينين ، ولم يكن بعد زعيم الاتحاد السوفيتى · ترى ، ماذا سيكون رأيه فى الأحداث الحالية لو كان يعيش بيننا الآن ؟

ان تفكك الشيوعية مثل السباق نحو التكامل الأوروبى ، كلاهما نتيجة قدوم الموجة الثالثة ونظامها الجديد لخلق الثروة · وكما أعلنها جيانى دى ميكليس ، عنـدما كان يرأس مجلس وزراء خارجية الجماعة الأوروبية ، فان « التكامل كان الرد السياسى لضرورة الانتقال من المجتمع الصناعى الى المجتمع ما بعد الصناعى » · وتنبأ دى ميكليس بأن يؤدى امتداد اقتصاد السوق الى أوروبا الشرقية ، الى خلق موجة ازدهار اقتصادى ضخمة ، الا أن اللوحة الحقيقية ليست وردية الى هذه الدرجة ·

ان انهيار الحكومات الماركسية ــ اللينينية فى أوروبا الشرقية منح شعوبها احساسا سعيدا بالحرية وأعطاهم نفحة أمل ، لكنه فى الوقت نفسه قلب رأسا على عقب ظروف المعركة الثـلاثية بين أوروبـا واليابان والولايات المتحدة ، وأدى الى ظهور فراغ فى السلطة، وورط أوروبا الغربية فى استراتيجية جديدة وغير متوقعة على الاطلاق ·

لنفترض أن السلام سيستتب فى منطقة البلقان ، بالرغم من العداوات العرقية الحارقة التى تستشرى فى يوجوسلافيا وبلغاريا ورومانيا وأماكن أخرى • ولنفترض عدم وجود ديماجوجيين يثيرون الصراعات الحدودية بين ألمانيا وبولندا أو بين المجر ورومانيا ، فضلا عن عدم حدوث عمليات قمع عسكرية ولا حروب أهلية ولا أى قلاقل أخرى • ولنفترض أيضا أن الاتحاد السوفيتى لن يتفكك الى أجزاء يقف بعضها ضد البعض الآخر (تتصور جريدة سوفيتية أن مفهوم اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ذاته قد يختفى من خريطة العالم السياسية) • واذا تحقق ، اذن ، استقرار نسبى فى أوروبا الشرقية ، وان كان احتمال ذلك ضعيفا ، فقد يعقب انسحاب السوفيت منها وصول الأوروبيين الغربيين اليها ، وبشكل ، أكثر تحديدا ، الألمان •

وتحت الوصاية الغربية ، لن يواجه مواطنو أوروبا الشرقية ، بالطبع ، ظروف حياة سيئة مثل تلك التى عانوا منها فى ظل السيطرة السوفيتية ، والسيطرة الهتلرية قبلها • بل قد يرفع هذا الاستعمار الجديد غير العنيف مستوى معيشتهم بشكل كبير ، لكنه لن يترك أوروبا الشرقية – على الأقل ليس قبل وقت طويل – تتجاوز مرحلة العصر المصنعى •

وسوف تتشبث الشعوب باستقلالها الذى حصلت عليه بعد عناء ، وتتمكن من تدعيم موقفها فى المفاوضات مع الغرب بتشكيل نوع من الاتحاد فيما بينها • وكان جيمس بيكر ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، قد أشار الى امكانية اقامة رابطة بين بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا • غير أن هذا البعث البديل لامبراطورية النمسا والمجر ، أو حتى تجسيد الامبراطور فرنسوا جوزيف نفسه (ألا يريد بعض الشباب التشيك تنصيب فاكلاف هافل ، الكاتب المسرحى ورئيس تشيكوسلوفاكيا الجديد « ملكا » ؟) ، بل وحتى تكوين « ولايات متحدة لأوروبا الشرقية » لن يمنع من أن يفرض الشكل الجديد من التبعية نفسه على هذه البلدان •

ولادراك ذلك ، يكفى مقارنة ثلاثية السلطة فى أوروبا الشرقية – أى قواتها المسلحة واقتصادها ومواردها من المعرفة – مع مثيلتها لدى جيرانها الغربيين •

من هذا المنظور ، نجد أن الجماعة الأوروبية ، بدون أن تنضم اليها دول أخرى ، قادرة على أن تضع على المائدة ، سلطة ذات تفوق ساحق فى أشكالها الثلاثة •

ولكى نأخذ لمحة عن الامكانات العسكرية الضخمة لأوروبا الغربية ، بغض النظر عن حلف الأطلنطى وحلف وارسو السابق ، وبفرض انسحاب كل القوات الأمريكية والسوفيتية تقريبا ، فانها ستملك قوات كبيرة حتى فى ظل هذه الظروف ٠

لقد اقترح المستشار الألمانى هلموت كول ، فى أكتوبر ١٩٨٨ ، تكوين جيش أوروبى مشترك ٠ وبالرغم من أنه كان يعظم مزايا التحالف مع الولايات المتحدة ، الا أنه كان يستشف بوضوح وراء هذه الكلمات النغمة القائلة : « ارجعى يا أمريكا الى بيتك » ٠ لقد أصبح الألمان يرون أن الحماية الأمريكية لم تعد ضرورية بعد أن بات التهديد السوفيتى أقل خطورة بكثير عن السابق ٠

وسيضاعف الانسحاب الأمريكى الكامل ، بلا شك ، التكاليف المتعلقة بالقوة العسكرية لأوروبا الغربية ، ولكن بضبط هذا الانفاق بشكل جيد وتوزيعه على عدد أكبر من الدول ، يمكن جعل هذه التكاليف محتملة تماما ٠ وسينجم عن ذلك أوروبا جديدة ذات عضلات قوية وأسلحة دفاعية منيعة ٠

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا : من سيقود هذا الجيش الأوروبى غدا ؟ اذا كان هناك أدنى شك بهذا الشأن ، فان بعض الأرقام تكفى لتبديده ٠ لقد كانت الجيوش الفرنسية والألمانية الغربية ، حتى الآن ، متكافئة عمليا بالنسبة للقوات التقليدية ٠ كانت فرنسا تملك ٤٦٦ ألف جندى مقابل ٤٩٤ ألف جندى ألمانى ، وكان لدى فرنسا ٢١ غواصة مقابل ٢٤ غواصة ألمانية ، وفى مجال الطيران كانت فرنسا تملك للهجوم الجوى الأرضى تسعة أسراب ميراج وجاجوار أما ألمانيا فلديها ٢١ طائرة تورنادو واف ٤ ــ اف اس وألفا ٠

ولكن اعادة توحيد ألمانيا عدلت هذه الأرقام تعديلا كليا وجذريا ٠ فاذا اندمجت القوات الألمانية الشرقية مع مثيلتها الغربية فستزيد الميزانية العسكرية الألمانية بنسبة ٤٠٪ ، أما عدد القوات المسلحة فسيزيد بنسبة ٥٠٪ وستكافىء القوات الجوية الألمانية للهجوم الأرضى ثلاثة أضعاف مثيلاتها الفرنسية ٠ لقد أعلنت عملية اعادة توحيد ألمانيا نهاية السياسة الفرنسية كما حددها الرئيس الفرنسى السابق جيكسار ديستان عندما قال انه يتعين أن « يكافىء حجم القوات الفرنسية حجم القوات الأوروبية الأخرى ، أى القوات الألمانية » ٠

وتمتلك فرنسا بالطبع أسلحة نووية ـ « قوتها الضاربة » الشهيرة ـ وكذلك بريطانيا ، الا أن ألمانيا ـ اذا أرادت ـ فانها قادرة على التزود بالسلاح النووى بين عشية وضحاها ، وهو ما تدركه تماما فرنسا وبريطانيا وباقى العالم ·

كما يساهم عنصر آخر ، وليس أقلها أهمية ، فى الاخلال بالتوازن العسكرية داخل أوروبا : لقد سلم السوفيت سرا ٢٤ صاروخا « اس · اس ـ ٢٣ » متوسط المدى الى ألمانيا الشرقية ، مباشرة قبل التاريخ الذى تعهدوا فيه ، بموجب معاهدة ، بتدمير هذه الصواريخ · ومع اعادة توحيد البلاد ستعود هذه الصواريخ الى الجيش الألمانى الموحد ، وهو آخر ما كان السوفيت يتمنون حدوثه !

وبينما لا يتكلم الساسة الأوروبيون الا عن الوحدة والعلاقات الطيبة والآمال السعيدة ، يوازن الجنرالات فى كل مكان هذه الأرقام بعناية · وان كانت القدرات القتالية لا تقيم بالطبع كما تحصى النقود ، كما لا يوجد من يفكر جديا فى تكرار حروب ١٨٧٠ أو ١٩١٤ أو ١٩٣٩ فان المقارنة الرقميه ـ مهما كانت تقريبية ـ توضح جيدا أن ألمانيا هى التى ستقود المناورة فى أى جيش أوروبى ، فيما عدا فى حالة الطوارىء القصوى التى قد تؤدى الى استخدام الورقة النووية ·

ولا يمت الألمان الحاليون بصلة للعشيرة النازية ، فهم مشبعون بالقيم الديمقراطية وبالأفكار المعتدلة التى تتميز بها الطبقات المتوسطة الميسورة الحال ، كما أنهم ليسوا مناصرين على الاطلاق للروح العسكرية · الا أن ذلك لا يقلل من أنه فى حالة اللجوء للقوة العسكرية الغربية لوضع نهاية للاضطرابات فى أوروبا الشرقية ، فان القرار النهائى لن يتخذ فى باريس أو بروكسل وانما فى برلين ·

ان كل التعليقات العدوانية التى تتردد فى واشنطن عن عدم استعداد الأوروبيين « لتقاسم عبء الدفاع » لم تمنع أوروبا الجديدة من أن تصبح الآن قوة عسكرية كبيرة ومستقلة ·

أوروبا صباح الغد :

وسوف ترتكز القوة العسكرية الأوروبية على قاعدة اقتصادية هائلة، وهى تمثل العنصر الثانى لثلاثية السلطة · حتى وان لم ينضم اليها أعضاء جدد ، فان امكانات الدول الاثنتى عشرة للجماعة الأوروبية ضخمة ، اذ يبلغ عدد سكانها ٣٢٠ مليون نسمة ، ويساوى اجمالى ناتجها القومى اجمالى الناتج القومى للولايات المتحدة تقريبا ، ويكافىء مرة ونصف اجمالى

الناتج القومى اليابانى • وتمثل تجارة بلدان الجماعة الأوروبية ، فى مجموعها ، ٢٠٪ من التجارة العالمية ، أى أكثر من الولايات المتحدة أو اليابان •

وسوف يتم اتخاذ القرارات الرئيسية فى المجال المالى ، كما فى المجال العسكرى ، فى برلين : فى وزارة المالية والدوتش بنك ، فالتفوق المالى يجسد الحقائق الاقتصادية • ان ألمانيا الموحدة ، التى يبلغ اجمالى ناتجها القومى ١٤ ألف مليار دولار ، تزن مرة ونصف أكثر من فرنسا التى تليها فى الترتيب •

وترغب الدول الأخرى المستسلمة لهذه الأشكال من عدم التوازن ـ وان كانت تخشى عواقبه ـ فى تدعيم وتوثيق روابط الجماعة الأوروبية ، على أمل الحد من حرية حركة ألمانيا • الا أنه كلما أصبحت الجماعة الأوروبية ذاتها قوية ومركزية ـ أى أن يكون لها عملة موحدة وبنك مركزى واحد ، وأن تتصرف على أنها الشرطى المسئول عن حماية البيئة ـ زاد تأثير ألمانيا الموحدة على اجمالى النظام الأروبى بدلا من أن يتناقص •

لكن اقامة هذا النظام ، الذى تعد ألمانيا مركزا له ، لا يمثل سوى جانب واحد من استراتيجية الانفتاح شرقا ذات المدى المذهل التى بدأت تظهر أولى سماتها •

ان الاستراتيجية الاقتصادية التى تنفذها حكومات الجماعة الأوروبية وشركاتها تتركز فى الواقع ، على الاستفادة من التكلفة المنخفضة للأيدى العاملة فى تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا وباقى بلدان أوروبا الشرقية لتحقيق انتاج بالجملة ذى قيمة مضاعفة ضعيفة • لكن السلع المنتجة لن توجه لشعوب أوروبا الشرقية ، وانما سيتم تصديرها الى أوروبا الغربية •

وتتلخص هذه الاستراتيجية فى كلمتين : مداخن مصانع فى الشرق، وأجهزة كمبيوتر وسلع استهلاكية فى الغرب • ولا تمثل ألمانيا الموحدة النواة المركزية فقط للجماعة الأوروبية ، لكنها تقوم بادارة اجمالى النظام القارى •

ويهدف تنفيذ هذه الاستراتيجية الاقتصادية الواسعة ، الى نقل السلطة فى أوروبا الشرقية من أيدى السوفيت الى أيدى الأوروبيين الغربيين ـ وبشكل أكثر تحديدا ، الألمان • وسيحتل تنفيذها العقود القليلة القادمة ، الا أن عملية التنفيذ ستكون حافلة بالصعوبات والفوضى •

وتفترض استراتيجية الاتجاه شرقا ، التى يجرى الاعداد لها بايقاع متصل ، أن الاتحاد السوفيتى سيظل مستغرقا فى شئونه الداخلية ، ومن ثم سيتعين عليه عسكريا أن يهتم بجمهورياته الاسلامية فى الجنوب وبالصين والمحيط الهادى أكثر من أوروبا • كما تفترض امكانية عقد اتفاقيات اقتصادية معه ، تقلل من معارضته لصبغ أوروبا الشرقية بالصبغة الألمانية•ويتوقف ذلك على الموقف السياسى الداخلى فى الاتحاد السوفيتى، وعلى الأحداث غير المتوقعة التى قد تحدث فى الصين ، أو بشكل أعم فى آسيا •

وهناك افتراض آخر لهذه الاستراتيجية ، هو أن الجماعة الأوروبية ذاتها ستكون قادرة على الوفاء بالوعود الجميلة التى قطعتها على نفسها أمام شعوبها ـ نسبة نمو تتراوح بين ٤ر٥٪ و٧٪ وخلق ما بين ٢ مليون الى ٥ ملايين فرصة عمل جديدة سنويا فى الدول الاثنتى عشرة الأعضاء ـ وهو ما يستلزم فاعلية أكبر فى الانتاج ، وتنافسية أفضل فى الأسواق العالمية ، وأرباحا أعلى •

غير أن تخطيط الجماعة الأوروبية مازال يعتمد بشكل كبير على مفاهيم تجاوزها الزمن ، مثل اقتصادات النطاق الكبير ، وهى مفاهيم تناسب صناعات العصر المصنعى أكثر من الاقتصادات المتقدمة المتمحورة على المعلومات وأنشطة الخدمات •

ومن ناحية أخرى ، يرتكز النظام الجديد لخلق الثروة على التباين وعدم التجانس ، والانتاج اللامركزى وتجزئة الأسواق ، وتنويع الأنشطة المالية وجعلها حسب الطلب ، وتؤمن كل هذه العناصر نجاح النظام الجديد الذى يولدها فى الوقت نفسه • الا أن أسطوانة الجماعة الأوروبية الضاغطة تهدف الى ازالة أية اختلافات •

أما فى الشرق ، فمن المحتم أن تواجه الاستراتيجية المعنية مشكلات كبيرة • فهى ، فى المقام الأول ، تعتبر أن شبه المستعمرات ستظل فى حالة استقرار سياسى ، الا أن الحماس للديمقراطية والبرلمانات والتعددية الحزبية لا تضمن ، للأسف ، المجانق واللحم على مائدة الطعام •

وقد يتحول الافتتان بالديمقراطية البرلمانية والأحزاب وحرية التصويت الى فوضى ، اذا لم يتحقق سريعا تحسن ملموس فى الأوضاع الاقتصادية المتردية حاليا • وتزيد الاتهامات بالفساد وأعمال الارهاب من خطورة الوضع ، مما قد يؤدى الى عودة الديكتاتوريات العسكرية أو النظم

الفاشية التى كانت منتشرة بكثرة فى هذه المنطقة قبل الحرب العالمية الثانية ، وقد يبارك مستثمرون أجانب ذلك ، واضعين متطلبات النظام والاستقرار فوق كل شيء ·

وبعد أن استسلم مواطنو أوروبا الشرقية لنشوة النعم المنتظرة من رؤوس الأموال الغربية ، سيستيقظون على مرارة متزايدة للوضع الاستعمارى الجديد الذى يعيشون فى ظله · وسيتحول السخط الى مقاومة ، وستنسب الأزمات الاقتصادية ونقص السلع الى المستثمرين الأجانب و « الامبرياليين » وكباش فداء محلية · وبعد قروض الطوارىء ، سيتطلب الأمر قروضا أخرى لتفادى الانهيار الاقتصادى ، ثم تأتى طلبات تأجيل سداد الديون المستحقة نظرا لاشتداد الأزمة الاقتصادية ، أو الغاء الديون بلا قيد أو شرط ·

حتى وان لم يحدث شيء من كل ذلك ، فان المسلمة القائلة بأهمية العمالة الرخيصة ، والتى ترتكز عليها استراتيجية الاتجاه شرقا ، تحتاج الى مراجعة جدية · فكما سبق أن رأينا ، تصبح الأجور المنخفضة مكلفة بشكل متزايد ، فالوفر الذى يتحقق من خلالها ضئيل جدا ، لأن تكلفة العمل بالنسبة للتكاليف الكلية تتجه الى التناقص ، ما عدا فى القطاعات الأكثر تخلفا ·

لقد اتضح لنا، أن الاقتصادات « البطيئة » تجد صعوبة كبيرة فى الارتباط بالاقتصادات المسماة « السريعة » · ففى بولندا ، كان تحويل أرصدة من بنك الى آخر يتطلب شهرا أو ستة أسابيع · ان الأيض فى أوروبا الشرقية بطيء جدا بالنسبة للايقاع الذى يطالب به الغرب ، كما لا توجد عمليا بنية تحتية الكترونية · وستجعل كل هذه العوامل « استراتيجية التوجه شرقا » أكثر تكلفة عما يبدو لأول وهلة ·

وأخيرا ، اذا فرضنا أن جزءا كبيرا من العمل « المصنعى » سيتم نقله شرقا ، فعلى دول أوروبا الغربية أن تتوقع ضغوطا متزايدة من جانب نقاباتها العمالية ، ومتطلبات متنامية فى مجال التأمين الاجتماعى ، وحملات حمائية قوية ·

وفى ألمانيا بشكل خاص ، قد تؤدى هذه العناصر الى تدعيم المعارضة السياسية · وسينشد الاشتراكيون الديمقراطيون والنازية الجديدة أنغاما قومية لمهاجمة انتقال فرص العمل الى « غير الألمان » الذين يعملون بأجور أقل من الحد الأدنى النقابى · وفى الوقت نفسه ، سيقاوم الخضر انتقال التلوث الى مناطق هى بالفعل من أكثرها تضررا فى العالم ·

واذا حدث وحكم ألمانيا ذات يوم ائتلاف يضم الاشتراكيين الديمقراطيين والخضر ، فان هذا الائتلاف سيمارس تأثيرا قويا على أوروبا كلها • وسينجم عند ذلك ، بدون شك ، ابطاء لانمو التكنولوجى الأوروبى، لأن الاشتراكيين الديمقراطيين سيخشون من تأثيره على العمالة ، فى حين يضم الخضر فى صفوفهم عددا كبيرا من كارهى التكنولوجيا •

لقد أتاحت رؤوس الأموال المقدمة من اليابان والعديد من البلدان الأوروبية ، انشاء بنك أوروبى للتنمية والتعمير تحت قيادة جاك أتالى • ويستطيع هذا البنك أن يقيم رؤوس جسور فى أوروبا الشرقية تفتح الطريق لبعض التقدم التكنولوجى والاقتصادى • لكن المهمة لن تكون سهلة •

وخلال العقد القادم ، عندما تطرح المشكلات الأوروبية نفسها بحدة أكبر ، قد تضعف الحماسة الاقتصادية والسياسية التى تثيرها حاليا استراتيجية الاتجاه شرقا • واذا كانت أوروبا تملك ثروات ضخمة ، فانها لم تعد حتى الآن سوى استراتيجية من أكثر الاستراتيجيات اثارة للجدل، للاستفادة منها •

من الثورة اليسارية الى علم الدلالات :

ان مستقبل القوة الأوروبية يعتمد ، أكثر من الولايات المتحدة واليابان ، على « ساقها الثالثة » ، أى قاعدة معرفتها • فقياسا بعدد جوائز نوبل وشهرة معاملها ومعاهدها البحثية ليس لدى أوروبا ما يقلقها ، فهى تحتل الصفوف الأولى فى مجالات الطاقة النووية والتقنيات الفضائية والروبوتية ، وبدأت أبحاثا عن التوصيلية الفائقة ، وان شاب ذلك بعض التردد • وبعد أن عاملت الجماعة الأوروبية العلم والتكنولوجيا طويلا باحتقار ، بدأت فى دعمهما بسخاء خاصة عن طريق مشروعات متعددة التخصصات العلمية •

وتحتل ألمانيا الصدارة فى هذا المجال أيضا • فلدى علمائها أكبر ميزانيات أبحاث وتطوير فى أوروبا ، وقاموا فى الولايات المتحدة بتسجيل عدد من براءات الاختراع أكبر مرتين ونصف من العلماء البريطانيين أو الفرنسيين • ومنذ عام ١٩٨٤ ، يحصل العلماء الألمان كل عام على احدى جوائز نوبل العلمية ، لاكتشافات مثل الميكروسكوب ـ الماسح ذى التأثير النفقى أو ظاهرة « هول » الكمية •

غير أن أوروبا ، بما فى ذلك ألمانيا ، تعانى من تخلف فى مجالات حاسمة ، مثل تكنولوجيا الكمبيوتر والمعلومات ، خاصة فيما يتعلق بانتاج

الرقائق الالكترونية ، مقارنة باليابان والولايات المتحدة · ان افلاس شركة نيكسدورف الألمانية ، التى ظلت طويلا من أكفأ منتجى أجهزة الكمبيوتر ، وابتلاع سيمنز لها ، والصعوبات التى تمر بها شركتا نوسك فى النرويج وفيليبس فى هولندا ، تؤكد على أوجه اعاقة أوروبا فى هذا المجال ·

وفى قطاع الاتصالات اللاسلكية ، يؤدى الرفض العنيد من جانب العديد من وزارات البريد والاتصالات ، للتخلى عن احتكارها الى تعطيل التقدم ·

ومهما بلغ سوء المدارس الأمريكية ، فان أوروبا تعانى أيضا من مشكلات تعليم خطيرة ، فنظمها المدرسية شديدة المركزية وغير مرنة · أما من المنظور الثقافى ، فان « الصادرات » الأوروبية أكثر أهمية وتأثيرا من الصادرات اليابانية ، الا أن الولايات المتحدة تسبق أوروبا عندما يتعلق الأمر بانتاج طرز حياة سيتم تقليدها فى أماكن أخرى ، أو حركات فنية جديدة أو ثقافة شعبية · ويمكن بالطبع ، الدفع بأن الثقافة الأوروبية أرقى جماليا وأخلاقيا ، غير أن الأمر يتوقف على المعايير المستخدمة · وبما أن الثقافة ، خاصة الثقافة الشعبية ، تمثل عامل سلطة فى هذا العالم الشديد التغير الذى تغمره الصور ، فان الولايات المتحدة تظل على رأس السباق فى هذا الصدد ·

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، أعطت أوروبا للعالم ، على المستوى الأيديولوجى والفكرى ، ثورية يسارية ذات ايحاء شبه ماركسى ، ومارست لبعض الوقت ، نوعا من التأثير من خلال الفلسفة الوجودية ثم البنائية ، ومؤخرا نظرية الرموز والدلالات · ولكن هذه القيم تشهد أفولا فى السوق العالمية للأفكار ·

فى الحقيقة ، تستعيد أوروبا الغربية حاليا ، دورا مهما بتشجيعها ل « منتج » سياسى جديد · ففى السنوات القادمة ، ستكون النسخة « الخضراء » للاشتراكية الديمقراطية هى أهم صادراتها الأيديولوجية ، وهو ما يشكل أهمية كبرى ، لأن هناك أسواقا مستعدة ومتفتحة لاستقبال هذه الحركة فى كل من الولايات المتحدة واليابان وأوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى ، شريطة ألا يتم تشويه النموذج وتسيطر عليه الجماعات الهامشية المتطرفة من المدافعين عن البيئة ·

وفى نهاية المطاف ، نجد أنه بينما تستغرق اليابان فى الاهتمام بالمستقبل ، وتركز الولايات المتحدة على « الآن وهنا » ، فان أوروبا تظل مرتبطة ارتباطا راسخا بماضيها · وهناك دعابة معروفة تزعم أن استبدال

مصباح كهربى يحتاج الى خمسة أشخاص بريطانيين : واحد لتركيب المصباح الجديد وأربعة ليقولوا كم كان المصباح القديم أفضل ·

وتقلل كل هذه الأسباب من فرص أوروبا فى أن تصبح قوة كبرى ذات سلطة متوازنة حقا ، طالما أنها لا تبذل لتنمية وتطوير قاعدتها المعرفية القدر نفسه من الطاقة والجهد ، الذى تبذله فى اعادة تنظيم قواتها العسكرية وتكامل اقتصادها ·

لقد أعدت أوروبا استراتيجية ضخمة وذات مدى شاسع ، تهدف الى تغيير علاقات السلطة على الصعيد الاقليمى والعالمى · ويضع هذا التخطيط ، المستمد من الماضى أكثر من المستقبل ، غاية هى تفوق « قلب » العالم ، كما لقب علماء الجغرافيا السياسية أوروبا فى الماضى ·

العملاق الجريح :

يقودنا ذلك الى الحديث الآن عن هذا العملاق الجريح ، وهو الولايات المتحدة ·

اذا أخذنا المكون العسكرى لثلاثية السلطة فسنجد أن القوة العسكرية الأمريكية تتفوق على منافسيها على الصعيد العالمى ، فالقوات المسلحة الأوروبية واليابانية لازالت ذات طابع اقليمى ، ولا تملك سوى قدرة محدودة على القيام بعمليات بعيدة · وعلى نقيض ذلك ، تتمتع قوات الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، بالرغم من التخفيضات التى أجريت عليها مؤخرا ، بمدى عالمى ·

غير أن الاتحاد السوفيتى يعانى من اضطرابات داخلية ويتعين على جيشه أن يهتم ، كأولوية أولى ، بتهديدات الانفصال والانشقاق والمواجهات العرقية ، والمشكلات التى قد تنشأ على حدوده المتحركة الممتدة من ايران الى الصين · وبالتالى ، فان الولايات المتحدة وحدها هى التى تملك حاليا أكبر قدرة تدخل فى المناطق البعيدة (فلديها مثلا ١٤ حاملة طائرات وسفن الحراسة المرافقة لها مقابل أربع حاملات طائرات سوفيتية وست أوروبية) · ان هذه القدرة على التدخل فى أية بقعة على الكرة الأرضية ، هى بالتحديد التى تميز القوة العسكرية الأمريكية عن كل القوى الأخرى ·

لكن هذه السلطة العسكرية الرائعة الموضوعة بحسم تحت السيطرة المدنية ، والتى يقوم بخدمتها ضباط قادرون ومدربون تدريبا جيدا ، تعانى من اعاقة خطيرة ، ألا وهى رؤيتها الاستراتيجية للعالم التى تجاوزها الزمن ، والمتمحورة بدرجة مبالغ فيها على التهديد السوفيتى فى أوروبا

الغربية · وينجم عن ذلك ارتباك كبير فى تصور المصالح الحيوية للبلاد وأولوياتها ، وكأن هناك قصورا دماغيا يعيث فسادا فى القمة ·

وبالتالى ، فان الضغوط التى يمارسها الكونجرس لخفض الانفاق العسكرى ، والتى تستلهم الاعتبارات السياسية الداخلية بشكل كبير ، تؤدى الى اقتراحات أعدت ، فى أغلب الأحيان ، بلا تبصر ولا ترتبط بأية رؤية متكاملة للموقف العالمى ·

كما تعنى أزمة الاستراتيجية الأمريكية ، أن جزءا كبيرا من الميزانية العسكرية يستخدم لبناء نظم تسلح غير ملائمة ، يتم نشرها فى الأماكن والأوقات غير المناسبة · وهو ما يمثل تبذيرا واسرافا يفوقان بكثير تجاوزات مقايسات الموردين أو « المطارق الشهيرة المغطاة بطبقة من الذهب ، وثمن المطرقة الواحدة منها ٧٠٠ دولار » · ومن نتائج هذه الأزمة أن أصبحت الولايات المتحدة لا تقوم الا بردود أفعال للأحداث الدولية الكبرى (بعد حدوثها) ، بدلا من أن تفجر هذه الأحداث كما كانت تفعل حتى عهد قريب، وذلك باستثناء العمليات الصغيرة مثل خلع مانويل نورييجا رئيس بنما ·

لكن الأمور بدأت تتغير بعد غزو الكويت فى عام ١٩٩٠ · ان صدام حسين ، باقترافه هذا العدوان واظهار احتقاره للرأى العالمى ، واحتجازه للرهائن ، وتهديده باستخدام الأسلحة الكيماوية بل والنووية ، أحدث انقساما بين الدول العربية وهدد باحداث خلل فى نظام امدادات البترول العالمية ·

لقد اضطرت الأزمة التى نجمت عن ذلك فى الشرق الأوسط ، المسئولين الأمريكيين أن يعدوا استراتيجية عامة لما بعد الحرب الباردة · لم يتم بعد استكمال هذه الاستراتيجية ، كما أنها ليست واضحة بعد تمام الوضوح · غير أن الرئيس بوش تصرف بسرعة ومهارة لتعبئة تكتل واسع، بشكل غير عادى ، ضد المعتدى ·

وخلال أيام قليلة أدان مجلس الأمن صدام حسين ، وطالبه بسحب قواته ، وفرض على العراق حظرا كاملا ، حتى ان الصينيين والسوفيت وافقوا على هذه القرارات · وأغلقت السعودية وتركيا خطوط الأنابيب التى تنقل البترول العراقى الى الأسواق العالمية · وقبل مضى شهر ، قامت قوات بحرية ضخمة بعزل العراق ، واتخذت قوات أمريكية مواقعها فى المملكة السعودية وفى منطقة الخليج ، تساندها فرق أرسلتها الدول العربية مثل سوريا ومصر والمغرب ، وكانت هذه الفرق بمثابة تحذير ، كما كانت لها قيمة رمزية ·

وعلى الفور ، بدأ أعداء بوش السياسيون فى الكونجرس الشكوى من أن اليابان وأوروبا الغربية « لا تتحملان نصيبهما العادل من العبء » ، بالرغم من اعتمادهما أكثر من الولايات المتحدة على بترول الشرق الأوسط · كما ادعوا أن الأمريكيين يجازفون بحياتهم وينفقون مليارات الدولارات ، لحماية طرق امداد البترول التى يستفيد آخرون منها أكثر منهم · بل طالب بعض الديماجوجيين بأن تقوم اليابان وألمانيا بارسال قواتهما الى منطقة الخليج ، بالرغم من أن ذلك محظور على هذه البلدان بموجب دساتيرها · وفى الجانب المقابل ، لم يتساءل أحد ، سوى قلة قليلة ، اذا كان الأمريكيون ــ ومعهم بقية العالم ــ يرغبون فى أن تلغى النصوص الدستورية لهذه البلدان ، التى تمنع ارسال القوات اليابانية خارج الأرخبيل أو القوات الألمانية خارج نطاق الناتو ·

لقد كان هؤلاء الديماجوجيون أبعد ما يكونون عن ادراك كل عواقب هذا الموقف ، وتعديلات السلطة الناجمة عنه على المدى الطويل ·

فى الواقع ، ان اقامة قوات مسلحة أمريكية فى منطقة الخليج ــ حتى مع موافقة السعودية والدول الأخرى فى المنطقة ــ ستخلق موقفا جديدا جذريا ــ أيا كانت النتائج الأخرى لذلك ·

فمنذ عام ١٩١٨ ، على أقل تقدير ، كانت فرنسا وبريطانيا هما القوتين الأجنبيتين الأكثر تأثيرا فى الشرق الأوسط · لكن عندما قامت مصر فى عصر ناصر بتأميم قناة السويس ، فى عام ١٩٥٦ ، حاولت القوتان الأوروبيتان استعادتها ، غير أن الولايات المتحدة أوقفت المحاولة ·

ومنذ تلك اللحظة ، بدأ وضع القوتين الاستعماريتين السابقتين يتزعزع ويضعف تدريجيا · وابتداء من عام ١٩٥٦ الى عام ١٩٩٠ ، أصبحت الولايات المتحدة هى القوة الأجنبية المؤثرة فى الشرق الأوسط ، لكن كل عمل تقوم به كان يصطدم بمعارضة القوة العظمى العالمية الأخرى ، ألا وهى الاتحاد السوفيتى ·

وفى عام ١٩٩٠ ، اقترف العراق ، وهو البلد الذى تربطه علاقات خاصة بالاتحاد السوفيتى ، خطأ فادحا ، اذ اعتقد ان القواعد القديمة للعبة لازالت سارية · وكان جورباتشوف فى ذلك الوقت ، يتحرر من التزاماته العسكرية فى مناطق متفرقة من العالم ، ويأمل فى الحصول على مساعدة اقتصادية غربية · وأدرك صدام حسين ، فجأة ، أن الاتحاد السوفيتى لم يعد مستعدا لافشال مبادرات الولايات المتحدة، التى أصبحت، من الآن فصاعدا ، القوة الأجنبية الوحيدة المتواجدة فعلا فى الشرق الأوسط ·

فعندما هدد صدام حسين بالاخلال بالاستقرار فى هذا الجزء من العالم واثارة الاضطرابات ، لم يكن فى مقدور الدول العربية الأخرى مقاومته ، وبحثت السعودية ودول الخليج والعديد من البلدان الأخرى ، عن « شرطى » قادر على الدفاع عن أنظمتها واعادة الوضع الى ما كان عليه · ولم يكن هناك سوى شرطى واحد جاهز ومستعد ، ووثبت الولايات المتحدة الى الفرصة السانحة ، وسرعان ما اندفعت لسد الثغرة ·

وبعد أن ظلت لسنوات ، يقولون انها أصبحت فى حالة أفول ، تصرفت الولايات المتحدة من جديد كقوة عظمى · واذا كانت مساندة اليابان وأوروبا الغربية قد بدت ضعيفة فقد يرجع ذلك الى أن هذه الدول أدركت فجأة ان التأثير الأمريكى ، الذى تعزز بشكل كبير ، سيلعب ، من الآن فصاعدا ، دورا رئيسيا فى السياسة البترولية المستقبلية للدول العربية · وكانت أمريكا قد أكدت بوضوح سلطتها على اجمالى الاقتصاد البترولى ، ليس فى الشرق الأوسط فقط ، وانما استعادت مكانتها فى المنافسة العالمية بين الاقتصادات المتقدمة ·

غير أن البترول لم يكن الرهان الوحيد لهذه العملية · فأعداء بوش السياسيون لم يقدروا التهديد العراقى بانتاج ــ أو استخدام ــ أسلحة نووية وكيميائية حق قدره ·

لقد أوشك صدام حسين فى الماضى على بناء منشأة كفيلة بتزويد العراق بالسلاح النووى · لكن تم تدمير هذه المنشأة فى ٧ يونية ١٩٨١ بهجوم خاطف لطائرات « اف ــ ١٥ » و « اف ــ ١٦ » الاسرائيلية ، بعد أن اخترقت المجال الجوى السورى والأردنى · وتأخرت ، نتيجة لذلك ، المشروعات العراقية حوالى عشر سنوات · (وكانت ايران من المستفيدين غير المتوقعين بهذه الغارة ، اذ كان من المحتمل أن تتعرض لخطر النار النووية فى حربها مع العراق ، اذا ما توفرت لصدام حسين امكانية امتلاك سلاح نووى) ·

وفى ذلك الوقت ، سارع العديد من البلدان ، فى باقى العالم ، لادانة العملية الاسرائيلية ، وان كانوا يتنهدون سرا تنهيدة راحة وانفراج كرب · الا أن صدام حسين فى عام ١٩٩٠ ، تحدى العالم كله ·

وتقدم أزمة الخليج مثالا نموذجيا للاستخدام الكامل لثلاثية السلطة ــ العنف والثروة والمعرفة ــ على الصعيد العالمى · لقد استخدم صدام حسين العنف ضد الكويت ، وفرضت الولايات المتحدة والأمم المتحدة عقوبات اقتصادية ثقيلة على العراق ، وقاد المعسكران حربا لغزو الأذهان ·

لقد أدرك صدام حسين انه أضعف فى المجالين الاقتصادى والعسكرى ولذلك لجأ بشكل مكثف الى « السلاح النفسى والثقافى » ـ صور ورموز وأيديولوجية ودين ـ فداعب أمام كاميرات التليفزيون رؤوس الأطفال الرهائن ، ودعا الى حرب مقدسة ضد الغرب ، واستغل الحقد الطبقى ، ولوح بالقومية العربية ·

لقد جعلت أزمة الخليج صياغة استراتيجية أمريكية عامة لعالم ما بعد الحرب الباردة ، أمرا ملحا ، أكثر من أى وقت مضى ·

وقد تؤدى هذه الاستراتيجية ، على المدى الطويل ، الى انسحاب كل القوات الأمريكية ، تقريبا ، من أوروبا · غير أنه لم يتم حتى الآن اثارة احتمال اعادة نشر هذه القوات ليس فقط فى الشرق الأوسط ولكن فى المحيط الهادئ أيضا · ويمكن تبرير هذا التوجه بالسمات الجديدة للوضع فى هذه المناطق : شكوك عميقة حول مستقبل الصين ، واعادة تسليح اليابان ، والحرب الأهلية فى الفلبين ، فضلا عن اهتمام السوفيت الذى لا يفتر قط بكل هذه المناطق · ان الانتقال من « الاستراتيجية الأوروبية » الى « استراتيجية الباسفيك » سيحابى البحرية والطيران على حساب القوات الأرضية ، التى ارتبط مصيرها أساسا بالدفاع عن أوروبا الغربية · وقد بدأ عدد من البلدان المجاورة لليابان ، يشعر بالقلق ازاء القوة اليابانية ، وربما يرحب بعملية اعادة نشر القوات الأمريكية فى الباسفيك ، وان كان لا يصرح علنا بذلك ·

ولا تستطيع الولايات المتحدة بالطبع ، تأمين دور الشرطى لاجمالى عالم يموج بالتوترات والأخطار مثل عالمنا ، سواء باسمها أو باسم أى أحد آخر · هذا رغم أن قوتها المتميزة تسمح بالاعتقاد بأنها ستكون قادرة ، بالمشاركة مع بلدان أخرى أو منظمات دولية ، على اخماد الصراعات الاقليمية التى تهدد السلام العام ، فى الوقت المناسب · وفى العقود المهلكة التى تنتظرنا ، قد ترغب كثير من الدول فى التواجد النشط لمثل هذا الشرطى ، وليس فقط فى الشرق الأوسط ·

أفول توءمين :

ان اعداد استراتيجية جديدة سيعيد أيضا تشكيل الاقتصاد الذى يمثل العنصر الثانى من ثلاثية السلطة · فتخليص القوات المسلحة من هياكلها الضخمة التى تتطابق مع عصر الموجة الثانية ، وخلق أداة عسكرية متوافقة مع الموجة الثالثة ، تعتمد على السرعة والقدرة على الحركة ومدى عمل أوسع ، سيجعل من الممكن نفخ طاقة جديدة فى الاقتصاد ·

وعلى النقيض من ذلك نجد أن العمليات المنفصلة لخفض الميزانية ، والتى تتم تحت ضغوط الكونجرس المفتقرة لبعد النظر ، تؤدى الى الاضرار بالأبحاث والمشروعات الرئيسية ، كما تبطىء التقدم التكنولوجى للاقتصاد ككل ، والذى استفاد حتى الآن من العقود المبرمة مع البنتاجون ٠

ومن ناحية أخرى ، ان انسحاب القوات الأمريكية من أوروبا والذى يتعين أن يدفع أوروبا الى مضاعفة انفاقها العسكرى ، قد يسهم فى خفض عجز الميزانية الأمريكية ، ويقلل بالتـالى من تبعية البـلاد للمستثمرين اليابانيين وسـينجم عن ذلك ، ولو مؤقتـا ، حجم معين من البطالة لكنه سيكون مصحوبا بانخفاض فى سعر الفائدة وزيادة فى الاستثمارات ٠

وان كان لا يوجد ما يضمن أن يتم توجيه الأموال الفيدرالية ، التى تم توفيرها نتيجة لذلك ، الى الاصلاح الاجتماعى ، بالرغم من الاحتياج اليه منذ وقت طويل ، فان جزءا من هذه الأموال على الأقل ، سيذهب الى التعليم والرعاية الطبية المنزلية والتدريب المهنى واستخدامات أخرى ، واذا تم الربط بين هذه الاصلاحات بذكاء ، فانها قد تسهم فى تحسين مصير الجيل القـادم ٠

لقد كثر التباكى على الأفول الاقتصادى النسبى للولايات المتحدة ، وهو فى الحقيقة ، المقابل لنجاح الجهود الأمريكية المبذولة بعد الحرب العالمية الثانية لاعادة تعمير كل من اليابان وأوروبا ٠ وبالرغم من العديد من التأكيدات الخاطئة ، فان نصيب الولايات المتحدة من اجمالى الناتج العالمى لا يزال هو نفسه تقريبا منذ ١٥ عاما ٠

(لقد سجل هذا المؤشر انخفاضا ضخما عندما استعادت الاقتصادات الأوروبية واليابانية ، التى عانت من الاضطراب ، قوتها ٠ ويظـل هذا المؤشر ثابتا تقريبا ، منذ السبعينات ، فيما يتعلق بالولايات المتحدة) ٠

الا أن الانتاج لم يعد المؤشر الأول لتقييم صحة الاقتصاد ٠ فالولايات المتحدة تتفوق على كل من أوروبا واليابان فى قطاعى الخدمات والمعلومات ، وهما القطاعان الرئيسيان فى الاقتصادات فائقة الرمزية ٠ ولذلك لا تمثل البطالة بالنسبة لها مشكلة مزمنة ، كما هو الحال فى أوروبا ٠

كما يجب اعادة النظر فى مفهوم عجز الميزان التجارى ، الذى نشر الرعب لفترة من الزمن فى واشنطن ، فى ضوء قدوم هذا الاقتصاد الجديد فائق الرمزية ٠ فمن الخطأ الاعتقاد بأن الصادرات الأمريكية تراجعت ٠ ففى الثمانينـات ، تقدمت الصادرات بنسبة ٦١٪ ، ولكن خـلال الفترة نفسها زادت الواردات بسرعة أكبر ، وبما يزيد مرة ونصف عن الصادرات٠

فلقد تقدمت الصادرات الأمريكية الى اليابان بنسبة ١١٤ ٪ ، الا أن الواردات القادمة من اليابان قفزت لتتجاوز ٢٠٠٪ ٠ غير أن هذا التفاوت يتجه حاليا الى التناقص ٠ على أية حال ، فان اقتصادا يولى أهمية متزايدة للخدمات ، يمكن أن يكون اقتصادا صحيا تماما ، حتى وان كان عدد من منتجاته الجديدة غير قابل للتصدير مثل الخدمات الطبية أو التعليم ٠

وبالرغم من أن الولايات المتحدة قد انتابها القلق طويلا من جراء « عجزيها التوءم » (أى عجز الميزانية وعجز الميزان التجارى) ، فان هناك مشكلات أكثر خطورة يتعين عليها مواجهتها ، مثل مؤسساتها التى تجاوزها الزمن ، وعدم الاستقرار الاجتماعى الذى يؤدى الى تآكل المجتمع الأمريكى ، ويهدد بتمزيق الأسرة والجماعات العرقية ، بالاضافة الى مشكلة المخدرات فى مجتمع يعيش أفراده فى حالة اعتماد متبادل ، ويعتمدون بدرجة كبيرة على الدولة ٠

الأثر الحاسم لوودى الن :

ان نظام المعرفة أهم بكثير للولايات المتحدة ، على المدى الطويل ، من الانتاج بالجملة ٠

وان نظرة بسيطة على العنصر الثالث من ثلاثية السلطة ، يكذب على الفور كل الذين يتجاهلون السلطة الضخمة المتبقية للولايات المتحدة ، ودور المعرفة فى قوة البلدان ، أو لا يقدرونه حق قدره ٠

ففى الواقع ، تتمتع الولايات المتحدة بميزة ضخمة ، ألا وهى لغتها ٠ فاللغة الانجليزية هى اللغة الدولية فى مجالات البحث العلمى و التجارة والطيران والعديد من المجالات الأخرى ٠ والى أن تتمكن الترجمة بمساعدة الكمبيوتر من أن تجعل اللغات شفافة لبعضها البعض ، فان كون الملايين من البشر يفهمون الانجليزية ـ ولو جزئيا ـ يعطى الأفكار والابتكارات والموضات والمنتجات الأمريكية ، جمهورا عريضا فى العالم كله ٠

كما تمتلك أمريكا ورقة رابحة أخرى لها أهميتها ، ألا وهى معرفتها وخبرتها العلمية والتكنولوجية الضخمة ٠ لقد كثر الحديث عن انخفاض عدد براءات الاختراع الأمريكية ، فى اشارة الى مزيد من علامات الأفول فى هذا المجال ٠ لقد كانت الولايات المتحدة ، بعد الحرب العالمية الثانية ، الدولة الصناعية « الوحيدة » التى تستطيع القيام بأبحاث علمية وتكنولوجية على صعيد كبير ٠ ومع الأخذ فى الاعتبار هذه الظروف ، لم يكن مقبولا بالمرة أن تتمكن من الاستمرار طويلا فى تقديم نفس النسبة من براءات الاختراع ٠

لقد فقدت الولايات المتحدة حاليا احتكارها ، لكن قاعدتها العلمية لازالت أفضل من منافسيها · وطبقا لاحصاءات المؤسسة القومية للعلم ، فان ادارات البحث والتطوير الخاصة والعامة تدير ميزانية تقدر بحوالى ١٢٠ مليار دولار سنويا ، أى ثلاثة أضعاف الميزانية التى ترصدها اليابان لهذا الغرض وأكثر من ميزانيات اليابان والمانيا وفرنسا وبريطانيا مجتمعة·

ان ميزانية البحث والتطوير فى الشركات الخاصة تقدر بحوالى ٧٠ مليار دولار ، ويقدم البنتاجون باقى التمويل · وبالرغم من الانتقادات التى تدعى عكس ذلك ، فان جزءا كبيرا من ميزانية البنتاجون توجه للاقتصاد المدنى · (وطبقا لصمويل فوللر رئيس قسم الأبحاث فى ديجيتال اكويبمنت فان العديد من المنتجات مثل الكمبيوتر الشخصى أو محطات العمل ، كانت نتاج دراسات قامت بتمويلها وكالة مشروعات الدفاع للبحوث المتقدمة) ·

ولا يزال عدد الباحثين العاملين والمهندسين فى الولايات المتحدة ضعف عددهم فى اليابان ، وان كان هذا العدد يتجه هناك الى الارتفاع كالسهم ، حيث العلماء اليابانيون ـ ما عدا الجامعيين ـ هم أيضا أكثر شبابا ·

ولكن ضخامة الجهد الأمريكى لا يمثل فى حد ذاته ضمانا للنوعية والجودة · فخفض ميزانيات الدفاع ، واتجاه الشركات بشكل متزايد نحو الأبحاث التى تستهدف تحسين الانتاج ، يرسمان اتجاها غير ملائم · والخلاصة أن ، تقدم الولايات المتحدة فى قطاعات التكنولوجيا المتطورة لا يزال ذا مغزى ، بالرغم من المنافسة ·

ان التقدم اليابانى فى مجال الاعلاماتية وانتاج رقائق الذاكرة مذهل · لقد حققت ثلاث شركات ، هى « فوجى تسو » و « ان·اى · سى » ، و « هيتاشى » تقدما مدهشا · وتأتى فوجى تسو الآن مباشرة بعد ديجيتال ايكويبمنت التى تعد ثانى شركة عالمية فى مجال الاعلاماتية ، تليهما هيتاشى و ان · اى · سى · على مسافة قصيرة · ويسيطر اليابانيون على ٥٠٪ من سوق المكونات الالكترونية الخاصة بالاعلاماتية ، وعلى نصيب غير مسبوق يقدر ب ٨٥٪ من سوق رقائق الذاكرة ·

الا أننا لو اقتصرنا على أجهزة الكمبيوتر فى حد ذاتها ، فان الأمريكيين يمتلكون ٦٩٪ من السوق العالمية ، وتتقاسم أوروبا واليابان نسبة ال ٣١٪ الباقية · كما تنتج الولايات المتحدة ٦٢٪ من أجهزة الكمبيوتر الشخصى فى العالم ·

ففى عـام ١٩٨٨ ، كانت عشر شركات أمريـكية تعد من بين أكبر عشرين شركة فى مجال الاعلاماتية على مستوى العالم ، فى حين كان نصيب أوروبا ست شركات واليابان أربع شركات · وكانت « آى · بى · ام » وحدها تكافىء أكثر من ضعف أكبر ثلاث شركات يابانية فى هذا المجال ، أما ديجيتال اكويبمنت فكانت تكافىء أكبر ثلاث شركات أوروبية · وفى مجال الخدمات الاعلاماتية المتزايد الأهمية ، فان أكبر تسع شركات عالمية أمريكية الجنسية والعاشرة أوروبية · وكان نصيب اليابان فى عام ١٩٨٨ فى مجال الخدمات الاعلاماتية لا يتجاوز ٦ر١٠٪ ، ويتجه هذا النصيب الى التناقص كلما زاد النصيب الأمريكى ·

غير أن التقدم اليابانى فى مجال انتاج السوبر كمبيوتر باهر ، وهو مجال تعانى فيه الشركات الأمريكية من صعوبات كثيرة · ولكن السيطرة اليابانية تقتصر على مستوى الأجهزة والمعدات ، بينما تحتل الولايات المتحدة رأس القائمة بالنسبة لنظم الاستخدام والبرامج الاعلاماتية · الا أن السباق لم ينته بعد ·

أما فى مجال رقائق الذاكرة ، فلقد وجه الانتاج بالجملة فى اليابان ضربة قاسية للمنافسة الأمريكية · لكن شركة «آى · بى · ام » · كانت أول من أعلن عن انتاج رقيقة سعتها ١٦ مليون بيت ، أى أربعة أضعاف سعة أكثر رقائق الذاكرة تقدما ، وأكبر بكثير من السعات الحالية للرقائق اليابانية · وبالاضافة الى ذلك ، فان الاتجاه العام لا يصبو نحو الانتاج بالجملة بقدر اتجاهه نحو التخصص ، الذى فى اطاره تكتسب البرامج وأنظمة الاستخدام القوية — وهى نقطة ضعف اليابان — أهمية متزايدة بشكل مطرد · وتستحوذ الولايات المتحدة ، فى مجال البرامج الاعلاماتية وحده ، على ٧٠٪ من السوق العالمية التى تقدر بـ ٥٠ مليار دولار ، والتى تعيش نموا مذهلا ·

ولا نستطيع هنا ، الاسترسال فى الحديث عن مجالات أخرى ، مثل التوصيلية الفائقة والاتصالات اللاسلكية والمواد الجديدة والبيوتكنولوجى · الا أن الوقت لا يزال مبكرا للحكم على أثر ومردود هذه التكنولوجيات على نتيجة السباق العلمى والتقنى ·

وفضلا عن ذلك ، فان السرعة التى يجدد بها العلم نفسه ، وفعالية نظام الاتصال الذى ينقل الخبرة والمهارة الى من يحتاجونهما ، وقدرة البلاد على امتصاص الأفكار الجديدة الواردة من باقى العالم ، ستصبح مع مرور الوقت أكثر أهمية فى هذا السباق عن الموقف فى حالة معينة · فالمهم هو الحركة وليس الخبرة المكتسبة ·

ان أكبر آفة فى الولايات المتحدة هى بلا شك نظامها التعليمى « المصنعى » الذى تفتك به المخدرات والعنف · الا أن النظام التعليمى يعانى للأسف من تشويش واختلال خارج الولايات المتحدة أيضا ، خاصة فى التجمعات الكبيرة · هل توجد مدارس جيدة فى بريكستون أو بيلميرمير أو برلين ؟ ان أزمة التعليم ليست قاصرة على الولايات المتحدة ·

ان ما يضفى تميزا على المؤسسات التعليمية الأمريكية ، بالرغم من كل شىء ، كونها أقل مركزية عن المدارس الأوروبية ، واليابانية ، وبالتالى أقل خضوعا للأوامر الوزارية · كما أنها ـ ظاهريا على الأقل ـ أكثر انفتاحا للابتكارات والتجارب ·

وللأسف ، يتطلب عالم الأعمال والبحث العلمى ، المزيد من الرياضيات والعلوم والمعارف المتخصصة والدبلومات · وقد يثير الدهشة ، أن نعرف أن التقدم التكنولوجى الذى حققته اليابان بين عامى ١٩٧٥ و١٩٨٨ يتطابق فى الواقع ، مع زيادة طفيفة ، فى عدد دبلومات الهندسة ودرجات الدكتوراه فى هذا البلد ·

ولكن بالرغم من ارتباك نظامها التعليمى والتربوى ، فان أمريكا تمتلك سلطة عالمية ، ألا وهى تأثيرها الثقافى الضخم على باقى العالم · ولا يتعلق الأمر هنا باصدار حكم عن نوعية هذه الثقافة ـ وهى مسألة قد تثير بالطبع جدلا مثيرا ـ وانما بتسجيل أن الثقافة الأمريكية تنتقل ، بشكل أو آخر ، الى خارج الحدود · وبالتالى ، يزيد عدد الكتب الأمريكية التى تترجم الى اللغات الأجنبية عن تلك المترجمة الى الانجليزية · ومن وجهة نظر معينة ، قد يدعو هذا الوضع للأسف ، لأنه يحرم الأمريكيين من مصدر نفيس للأفكار والآراء ، كما أنه يجسد هيمنة أمريكية على عمليات التبادل الثقافى ·

وسواء أكان ذلك للأفضل أم للأسوأ ، فان الجموع فى العالم كله ، تتوق لتبنى المواقف وأسلوب الحياة والموضات والابتكارات الغربية ، والأمريكية أساسا · لقد قيل كثيرا ، ان هذا الانجذاب لأمريكا ناجم من تعدد مكوناتها العرقية ـ تغذيه يهودية وودى آلن ، وزنجية بيل كوسبى ، وايطالية شخصيات مثل كولومبو أو المخرج مارتن سكورسى ، والطابع اليابانى لبات موريتا بطل « طفل الكاراتيه » ، أو الكوبى لديزى آرناز ، أو « الوجه الباهت » لكلينت ايستوود ·

ان تـأثير كل صور الولايـات المتحدة ، وخصوبة أبحاثها العلمية والتكنولوجية ، هى التى تمثل تهديدا « لمتشددى » الصـين وآيات الله الايرانيين ، أكثر من قوتها الاقتصادية أو العسكرية · ان الانتاج والبث التليفزيونى الأمريكى هو الأكثر شعبية فى العالم ، ولا توجد قوة كبرى تمثل منافسا حقيقيا فى هذا السباق ·

باختصار ، تظل الولايات المتحدة مصدرا غنيا للابتكار والتجديد ، فى مجالات العلم والتكنولوجيا والأعمال والفن والمعرفة ، بالمعنى الواسع للكلمة · وقد تتناقص هذه الميزة خلال العقود القادمة · لكن الصعوبة التى ستجدها الأمم الأخرى فى الدفاع عن نفسها أمام هذا التقدم الثقـافى ، ستكون أكبر من صعوبة بنائها لترسانة جديدة أو تكامل اقتصاداتها ·

يوضح لنا هذا الاستعراض لثلاثية السلطة أن أمريكا ، بالرغم من مشكلاتها الخطيرة ، أبعد ما تكون عن نمر من ورق · ستشهد صراعات اجتماعية وعنصرية وجنسية ، خلال العقود القادمة ، تبعا لانتقالات السلطة التى ستحدث داخلها أو خارج حدودها ، الا أن الاضطرابات الداخلية فى الولايات المتحدة لا تقارن ، على أية حال مع الثورات المتوقعة فى أوروبا ، التى تعـد أقل الشركاء الثـلاثة المشاركين فى سـباق السلطة العـالمية استقرارا · ولن تفلت اليابان أيضا من الصراعات السياسية والاجتماعية فى عالم مزعزع حتى النخاع ·

غير أن مثل هذه التأكيدات السريعة قد تتسم بالانطباعية ، ويحق مناقشتها نقطة نقطة · لكنها تحاول أن توضح لنا ، اجمالا ، أن الولايات المتحدة أكثر المراكز الرأسمالية الثلاثة الكبرى فى العالم توازنا ، وأنها تحتفظ بتفوق فى أهم عنصر من عناصر ثلاثية السلطة ، ألا وهو المعرفة ·

اختيـار الشركاء :

ترتكز أغلب التوقعـات عن تطور السلطة العالمية على افتراضـات ساذجة وتعريف خاطىء للسلطة ·

لقد أكد بول كنيدى مثـلا فى كتابـه « صـعود القوى الكبرى وانهيارهـا » على أفول أمريكى محتمل ، الا أن نظريته ذائعة الصـيت لا تقيس السلطة الا بمقاييس الثروة والقدرات العسكرية · ويكتفى كنيدى بمجرد الاشارة الى تأثير الأيديولوجية والدين والثقافة ، لكنه لا يقدر هذا التأثير حق قدره ، بالرغم من أنه أصبح أكثر حسما من أى وقت سابق · انه يهمل دور المعرفة الذى بات جوهريا بالنسبة للثروة الاقتصادية والقوة العسكرية · فان مركز السلطة يكمن حاليا فى المعرفة ·

بالاضافة الى ذلك ، فان السلطة ــ كما سبق أن رأينا ــ ليست مسألة كم وانما هي مسألة نوعية • وترتبط قوة أمة ما بأهدافها الخاصة ، وليس فقط بمقارنة قوتها مع الآخرين • فان ما يمكن اعتباره الرد المناسب لهدف معين ، مجسدا نوعا معينـــا من القيم ، قد يبدو فى حالات أخرى غير مناسب على الاطلاق •

وعلى نقيض أوروبا التى تركز على رؤية اقليمية ، واليابان المترددة بين سياسة اقليمية وأخرى عالمية ، فان الولايات المتحدة تبحث عن دور عالمى • فبعد أن قادت ائتلافـــا دوليـــا ، طوال نصف قرن ، سيكون من الصعب على أمريكا أن تحصر طموحاتها فى منطقة واحدة • غير أن الأمر لا يتعلق فقط بعوامل نفسية ، فالاقتصاد الأمريكى يرتبط ارتباطا أصليا باقتصاد باقى العـــالم ، ويعتمد على تنويعة كبيرة من العلاقـــات ، فاذا ما انفصلت الولايات المتحدة فجأة عن جزء كبير من هذا الاقتصاد العالمى ، فستكون عواقب ذلك وخيمة عليها • ولن يتحمل أى زعيم أمريكى مثـــل هذه المسئولية •

وقد يكون الشىء نفسه صحيحا بالنسبة لليابان وأوروبا أيضا • ومن ثم فان أى تهديد جدى بالعودة الى السياسة الحمائية ــ لوضع حد لأزمة اقتصادية مثلا ــ سيزعزع تماما العلاقات بين المراكز الرأسمالية الثلاثة الكبرى • ولا ننسى أن رقم ثلاثة هو فى الأساس رقم غير مستقر ، فالثلاثى يميل غالبا الى التفكك الى اثنين وواحد • ويناضل العديد من الدول والمناطق لكى تحتل مكانا فى نظام سلطة القرن الواحد والعشرين • وسنشهد ظهور تحالفات غريبة واستراتيجيات غير متوقعة • كما ستتقدم بلدان الى صدارة المسرح العالمى بعد أن كانت قد أقصيت منذ زمن طويل لصفحات التاريخ الأخيرة • ولقد بدأ المسئولون الأوروبيون يتقربون من واشنطن بهدف خلق أشكال جديدة من التحالف لن تكون موجهة بعد الآن ضد موسكو •

وتقتصر بعض الاقتراحات على مجالات معينـــة مثـــل التليفزيون ذى الوضـــوحية العالية أو التكنولوجيـــا بشكل عام ، الا أن الدول تحتفظ فى ذهنها بطموحات أوســـع • وتعبر جريدة « داى شتوتجارت زايتونج » الألمانية عن فكرة شائعة ، حيث تقول : « سيستفيد الجميع من علاقات أوثق بين أوروبا والولايات المتحدة [•••] وستسمح هذه العلاقات باعداد سياسة مشتركة [•••] فى مواجهة منافسة اليابان » •

ولكن اذا ظلت الاستراتيجيات الأمريكية طويلة المدى غير متجاوبة مع هذه الاقتراحات ، وسمحت للتاريخ أن يتحرك نحو تحالف ضمنى بين

اليابان وأوروبا ذى صبغة ألمانية ، يقتسمان به اقتصاد العالم فيما بينهما . (هناك شركات يابانية مثل « جى . فى . سى » . تحاول أن تنقل مقرها الرئيسى فى أوروبا الى برلين ، وترتبط « ميتسوبيشى » بروابط قوية مع « مسر شميت ») .

ان الولايات المتحدة . حتى وان تكاملت مع سوق شمال أمريكية مشتركة ، لا تستطيع أن تصمد طويلا لمثل هذا الضغط ، الذى سرعان ما قد يولد كارثة بحجم حرب عالمية ثالثة .

وعلى النقيض من ذلك ، قد يكون لتحالف أمريكى يابانى نتائج مختلفة تماما .

لكن العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان لم تكن أسوأ مما هى عليه الآن ، منذ الحرب العالمية الثانية . وفى الواقع ، لا تستطيع الهوة بين البلدين أن تزداد اتساعا دون أن يولد ذلك شرورا خطيرا . اذ توجد فى كل من طوكيو وواشنطن شخصيات خطيرة تبحث عن نجاحات انتخابية أو مال سهل ، تثير بدون أى احساس بالمسئولية ، انفعالات وأهواء مثيرة للقلق .

وعندما يصور شينتارو ايشيهارا ، العضو السابق فى الحكومة اليابانية ، أن الولايات المتحدة قد تحتل اليابان مرة أخرى ، لكى تمنعها من بيع مكونات الكترونية متطورة الى الاتحاد السوفيتى ، فانه يتوقع احتمال نشوب حرب بينهما . وهو بذلك يردد فكرة قد تطرأ — وان كانت غير معقولة — فى أذهان اليابانيين والأمريكيين . انه بذلك مثل نظرائه من الأمريكيين الذين يتخيلون صواريخ يابانية وأمريكية موجهة ضد بعضها البعض . لكن يتعين على كل هؤلاء أن يتذكروا ، أن من يمتطى النمر لا يستطيع قط أن ينزل ويسير على قدميه .

ففى عالم فى قمة الاضطراب ، وزاخر دائما بالمفاجآت لا يمكن استبعاد أى احتمال . ولكن حتى أبسط المخاطرات ، قد تثير رعب من أنهكتهم القوة الأمريكية الفائقة ، أو المنافسة الأمريكية اليابانية . ان مثل هذا الصراع قد يغرق العالم كله فى كابوس سيعانى منه لقرون قادمة .

كما قد تتفاقم العداوة المتنامية بين قوتى الباسفيك اذا اتخذت أوروبا تدابيرا حمائية ، لأنها بذلك ستفرض على باقى العالم منافسة محمومة بشكل متزايد . ولذلك تكافىء فكرة « قلعة أوروبية » مغلقة أمام العالم الخارجى ، تهديدا للسلام العالمى بالموت .

وفي مثل هذا الوضع المتفجر ، تستطيع أمريكا أن تدفع الآخرين الى مطالبتها بأن تكون « الورقة » المساعدة لأوروبا أو اليابان فى المنافسة التى تضع كل منهما فى مواجهة الآخر ، ثم تقبل بعد ذلك القيام بهذا الدور ، كما يمكنها أن تقف بينهما وتقوم بدور الوسيط • الا اذا كونت هى تحالفا لكى تسيطر على العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين • لكن مع من ؟

هنا تظهر بوضوح أهمية تحليل ثلاثية السلطة • لأننا اذا استطعنا تقدير تأثير العنف والثروة والمعرفة ، يصبح من الممكن حصر وتحديد عواقب هذه العناصر ، بمقياس السلطة ، على توليفة أو أخرى •

فعلى سبيل المثال ، سيضم التحالف الأمريكى - الأوروبى قوة عسكرية ضخمة (نوع من السوبر ناتو) ، وسيكون سوقا عملاقة ، ويخلق ثروة مهولة (وان كانت قائمة أساسا على الانتاج) • كما سيتيح هذا التحالف جمع المعرفة والتكنولوجيا الأمريكية على مثيلتها الأوروبية محققا سلطة ثقافية باهرة • وستجعل الروابط الثقافية والعرقية القديمة مثل هذا التحالف طبيعيا تقريبا •

ولكن اذا تم توجيه هذا التحالف ضد اليابان ، فسيؤدى ذلك الى ايقاظ ذكريات الثلاثينات ، ويدفع اليابان الى اعادة التسلح ، ويضع الصقور على رأس حكومتها • كما قد تتجه الى بعض الدول النامية لكى تجد منافذ لمنتجاتها ورؤوس أموالها ، وان كانت ذات نوعية أقل • وقد يؤدى هذا التحالف عسكريا ، الى اتفاق يابانى - روسى ، بل والى شكل جديد من المغامرة الصينية •

ان ابعاد اليابان عن أوروبا - اذا كان ذلك معقولا - بل وعن الولايات المتحدة ، يعادل وضع قنبلة عالمية موقوتة •

ان التفكير البارد ، يكشف لنا أن التحالف بين الولايات المتحدة واليابان سيؤدى الى موقف مختلف جذريا ، بالرغم من حالة التوتر الحالية بين البلدين • ويجب عدم اهمال هذا الاحتمال فى عالم يمكن أن يتحول فيه الرأى العام بين ليلة وضحاها ، وحيث قامت أمريكا بتقديم دعمها لجورباتشوف •

ومهما بدا ذلك متناقضا ، فان تحالفا أمريكيا - يابانيا يستهدف موازنة سلطة أوروبا سيضم أول وثالث ميزانية عسكرية فى العالم ، وأكثر اقتصادين ازدهارا ، وأسرع القواعد العلمية والتقنية تطورا • ويمكن

لمثل هذه التوليفة أن تشكل ثنائيا استراتيجيا أو سلطة ثنائية تشمل القوتين الاقتصاديتين الأسرع نموا وانطلاقا ، أكبر دولتين فى الباسفيك فى مواجهة أوروبا ·

وهناك عامل آخر ، مثير للقلق ، يميز بين هذين النوعين من التحالفات ، التى قد تجد أمريكا نفسها ممزقة بينهما · وقليلا ما يشار الى هذا العامل فى واشنطن أو طوكيو أو العواصم الأوروبية ، حتى ان استراتيجيات الأمم الأقوى والأغنى تميل الى نسيانه · غير أن هذا العامل قد يزن كثيرا ، على المدى الطويل ، فى التوافق بين الأمم ·

فكل تحالف بين أوروبا والولايات المتحدة ، بدون اليابان ، سيعادل فى الواقع ائتلافا أحادى العنصر ، فى عالم أصبح فيه العنصر الأبيض أقلية بشكل متزايد · وعلى النقيض من ذلك ، سيبدو التحالف الأمريكى اليابانى ، بالرغم من العنصرية الخاصة لهذين البلدين ، كائتلاف بين عنصرين · وسيكون لهذه السمة تأثير عميق على باقى العالم ·

ان التاريخ لا يتقدم على قضبان واضحة التحديد نحو مستقبل محدد مسبقا · وفى عصر تحول السلطة ، الملائم لكل الانقلابات الثورية ، يصبح أى استبدال للسلطة ممكنا · فالضغط الاسلامى فى الجنوب يثير قلق أوروبا ، والصين مهددة بحرب أهلية · ويمكن تصور العديد من السيناريوهات المتفجرة الأخرى · ومن المؤكد ، أن باقى العالم لن يبقى مكتوف الأيدى ، وهو يرى أوروبا واليابان والولايات المتحدة يتقاسمون الكعكة ، ولكن خبراء الاستراتيجية فى كل من واشنطن وطوكيو وبروكسل وبرلين سيضطرون ، قريبا الى اختيار معسكرهم فى هذه المنافسة الثلاثية الكبيرة على السلطة العالمية ·

وسيحدد القرار الذى ستتخذه واشنطن (بتبصر أولا) مستقبل باقى العالم ، من الصين الى الاتحاد السوفيتى ، مرورا بالشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ·

ما الذى يمكن قوله عن هذا الصراع بين القوى الرأسمالية من أجل السلطة العالمية ؟ ومن سينتصر من هذه القوى الثلاث فى الانتقال الكبير القادم للسلطة الذى يشهده التاريخ البشرى ؟

ان الاجابة على هذا السؤال ، كما سنرى فى الفصل التالى ، هى أننا نطرح سؤالا رديئا ·

الفصل الرابـع والثلاثون

المصــارعون العالميــون

قد يكون التساؤل عن الأمة التى ستسود العالم فى القرن الحادى والعشرين لعبة مثيرة ، لكنه فى الواقع سؤال ردىء ــ أو على الأقل سؤال لم يحسن طرحه ــ لأنه يهمل قدوم « المصارعين العالميين » ، وهو ما يمكن اعتباره أهم انقلاب منذ تكوين الدولة ــ الأمة ٠

هنالك مجموعة جديدة تبرز وتنطلق بالفعل للانقضاض على عناصر السلطة التى كانت فى السابق وقفا على الدولة ــ الأمة وحدها ٠ بعض هذه الجماعات ايجابية أما البعض الآخر فهو ضار تماما ٠

عـودة الدين :

عندما أهدر آية الله الخومينى ــ المتعطش للدم ــ دم سلمان رشدى ، لأنه اعتبر روايته « آيات شيطانية » تجديفا ، أرسل بذلك رسالة الى كل الحكومات ، وتناقلت الأقمار الصناعية والتليفزيون والصحافة هذه الرسالة على الفور ، غير أن المغزى الحقيقى لهذه الرسالة لم يدرك قط ، بل تم اساءة فهمه كلية ٠

ويمكن بالفعل اثبات أن عمل سلمان رشدى كان فظا ، وأنه أهان المسلمين وسب دينا كاملا وانتهك حرمة القرآن ، الا أن ذلك لا يمثل المغزى الحقيقى لرسالته ٠

لقد أعلن الخومينى بهذه الرسالة أن الدول ــ الأمم لم تعد الممثل الوحيد ولا حتى الرئيسى على الساحة العالمية ٠

بدا الأمر ، خارجيا ، وكأن الخوميني يؤكد أن ايران ، وهي دولة ذات سيادة ، لها « الحق » في تحديد ما يحق لمواطني دول أخرى ذات سيادة أن يقرءوه أو لا يقرءوه · وأنه بادعائه هذا الحق وبالتهديد الارهابي لفرض تطبيقه يدفع الرقابة ، التي كانت دائما قضية داخلية ، الى مصاف الاجراء العـالمي ·

وفي عالم يكتسي فيه الاقتصاد ووسائل الاعلام بعدا عالميا ، يطالب الخوميني بالسيطرة على الأذهان على صعيد عالمي ·

وفي أزمنة أخرى ، ادعت بعض الأديان حقـا مماثلا ، مع احتمال حرق المخالفين في سبيل تطبيق هذا الحق · ولكن الخوميني عندما أطلق تهديدات الاغتيال عبر الحدود ، لم يكتف بمهاجمة مواطن بريطاني وانما تحدى بذلك أكثر الحقوق رسوخا لكل دولة ــ أمة ، ألا وهو حق حماية مواطنيها ·

وكأن الخوميني قد قال ان الدول « ذات السيادة » ليست كذلك اطلاقا وانما هي خاضعة لسيادة عليا ذات تبعية شعبية ، وهو وحده الذي يحددها ، مؤكدا بذلك أن الدين أو الكنيسة لهما سلطات أعلى من سلطات الدولة ــ الأمة ·

انه في الواقع ، يطرح للبحث مرة أخرى كل هياكل القوانين والأعراف الدولية « الحديثة » القائمة ، حتى الآن ، على مسلمة أن الأمم تشـكل الوحدات الأساسية على الساحة الدولية · وتجسد هذه الفرضية كوكبا مقسما بوضوح الى دول لكل منها راية خاصة بها ، وجيش وأراض محددة بدقة ، ومقعد في الأمم المتحدة ، وحقوق محددة بشكل منطقي وعقلاني ·

ولم يكن مجرد صدفة ، أن بدا تصرف الخوميني بالنسبة لباقي العالم كاشارة الى عودة قاسية نحو عصر ما قبل الصناعة · لأن تقديم حقوق الدين على حقوق الدولة ــ الأمة ، يعيد الى الأذهان عقيدة بابوات العصور الوسطى في زمن الحروب الدينية الدامية ·

وتكتسب هذه الظاهرة أهمية قصوى لأننا قد نعود الى النظام الذي كان ساريا قبل عصر التصنيع ، عندما كانت السلطة السياسية غير موزعة بعد بين كيانات قومية محددة بوضوح ·

كان مجتمع ما قبل الصناعة خليطا من دول ــ مدن ، وموانيء تحت سيطرة القراصنة ، وولايات اقطاعية وحركات دينية ، وكيانات أخرى تتنازع السلطة فيما بينها ، وتدعى حقوقا هي حاليا من حق الحكومات وحدها · وكان ما يمكن أن نسميه أمة بالمعنى المقرر حاليا نادرا للغاية ·

وكان النظام ، فى الواقع ، أبعد ما يكون عن التجانس . وعلى النقيض ، ـ كان نظام الدولة ـ الأمة الذى تشكل خلال قرون المجتمع المصنعى أكثر تماسكا وتجانسا بكثير .

ونعود من جديد الى نظام عالمى أكثر تباينا وأقل تجانسا ، فى عالم متحرك ذى تكنولوجيا متقدمة واتصالات فورية وصواريخ نووية وأسلحة كيماوية . انها قفزة ضخمة تقودنا فى ذات الوقت الى الأمام والى الخلف وتدفع بالأديان من جديد الى مركز المسرح العالمى . الا أن ذلك لا يخص الأصولية الاسلامية وحدها .

لقد سلكت القوة العالمية المتنامية للكنيسة الكاثوليكية تطورا مختلفا تماما ، حيث لعبت دبلوماسية الفاتيكان دورا مهما فى التغيرات السياسية الأخيرة ، ابتداء من الفليبين الى بنما . أما فى بولندا فقد كسبت الكنيسة الاعجاب الشعبى لمعارضتها العنيفة للنظام الشيوعى ، وأصبحت تمثل قوة مهمة تساند أول حكومة غير شيوعية تحكم البلاد . ويعتقد دبلوماسيو الفاتيكان أن الانقلابات التى وقعت فى أوروبا الشرقية ترجع ، الى حد كبير ، الى مبادرات يوحنا بولس الثانى .

ويمد البابا يده الى الأديان الأخرى ، فهو ليس متعصبا ، كما أنه يقف ضد العنف العنصرى ، الا أن دعوته من أجل « أوروبا مسيحية » وانتقاداته المتكررة للديمقراطيات الغربية تردد أصداء قرون مضت .

وتعيد سياسة الفاتيكان الى الأذهان وثيقة منسية منذ زمن طويل ، كانت تتداول فى العواصم الأوروبية فى عام ١٩١٨ ، تدعو الى اقامة دولة كاثوليكية عظمى تضـــم بافاريـــا والمجر والنمسا وكرواتيـــا وبوهيميـــا وسلوفاكيـــا وبولنـــدا . وتشمل أوروبـــا المسيحية هذه (وهى ليست كاثوليكية فقط بالطبع) اجمالى أوروبا حاليا ، من الأورال الى الأطلنطى ، أى حوالى ٧٠٠ مليون نسمة .

ان مثل هذا التطاول من جانب الدين ، ينتهك المبادىء التى قامت عليها منذ قرون قواعد الديمقراطية فى العالم الصناعى ، وهى القواعد التى تضع مسافة لا يستهان بها بين الكنيسة والدولة . (اذا أصبحت أوروبا مسيحية ولم تعد علمانية ، فما هى مكانة غير المؤمنين أو الهندوس أو اليهود فيها ، فضـــلا عن ١١ مليونـــا من المهاجرين المسلمين الذين تم اجتذابهم الى أوروبا خلال العقود الأخيرة لتأمين عمالة رخيصة ؟ ومع ذلك ، يحلم بعض الأصـــوليين المسلمين ـــ طبقـــا لمدير معهد العـــالم العربى فى باريس ـــ بجعل العاصمة الفرنسية ، خلال بضع سنوات ، « عاصمة الاسلام كما كانت قديما بغداد أو القاهرة ») .

وبالتالى ، لا يمكن تحليل بروز السلطات العالمية خلال السنوات القادمة دون أخذ صعود الاسلام والكاثوليكية والأديان الأخرى فى الاعتبار ـ والصراعات والحروب المقدسة التى ستنجم عن ذلك ٠

امبراطورية الكوكايين :

ليست الأديان هى القوة الوحيدة التى تتحدى سلطة الدولة ـ الأمة٠ ففى تحليل للتجارة العالمية للمخدرات كتب جيمس ميلز يقول : « ان الامبراطورية الخفية تملك الآن سلطة وثروات وجاها أكثر من العديد من الدول ٠ قد لا يكون لهذه الامبراطورية علم فى الأمم المتحدة الا أن لها جيشا ووكالات استخبار ودوائر دبلوماسية أقوى بمراحل من دوائر العديد من البلدان » ٠

ان ما فعله كارتل المخدرات من ارهاب وشلل للحكومة فى كولومبيا، بعد أن قلب رأسا على عقب التوازن الاقتصادى للبلاد ، يوضح بما فيه الكفاية أن الجماعات الخارجة عن القانون ـ حتى وان كانت بعيدة عن تجارة المخدرات ـ قد تستطيع أن تفعل الشىء نفسه فى المستقبل القريب ٠

ويمكن قياس التهديد الذى يمثله هذا الكارتل بضخامة أجهزة الأمن التى تم نشرها حول الرئيس بوش ورؤساء بيرو وبوليفيا وكولومبيا أثناء انعقاد القمة المسماة « قمة قرطاجنة لمكافحة المخدرات » ٠ اذ لم تتردد السلطات الكولومبية فى تقديم أسراب طائرات مقاتلة وأسطول سفن حربية ووحدات ضفادع بشرية وفرق لمكافحة الارهاب بالاضافة الى آلاف الجنود ٠ هذه القوات لم تكن موجهة ضد دولة معادية ولكن ضد عصابة عائلية ٠

وتواجه الحكومات صعوبات متزايدة فى مكافحتها لهؤلاء اللاعبين الجدد على الساحة الدولية نظرا لشدة بيروقراطيتها والبطء الشديد لردود فعلها ٠ فهى مرتبطة بالعديد من العلاقات الدولية المتشابكة التى تتطلب مشاورات واتفاقيات مع حلفائها ٠ كما يتعين عليها مواجهة عدد لا يستهان به من جماعات المصالح فى الداخل ، بحيث لا تملك قط ، الوقت اللازم للرد على مناورات بارونات المخدرات أو المتعصبين الدينيين أو الارهابيين ٠

وعلى النقيض من ذلك ، لدى العديد من «المصارعين العالميين» ورجال حرب العصابات وكارتلات المخدرات هياكل غير بيروقراطية بل وسابقة للبيروقراطية ، يرأسها زعيم واحد يتمتع بكاريزما ، ويمكنه التصرف بسرعة كبيرة واحداث نتائج مرعبة وفاجعة ٠ وقد يصعب أحيانا معرفة من

هو الزعيم الحقيقي • وتميل الحكومات الى الهروب من مثل هذه الصراعات المعقدة • فمع من يمكن توقيع اتفـاق ؟ واذا أمكن تحديد هذا الشخص فكيف يمكن ضمان احترام مثل هذا الاتفاق ؟ هل ستستطيع الحكومات اطلاق سراح الرهائن أو ايقاف تدفق المخدرات أو منع الهجمات الارهابية أو أعمال القرصنة ؟

ان القوانين الدولية التى احتوت الفوضى فى السابق ، باتت عاجزة تماما عن معالجة هذه الحقائق العالمية الجديدة •

وفى عـالم مكتظ بالأقمار الصناعية وأجهزة الليزر والكمبيوتر ، والأسلحة المصغرة الحجم والفائقة الدقة ، والفيروسات الكفيلة بمهاجمة قلب النظام الاعلاماتى مباشرة ، فان الأمم كما نعرفها مهددة بأن تجد نفسها أحيانا فى مواجهة أعداء أقوياء ، قدراتهم تفوق قدراتها مليون مرة !

تشتت « الطغـاة » :

اذا كانت الدول عاجزة عن مكافحة الارهاب أو التعصب الدينى ، فانها تجد صعوبة متزايدة فى السيطرة على الشركات الكبرى التى تقوم على مهل وبحرية تامة ، بنقل الأموال والفروع والعاملين والتلوث الخاص بها من بلد الى آخر •

لقد شـجع تحرير الأسواق المالية ظهور ونمو الشركات الـ ٦٠٠ العملاقة التى كان يطلق عليها فيما مضى اسـم « المتعددة الجنسية » ، والتى تمثل حاليا خمس كل القيمة المضافة للانتـاج الزراعى والصناعى العالمى • الا أن الزمن قد تجاوز الآن تعبير « متعددة الجنسية » ، فالشركات العملاقة عديمة الجنسية أساسا •

حتى وقت قريب ، كانت الشركات متعددة الجنسية « تنتمى » لبلد أو آخر حتى وان زاولت نشاطها فى العالم كله • كانت « آى • بى • ام » بداهة شركة أمريكية • أما فى عصر النظام الجديـد لخلق الثروة ومع ارتبـاط شركات ، من العديـد من البلدان ، فى شـكل « كونسرتيوم » أو « تجمع للمنتجين » يصبح من العسير تحديد جنسية شركة ما • فشركة « آى • بى • ام ـ يابان » تعتبر شركة يابانية من العديد من الجوانب ، كما تملك فورد ٢٥ ٪ من أنصبة مازدا • وتنتج هوندا سيارات فى الولايات المتحدة وتصدرها الى اليابان • وتعد جنرال موتورز أكبر حامل أسهم فى شركة ايزوزو • ويؤكد مستشار الادارة كنيشى أوهماى ذلك قائلا : « من الصعب تحديد جنسية [•••] أية شركة عالمية • فكل هذه الشركات ترفع علم عملائها وليس علم بلدها الأصلى » •

ما هي « جنسية » فيزا انترناشيونال ؟ يقع المقر الرئيسي للشركة في الولايات المتحدة ولكنها ملك ل ٢١ ألف مؤسسة مالية موزعة في ١٨٧ بلدا ، ومجلس ادارتها ومجالسها الاقليمية منظمة بطريقة لا تسمح اطلاقا لأية دولة أن تملك ٥١ ٪ من الأصوات ٠

ويمكن ، مبدئيا ، أن تنتقل ملكية شركة ما من بلد الى آخر بين عشية وضحاها ، نظرا لعمليات اندماج الشركات والاستيلاء على مقاليد السلطة فيها وزيادة رأس المال على الصعيد الدولى ٠ ومن ثم تغدو الشركات الكبرى لا جنسية لها بشكل متزايد أو عبر قومية ، فهي تستمد رؤوس أموالها وقادتها من بلدان مختلفة ، وتخلق فرص عمل وتوزع أرباحها في عدد كبير من الدول ٠

ان مثل هذه الانقلابات تضطرنا الى اعادة التفكير في مفاهيم ، محملة بمدلولات عاطفية ، مثل القومية الاقتصادية والاستعمار الجديد أو الامبريالية ٠ على سبيل المثال ، يعتقد سكان أمريكا اللاتينية أن الامبريالية « اليانكية » (الأمريكية) تستخلص « أوباحها الفائقة » من بلادهم ٠ ولكن اذا تم توزيع « الأرباح الفائقة » المستخلصة من عملية في المكسيك ، بين مستثمرين موزعين بين اليابان وأوروبا الغربية والبرازيل مثلا (بل والصين ذات يوم) فمن ، في هذه الحالة ، سيكون الامبريالي ؟

ما الذى يحدث عندما يكون المقر الرئيسى لشركة ما فى ماكاو أو كوراساو وحملة أسهمها موزعين بين ما لا يقل عن عشر دول ، ويتم تبادل هذه الأسهم في ست بورصات ، من بومباى الى سيدنى ومن باريس الى هونج كونج ؟ وعندما يكون المستثمرون المؤسسيون أنفسهم عبر قوميين ؟ وعندما يكون المديرون قادمين من العالم كله ؟ عندئذ من يكون « الطغاة الامبرياليون » ؟

لقد أصاب الاضطراب كل العلاقات بين الشركات العالمية والحكومات نتيجة هذا الفقدان للهوية القومية ٠ وفي السابق كان قادة الدول ، التى تنتمى لها هذه الشركات ، يشجعون مصالحها فى الاقتصاد العالمى بل ويمارسون ضغوطا دبلوماسية لخدمة أهداف هذه الشركات ٠ وفي كثير من الأحيان كان القادة يلوحون ، عند الضرورة ، بالتهديد بعمل عسكرى (أو يقومون به فعلا) لحماية استثماراتها والعاملين لديها ٠

ففى بداية السبعينات ، عملت إل « سى ٠ آى ٠ ايه » بنشاط لزعزعة حكومة الليندى فى شيلى بناء على طلب « آى ٠ تى ٠ تى » ٠

وشركات أمريكية كبرى أخرى · وفى المستقبل ، ستكون الحكومات أقل نشاطا وهمة فى الاستجابة لرغبات الشركات التى لن تكون قومية ولا دولية وانما عبر قومية ·

اذن ، ما الذى سيحدث اذا ما هـدد ارهابيون أو رجال عصابات أو دول معادية ، تجهيزات ومعدات احدى كبرى الشركات عبر القومية أو العاملين لديها ؟

وممن ستطلب العون فى هذه الحالة ؟ وهل ستكتفى هذه الشركة بأن تقطع علاقاتها بلطف مع مستثمريها ؟

مرتزقـة الصـناعة :

ان القوة العسكرية ، هى عنصر السلطة الوحيد الذى تمتلكه الدولة ـ الأمة ولا يمتلكه « بعد » الطامحون الآخرون للسلطة · ولكن اذا فشلت الدول والقوى الدولية الأخرى فى فرض النظام ، فمن المحتمل تماما أن يـأتى اليوم الذى تقرر فيه الشركات عبر القومية ، أن الوقت قد حـان لتشكيل ألويتها الخاصة ·

مهما بدا ذلك غريبا ، فهناك سوابق تاريخية لذلك · فلم يكن سير فرنسيس دراك يحارب فقط السفن الأسبانية المتخمة بالفضة ، وانما المدن على امتداد سواحل المحيط الهادى لأمريكا الجنوبية والوسطى والمكسيك أيضا ، وبتمويل من مستثمرين خاصين ·

هل يكون أمرا منافيا للواقع تصور « نسخة تناسب القرن الحادى والعشرين » من قادة المرتزقة الايطاليين ؟

يصف الروائى ألفريد كوبل هـذا الموقف بالتحديد ، فى روايته « لواء نهاية العالم » ، حيث تشكل شركة بترولية عملاقة جيشا لحماية آبارها ضد تهديد باضراب تصاحبه أعمال عنف · لقد تصرفت الشركة بهذا الشكل لأنها لم تنجح فى الحصول على حماية الحكومة لمصالحها ·

ومهما بدا هذا السيناريو مبالغا فيه فانه يمثل نوعا من المنطق · ان عجـز الدول عن وقف الارهاب ، بالرغم من كل قوتها العسـكرية ، اضطر الشركات الكبرى أن تتولى الأمور بنفسها وتستخدم سائقين مدربين وحرسا خاصا وخبراء فى الأمن ·· الخ · فعندما احتجزت ايران بعض العاملين لدى الملياردير روس بيرو كرهائن ، قرر الأخير استخدام جنود سابقين فى سلاح المظلات الأمريكى لاطلاق سراحهم · ولا تبقى سوى خطوة صغيرة للوصول الى تشكيل قوات من المرتزقة ·

الأمــم المتحــــدة + :

من الواضح أننا ننطلق مباشرة نحو الفوضى ، اذا لم تسجل كتابة قواعد دولية جديدة وتتشــكل مؤسسات تهدف الى فرض احترام هذه القواعد ، أو اذا لم يمثل فيها « المصارعون العالميون » أمثال الشركات عبر القومية ، والأديان والقوى المماثلة الأخرى ·

وستتولى المؤســســات العــالمية الجديدة مسئولية الاقتراحات التى تهدف الى تسوية مشكلات البيئة ومراقبة التسلح والقضايا المالية وقضايا السياحة والاتصالات اللاسلكية ، كذلك المشكلات الاقتصادية الاقليمية · ولكن هل ستسيطر على هذه المؤسسات الدول – الأمم وحدها ؟

كلما قلت استجابة الحكومات القوميــة والمنظمات بين الحكومية لاحتياجات الشركات عبر القومية ، طالبت هذه الشركات بمشاركة مباشرة فى المؤسسات العالمية وقل استعدادها لعدم التدخل ·

وليس من الصعب تخيل انشاء مجلس عالمى للشركات عبر القومية يهدف الى التعبير عن موقف هذا النوع من الشركات ، ويوازن دور الدول ـ الأمم · كما قد تطالب الشركات الكبرى بأن تمثل داخل المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة أو البنك الدولى والجات ·

ونظرا لتنوع «المصارعين العالميين » وقوتهم المتنــامية ، قد تضطر الأمم المتحدة ، التى هى حتى الآن مجرد كونسرتيوم للدول ـ الأمم ، الى منح حق التمثيل لغير الدول (وهو تمثيل يتجاوز الدور الاستشارى والرمزى المحض الممنوح حاليا لبعض المنظمات غير الحكومية) ·

وبدلا من المبدأ القائل بأن لكل دولة صوتا واحدا ، قد تضيف الأمم المتحدة ، عند الضرورة فئــات جديــدة لتمثيــل الشركات عبر القومية والمجموعات الدينية وكيانات أخرى ، وهو ما يوسع بشكل كبير قاعدة هذه الكيانات عالميــا · واذا رفضت الدول – الأمم العــاملة داخل الأمم المتحدة توسيع تمثيل هذه المجموعات ، فقد نشهد انشاء منظمات دولية مضادة ، خاصة مع توالى تدعيم وتكاثر الشركات عبر القومية ·

وسواء برهن المستقبل على صحة هذه التأملات أم لا، فان « المصارعين العــالميين » الجــدد ــ شركات أو مجرمين أو جماعــات دينية أو آخرين ـ تتقاسم « فعلا » السلطة مع الدول ـ الأمم ·

الأسلوب الجديد للمنظمات العالمية :

ترتبط الاجابة على السؤال : ما اذا كان يتعين تمثيل هؤلاء « المصارعين » أم لا داخل المؤسسات الدولية ؟ ارتباطا مباشرا بمفهوم المنظمات الجديدة التى ستحتل الساحة الدولية • ويواجه مهندسو النظام العالمى الجديد قضية جوهرية ، ألا وهى : هل يتعين أن تكون الهياكل الجديدة رأسية أم الأفضل أن تكون أفقية ؟

نجد مثالا لذلك فى الهيكل الرأسى لتنظيم الجماعة الأوروبية التى يبدو أنها تريد اقامة حكومة أعلى • وطبقا للمناهضين لها ، فان هذه الحكومة ستختزل وضع الدول ذات السيادة للبلدان الأعضاء الى وضع الولايات ، وذلك بممارسة سيطرة فوق قومية على النقود والنظام المصرفى ومعايير التعليم وحماية البيئة والزراعة بل وحتى الميزانيات القومية •

ويحاول هذا النموذج الرأسى حل المشكلات باضافة درجة للتسلسل الهرمى للسلطة • انه بنية مؤسسية « رأسية » •

وفى الجانب المقابل ، يوجد نموذج آخر مطابق لأشكال التنظيم الجديدة السائدة فى عالم الأعمال والاقتصادات المتقدمة ، التى تتجه جميعها الى « تسطيح » هذا التسلسل الهرمى • ويعتمد هذا النموذج على شبكات تحالفات وكونسرتيومات ووكالات متخصصة فى شئون الضبط والتنظيم ، تعمل معا لتحقيق أهداف شديدة الطموح بالنسبة لدولة واحدة • ولا يوجد فى ظل مثل هذا النظام تسلسل مستويات ، كما لا يتم تجميع الوكالات المتخصصة تحت سلطة هيئة مركزية غير متخصصة، انما يتعلق الأمر ببنية « مسطحة » مثل « الشركة المرنة » •

ويراقب العالم كله باهتمام ، تطورات الجماعة الأوروبية التى غالبا ما تعتبر النموذج الوحيد الموجود للتنظيم الاقليمى ، هناك مشروعات على غرار الجماعة الأوروبية ، ولكن على مستوى أصغر ، قد ترى النور ، فى المغرب والشرق الأوسط وكذلك فى الكاريبى والباسفيكى • ولكن قد يكون التناول الأكثر ثورية ، هو تضامن مختلف المنظمات القائمة بالفعل فى هذه المناطق ، دون فرض هيئة رقابة وسيطرة جديدة عليها • والشىء نفسه يمكن تنفيذه بين الأمم •

ترتبط اليابان والولايات المتحدة مثلا ارتباطا وثيقا على الصعيد الاقتصادى والسياسى والعسكرى ، بحيث يؤثر أى قرار يتخذ فى احداهما تأثيرا مباشرا فى البلد الآخر • وفى وضع كهذا ، قد لا يكون بعيدا ذلك اليوم الذى تطالب فيه اليابان بتمثيلها فى الكونجرس الأمريكى ، وفى

هذه الحالة ستطالب الولايات المتحدة بتمثيل متكافىء فى الدايت اليابانى . وبالتالى نشهد بداية انتشار البرلمانات « بين القومية » .

فالديمقراطية تفترض حق من يتأثر بقرار ما ، أن يعبر عن رأيه فى اتخاذ مثل هذا القرار . واذا كان الأمر كذلك ، فانه يتعين تمثيل العديد من الأمم فى الكونجرس الأمريكى ، لأن قراراته تؤثر مباشرة على حياتها أكثر من قرارات قادتها أنفسهم .

فكلما أصبح العالم عالميا ، وكلما انتشر النظام الجديد لخلق الثروة، تتزايد متطلبات المشاركة السياسية بين ـ الدولية ـ بل وحق الاقتراع بين ـ الدولى ، بالنسبة لعدد كبير من السكان الذين سيشعرون أنهم مستبعدون عن القرارات التى تؤثر على وجودهم .

وأيا كانت أشكال المنظمات العالمية فى المستقبل ، يتعين عليها أن تولى اهتماما لتأثيرات « المصارعين العالميين » ، سواء أكانت سلبية أم ايجابية .

ولكن ، الى أى مدى يجب أن يتم تمثيل الجماعات الدينية والشركات والنقابات عبر القومية ، والأحزاب السياسية وحركات حماية البيئة والمنظمات الانسانية وهيئات المجتمع المدنى الأخرى ، داخل مؤسسات المستقبل العالمية ؟

وكيف يمكن الحفاظ على الفصل بين الكنيسة والدولة على مستوى العالم ، لتفادى حمامات الدم والقمع التى غالبا ما تنجم عن اختلاطهما ؟ وما السبيل الى عزل الارهابيين والمجرمين ودعاة الحرب وبارونات المخدرات ؟ وما هو الصوت الشرعى الذى ستحصل عليه الأقليات المقهورة فى بلادها ، على الصعيد العالمى ؟ وما هى الصواريخ الدفاعية أو الأسلحة الكيميائية التى يتعين أن تكون اقليمية أو عالمية ، ولا تخضع لسلطات قومية محضة ؟

لا يستطيع أحد أن يعطى اجابات فاصلة لمثل هذه الأسئلة الحساسة بالرغم من أنها تتناول المستقبل القريب . قد تبدو هذه الأسئلة ذاتها غريبة فى عالم يعتقد أنه لازال منظما حول الدول ـ الأمم . ولكن ، فى فجر المجتمع الصناعى ، لم يكن هناك ما هو أغرب ولا أخطر ولا أكثر تطرفا من أفكار الثوريين الفرنسيين والانجليز والأمريكيين ، الذين كانوا يعتقدون أنه يتعين على الشعب والبرلمان مراقبة الملوك والسيطرة عليهم وليس العكس ، وأن غياب التمثيل الشعبى هو مصدر التمرد والثورة .

وستثير مثل هذه الأفكار ، خلافات محمومة فى العديد من البلدان على خلفية من الشعور الوطنى • ففى نهاية القرن الماضى ، كان شارل موار الكاتب الفاشستى الفرنسى يردد وجهة نظر شعبية مفادها « ان الاستقلال الوطنى هو أثمن الحريات الانسانية » • الا أن السيادة والاستقلال المطلقين لم يوجدا الا فى الأساطير والأوهام •

ان البلدان التى تستطيع أن ترفض تماما النظام الجديد لخلق الثروة قد تتفادى أن تجد نفسها منضمة للاقتصاد العالمى الجديد • ولكن من لا تربطه علاقة بباقى العالم ، سيجد نفسه يوما ما لا محالة ، مشدودا الى التبعية المتبادلة للنظام العالمى — وهو النظام الذى لا تقوده الأمم وحدها وانما « المصارعون العالميون » الجدد الأقوياء يشاركونها القيادة •

اننا نشهد عملية انتقال للسلطات بين الدول — الأمم (فرادى أو مجتمعين) والمصارعين العالميين • وهو ما يعنى حدوث ثورة عالمية فى النظم السياسية •

كما ستزداد حدة عدم التجانس المتنامى للنظام العالمى فى حالة تفتت الدول العملاقة ، وهو ما يبدو محتملا تماما فى الوقت الراهن • فالاتحاد السوفيتى يتفكك سريعا ، ويحاول جورباتشوف ، قدر المستطاع ، الحفاظ على نوع من التماسك فى اطار يتحطم • وستنفصل بعض العناصر ، بعد فترة لن تطول ، وتتخذ أشكالا غريبة خلال العقود القادمة • وسواء ظلت جزءا من الاتحاد السوفيتى السابق أم لا ، فان بعض المناطق ستنجذب ولا مفر الى المدار الاقتصادى الأوروبى الذى تسيطر عليه ألمانيا • أما البعض الآخر فقد ينجذب الى فلك آسيا الوليد ذى التأثير اليابانى •

كما قد تتجمع الجمهوريات المتخلفة المعتمدة أساسا على الزراعة واستخراج المواد الأولية فى نوع من الاتحاد الحر • ولكن قد تتلاشى الاعتبارات الاقتصادية العقلانية أمام موجة من الصراعات العنصرية والدينية ، مما قد يؤدى الى اندماج أوكرانيا وروسيا وروسيا البيضاء فى تجمع كبير قائم على الثقافة السلافية والكنيسة الأرثوذكسية ، بعد أن تكون قد استعادت نشاطها وقوتها • ومن ناحية أخرى ، يمكن أن يقوم الاسلام بتجميع بعض جمهوريات آسيا الصغرى •

وقد تتفكك الصين هى أيضا ، فتحطم مناطقها الأكثر تصنيعا فى الجنوب والشرق روابطها مع الصين الزراعية ، لتقيم كيانات جديدة مع هونج كونج وتايوان وسنغافورة ، بل وكوريا بعد توحيدها • وسينتج ،

فى هذه الحالة ، تجمع اقتصادى كونفوشى ضخم ليواجه صعود اليابان ، ويدعم فى الوقت نفسه دور العامل الدينى كمحدد أساسى للنظام العالمى الجديد ·

ان الاعتقاد بأن مثل هذه التحولات يمكن أن تحدث بدون حرب أهلية أو صراعات أخرى ، أو أنها يمكن أن ترتسم فى الاطار البالى للنظام العالمى القائم على الأمم ، يعد علامة على نقص فاضح فى التخيل والتوقع · ويظل الشىء الوحيد الأكيد هو أن عالم الغد سيفاجئنا جميعا ·

ومع ذلك ، بات من المعترف به فعلا ، أن انتشار النظام الجديد لخلق الثروة على امتداد الكرة الأرضية ، فى طريقه لاحداث انقلاب فى مفاهيمنا عن التنمية الاقتصادية فى « الجنوب » المزعوم · كما سيفجر الاشتراكية فى « الشرق » ويقذف بالحلفاء فى منافسة محمومة · ومن ثم فهو يتطلب نظاما عالميا مختلفا جذريا عن العالم الذى نعرفه ، نظام أكثر تنوعا وأقل استقرارا ومحملا بقدر متساو من الآمال والمخاوف ·

لقد قلبت المعرفة الجديدة العالم الذى كان مألوفا لنا ، وزعزعت أعمدة السلطة التى كانت تسمح له بأن يظل قائما · وفى مواجهة أطلاله ، نجد أنفسنا معا عند خط البداية مستعدين مرة أخرى لاقامة حضارة جديدة ·

الخــلاصة

حــرية ونظــام وصــدفة

لقد حللنا فى هذا الكتاب احدى أهم الثورات فى تاريـخ السلطة ـ انه انقلاب يعيد تشكيل كوكبنا تماما • لقد تم ، خلال الأجيال السابقة، تخصيص آلاف الدراســـات للثورات التكنولوجية والاجتماعية والبيئية والثقافية ، الا أن القليل منها نسبيا حرص على تحليل تحول طبيعة السلطة ذاتها ، وان كان يتفرع من هذا التحول العديد من التغيرات الأخرى •

كما رأينا أيضا كيف أن السلطة فى طريقها لأن تنقلب على جميع الأصعدة ، ابتداء من عالم الأعمال الى الدوائر الحكومية والعلاقات الدولية •

ان السلطة هى احدى أكثر الظواهر الاجتماعية جوهرية والمرتبطة بطبيعة عالمنا ذاتها •

لمدة تزيد عن ثلاثة قرون ، صور العلم الغربى العالم كساعة أو آلة عملاقة ، حيث تؤدى الأسباب المعروفة الى نتائج متوقعة • وطبقـا لهذا التحليل الحتمى ، يكون العالم اذن كيانا كامل التنظيم ، وبمجرد أن يبدأ فى العمل يبرمج مسبقا كل الأفعال القادمة •

اذا كان هذا الوصف للعالم صحيحا لكنا جميعا عاجزين تماما • لأنه طالما كانت الظروف والشروط الأصلية لأية عملية هى التى تحدد نتيجتها ، فان أى تدخل انسانى لا يستطيع تعديل هذه النتيجة • وفى عالم ـ آلة تم تشغيله « بمحرك أولى » ـ سواء أكان هذا المحرك ربانيا أم لا ـ لا توجد سلطة لأحد على أى شىء أو أى فرد ، وانما وهم سلطة فى أحسن الأحوال •

باختصار ، تعتمد السلطة اذن على الفجوات الكائنة فى السلسلة السببية ، وعلى أحداث غير مبرمجة مسبقا · بمعنى آخر ، تخضع السلطة لوجود الصدفة فى الكون وفى السلوكيات البشرية ·

غير أن السلطة لا يمكنها أن تعمل فى عالم مبنى كلية على الصدفة · فالأحداث والسلوكيات اذا كانت معزوة دائما الى الصدفة ، فانها لن تتمكن من فرض أى نوع من الارادة · لأنه بدون قدر من النمطية والانتظام ، أو أية درجة من القدرة على التنبؤ والتوقع ، ستفرض الحياة علينا دائما اختبارات صدفوية ذات عواقب صدفوية أيضا ، مما يجعلنا أسرى القدر ·

ان السلطة تفترض اذن عالما يجمع بين الصدفة واللزوم ، بين النظام والفوضى ·

ولكن السلطة مرتبطة أيضا بطبيعة الأفراد ومزاجهم ، وبدور الحكومة وبالدولة بشكل أعم ·

وبالتالى ، يتقاسم كل واحد منا فى آن واحد ، احتياجا لا يقهر لحد أدنى من النظام فى الحياة اليومية ، ورغبة دائمة فى التجديد · ان الاحتياج الى النظام هو الذى يمثل التبرير الأساسى لوجود الحكومات ·

منذ « عقد روسو الاجتماعى » ونهاية النظام الملكى ذى الحق الالهى ، تعتبر سلطة الدولة ناجمة عن عقد أبرم مع الشعب - عقد يضمن النظام الضرورى للمجتمع أو يعمل على توفيره · ويقال لنا انه بدون الجنود والشرطة وجهاز سيطرة الدولة ، لسيطرت عصابات المجرمين على الشارع ، ولمزقت عمليات النهب والسرقة والاغتصاب والقتل آخر بقايا « طلاء الحضارة » الرقيق ·

ويصعب دحض هذا التأكيد · ففى الواقع ، لدينا الدليل القاطع على أنه فى غياب ما وصفناه آنفا بالسلطة الرأسية - أى النظام المفروض من أعلى - سرعان ما تصبح الحياة لا تطاق · ولتسألوا سكان مدينة بيروت ، التى كانت رائعة ذات يوم ، عن معنى أن يعيش المرء فى مكان لا يملك فيه أحد السلطة الكافية لكى يحكم !

ولكن ، اذا كانت الوظيفة الأولى للدولة هى تأمين « النظام » ، فهل يجب أن يكون لهذا النظام حدود ؟ وهل يتغير ذلك عندما تتبنى المجتمعات طرقا جديدة لخلق الثروة ؟

عندما تفرض دولة ما يدا حديدية على الحياة اليومية ، بحيث تحظر أى نقد ، ويعيش المواطنون فى رعب ، وتفرض رقابة على المعلومات وتغلق المسارح وتصادر جوازات السفر ، ويطرق رجالها الأبواب فى الفجر لينتزعوا الأهل من بيوتهم أمام أبنائهم الباكين ، يجىء السؤال : من المستفيد من هذا « النظام » ؟

هل المواطن الذى يحتاج الى حد أدنى من النظام ، أم الدولة ذاتها التى تحمى بذلك نفسها ضد أية معارضة ؟ ومتى يوفر النظام الاستقرار الضرورى للاقتصاد ومتى يعيق التنمية الضرورية ؟ وعلى حد قول ماركس هنك نوعان من النظام : نظام « ضرورى اجتماعيا » ونظام « غير ضرورى أو زائد » ·

ان النظام غير الضرورى يتجاوز النظام الضرورى الذى تفرضه مصلحة المجتمع ، ولا يخدم سوى مصالح الذين يسيطرون على الدولة · وهو بالتالى نقيض النظام الضرورى اجتماعيا · والحكم الذى يفرض على مواطنيه ، نظاما غير ضرورى ، يحرم نفسه من أى تبرير لوجوده ، طبقا لعقد روسو الاجتماعى ·

كما أنه يفقد ما يسميه كونفوشيوس « تفويض السماء » · هذا بالاضافة الى أن مثل هذا الحكم لا يملك حاليا ، فى عالم متبادل الارتباط والتبعية ، أى تبرير أخلاقى · وفى ظل النظام الجديد الذى يقام حاليا ، فان هذا النوع من الحكم لا يجر على نفسه ادانة الرأى العام العالمى فقط ، وانما عقوبات الحكومات ذات الشرعية الأخلاقية أيضا ·

ان الادانة العامة لمذابح عام ١٩٨٩ فى بكين ـ موجة من الانتقادات فى الولايات المتحدة والجماعة الأوروبية واليابان وفى أغلب الدول الأخرى ـ ظلت بالرغم من كل شىء ادانة على استحياء · لقد أخذ كل بلد فى الاعتبار مصالحه الاقتصادية فى الصين قبل اعلان موقفه · وأرسل الرئيس الأمريكى على الفور بعثة سرية الى بكين لتهدئة العلاقات المضطربة بين البلدين ·

غير أن العالم كله عبر عن اعتراضه على الشرعية الأخلاقية «لمتشددى» النظام ـ بالرغم من الانتهازية والنفعية السياسية ـ وصرخ بقوة كافية لكى تصل رسالته : أنه يعتبر الموقف الاجرامى لحكومة بكين محاولة لفرض نظام زائد وغير ضرورى ·

وردت بكين حانقة بأنه ليس من حق أى أحد فى العالم التدخل فى شئوونها الداخلية وأنه يمكن تفنيد أخلاقيـة هذه الانتقـادات • الا أن تفضيل عدد كبير من البلدان التعبير عن موقفه - حتى وان كانت سياسة هذه البلدان ذاتها تتعارض مع الرأى المعلن - يثبت ان الرأى العام العالمى يزداد ترابطا ، ويقل بشكل مطرد تحمله لوجود نظام زائد وغير ضرورى •

واذا صح ذلك ، فان هناك سببا مستترا يفسره •

ان العنصر الثورى الجديد - الانقـلاب الذى خلقه النظام الجديد لخلق الثروة - يمثل تحولا لمستوى النظام الاجتماعى الضرورى • فكلما تقدمت الأمم فى طريق الاقتصاد فائق الرمزية ، احتاجت لعمليات ضبط وانضباط ذاتية أفقية ، وقل ارتكازها على سيطرة هرمية التسلسل من أعلى الى أسفل • وبشكل أبسط تعيق الشمولية النمو الاقتصادى •

ان طلبة الطيران يتشبثون عادة بأجهزة قيادة الطائرة ، وينصحهم معلموهم بأن يرخوا قبضتهم قليلا • فالافراط فى السيطرة لا يقل خطورة عن نقصها • والدولة التى تحاول حاليا فرض سيطرة مبـالغ فيها على شعبها واقتصادها ، تخرب ، فى الواقع ، النظام الذى تسعى لتحقيقه • وخير دليل على ذلك الأزمة التى يمر بها الاتحاد السوفيتى وبلدان أخرى • وعلى النقيض تماما ، يمكن للدولة الأقـل قمعا أن تحصل على المزيد من النظام ، وتدعم بذلك سلطتها ذاتها •

ويعد هذا العنصر - بعد فقط - الشموليين بأيام صعبة وسيئة • ولكن هناك العديد من العناصر المتداخلة الكفيلة بأن تجعل السماء غائمة ، وتمنعنا من السقوط فى تفاؤل ساذج •

ان من تابعوا قراءتهم حتى هذه السـطور يعرفون أن هذا الكتاب لا يعدهم بوعود طوبائية • فاستخدام العنف ، كشكل من أشكال السلطة، لن يختفى قريبـا • وسيتعرض الطلبة والمحتجون للقتل من جديد فى « الميدان السماوى » فى جميع أنحاء العالم • وستواصل الجيوش اجتياز الحدود • وستلجأ الحكومات للقوة عندما ترى أن ذلك يخدم خططها ، ولن تتخلى الدولة عن البندقية •

كما أن السـيطرة على ثروة ضـخمة ، سواء بين أيـدى الأفراد أو الموظفين الحكوميين ، ستمنح دائما سلطة ضخمة • وسيظل المال دائما أداة سلطة رائعة •

ومع ذلك ، وبالرغم من كل الاستثناءات والتناقضات والتداخلات ، فاننا نشهد أحد أهم التحولات في تاريخ السلطة ·

لقد أصبح بدهيا أن المعرفة تزداد أهمية بمعدل واحد على مليار من الثانية ، فهي مصدر لسلطة ذات نوعية أفضل ·

السلطة اذن ، لا تنتقل من شخص أو حزب أو مؤسسة أو بلد الى آخر ، وانما تلك العلاقة الخفية بين العنف والثروة والمعرفة هي التي في طريقها للتحول في الوقت الذي تتدافع فيه المجتمعات نحو عالم الغد ·

ذلك هو الغموض الخطر لعصر تحول السلطة ، ولكن كم هو مثير هذا الغموض ! ·

تعقيب على الكتاب

بقلم : محمد سيد أحمد

لألفين توفلر ثلاثية من كتب ثلاثة ، « تحول السلطة » Powershift هو الكتاب الأخير في المسلسل ·· وقد افتتحه بكتابه « صدمة المستقبل » Future Shock » ، الذى أحدث صدمة بالفعل ، وأراد به المؤلف تأكيد أن المستقبل لن يكون مجرد امتداد للماضي والحاضر ، وانما سوف يصدمنا بطفرات سـوف تصيبنا بالدوار ، وهو مستقبل لا مهرب من محاولة استشرافه ، وامعـان النظر فيه ، منذ الآن ·· هذا الكتـاب الأول فى المسلسل ، ألفه توفلر منذ ربع قرن تحديدا ·

وكان عنوان الكتـاب الثانى فى الثلاثيـة « الموجـة الثـالثة » The Third Wave ·· عرض فيه توفلر نظريته عن تعرض الحضـارة البشرية ، عبر تاريخها ، لموجات كبرى ثلاث ·· تعلقت الأولى باكتشاف الزراعة ، مما مكن القبائل الرحل من أن تستقر فى قرى وفى مدن ·· وكانت الثورة الصناعية هى الموجة الثانية ، التي أفرزت الدولة الصناعية الحديثة ·· وأما الموجة الثـالثة ، فانهـا موجة تكنولوجيا الحواسيب Computers والاتصالات عن بعد Telecommunications ، وشأنها احداث تغيير شامل فى الاقتصاد العـالمى ، كما أنها ذات آثار سياسية واجتماعية بعيدة المدى ، لن تقل خطورة عن تلك التى أنتجتها الموجتان الأولى والثانية ·

والحقيقة أن توفلر لم يكن مكتشف هذه الموجة الثالثة ، موجـة « المعلوماتية » Informatics ·· فلقد بدأت منذ نصف قرن فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة ، بفضل نجاح جامعة بنسلفانيا فى صنع أول حاسوب الكترونى ·· ورغم أن هذا الحاسوب قد بلغ حجم عمارة من طوابق متعددة ، فان قوته لم تكن تتجاوز حاسبة Calculator يمكن ابتياعها الآن بأقل من عشرين جنيها ! ··

لقد ألف توفلر « تحول السلطة » الذى اختتم به ثلاثيته عام ١٩٩٠ · أى منذ ٥ سنوات ·· والكتاب خلاصة لنظرياته عن المستقبليات فى عصر تتتالى فيه الأحداث بسرعة مذهلة ، وفى صورة متوالية هندسية ·· والجدير

بتسجيله أن « شبكة الشبكات » الالكترونية ، ما أصبح يعرف اليوم بـ Internet ، وهو الرمز الحي لثورة المعلومات في عصرنا ، لم يرد له ذكر قط في كتاب توفلر ، ذلك أنه لم يكن قد اكتشف بعد ، منذ ٥ سنوات فقط ! ·· ومع ذلك ، علينا أن نسلم بأن توفلر قد لمس في كتابه جوهريات « الفكر المعلوماتي الجديد » ، وطرح نهجا في استكشاف معالم ثورة المعلوماتية ، يعتبر أول محاولة جامعة لاعطاء صورة اجمالية عنها ·

ان كثيرا مما يجرى التركيز عليه اليوم لم يكن مكتشفا ولا متصورا وقت أن ألف توفلر كتابه ·· لم تكن مطروحة وقتذاك التكنولوجيات اللاسلكية الرقمية Digital Wireless Technologies ·· ولم تكن قد اكتشفت بعد الهواتف الخلوية Cellular Telephones التي أصبحت تنتشر الآن بسرعة البرق ، وأصبحت تكفل التلاقي والتداخل بين تكنولوجيات الاعلام وتكنولوجيات الاتصال عن بعد ، وهو تلاق يجد تعبيره الأوضح في « الانترنت » ·· ومع ذلك ، فان ثلاثية توفلر — وبالذات « تحول السلطة » — قد طرحت جوهريات الفكر المعلوماتي ، رغم كل النواقص الناجمة عن سرعة الاكتشافات في هذا المجال ·· وهكذا افتتحت نهجا جديدا في التفكير ·· وكانت أول محاولة جادة لاستشراف علم المستقبليات في خصوصية ظروف نهاية القرن العشرين ··

والجدير بالملاحظة أن مؤلفات توفلر ليست نظريات وحسب ، وانما هي أيضا محاولة جامعة لاستكشاف الجديد في مجالات الاقتصاد ، والتطور العلمي ، والتكنولوجيا ، والانتاج ، خاصة في المجتمعات البالغة التقدم التي أصبحت توصف بمجتمعات « ما بعد الحداثة » Post-Modernist . انها محاولة جريئة لتصنيف هذا الجديد ، وتفسيره ، وتقييمه ، واستخلاص ما يفرزه من مستجدات لم تكن مطروحة من قبل ·· ان توفلر يجمع ما بين صفات المراقب المدقق للانجازات العلمية والتكنولوجية ، وأيضا المتحولات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عنها ، وصفات المحلل القادر على اكتشاف أنماط جديدة مستمدة من دراسة هذه التحولات البالغة التعقيد والحداثة ·

ومن هنا أهمية الجهد الذى بذلته لبنى الريدى في ترجمة كتاب « تحول السلطة » الى اللغة العربية ·· فقد يكون من قوانين الثورة المعلوماتية أن التطورات فيها تجرى بسرعة المتوالية الهندسية ، ولكن لا يعنى ذلك أن نهج التعامل مع هذه الثورة ينقلب رأسا على عقب كل بضعة أعوام ، بسبب سرعة التحولات ·· لقد كان لألفين توفلر الفضل في ارساء أسس لهذا النهج ، ومن هذه الوجهة ، فان كتابه « تحول السلطة » لا يشوخ ولا يهرم ، بل يحتفظ بشبابه وحيويته ، بصفته علامة

طريق بارزة فى تكشف أسرار عالم جديد ما زلنا نتكشف له كل يوم أبعادا جديدة ··

وصحيح أن لدينا دعاة لهذا الفكر ·· ولكن علينا أيضا أن نسلم بأن هذا الفكر ، وهذا النهج فى التفكير ، لم يعمم كما ينبغى ·· وقد نجد من يقول ان الفكر المرتبط بالثورة المعلوماتية ، هو فكر أريد به اكسابه صفة أيديولوجية بعد سقوط الأيديولوجيات ، وفى عصر أصبح الكثيرون فيه يطرحون تكنولوجيات المستقبل بصفتها كفيلة بأن تحل محل الأيديولوجيات ·· وهذا أمر ينطوى على خلط والتباس ·· فان التكنولوجيا توفر فرص ارتياد فكر جديد ، ولكنها لا تشكل فى حد ذاتها نهجا للفكر ··

والأمر الذى ينبغى أن يلفت نظرنا بالذات فى هذا المضمار ، هو أننا بصدد « ازدواجية » من نوع جديد ·· فلقد كانت هناك ازدواجية الشرق/غرب ، ثم ازدواجية الشمال/جنوب ·· ثم أيضا ازدواجية ذات بعد « زمانى » ، أى غير مقصورة على البعد المكانى وحده ، بمعنى أن هناك مجتمعات تجاوزت « عتبة حرجة » معنية ، وأصبحت تنطلق نحو المستقبل وبأثر تراكمى ، بينما عجزت مجتمعات أخرى عن تخطى هذه العتبة ، وتظل تعلق آمالها على أمجاد ماضية ، أو منسوبة الى ماض أسطورى ما ، تتخذه ملاذا للهروب من المستقبل وتحدياته ·

تلك ازدواجيات نشهدها وهى موضع دراسات عديدة ·· ولكن الأمر الذى ينبغى أن يشغلنا أن الثورة المعلوماتية انما تعرضنا لازدواجية من نوع مختلف أيضا ·· بين الذين أتيحت لهم فرصة « استيعاب » تكنولوجيات هذه الثورة ، والذين يقتنون أدواتها بمعنى أنه بوسعهم « اقتناء » حواسيب وغيرها من أدوات هذه الثورة ، ولكن دون « استيعاب » معانى هذه الثورة ونهجها فى التفكير ·· ذلك أن هناك فارقا أساسيا بين « اقتناء » التكنولوجيا ، وبين المشاركة فى « اختراعها » ·· ان القدرة على خوض عمليات الاختراع انما يكسب مستخدم هذه التكنولوجيات قدرات ، ومرونة ، وابتكارا فى الاستخدام ، لا يملكها من يقتنيها فقط ··

ثم ، هناك الأثر الناجم عما وصفناه بـ « العتبة الحرجة Critical Threshold وهو أثر يظل سارى المفعول حتى فى حالة الذين بوسعهم « اقتناء » التكنولوجيا ·· فثمة « عتبة » تتيح للذين يتجاوزونها ــ وهذا يخص بوجه خاص المساهمين فى « اختراعات » تكنولوجيا العصر ــ أن يتجاوزوها بصورة متعاظمة باطراد ، حتى يجدوا أنفسهم مدفوعين الى الأمام على الدوام ، وبأثر تراكمى ·· بينما الذين يعجزون عن بلوغ هذه

العتبة يظلون دونها ، ويجدون أنفسهم بالتبعية عاجزين عن اللحاق بالذين تجاوزوها ، مما يشعرهم بأنهم مدفوعون الى الخلف ، ومصابون بحالة احباط وخيبة أمل مزمنة ومتفاقمة ، حتى اذا ما أتيح لهم أن يقتنوا أحدث التكنولوجيات ·· وعلى أى الأحوال ، فانهم لا يعلمون كيف يستثمرونها على الوضع الذى يجعلهم كفيلين بمنافسة غيرهم ·· هكذا تنشأ ازدواجية من نوع فريد سوف تلاحقنا مستقبلا لو عجزنا عن تداركها ··

وأقول : ليست مصر ، بلادنا ، من المجتمعات المتخلفة العاجزة عن مواكبة تكنولوجيات ثورة المعلوماتية كضرورة لا مهرب منها ·· ومنذ الآن ، أصبحت هذه الثورة تتسرب الى مصر من مائة باب ، رغم كل العقبات والعوائق التى ما زالت تعترض دخولها من أوسع الأبواب ، وبغض النظر عن أن مجرد اقتناء الحواسيب لا يعنى ، فى أغلب الأحوال ، استثمارها الاستثمار الأمثل ·· ان هذا لا يعنى أن مصر عاجزة عن مواجهة التحدى ، وان كان التصــدى له أصبح يتطلب من مصر أن تنجز الكثير فى محو « الأمية المعلوماتية » قبل أن تكون قد حسمت أمر محو الأمية بالمعنى التقليدى للكلمة ·· فما زال نصف المجتمع المصرى لا يقرأ ولا يكتب ، وعليه الآن أن يتعلم كيف يقرأ وكيف يستخدم الحواسيب فى آن واحد ·· وهذا فى حد ذاته تحد لا بد أن نكون كفيلين بمواجهته ، لو أردنا مواكبة تحديات قرن جديد ، والفية جديدة ··

والقضية التى نتعرض لها هى ، فى الحقيقة ، قضية حضـــارية/ ثقافية ، قبل أن تكون قضية فنية ·· ليست القضية مجرد اقتناء الأجهزة العصرية ، ولا هى مجرد معرفة كيفية استخدامها ، ومجرد اقامة « البناء التحتى » Infrastructure المطلوب من أجل استثمار هــذه الأجهزة بكفاءة ، وانما القضية ، قبل ذلك ، أن تتوافر الرؤية الثقافية/الحضارية فى هذا الصدد ، وهى الرؤية التى تشكل أساس الثورة المعلوماتية المطلوب انجازها ·· ومن هذه الوجهة ، ولتكشف أبعاد هذه الثورة ، كانت كتابات ألفين توفلر بالغة الأهمية ··

محمد سيد أحمد

حــواشي الكتــاب

الفصــل العشرون

العقــود الحاســـمة

لقد تلاعبت الحكومات دائما بالمعلومات والمعرفة مستخدمة كل أنواع التكتيكات للحصول على الاجماع · ومع انتشار وسائل الاعلام وأجهزة الكمبيوتر الآن ، تتزايد وسائل السيطرة (كذلك وسائل المقاومة الشعبية) ، وتصبح أكثر مهارة ودقة · ولوضع هذا التطور السياسى فى منظوره ، من المفيد القاء نظرة على تاريخ تكون الدولة ·

وان كانت بعض مجموعات قبلية معينة ، مثل الايفوجا فى الفيليبين والبوشمان والنوير كونج فى أفريقيا ، استطاعت أن تبقى وتستمر فى غياب أى شكل من أشكال الدولة ، فان كل البشر تقريبا على ظهر الأرض ، حاليا ، هم مواطنون ــ أو بصراحة أكثر ــ رعايا ــ لدولة أو أخرى · وباتت الدولة أقوى المؤسسات الاجتماعية ·

هناك نظريـات عديدة عن الدولة · فالاقتصادى الألمانى Alexander Rustow يؤكد أن الدولة نبعت من « ثقافـات الصيد الأكثر تطورا مع تسلسلها القيادى الهرمى وتنظيمها الخاص بالصيد والحرب » · أما بالنسبة للمؤرخ Karl Wittfogel فان احتيـاجات الرى، التى كانت تتطلب تعبئة جماهير غفيرة من العاملين ، هى التى أدت الى خلق الدول المنظمة · وطبقا لنظرية انجلز ، المفصلة فى كتاب لينين « الدولة والثورة » ، فان الدولة هى نتيجة التقسيمات الطبقية الأولى ، فهى أداة فى خدمة الطبقة المسيطرة تسمح لها باستغلال الآخرين · اذن ، فالدولة بالنسبة للماركسية هى الذراع « التنفيذية » للطبقة المسيطرة ·

أيا كانت النظرية التى يتم تبنيها ، فان ما يبدو معقولا هو أن القبائل عندما تجاوزت اقتصاد الكفاف، كان ذلك بمثابة منعطف سياسى رئيسى · وبمجرد أن أصبحت الجماعات قادرة على الانتاج وتخزين الفائض ، بات

من الضروري الدفاع عن هذا الفائض ضد أي معتد محتمل ، خارجي أو داخلي ، قد يحاول الاستيلاء عليه لاستخدامه الشخصي ٠

وتتم الخطوة الأولى نحو السلطة عندما تختار جماعة ما « حاميا » لها ـ رجل في العادة ـ من بين أقوى رجالها ٠ ومن السهل تصور أن يطالب هذا الحامي بنصيب من الفائض مقابل خدماته ٠

ثم تأتي الخطوة الثانية عندما يستخدم « الحامي » جزءا من الثروة التي استخلصت من السكان « لتأجير » محاربين يدينون بالولاء لشخصه وليس للجماعة ، وبالتالي يكون الحامي نفسه محميا ٠

وتحدث مرحلة أخرى عندما يتم تنظيم مهمة تحصيل الجزية أو الضرائب بتعيين « جباة » رسميين ٠ وباتخاذ هذه الخطوة يتم خلق تغذية ارتجاعية تسارع من حدوث الأشياء ، معززة سلطة الحكام ٠ وكلما زادت الثروة التي يستطيعون استخلاصها من الجماعة ، زاد عدد الجنود الذين يمكن تجنيدهم ، وبالتالي يمارسون ضغوطا على الجماعة للحصول منها على مزيد من الثروة ٠

ومع هذه الزيادة في الثروة تستطيع الدولة الجنينية أن ترتفع الى مستوى أعلى ٠ لقد أصبح الحكام يستطيعون التحكم في أداتين من أقوى أدوات السيطرة وهما العنف والثروة ، وليس العنف فحسب ٠

وهو ما يعني أنهم لم يعودوا في حاجة دائمة للجوء الى العنف للترهيب ، اذ يستطيعون استخدام جزء من الثروة الفائضة لمكافأة حلفائهم ، وبدلا من سلطة ذات نوعية متدنية قائمة على العنف ، يمتلك الحاكم أو النخبة الحاكمة أداة اضافية أكثر مرونة بكثير وهي الثروة ٠

وتتلخص المرحلة التالية في ادراك انه لخفض تكلفة الجيش يكفي غسل مخ الشعب ٠ وذلك بدفع السكان الى أن يؤمنوا ـ عن رغبة أو رهبة ـ بأساطير أو أديان أو أيديولوجيات ملائمة ، كما يمكن اقناع الرعايا بأن نظام السلطة القائمة ليس حتميا ودائما فحسب بل هو شرعي أيضا ، هذا ان لم يكن قائما على حق الهي ٠ وهكذا تصبح المعرفة ـ في شكل أسطورة أو ديانة أو أيديولوجية ـ سواء أكانت حقيقية أم مزيفة ، سلاحا سياسيا رئيسيا ٠

بل يمكن القول بأن هذه اللحظة هي لحظة الميلاد الحقيقي للدولة ، وانه حتى تلك اللحظة لم يكن هناك من الدولة سوى أشكال جنينية

وجزئية . باختصار ، لا تتحقق الدولة بالكامل حتى تستخدم الأدوات الثـــلاث الأساسية لممارسة السلطة ، الا وهى المعرفة والثروة وامكانية استخدام العنف .

وعلى الرغم من القدر الكبير من التخمين والتبســيط المفرط الذى يتضمنه هذا المخطط فانه يقدم لنا تفسيرا مقبولا لأصل الدولة يندمج فى النظرية الجديدة للسلطة .

١ ــ مقولة جيمس كروبى مأخوذة من : « Political Risk Begins at Home » فى Across the Board ، يناير ١٩٨٦ ص ١٣ .

٢ ــ عن قلق ملكة بريطانيا من تنامى النزعة القومية فى اسكتلندا:
« Scottish Nationalism Threatens British Unity »
فى لوس أنجلوس تايمز ، ٢٥ ديسمبر ١٩٨٨ ص ١٤ .

٣ ــ عن حكم أسرة هايسبيرج فى أوروبا الوسطى انظر : [٥٤٥] صفحة ٢٦ و ٢٧ و ٤٢٢ ص ١٤ .

٤ ــ عن أثر زلزال طوكيو :
« The Japanese Earthquake Explained »
(نشر لأول مرة فى سـبتمبر ١٩٢٣) ، فى مجلة Natural History أبريل ١٩٨٠ ، و « When the Big One Hits Tokyo ... » بقلم Edith Terry فى World Press Review ديسمبر ١٩٨٩ ، و « How a Tokyo Earthquake Could Devastate Wall Street » بقلم Michael Lewis فى Manhattan, inc. ، يونيو ١٩٨٩ ص ١٦ .

٥ ــ عن تصاعد المعارك العرقية فى الولايات المتحدة انظر :
« New Interethnic Conflict Replaces an L.A. History of Biracial Politics » فى لوس أنجلوس تايمز ، ٧ يناير ١٩٩٠ ، و « Shakl-Up Tatino Station Sparks Protest » ق لوس أنجلوس تايمز ، ٦ يونيو ١٩٨٩ ، كذلك « Cubans, not Haitians, Offered Legal Status : Black Outraged » بقلم Kathleen Kelly فى National Catholic Reporter ، ٢٤ فبراير ١٩٨٤ ، راجع أيضا : « Showdown on Middle Neck Road » بقلم Robert Spero فى Present Tense ، مايو ــ يونيو ١٩٨٩ ، و « Rapping Solo » فى Billboard ، ١٣ يناير ١٩٩٠ و « Swapping Lessons » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١١ يناير ١٩٩٠ ص ١٧ .

٦ ــ عن أول اجتماع لحزب هتلر النازى : [٥٨٠] صفحة ٥٤ ص ٢١ .

٧ ـ حول الأقليات المحورية : [١٠٣] بأكمله لا سيما الفصل الثاني عشر ، وأيضا [٩٥] ص ١٦ ، و [١٦٥] ص ٣ ـ ٤ وكل ما يتعلق بـ « Gelli » ، انظر كذلك « The Roots of Kahanism » في صحيفة Ha'am جامعة كاليفورنيا فرع لوس أنجلوس ، يناير ـ فبراير ١٩٨٧ .

و « Links of Anti-Semitic Band Provokes 6-State Parley » في نيويورك تايمز ، ٢٧ ديسمبر ١٩٨٤ ، و « Neo-Nazis Dream of Racist Territory » في نيويورك تايمز ، ٥ يوليو ١٩٨٦ ، و « The Charmer » في مجلة نيويورك ، ٧ أكتوبر ١٩٨٥ ، و « Lyndon Larouche : From Marxist Left to Well-Connected Right » بقلم John Mintz في Washington Post National Weekly ، ٢٥ فبراير ١٩٨٥ ؛ و « Larouche Fringe Stis in Germany » في نيويورك تايمز ، ٣٠ يونيو ١٩٨٦ ، و [٢٠٣] ص ٢٠ و ص ٢١ .

٨ ـ عن انتشار جماعات الكراهية : « Rioting in the Streets Déjà Vu ? » بقلم William Tafoya في (Criminal) (Justice) — The Americas ديسمبر ١٩٨٩ ـ يناير ١٩٩٠ ص ٢٢ .

٩ ـ بشأن انتشار « الحروب المقدسة » : « High-Intensity Aggressive Ideologies as International Threat » بقلم Yehezkel Dror في Jerusalem Journal of International Relations مجلد ٩ عدد ١ ، ١٩٨٧ ص ٢٣ .

الفصل الحادى والعشرون

الحـــزب الخفى

١ ـ ملاحظة لى اتووتر (Atwater) أبداها للمؤلف ص ٢٥ .

٢ ـ مقال يوشى تسورومى عن دور البيروقراطيين فى صنع القرار فى اليابان : « A Bureaucratic Hold on Japan » لوس أنجلوس تايمز ، ٢٥ يناير ١٩٨٨ ص ٢٦ .

٣ ـ عن تنافس الوزارات فى طوكيو حول السيطرة على الاتصالات: « Turf Battles and Telecom » بقلم (Kazuhisa Maeno) فى Journal of Japanese Trade and Industry العدد الخامس ١٩٨٨ . وعن التنافس بين الوزارات انظر كتاب (Conflict in Japan) الذى يتسم بثراء غير عادى ، بقلم Ellis S. Krauss و Thoms P., Rohlen و Patricia G. Steinhoff (هونولولو : مطبعة جامعة هاواى ، ١٩٨٤) ص ٢٩٨ ص ٢٦ .

٤ ـ بشأن عمليات التجريد (التفكيك) فى شركة موبيل : « Integrated — and Determined to Stay that Way » بقلم Toni Mack مجلة فوربس ، ٤ أبريل ١٩٨٨ ص ٢٩ .

٥ ـ عن أعمال التخريب فى اليابـان عند صدور قرار خصخصة السكك الحديدية : « Paralysis on the Tracks » مجلة تايم ، ٩ ديسمبر ١٩٨٥ ص ٢٩ .

٦ ـ خصخصة مؤسسة الهاتف والتلغراف اليابانية (NTT) : « Hold the Phone » بقلم ريتشارد فالون ، فى مجلة فوربس ، ١٧ أكتوبر ١٩٨٨ ، و « Japan's Spending Spree » فى World Press Review ، يناير ١٩٩٠ ، انظر كذلك « Deregulation, Privatization Spur JAL to Diversify Operations » بقلم (جيمس أوت) و (Eüchiro Sckigawa) فى Aviation Week and Space Technology ، ٨ مايو ١٩٨٩ ص ٣٠ .

٧ ــ الخصخصة فى بلاد عديدة :
« Can a Privatized Matra Do Better on its Own ? »
بقلم (Jennifer L. Schenker) فى Electronics ١٨ فبراير ١٩٨٨ ،
و « Why Bonn Just Can't Let Co » بزنيس ويك ، ١٤ أبريل ١٩٨٨ ،
و « A Choice Menu Fom Jacques Chirac » بقلم Michael Mcfadden
مجلة فورتشن ، ٥ يناير ١٩٨٧ ، و« How Many Bureaucrats to Install
a Phone ? » بقلم (Richard C. Morais) ، مجلة فوربس ، ١٩ سبتمبر
١٩٨٨ ، و« Air Canada Comes of Age » فى Maclean's (تورونتو) ،
٢٥ أبريل ١٩٨٨ ص ٣٠ .

٨ ــ حديث صاموئيل بوبكين عن انقاص التسلسل الهرمى : [٢٠١]
صفحة ٢٢٧ ــ ٢٢٨ ص ٣١ .

٩ ــ كول يتجاهل وزير خارجيته عند وضعه الشروط العشرة
لتوحيد الألمانيتين :
« Ostpolitik Pays Belated Dividend for Germany's Elder Statesman »
فاينانشيال تيمز ، ١٤ ديسمبر ١٩٨٩ ص ٣٤ .

الفصل الثانى والعشرون

تكتيــكات المعلــومات

١ ـ جوتســون وحرية المعلومــات : [١٩٤] صفحة ، ٣ ـ ٤ ص ٣٨ ٠

٢ ـ ٢٠ مليون من المستندات السرية فى الولايات المتحدة :
« The Future of Intelligence » بقلم (Walter Laqueur) فى Society نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٥ ص ٣٨ ٠

٣ ـ مقولة المسئول فى وكالة المخابرات المركزية مأخوذة من [١٩٤] صفحة ، ٢٤ ص ٣٩ ٠

٤ ـ تسريب المعلومات المتعمد فى قضية ريكروت ـ كرزموس :
« Gentlemanly Press Gets Gloves Dirty » فى Insight، ٤ ديسمبر ١٩٨٩ ص ٣٩ ٠

٥ ـ حديث جيفرى باتى مأخوذ من :
« Tory Thought Curbed By "Fear of Leaks" ». فى التايمز اللندنية ، ١٠ أكتوبر ١٩٨٦ ص ٤٠ ٠

٦ ـ حديث ديف جيرجين حول تسرب المعلومات من البيت الأبيض :
« Secrecy Means Big Things Gets : Little Thought » لوس أنجلوس تايمز ، ٢٧ نوفمبر ١٩٨٦ ص ٤٠ ٠

٧ ـ دور كيســنجر فى واقعة التنصــت على المكالمات الهاتفية : [٥٧٤] صفحة ، ٣٨٨ ص ٤١ ٠

٨ ـ تقرير فيتنام انظر : [٤٢١] صفحة ، ٦ ص ٤٣ ٠

٩ ـ برقية زيمرمان انظر : [٣٩٧] صفحة ، ١٨ ص ٤٣ ٠

١٠ ـ معركة القناة الخلفية بين شولتز وكيلي : « Shultz Calls Envoy Home, Saying He Dealt in Secret » في لوس أنجلوس تايمز ، ١٩ ديسمبر ١٩٨٦ ، و « Shultz Warning Envoys to Stop Bypassing Him » في نيويورك تايمز ١٨ ديسمبر ١٩٨٦ ص ٤٥ .

١١ ـ واقعة كيسينجر والسفير الأمريكي في كوريا الجنوبية مذكورة في كتاب « The Price of Power » للكاتب Seymour M. Hersh، دار Summit Books للنشر نيويورك ١٩٨٣ صفحة ، ٤٢ ـ ٤٣ ص ٤٥ .

١٢ ـ قناة كيسينجر ـ دوبرنين الخلفية : [٤٢٧] صفحة ، ١٥٣ ـ ١٩٣ ص ٤٦ .

١٣ ـ القناة الخلفية في قضية الصواريخ الكوبية : [٤٠٧] صفحة ، ١٤ ـ ١٤٧ ص ٤٦ .

١٤ ـ القناة المزدوجة بين جروميكو وكيسينجر كما رواها مساعد جروميكو (اركادى شيفشينكو) : [٤٢٧] صفحة ، ٢٠٥ ص ٤٧ .

١٥ ـ بشأن القصة التى « زرعتها » الـ « سى · آى · ايه » فى الصحافة الايطالية حول منظمة الألوية الحمراء : [٤٣٥] صفحة ، ١٢٩ . ص ٥٠ .

١٦ ـ ادعاء الـ (كيه · جى · بى) بأن الـ (سى · آى · ايه) هى التى أطلقت وباء الايدز انظر :
« Soviets, At Last, Face up to AID's » فى لوس أنجلوس تايمز، ٢٢ أبريل ١٩٨٩ ، و « The KGB's New Musele » في يو · اس · نيوز أند ورلد ريبورت ، ١٥ سبتمبر ١٩٨٦ ص ٥٠ .

١٧ ـ الواقعة الخاصة برسالة شامير :
« Peres Office, In Israeli Infighting, Bars Shamir Messaage to Embassies » فى نيويورك تايمز ، ١٥ يناير ١٩٨٧ ص ٥٠ .

١٨ ـ عن اصرار تشرشل على الاطلاع على المستندات الأصلية : [٣٩٨] صفحة ، ٢٩٢ ص ٥٢ .

الفصل الثالث والعشرون

التكتيــات الأســمى

١ ــ سنونو كحاكم خبير فى مجال الكمبيوتر :
« The Granite State of the Art » مجلة تايم ، ٢٧ يناير ١٩٨٦
ص ٥٣ ·

٢ ــ هندسة البرامج الاعلاماتية بمساعدة الكمبيوتر :
« From Case to Software Factories » بقلم Herbert Weber مجلة Datamation ، أول أبريل ١٩٨٩ · ص ٥٤ ·

٣ ــ عن ان « الأرباح كالمقانق » وكيف تمكنت جنرال موتورز من اضافة ٢ مليار دولار لأرباحها المزعومة « Cute Tricks on the Bottom Line » بقلم Gary Hecor ، مجلــة فورتشن ، ٢٤ أبريل ١٩٨٩ · ص ٥٦ ·

٤ ــ المافيا وبتر الأصبع : [٤٨٥] صفحة ٧٤ · ص ٥٨ ·

٥ ــ قائمة وزارة العدل الأمريكية لجرائم الحاسب الآلى :
« Electronic Capers » بقلم (J. A. TUJO) فى Information Executive الجزء الثانى رقم (١) ١٨٩٥ · ص ٥٨ ·

٦ ــ اختفاء رسالة عضو الكونجرس : « Two cases of Computer Burglary » نيويورك تايمز ، ٢١ مارس ١٩٨٦ · ص ٥٩ ·

٧ ــ انتخابات كوريا الجنوبية :
« Observers Allege Computer Fraud in S. Korea Poll. »
فاينانشيال تايمز ، ٢١ ديسمبر ١٩٨٧ · ص ٦٠ ·

٨ ــ موضوع (Election Watch) :
« Electronic Elections Seen as Invitation to Fraud »
لوس أنجلوس تايمز ، ٤ يوليو ١٩٨٩ · ص ٦٠ ·

٩ ـ دافيد ستوكمان وقصة التخفيضات فى الموازنة : [٢٢٧] صفحة ، ٩٢ · ص ٦٢ ·

١٠ ـ عن مكتب الاحصاء الأمريكي وتجاهل الحكومة والصحافة لايضاحاته بشأن المعايير والاجراءات المستخدمة فى عملياته الاحصائية ·
« Analyzing the figures that Shape Our Daily Lives »
بقلم (Richard Lipkin) فى Insight ، ٢٢ مايو ١٩٨٩ · « Political Power and Money at Stake in Census Undercount Fight » و
واشنطن بوست ، ١١ يناير ١٩٨٨ · و « False Signals on Inflation »
نيوزويك ، ٢٨ يوليو ١٩٨٦ · « Peaswing Money » بقلم (John Roberts)
فى مجلة (National Westminster Moneycare) لندن ، أكتوبر ـ نوفمبر ١٩٨٦ · وكذلك مقابلة المؤلف مع جاك كين مدير مكتب الاحصاء الأمريكي والعاملين فى هذا الكتاب · ص ٦٣ ·

١١ ـ حديث توماس رونا عن ضخامة البيانات المرسلة من الأقمار الصناعية ومشكلة تحليلها : « Spy Satellites : Entering a New Era »
مجلة ساينس ، ٢٤ مارس ١٩٨٩ · ص ٦٦ ·

١٢ ـ عن النظم الخبيرة وقدراتها على الاستنتاج وانتشار استخدامها فى الشركات انظر : « Car and Plane MaKers Fuel Up with CAD, AI » و « Oil Companies Exploit as Muchas explore IS »
كليهما فى مجلة Datamation ، ١٥ نوفمبر ١٩٨٩ · انظر أيضا « New Shells For Old Iron » بقلم John J. Poplizio و William S. Cappelli فى Datamation ، ١٥ أبريل ١٩٨٩ · ص ٦٧ ·

١٣ ـ حول استخدام النماذج الاعلاماتية واساءة استخدامها : [٤٦٣] صفحة ، ٩ ـ ١٠ و ٣١ ـ ٣٢ · ص ٦٩ ·

١٤ ـ عن عدد الفقراء نتيجة للتخفيضات فى برامج الضمان الاجتماعى « Taking the Measure, or Mismeasure, of it All » نيويورك تايمز ، ٢٨ أغسطس ١٩٨٤ · ص ٧٠ ·

١٥ ـ مقاضاة مكتب الاحصاء :
« Accord on Census May Bring Change in Minority Data »
نيويورك تايمز ، ١٨ يوليو ١٩٨٩ · ص ٧١ ·

الفصل الرابع والعشرون

ســوق للجواسيس

١ ـ الجواسيس لدى قدماء المصريين : انظر [٤٠٣] صفحة ، ١١١ • ص ٧٤ •

٢ ـ فراشات بادن ـ باول : انظر [٣٩٤] صفحة ، ٧ ـ ٨ • ص ٧٤ •

٣ ـ قصة كابتن جثيشي تاناكا : انظر [٣٩٤] صفحة ، ٢١ ـ ٢٣ ص ٧٤ •

٤ ـ عن التجسس الجماعي : انظـر [٤٢٦] صـفحة ، ٨٣ • ص ٧٥ •

٥ ـ اسـتخدام « صحفيي الشـعب » للتجسس الجماعي : انظر [٤١٧] صفحة ، ٦ • ص ٧٥ •

٦ ـ قصـة حياة ريتشـارد سـورج : انظر [٤٠٤] صـفحة ٣٢٥ ـ ٣٤٣ • ص ٧٥ •

٧ ـ المعلومات التي تقدمها نظم الاستشعار عن بعد : انظر [٣٩٩] صفحة XVI • ص ٧٦ •

٨ ـ التنصت على الزعماء السوفيت في سياراتهم الليموزين وعلى موقع لوب نور للتجارب النووية بالصين : انظر « Exit Smiley, Enter IBM » سنداى تايمز (لندن) ، ٣١ أكتوبر ١٩٨٢ • ص ٧٧ •

٩ ـ عن « مجتـمع الاســتخبارات » الأمريـكي : انظر [٤٢٤] و [٤٢٢] بأكملهما ، و [٤٣٤] الفصلين الأول والثاني ، وأيضا ، مقابلة مع ألفريد كينجون الوزير السابق في البيت الأبيض • ص ٧٩ •

١٠ ـ عن الاستخبارات الســوفيتية : انظـر [٤٠٤] بأكمله ، و [٤٣٤] الفصلين الرابع والخامس ، وكذلك [٤٢٥] وان كان قديما

نوعا ما ، و [٥٢٦] ص ١٦٦ – ١٦٧ ، الذى يركز على التجسس التقنى . ص ٧٩ .

١١ – الاستخبارات الفرنسية : انظر [٤١٥] بأكمله ، و [٤٣٤] الفصل السابع ، و [٤٢٣] الفصل السادس . ص ٨٠ .

١٢ – الاستخبارات الألمانية : انظر
« Smiley Without People : A Tale of Intelligence Misjudgments »
فى Der Tagesspiegel (برلين) ، ٦ يناير ١٩٩٠ ، أيضا [٤٣٤] ص ، ٣ و ١١٣ و ١٢٧ و ١٣٠ و ١٨٢ ، و [٤٢٣] صفحة ١٢٧ – ١٤٧ و ٢٥٤ – ٢٥٧ . ص ٨٠ .

١٣ – الاستخبارات اليابانية : انظر [٤٢٣] الفصل الثامن ، انظر أيضا [٤٢٦] . ص ٨٠ .

١٤ – واقعة سكك حديد سيبريا : انظر [٤٢٣] صفحة ٢٥٥ . ص ٨٠ .

١٥ – بشأن « عزل » نيوزلندا استخباريا :
« British Ban Kiwis From Intelligence Briefings »
فى سنداى تايمز (لندن) ، ٤ مايو ١٩٨٦ . ص ٨١ .

١٦ ، قصة تجسس جيمس هاربر وزوجته لصالح السوفيت : انظر [٤٣٤] صفحة ١٦٥ . ص ٨١ .

١٧ – حيرة الأرجنتين بشأن اختيار جهاز استخبارى أجنبى للتعاون معه : مقابلات المؤلف فى بيونس آيرس . ص ٨٢ .

١٨ – استمرار تعاون بلدان أوروبا الشرقية مع موسكو فى مجال الاستخبارات بعد الاطاحة بالحكومات الشيوعية :
« It's Still Business as Usual for Spies, Even as the Eastern Bloc Rises Up » فى نيويورك تايمز ، ٣١ ديسمبر ١٩٨٩ . ص ٨٢ .

١٩ – عن المعلومات الاستخبارية الأمريكية لجنوب أفريقيا : انظر :
« U.S. Is Said to Have Given Pretoria Intelligence on Rebel Organization » فى نيويورك تايمز ، ٢٣ يوليو ١٩٨٦ ، أيضا « Query on CIA Tie to Mandela Case Deflected » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٣ يونيو ١٩٩٠ . ص ٨٣ .

٢٠ – المساعدة الاسترالية لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى شيلى : انظر [٤٠٢] صفحة ٢٤ – ٢٥ . ص ٨٣ .

٢١ – التعاون الفرنسى البرتغالى والفرنسى المغربى : انظر [٤١٥] صفحة ٧٩ – ٨٠ و ٧١ – ٧٣ . ص ٧٣ .

٢٢ ـ تعاون رومانيا ومنظمة التحرير الفلسطينية : انظر [٤١٦] صفحة ١٣ و ١٥ ـ ٣٥ و ٩٢ ـ ٩٩ ص ٨٣ .

٢٣ ـ التعاون الاسرائيلى الأمريكى : [٤٢٤] صفحة ٢٠٥ ـ ٢٠٧ ص ٨٣ .

٢٤ ـ التعاون الأمريكي السوفيتى من أجل مكافحة الارهاب :
« Ex-KGB Aides to Join U.S. Talks on Terrorism »
فى لوس أنجلوس تايمز ، ٢٥ سبتمبر ١٩٨٩ ص ٨٣ .

٢٥ ـ أثر تبادل المعلومات الاستخبارية بين الدول على الحريات المدنية : راجع [٤١١] ص ٣٧٣ ص ٨٣ .

٢٦ ـ قصة الطائرات الحربية العراقية : « The 300-Million Dollar Disaster » فى The Voice of the Arab World (لندن) غير مورخة ، أيضا [٣٩٢] بأكمله ص ٨٤ ـ ص ٨٥ .

٢٧ ـ عن « قوائم المراقبة » الخاصة بوكالة الأمن القومى الأمريكي ونظيرتها البريطانية (GCHQ) : انظر « Exit Smiley, Enter IBM » فى سنداى تايمز (لندن) ، ٣١ أكتوبر ١٨٩٢ ص ٨٥ .

٢٨ ـ أقوال ليونيل أولمر : مقابلة مع المؤلف ص ٨٦ .

٢٩ ـ صفقة المفاعلات النووية بين نظام شاوشيسكو وكندا : انظر [٤١٦] صفحة ٢٩٢ ـ ٢٩٧ ص ٨٨ .

٣٠ ـ مقولة الكونت دى مارنش المدير السابق للمخابرات الفرنسية : انظر [٤١٥] صفحة ٤١ ـ ٤٢ ص ٨٩ .

٣١ ـ جهاز الاستخبارات السوفيتية (KGB) فى طوكيو :
انظر [٤١٣] صفحة ١٠٣ ـ ١٠٤ ص ٩٠ .

٣٢ ـ الخط X (LINE X) وموقعه فى التنظيم الخاص بجهاز (KGB) السوفيتى : انظر [٤٣٤] صفحة ٨٧ ص ٩٠ .

٣٣ ـ عن الخلاف فى لجنة كوكوم انظر :
« Appeal for Cocom Black-List to be Overhauled »
تعليق فى Frankfurter Rundschau ٢٩ نوفمبر ١٩٨٩ . (مترجم فى German Tribune ، عدد ١٠ سبتمبر ١٩٨٩) و « American Hypocrisy Highlighted in Cocom Rule, Implementation فى Japan Economic Journal ، ٢ يوليو ١٩٨٨ ، و « A Challenge for High-Tech Censors » فى فاينانشيال تايمز ، ١٩ أكتوبر ١٩٨٨ ، و « US. Set to Ease European Defence Technology Curbs » فى فاينانشيال تايمز ٢٩ يناير ١٩٨٨ ، و [٥٢٦] صفحة ١٥ ص ٩١ ـ ص ٩٢ .

٤٣ ـ عن قيام تركيا بقطع مياه نهر الفرات : انظر
« Turkey's Stranglehold on the Euphrates Irks its Neighbours »
في فايناننشيال تايمز ، ٣ يناير ١٩٩٠ ص ٩٣ ·

٣٥ ـ حول علاقات شركة بكتل مع الـ (سي · آي · ايه) انظر :
[٧٣٠] صفحة ١١٧ ص ٩٤ ·

٣٦ ـ ٢٠٠ جاسوس أمريكي تحت غطاء « الأعمال التجارية » :
« Business Pose by US. Spies Reported » في نيويورك تايمز ، ٢٨ فبراير ١٩٧٤ ص ٩٤ ·

٣٧ ـ عدم ضغط الولايات المتحدة على رجال أعمالها للتجسس انظر :
[٤٣٤] صفحة ٤٩ ص ٩٤ ·

٣٨ ـ عن القمرين الصناعيين لاندسات وسبوت :
« Space Cameras and Security Risks » بقلم دافيد ديكسون ، في مجلة ساينس ، ٢٧ ينـاير ١٩٨٩ ، و « Civilians Use Satellite Photos for Spying on Soviet Military » في نيويورك تايمز ، ٧ أبريل ١٩٨٦ ، والمقابلة مع كيفين كوربلي ، المنسق الاعلامي بشركة مراقبة الأرض بالأقمار الصناعية (EOSAT) ، انظر كذلك مجلة Spotlight (المجلد ٣ العدد ٢) يونيـو ١٩٨٩ التي تصـدرها (Spot Image Corporation) وكتـالوج (SPOT Data Products and Services) وكتيب (SPOT Surveillance) .
ص ٩٧ ·

٣٩ ـ عن معالجة وتحسـين صـور الاستشعار عن بعـد للأغراض التجارية والعسـكرية التي أصبحت الآن عملا تجاريا متناميا : انظـر
« Directory of Landsat-Related Products and Services » — United States Edition, 1988.
« Directory - Landsat Related Products and Services » - International Edition 1989 ، الصادرين عن (EOSAT) لانهام ولاية ماريلاند ص ٩٨ ·

٤٠ ـ بشأن شبكة (Space Media) السويدية وما كشفته صورها وبياناتها انظر الكتيب الصادر عن (Space Media Network) ، وأيضا « Photos Prove 57 Nuclear Disasters » في شـيكاغو تريبيون ، ١ ديسمبر ١٩٨٨ ، و « Satellite Photos Appear to Show Construction of Soviet Space Shutle Base » في نيويورك تايمز ، ٢٥ أغسطس ١٩٨٦ ، وقائمة المشروعات الاعلامية « List of Media Projects » الصادرة عن (Space Media Network). ص ٩٨ ·

٤١ ـ عن مشاريع تطوير الأقمار الصناعية والصواريخ فى الأقطار النامية انظر : « Star Wars » بقلم (Stertt Pope) فى World Press Review ديسمبر ١٨٩٩ ص ٩٩ ·

٤٢ ـ بشأن عجز أجهزة الاستخبارات الأمريكية عن مواكبة سرعة الأحداث فى أوروبا الشرقية :
« E. European Events Outrun Intelligence Analysis, Panel Told » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٣ ديسمبر ١٩٨٩ ص ١٠٠ ·

٤٣ ـ مقولة جوزيف كونراد مأخوذة من : « Under Western Eyes » الصادر عام ١٩٩١ ص ١٠١ ·

الفصل الخامس والعشرون

جــدول أعمــال المعلــومات

١ ــ عن ماكفرلين في طهران :

« IRAN Says McFarlane Came on Secret Mission to Tehran » في واشنطن بوست ، ١١ نوفمبر ١٩٨٦ ، و « Cloak Foreign Servcie and Dagger » في نيوزويك ، ١٧ نوفمبر ١٩٨٦ ، و « Reagan's Backdoor Hostage Deal with Iran » في يو · اس نيوز آند ورلد ريبورت ، ١٧ نوفمبر ١٩٨٦ ، و « Cake Delivered to Iranians Was Strictly Kosher » في لوس أنجلوس تايمز ، ٢٧ فبراير ١٩٨٧ ص ١٠٣ ·

٢ ــ عن مسألة توزيع ونشر المعلومات والبيانات الفيدرالية :

« Federal Information . Who Should Get it. Who Shouldn't ? » بقلم : Diane Sherwood في (The World and I) أول يناير ١٩٩٠ · ص ١٠٥ ·

٣ ــ بالنسبة لعدد العمال الذين تلقوا اخطارات بالفصل تقل مدتها عن ٢٤ ساعة قبل فصلهم : « Heading for an Override ? » في مجلة تايم يوليو ١٩٨٨ ص ١٠٥ ·

٤ ــ عن تعليق زعيم الحزب الديمقراطي في مجلس الشيوخ على مطالبة النقابات بقوانين تلزم الشركات باخطار مسبق مدته ستون يوما ، بأنها مســألة عدالة : « Heading for an Override ? » في مجلة تايـم ، ١٨ يوليو ١٩٨٨ ، و « Closing Law's Key Provisions » بقلم Martha I. Finney في Nation's Business ، ينــاير ١٩٨٩ ، و « 72-73 Senate Approves Notice of Plant Closings » في نيويورك تايمز ، ٧ يوليو ١٩٨٨ ص ١٠٦ ·

٥ ــ عن جماعات المواطنين في مدينة أوساكا :

« Group Seekd Access to City's Information » في Japan Times ٢٩ أغسطس ١٩٨٩ ص ١٠٧ ·

٦ ـ حـول تشريع حريـة المعـلومات : « Role of Access Coordinators Under Scrutiny » في (Transnational Data and Communications Report) ، مارس ١٩٨٩ ، أيضا « International FOI Roundup » في (Transnational Data and Communications Report) يونيـو ١٩٨٥ . تتابع هذه المطبـوعة الدورية بانتظام الأحـداث المرتبطة بحرية المعلومات ص ١٠٨ .

٧ ـ تحقيق لجنة الكونجرس حول اخفاء المعلومات الخاصة بحادث تفجير طائرة بان أمريكان ، وانتقاد وزير النقل الأمريكي لعمليـة كشف تعليمات السلامة التي تصدرها ادارة الطيران الفيدرالية :
« Transportation Secretary Assails Publicizing of Terrorist Warnings »
في نيويورك تايمز ، ١٣ أبريل ١٩٨٩ ص ١٠٩ .

٨ ـ قصة شركة طيران نورثويست :
« Northwest Planned to Disclose Bomb Threat at the Gate »
في لوس أنجلوس تايمز ، ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩ ، و « Northwest Warns Flight's Ticket Holders of Threat » في نيويورك تايمز ، ٢٩ ديسمبر ١٩٨٩ ص ١٠٩ .

٩ ـ بشأن مرضى الايدز والكشف عنهم : « AIDS : Who Should Be Tested ? » في نيوزويك ، ١١ مايو ١٩٨٧ ، و « As AIDS Spooks The Schoolroom » في يو . اس . نيوز آند ورلد ريبورت ، ٢٣ سبتمبر ١٩٨٥ ، و « Putting AIDS to the Test » في مجلة تايم ، ٢ مارس ١٩٨٧ ، و « Mandatory Testing for AIDS ? » في نيوزويك ، ١٦ فبراير ١٩٨٧ . ص ١١٠ .

١٠ ـ عن حادثة شيرنوبل وحق البلدان في معرفة ما يجـري في غيرها : « Sweden Protests to Moscow Over Lack of Warning » في فاينانشيال تايمز ، ٣٠ أبريل ١٩٨٦ و « Russians Pressed to Give Full Details of Nuclear Desaster » في التايمز اللندنية ، ٢٩ أبريل ١٩٨٦ . ص ١١١ .

١١ ـ الانتقاد الذي وجهـه الأدمـيرال سـتانسفيلد تيرنر ، مدير ال (سي . آي . ايه) السـابق ، الى الولايات المتحدة « The US. Responded Poorly to Chernobyl » في نيويورك تايمز ، ٢٣ مايو ١٩٨٦ ص ١١١ .

١٢ ـ حكومة المستشار الألماني هيلموت كول وموضوع مصنع الأسلحة الكيميائية الليبى : « Lybian Plant Sparks Storm in Bonn » فى واشنطن بوست ، ١٩ يناير ١٩٨٩ ، و « West Germany in Libya Probe » فى فايننشيال تايمز ، ١٤ ـ ١٥ يناير ١٩٨٩ ، و « Senator Assails Bonn in Libya Scandal » فى لوس أنجلوس تايمز ، ٢٩ يناير ١٩٨٩ ، و « Vigilance, Luck Expose Libya Plant » فى لوس أنجلوس تايمز ، ٢٢ يناير ١٩٨٩ ص ١١٢ .

١٣ ـ عن المعركة السياسية التى دارت فى واشنطن حول قرصنة المنتجات الفكرية الأمريكية فى تايلاند : « Thai Copyright War Divides Washington » فى فايننشيال تايمز ، ٢٧ يناير ١٩٨٩ ص ١١٤ .

١٤ ـ عن قرصنة الكتب : « Barbara Book Pirates » بقلم (Sterett Pope) فى World Press Review ، يونيو ١٩٨٦ ، و « La book connection » بقلم Rémy Lifliet فى مجلة الاكسبريس الباريسية ، ٢٩ مارس ١٩٨٥ ، أيضا « Copyright Holders Name 12 Pirate Nations » فى فايننشيال تايمز ، ٢٥ أبريل ١٩٨٩ ص ١٩٣ .

١٥ ـ عن فيلم انديانا جونز : « High-tech Tactics slow Film Piracy » فى نيويورك تايمز ، ٢٩ يناير ١٩٨٦ ص ١١٣ .

١٦ ـ عن صالونات الفيديو فى تايوان : « Pulling the Plug on Pirate Videos » فى لوس أنجلوس ، ٨ يناير ١٩٩٠ ص ١١٤ .

١٧ ـ عن سرقة البرامج الاعلاماتية : «Psst!hey, mister, want to buy some software cheap ? » بقلم كريستوفر جونستون فى PC Computing أكتوبر ١٩٨٨ ، و « Thai Copyright War Divides Washington فى فايننشيال تايمز ، ٢٧ يناير ١٩٨٩ ص ١١٥ .

١٨ ـ عن موقف اليابان حيال الملكية الفكرية :
« Putting a price on Intellect » بقلم (Yuji Masuda) فى Journal of Japanese Trade and Industry ، العدد الخامس ، ١٩٨٨ ص ١١٥ .

١٩ ـ موقف المجموعة الأوروبية : « Brussels Plan for IPR Control » فى فايننشيال تايمز ، ٤ يوليو ١٩٨٩ ص ١١٥ .

٢٠ ـ حديث هارلان كليفلاند مأخوذ من نشرة World Future Studies Federation, WFSF ، عدد يوليو ١٩٨٩ ص ١١٦ ٠

٢١ ـ ما ذكره (عبده سعيد) و (لويز سيمونز) عن سوء توزيع المعلومات مأخوذ من [٣٣٢] صفحة ٧ ص ١١٧ ٠

٢٢ ـ عن معامل الأدوية والدول النامية : « Whose Idea Is it Anyway ? » في الايكونوميست ، ١٢ نوفمبر ١٩٨٨ ص ١١٦ ٠

الفصل السادس والعشرون

صـــانعو الصـــور

١ ـ عن أول صـحيفة شـعبية انظر : [١٧١] ص ٥ ـ ٦ ، و [١٧٩] صفحة ٢٠٣ ـ ٢٠٥ ص ١١٩ ٠

٢ ـ حول ظهور « الرأى العـام » انظر : [٥٣٨] صفحة ١٤ ص ١٢٠ ٠

٣ ـ عن أثر شبكة (CNN) راجع : « Watching Cable News Network Grow » فى نيـويورك تايمز ، ١٦ ديسـمبر ١٩٨٧ ، و « Triumphant Ted » بقلم جوشوا هامر فى مجلة بلايبوى ، يناير ١٩٩٠ ، انظر كذلك وثائق CNN :
« The Growth of a Global Network » و « Milestones », و Live reporting » ، و [١٨٠] باكمله ص ١٢١ ٠

٤ ـ عن فيدل كاسترو : قام تيد تيرنر بعرض الشريط على المؤلف فى لقاء خاص ص ١٢١ ٠

٥ ـ حول الشبكات والخدمات التليفزيونية الجديدة فى الولايات المتحدة انظر : « Cable » بقلم Paula Parisi فى هوليوود ريبورتر ، استعراض مسبق للبرامج والأحداث التليفزيونية لعامى ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ ، كذلك « Channel One » Could Wittle Away at Net and Syndie Teen and Coin » بقلم Verne Gay فى مجلة Variety ، ١٤ ـ ٢٠ يونيو ١٩٨٩ ص ١٢٤ ٠

٦ ـ بالنسبة لعدد القنوات المتوفرة الآن فى الولايات المتحدة انظر : [٦٨] ص ٢٨١ ، و « Technology Adds Choices and Programming Needs فى نيويورك تايمز ، ٢٤ يوليو ١٩٨٩ ص ١٢٥ ٠

٧ ــ بشأن عمليات البث المباشر عبر الأقمار الصناعية فى الولايات المتحدة انظر : « One Hundred and Eight Channels by 1993 ? Stay Tuned America » فى انترناشيونال هيرالد تربيون ، ٢٢ فبراير ١٩٩٠ ص ١٢٥

٨ ــ حول ظهور المحطات والإتحادات الاعلامية المستقلة : « The Future of Television » فى نيوزويك ، ١٧ أكتوبر ١٩٨٨ ص ١٢٥ ٠

٩ ــ حديث روبرت ايجر مأخوذ من : « Technology Adds Choices and Programming Needs » فى نيويورك تايمز ، ٢٤ يوليو ١٩٨٩ ص ١٢٦ ٠

١٠ ــ مقولة آل بيرتون بأن « لا أحد يتذكر الشبكات الاذاعية الكبرى » مأخوذة من مقابلة المؤلف معه ٠ ويرأس بيرتون مؤسسة للانتاج التليفزيونى تحمل اسمه كما أنه المنتج التنفيذى لـ Universal Television ص ١٢٦ ٠

١١ ــ عن الشبكات الكابلية الأوروبية راجع : « Tube Wars » بقلم Fred V. Gurtel فى مجلة Business Month ، ديسمبر ١٩٨٨ ص ١٢٦ ٠

١٢ ــ حول المنافسة المحمومة بين الشبكتين البريطانيتين للبث بالأقمار الصناعية (BSB) و Sky Television انظر : « BSB Inks 5-year Output Deal with Orion : Rumous of OZ'Bond Pulling OutAbound » بقلم Elizabeth Guider فى مجلة Variety ، ١٤ ــ ٢٠ يونيو ١٩٨٩ ، و « Adtivate the Death Star » فى مجلة الايكونوميست ، ٨ يوليو ١٨٩٩ ص ١٢٧ ٠

١٣ ــ عن التليفزيون الفرنسى انظر : « Off-Screen TV Scandal, Sex, Money » فى نيويورك تايمز ، ١٨ يناير ١٩٨٨ ، و « Boost for Cable TV Industry in France » فى فاينانشيال تايمز ، ٩ فبراير ١٩٩٠ ، و « France's New Television Order » بقلم Adam Glenn فى Broadcasting ، ٢٤ أغسطس ١٩٨٧ ، و « Commercial TV, Mon Dieu ! » فى مجلة تايم ، ١٧ مارس ١٩٨٦ ، و « Le Défi Disney » بقلم John Marcom فى مجلة فوربس ، ٢٠ فبراير ١٩٨٩ ص ١٢٧ ٠

١٤ ــ عن التليفزيون الألمانى انظر « New German TV : Idiot Culture or Breath of Air ? » ، فى نيويورك تايمز ، ١١ فبراير ١٩٨٥ ، و « Tube Wars » بقلم Fred V. Guterl فى مجلة Business Month ديسمبر ١٩٨٨ ص ١٢٧ ٠

١٥ ــ حول عمليات الدمج بين وكالات الاعلان انظر :
« WPP. the New Giant of .. PR » في بزنيس ويــبك ، ٢٠ مايــو ١٩٨٩ ، و « Upbeat View at Saatchi New York » في نيويورك تايمز ، ٢١ يونيو ١٩٨٩ ص ١٢٨ ·

١٦ ــ عن اخفاق استراتيجية « التسويق العالمي انظر :
« Marketers Turn Sour on Global Sales Pitch Harvard Guru Makes » في وول ستريت جورنال ، ١٢ مايو ١٩٨٨ ، و « The Overselling of World Brands » في فاينانشيال تايمز ، ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ ، « Why the Single Market Is a Misnomer-and the Consequences » في فاينانشيال تايمز ، العدد نفسه ص ١٢٩

١٧ ــ حول سوني في هوليوود : « $ 3 Billion Bid for Columbia by Sony » في لوس أنجلوس تايمز ، ٢٦ سبتمبر ١٩٨٩ · هذا التقرير المبكر يخمن تقدير السعر الفعلي · بعد يومين ، ٢٨ سبتمبر ١٩٨٩ ، قدرت صحيفة نيويورك تايمز السعر ب ٣٫٤ مليار دولار في تقريرها المعنون « Sony Has High Hopes for Columbia pictures » وفي تقريرها « Sony Goes for Hollywood » بتاريخ أول أكتوبر ١٩٨٩ وقدرت سنداي تايمز اللندنية السعر ب « ٥ مليارات دولار » ص ١٣١ ·

١٨ ــ حول امبراطورية روبرت موردوخ : « Four Titans Carve Up European TV » بقلم (William Fisher) و (Mark Schapiro) في مجلة Nation ، ٩ ــ ١٦ يناير ١٩٨٩ ، و « Tube Wars) بقـلم Fred V. Guterl في Business Month ، ديسمبر ١٩٨٨ ص ١٢٩ ·

١٩ ــ وصف روبرت ماكسويل : « Larger than Life » في مجلة تايم ، ٢٨ نوفمبر ١٩٨٨ ، انظر أيضا « Four Titans Carve Up European TV » بقلم William Fidher و Mark Schapiro في مجلة Nation ٩ ــ ١٦ يناير ١٩٨٩ ، و « Business goes global » في Report on Business Magazine. The Globe and Mail (تورنتو) فبراير ١٩٨٩ ص ١٣٢ ·

٢٠ ــ عن موهن وبيرتلزمان انظر : « Reinhard Mohn » مجلة Nation ، ١٢ يونيــو ١٩٨٩ ، انظــر أيضــا [١٣٤] بأكمله ، و « Business Goes Global » في — Report on Business Magazine The Globe and Mail (تورنتو) فبراير ١٩٨٩ ، و « Bertelsmann Philosophy » في كتيب مجموعة بيرتلزمان ص ١٣٢ ·

الفصل السابع والعشرون

وسائل الاعلام المحرضة على الثــورة

١ ــ الانتصار القانوني للمكسيكيين : « Mexicans Who Sued Deputies Win $ 1 Million » لوس أنجلوس تايمز ، ٢٥ يناير ١٩٩٠ ، و « Video-tepe is Centerpiece of « Victorville 5 « Brutality, Law suit » في لوس أنجلوس تايمز ، ٩ يناير ١٩٩٠ ص ١٣٩ .

٢ ــ عن استخدام ثوار تشيكوسلوفاكيا للفيديو : « The Czechoslovak Pen Defies the Party Sword ». في فايناشيال تايمز ، ٢٨ نوفمبر ١٩٨٩ ص ١٤٠ .

٣ ــ حول استخدام التليفزيون وأشرطة الفيديو في السياسة : ملخص ممتــاز من المعــلومات عن ذلك في « TV, VCRs Fan Fire of Revolution » في لوس أنجلوس تايمز ، ١٨ يناير ١٩٩٠ ص ١٤٠ .

٤ ــ دعــا شاوشيسكو المؤلف ذات مــرة قائلا : « تعال واقض العطلة معي ، يمكننا مشاهدة « كوجاك » معا » وجاءت هذه الدعوة المفاجئة في أعقاب لقاء مطول للمؤلف وزوجته مع الرئيس الروماني حضره هاري بارنز ، السـفير الأمريكي في بوخارست . كان ذلك في عــام ١٩٧٦ . أما نهاية حقبة شاوشيسكو فمذكورة في : « How the Ceausescus Fell : Harnessing Popular Rage » في نيويورك تايمز ، ٧ ينــاير ١٩٩٠

٥ ــ عن دور التليفزيون في الفيليبين : « Playing to the TV Cameras » في يو . اس . ايه . آند ورلد ريبورت ، ١٠ مارس ١٩٨٦ . ص ١٤١ .

٦ ــ حول الثورة الرومانية انظر : « How the Ceausescus Fell : Harnessing Popular Rage » في نيويورك تايمز ، ٧ يناير ١٩٩٠ ، ص ١٤١ .

و « Romanian Revolt, Live and Uncensored » في نيويورك تايمز ، ٢٨ ديسمبر ١٩٨٩ ، كذلك «Message of the Media» في فايناشيال تايمز ، ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩ ص ١٤٢ .

٧ ـ عن عدم وصول ارسال التليفزيون الألماني الغربي الى دريسدن انظر : « The Long Journey out of the Valley of the Ignorant » في ستوتجارتر زايتنج ، ١٩ ديسمبر ١٩٨٩ ص ١٤٦ .

٨ ـ حول دور اذاعة (صوت أمريكا) في بث برامج موجهة للصين أثناء المظاهرات الطلابية راجع : شهادة ريتشارد كارلسون ، مدير اذاعة صوت أمريكا ، أمام اللجنة الفرعية التابعة للجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب الأمريكي ، ١٥ يونيو ١٩٨٩ ، كذلك « Old Men Riding a Tiger and Feeling Paranoid » في لوس أنجلوس تايمز ، ٨ يناير ١٩٩٠ ص ١٤٧ .

٩ ـ عن تنامي المسيحية في كوريا الجنوبية انظر : « Chun's $ 21 Million Apology » في نيوزويك ، ٥ ديسمبر ١٩٨٨ ، كذلك « Papal Nod to a Christian Boom » في مجلة تايم ، ١٤ مايو ١٩٨٤ ص ١٤٨ .

١٠ ـ عن استخدام الخوميني لأشرطة التسجيل :
« The Ayatollah's Hit Parade » في مجلة تايم ، ١٢ فبراير ١٩٧٩ ص ١٤٩ .

١١ ـ حول مجلات الحائط في بكين : « Peking's Posters Point Finger of Protest to the Party » في فاينانشيال تايمز ، ١٧ يونيو ١٩٨٨ ص ١٤٩ .

١٢ ـ تقارير عن انتفاضة الطلاب في الصين انظر : [٣٠٣] ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ، و « State of Siege » في مجلة تايم ، ٢٩ مايو ١٩٨٩ ، وللتعرف على وجهة نظر اشتراكية انظر : « China's Long Winter » بقلم Anita Chan في Monthly Review ، يناير ١٩٩٠ ، انظر كذلك « Watching China Change » بقلم Mark Hopkins في Columbia Journalism Review ، سبتمبر/أكتوبر ١٩٨٩ ص ١٥٠ .

١٣ ـ عن الاستخدام السياسي لوسائل الاعلام الجديدة انظر :
« ... As Chinese in U.S. Pierce a News Blokade » في نيويورك تايمز ، ٢٤ مايو ١٩٨٩ ، كذلك « TV, VCRs Fan Fire of Revolution » في لوس أنجلوس تايمز ، ١٨ يناير ١٩٩٠ ، « Phones, Faxes : Students in U.S. Keep Lines of Communication, Open » في لوس أنجلوس تايمز ، ٦ يونيو ١٩٨٩ ص ١٥١ .

١٤ ـ أول محاولة « للتشويش » يقوم بها مواطنون عاديون :
«Chinese Students in V.S. Seeking to Foil «Tip Lines» في لوس أنجلوس تايمز ، ١١ يونيو ١٩٨٩ ص ١٥٢ .

الفصل الثامن والعشرون

جيــل الشاشــة الصــغيرة

١ ــ لاعب الجولف الآلى : مقــابلات المؤلف مع جوردن ستلبيرج رئيس شركة (American Interactive Media) وبرنارد لسكين مدير هذه الشركة ، ووثائق الشركة أيضا ص ١٥٤ ٠

٢ ــ عن شبكات الألعاب التليفزيونية المتفاعلة :
« Computer Company Plans to Bring TV Viewer into the Action »
فى لوس أنجلوس هيرالد اكزامينر ، ١١ فبراير ١٩٨٨ ص ١٥٥ ٠

٣ ــ حديث جورج جيلدر : « Forget HDTV, It's Already Outmoded » فى نيويورك تايمز ، ٢٨ مايو ١٩٨٩ ، و « IBM-TV » بقلم جورج جيلدر فى مجلة فوربس ، ٢٠ فبراير ١٩٨٩ ص ١٥٥ ٠

٤ ــ عن أجهزة الفاكس فى الولايات المتحدة : « Ban Fax Attacks , They are Costly » ، بقلم ادوارد ماركىى (عضو الكونجرس) فى مجلة يو ٠ اس ٠ ايه ٠ توادى ، ٣١ مايو ١٩٨٩ ص ١٥٨ ٠

٥ ــ عن العطل فى مركز AT&T للاتصالات الهاتفية انظر : « President Reagan Declares Martin Luther King, Jr. Day » فى Jet ٢٣ يناير ١٩٨٩ ، و « AT&T Pinpoints Source of Service Disruption » فى نيويورك تايمز ، ١٧ يناير ١٩٩٠ ، وكذلك « AT&T Fiasco : Tense Fight With Haywire Technology » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٩ يناير ١٩٩٠ ص ١٦١ ٠

٦ ــ حديث جيفرى موريتز عن « جيل الشاشة الصغيرة » : رسالة للمؤلف من جيفرى موريتز ، رئيس شبكة National-College Television. ص ١٦٣ ٠

الخاتمة

التطلع الى عصر ظلمـات جـديد

١ ــ تساؤل مجلة تايم « هل مات الرب ؟ » :
« Toward a Hidden God » في مجلة تايم ، ٨ أبريل ١٩٦٦ ص ١٧٠ ·

٢ ــ عن صلات الأذريين بالأصولية الاسلامية انظر :
« Baku : Before and After » بقلم Igor Beliaev في Literaturnaya Gazéta International (الجريدة الأدبية) ، موسكو ، مارس ١٩٩٠ ، انظر أيضا « IRAN Warns Against « Harsh » Soviet Moves in Azerbaijan » في لوس أنجلوس تايمز ، ١٨ يناير ١٩٩٠ ، و« Fundamentalism Blamed for Uzbech Rioting, » في فاينانشيال تايمز ، ١٤ يونيو ١٩٨٩ ، و« Soviet Are at Loss, About Ethnic Unrest » في وول ستريت جورنال ، ٢١ يوليو ١٩٨٩ ، و« Tehran is Said to Back « Islamic Seal » but Not Separation in Azerbaijan » في نيويورك تايمز ، ٢١ يناير ١٩٩٠ · تختلف الروايات حول انتفاضة ١٩٨٩ في أذربيجان ومذبحة الأرمن في باكو اختلافا كبيرا فيما يتعلق بدور القيادة المحلية للحزب الشيوعي وتأخر موسكو في استخدام القوات لاستعادة النظام وطبيعة الحركة الأذرية ص ١٧٣ ·

٣ ــ عن الأصولية في اسرائيل انظر « Israel's Cultural War » في The Christian Century ، ١٦ ــ ٢٣ يوليو ١٩٨٩ · وعن علاقاتها بالرومانسية الألمانية المبكرة انظر : [٣٠٣] صفحة ٦٠ ــ ٦٣ ص ١٧٣ ·

٤ ــ بشأن الانقسامات في حزب الخضر وفي أيديولوجيتهم :
« Greens Trade Insults at Birthday Party » في Handelsblatt (دوسلدورف) ، ١٥ يناير ١٩٩٠ · هذا التقرير يبين تدني وضع الخضر الألمان بينما تتبنى الأحزاب الكبرى بعضا من سياساتهم · ان أفضل وصف

للانقسام الأيديولوجي الفلسفي في الحركة البيئية العالمية نجده في عدد الربيع ١٩٨٩ من الدورية الفصلية New Perspectives Quartely الذي يجمع عددا كبيرا من كبار المفكرين المعنيين بالحركة البيئية ويعطي خلاصة جيدة للقضايا الفلسفية الرئيسية لهذه الحركة · وتعد هذه الدورية ، التي يحررها ناثان جاردلز من أجرأ الدوريات الأمريكية ص ١٧٥ ·

٥ ـ مقولة رودولف باهرو مأخوذة من « Theologie NotEcology » في New Perspectives Quartely ، عدد الربيع ١٩٨٩ ، وآراء وولفجانج ساش من مقال« A Critique of Ecology » في المصدر السابق ص ١٧٧ ·

٦ ـ آراء ايفان ايليخ مأخوذة من : « The Shadow Our Future Throws » في المصدر السابق ، و [٥١٧] ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، و [٢٤٠] صفحة ٨١ ص ١٧٧ ·

٧ ـ مقولة ليندا بيلمز ومارك بيفورد مأخوذة من : « Armageddon and the Greens » في فاينانشيال تايمز ، ٣٠ ـ ٣١ ديسمبر ١٨٩٩ ص ١٧٨ ·

٨ ـ مقولة باهرو عن « هتلر أخضر » انظر : « Theology Not Ecology » في عدد الربيع ١٩٨٩ من الدورية الفصلية New Perspectives Quartely. ص ١٧٨ ·

٩ ـ انتقاد آلان تورين للاهوتيين البيئيين وتحذيره من التخلي عن العقل : « Neo-Modern Ecology » في المصدر السابق ص ١٧٩ ·

١٠ ـ عن الرومانسية الألمانية ونزعة العودة الى الطبيعة : « The Danger of Counter-Culture » بقلم John de Graff في Undercurrents 21 ، أبريل ـ مايو ١٩٧٧ ، انظر كذلك [٥٨٢] ص ٥٠ ـ ٥٥ ، و [٣٨٤] لاسيما الفصل الحادي عشر ، كذلك [٣٩٠] صفحة ١٨٨ ص ١٧٩ ·

١١ ـ عن تحمس النازيين للعصور الوسطى : [٣٩١] ص ٥٠ والخريطة المرفقة ص ١٨٠ ·

١٢ ـ عن « قبيلة الخضر » (رسالة من رون جيمس) الايكونوميست ، ٢٩ يوليو ١٩٨٩ ص ١٨٠ ·

١٣ ـ بشأن القلق من هيمنة التليفزيون الأنجلو ساكسوني : « Vers un Marchè Mondial de l'Information Télévisée » بقلم Yves Eude ، في لوموند دبلوماتيك (باريس) ، يونيو ١٩٨٨ ،

و « Hollywood PredominanceReflects Sad State of European Industry »
في Süddeutsche Zeitung (ميونخ) ٦ يناير ١٩٩٠ ص ١٨١ ٠

١٤ ـ عن انخفاض أسعار أطباق استقبال بث الأقمار الصناعية :
مقابلة مع دان جولدين خبير الأقمار الصناعية في شركة TRW ٠ ص ١٨١ ٠

١٥ ـ رأى لوبان عن معسكرات النازية : « French Rightist
Belittles Gas Chambers » في نيويورك تايمز ، ١٦ سبتمبر ١٩٨٧ ،
انظر أيضا « Le Front National et le drapeau Nazi dans le
Champ Belge à Rotterdam » في Le Soir البلجيكية (بروكسل) ،
٣٠ نوفمبر / ١ ديسمبر ١٩٨٥ ، و « Europeans Showed Dissatisfaction
with Ruling Parties » لوس أنجلوس تايمز ، ٢٤ يونيو ١٩٨٩ ص ١٨٢ ٠

١٦ ـ عن أعضاء الحزب الجمهوري في ألمانيا : « Europe's Grand
Parties in a Tightening Vise » في وول ستريت جورنال ، ٢٦ يونيو
١٩٨٩ ، و « Extreme Rightists Win Frankfurt Council Seats »
في لوس أنجلوس تايمز ، ١٣ مارس ٩٨٩ « Germany's Republi Kaners
Start a Rumble on the Far Right » في وول ستريت جورنال ،
٢٤ يوليو ١٩٨٩ ، و « Is Extremist or Opportunist Behind, Boon
Rightist's Tempered Slogans ? » في نيويورك تايمز ، ٢٧ يونيو ١٩٨٩
أيضا « Millstone Instead of Milestone for Republicans » في
Süddentsche Zeitung (ميونخ) ، ١٥ يناير ١٩٩٠ ، و « Former Nazi
Quits as W. German Party Leader, Blaming Extremists » في لوس
أنجلوس تايمز ، ٢٦ مايو ١٩٩٠ ص ١٨٢ ٠

١٧ ـ حول المتطرفين البيئيين والمعادين للمهاجرين :
« Saboteurs for a Better Environment » في نيويورك تايمز ، ٩ يوليو
١٩٨٩ ، انظر أيضا المناقشة المنشورة على صفحات (Earth First !)
(كانتون ، ولاية نيويورك) ، وهي احدى مطبوعات المتطرفين البيئين
ص ١٨٣ ٠

١٨ ـ عن تنامي الشعور القومي في اليابان : « A New Japanese
Nationalism » بقلم (Ian Buruma) في مجلة نيويورك تايمز ، ١٢ أبريل
١٩٨٧ ، و « Mayor Who Faulted Hirihito is Shot » في نيويورك
تايمز ، ١٩ يناير ١٩٩٠ ، و « Attack on Nagasaki Mayer Stirs Fears
of Speaking Out » في نيويورك تايمز ، ٢١ يناير ١٩٩٠ ،
و « Rightist Held in Shooting of Blunt Nagasaki Mayor » في لوس
أنجلوس تايمز ، ١٩ يناير ١٩٩٠ ، و « Japanese See a Threat
to Democracy in Shooting of Nagasaki Mayor » في لوس أنجلوس
تايمز ، ٢٠ يناير ١٩٩٠ ص ١٨٤ ٠

١٩ – حول الديانة « اليماتوئية والتفرد المزعوم للغة اليابانية وسموها على سائر اللغات » انظر : « The Japan as Number One « Syndrome » بقلم Kunihiro Masso في (Japan Echo, Vol. XI, no 3, 1984) طوكيو ، و « A New Japanese Nationalism » بقلم Ian Buruma في مجلة نيويورك تايمز ، ١٢ أبريل ١٩٨٧ ، انظر أيضا [٤٦٠] كمصدر رئيسى عن فكرة تفرد اللغة اليابانية ، وهى فكرة لها رنين سياسى وقومى مهم جدا ص ١٨٤ .

٢٠ – عن الشوفينية الروسية : انظر [٥٥٨] ص ١٠٠ ، انظر كذلك [٣٤٧] ص ٣٨ – ٣٩ بشأن الفكرة التى ترى الخلاص فى القومية السلاقية وأصولها ، و [٥٤٨] بأكمله ص ١٨٥ .

٢١ – بالنسبة لتخفى منظمة « باميات » وراء قناع بيئى ومعاداتها للسامية انظر : « The Secret of Pamyat's Success » فى وول ستريت جورنال ، ٣ أبريل ١٩٨٩ ، و « Ideological Terror » (رسالة) فى Present Tense ، نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٩ ، لقد أدانت اللجنة السوفيتية العامة لمناهضة الصهيونية اقتحام الغوغاء للنادى المركزى للكتاب فى موسكو يوم ١٨ يناير ١٩٩٠ وهتافهم بشعارات معادية للسامية ، وعبرت اللجنة عن « غضبها » فى بيان تحت عنوان « Statement » فى الصحيفة الأدبية السوفيتية Literaturenaya Gazéta International (موسكو) ، عدد مارس ١٩٩٠ ص ١٨٥ .

ثمة تعليقات أكثر تعميما فى « Right-Wing Russians » فى كريستيان ساينس مونيتور ، ١٨ يونيو ١٩٨٧ ، و « Anxiety Over Anti-Semitism Spurs Soviet Warning on Hate » فى نيويورك تايمز ، ٢ فبراير ١٩٩٠ ، « Yearing for an Iron Hand » مجلة نيويورك تايمز ، ٢٨ يناير ١٩٠٠ ، و « Anti-Semitic Rallies Prompt Protest » واشنطن بوست ١٤ أغسطس ١٩٨٨ ، و « Don't Underestimate Anti-Semitic Soviet Fringe » (رسالة) ، فى نيويورك تايمز ، ٣ أبريل ١٩٨٩ ، وانظر أيضا [٣٥٢] صفحة ٦٦ و ٨٦ ص ١٨٦ .

يجسد الانقسام بين المصلحين العلمانيين فى الاتحاد السوفيتى والقوميين المسيحيين الروس الاختلاف الذى يميز اثنين من المنشقين العظام والشجعان : العالم الراحل أندريه سخاروف ، الحائز على جائزة نوبل والمدافع عن حقوق الانسان ، والذى كان ديمقراطيا متجها نحو الغرب ، و Alexander Soljenitsyne الذى يجمع بين القومية الروسية والتصوف الدينى والعداء الواضح للديمقراطية ٠

٢٢ ـ بشأن شوينهوبر « Is Extremist or Opportunist Behind Bonn Rightists' Tempered Slogan ? » فى نيويورك تايمز ٢٧ يونيو ١٩٨٩ ص ١٨٦ ٠

الفصــل التاسع والعشرون

عامــل المعـــرفة

١ ـ حول تمكن العلم من التدخل فى المادة على مستوى أعمق بشكل متزايد انظر : « A Small Revolution Gets Under Way » بقلم روبرت بول فى مجلة ساينس ، ٥ يناير ١٩٩٠ ص ١٩٣ ٠

٢ ـ قائمة أهم الانجازات العلمية :
« Academy Chooses 10 Top Feats » فى الدورية الشهرية The Institute التى يصدرها معهد الهندسة الكهربائية والالكترونية ، عدد فبراير ١٩٩٠ ٠ ص ١٩٣ ٠

٣ ـ تعليق عن اخفاق التقنية العسكرية السوفيتية انظر :
« Dithering in Moscow » فى نيويورك تايمز ، ١٤ ديســمبر ١٩٨٩ ص ١٩٤ ٠

الفصــل الثــلاثون

المسرعــون والمبطئون

١ ـ عن العرف كأداة لاتخاذ القرارات التقنية انظر : [١٢٠] صفحة ٣٠ ص ١٩٨ .

٢ ـ عن تقليل الثورة الصناعية لمخاطر التجديد انظر : [١٢٠] صفحة ٣٥ ص ١٩٨ .

٣ ـ بالنسبة لتقلص اعتماد صناعة الملابس فى الولايات المتحدة على الملابس الأجنبيــة المصنوعة بأيد عاملة رخيصة انظر : « Made in the U.S.A. » بقلم رالف كنج فى مجلة فوربس ، ١٦ مايو ١٩٨٨ ص ٢٠٠ .

٤ ـ مثال شركة تــاندى : مقــابلة المؤلف مع جون روتش رئيس مجلس ادارة شركة تاندى ص ٢٠٠ .

٥ ـ مثال شركتى (Arrow) و (ATKINS) وما جاء فى مجلة فوربس مأخوذ من « Made in the U.S.A. » بقلم رالف كنج فى مجلة فوربس ، ١٦ مايو ١٩٨٨ ص ٢٠٠ .

٦ ـ حول تمكن شركة Benetton الايطالية من اختصار زمن التسليم انظر : « Fast Forward » بقلم Curtis Bill Pepper فى مجلة Business Month ، فبراير ١٩٨٦ ص ٢٠١ .

٧ ـ عن تأخير تسليم الصلب فى الصين انظر :
« Bureaucracy Blights China's Steel Industry » فى فايناشيال تايمز ، ١٦ ديسمبر ١٩٨٨ ص ٢٠١ .

٨ ـ حول ما ذكره أومبيرتو كولمبو ، رئيس لجنة العلوم والتقنية التابعة للمجموعة الأوروبية، عن تدنى كميات المواد الأولية والطاقة اللازمة لكل وحدة من الانتاج : « The Technology Revoluion and the Restructuring of the Global Economy » بقلم أومبيرتو كولمبو فى « Proceedings of the Sixth Convocation of the Council of Academies of Engineering and Technological Sciences » ، وفى [٥٢١] صفحة ٢٣ ـ ٣١ ص ٢٠٦ .

٩ ـ عن المواد الجديدة انظر : « A Small Revolution Gets Under Way » بقلم روبرت بوول فى مجلة ساينس ، ٥ ينـاير ١٩٩٠ ص ٢٠٦ .

١٠ ـ حول قيام اليابان بنقل استثماراتها من تايوان وهونج كونج: « Political Reforms Pave Way » فى Japan Economic Journal ، أول أكتوبر ١٩٨٨ ص ٢٠٧ .

١١ ـ مقولـة أومبيرتو كولمبو عن العمالـة الرخيصـة مأخوذة من [٥٢١] صفحة ٢٥ ص ٢٠٨ .

١٢ ـ عن الطائرات الفائقة السرعة والدراسة الخاصة بالاتصالات والنقل والسياحة ، راجع : « Moving Towards Supersonic Age » بقلم Jimo Tokuyama ، من مركز (Pacific Business Studies, Mitsui Research Institute) (طوكيو) ، ١٩٨٨ ص ٢٠٨ .

١٣ ـ عن مطار الملياردير Ross Perot انظر : « Can Ross Perot Save America ? » بقلم Peter Elkind فى Texas Monthly ، ديسمبر ١٩٨٨ ص ٢٠٩ .

١٤ ـ عن سباق التسلح فى الدول النامية انظر :
« Becoming Smarter on Intelligence » بقلم Henrik Bering--Jebsen فى Insight ، ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨ ـ ٢ يناير ١٩٨٩ ص ٢١٠ .

١٥ ـ عن الأقليات الديناميكية : « Foreigners in Britain, New Blood » فى الايكونوميست ، ٢٤ ديسمبر ١٩٨٨ ص ٢١١ .

١٦ ـ عن البرازيل والمبالغ المستحقة لشركات الأدوية الأجنبية :
« Brazil : A Practical Guide to Intellectual Property Protection »
في Business America ، ١٨ يناير ١٩٨٨ و « Whose Idea Is It Anyway ? » في الايكونوميست ، ١٢ نوفمبر ١٩٨٨ ص ٢١٢ ٠

١٧ ـ توزيع الاتصالات اللاسلكية في العالم : بيانات مستقاة من (Anthony Rutkowski) المستشار الأول للاتحاد الدولى للاتصالات السلكية واللاسلكية ٠ (جنيف) ص ٢١٤ ٠

الفصـــل الحادى والثـــلاثون

اصطدام الشيوعية بالمستقبل

١ ــ عن آثار اختـــراع جوتنبرج انظـــر : « A Red Square Reformation » بقلم Robert Conot فى لوس أنجلوس تايمز ، ١١ مارس ١٩٩٠ ص ٢١٧ ·

٢ ــ كلمة خروتشوف التى هزأ فيها من الغرب قيلت أمام مجموعة من الدبلوماسيين الغربيين وأوردتها مجلة تايـــم فى مقـــالها « We will Bury You » ، ٢٦ نوفمبر ص ٢١٧ ·

٣ ــ عن نقطة تحول الاقتصـــاد الأمريكى (فى عام ١٩٥٦) من الطور الصناعى المميز للموجة الثانية الى طور الخدمات ــ الاتصالات المميز للموجة الثالثة انظر : « A New Social Revolution » فى مجلة فورتشن، أبريل ١٩٥٨ ، الذى أورد أرقام عام ١٩٥٦ عن القوة العاملة · بنيت هذه الأرقام على دراسة أجراها (Murray Wernick) وهو اقتصادى فى مجلس الاحتياط الفيدرالى الأمريكى ص ٢١٧ ·

٤ ــ مقولة جورباتشوف عن « عصر علم المعلومات » : من كلمة له أمام اللجنة المركزية السوفيتية فى ٥ فبراير ١٩٩٠ ، أوردهـــا القســـم الانجليزى بوكالة تاس للأنبياء · وبشأن نمو طبقة ذوى الياقات البيضاء فى الاتحاد السوفيتى انظر « Gorbatchev Politics » بقلم (Jerry F. Hough) فى Foreign Affairs عدد شتاء ١٩٨٩ ــ ١٩٩٠ ، وأيضا « Médias Soviétiques : Censure Glasnot » فى مجلة لوبوان الفرنسية ، ١٢ مارس ١٩٩٠ ص ٢١٨ ·

٥ ــ بشأن الأزمة الراهنة للشيوعية كانعكاس لمفهوم ماركس حول اعاقة « علاقات الانتاج » ل «وسائل الانتاج : لقد ناقش المؤلف هذه القضية فى عام ١٩٨٣ فى [٦٨] ص ٧٨ ، كذلك « Future Schock in Moscow »

فى الدورية الفصـــلية New Perspectives Quarterly عـــدد شـــتاء عام ١٩٨٧ ، « A Conversation with Mikhail Gorbachev » سلسلة (مقالات) بقلم هايدى وآلفين توفلر فى كريستيان مونيتور أعداد ٥ ، ٦ ، ٧ يناير ١٩٨٧ ، وفى « Socialism in Crisis » فى مجلة World Monitor ، يناير ١٩٨٩ ، بعد مقابلة مع زاو زيانج ، رئيس الحزب الشيوعى الصينى آنذاك ، فى بكين • وطرح الرأى نفسه Igor Ligatchev ، وهو عضو المكتب السياسى فى الاتحاد السوفيتى ومنافس لجورباتشوف ، فى World Marxist Review / براغ ، عدد يوليو ١٩٨٧ ، وكذلك Valentin Fiodorov ، نائب مدير معهد الاقتصاد بموسكو ، فى مقال بعنوان « Ignorance Is Bliss » فى Literaturnaya Gazéta International الجريدة الأدبية ــ موسكو ، مارس ١٩٩٠ ص ٢١٨ •

٦ ــ افتراضات لينين عن دور المعرفة والثقافة ملخصة فى قوله عام ١٩٠٥ : « يجب أن يصبح النشاط الأدبى جزءا من مجمل قضية البروليتاريا ، « وترسا » فى الآلية الكبرى للاشتراكية الديمقراطية الموحدة » ص ٢٢٠ •

٧ ــ عن الطوبائيين والاشتراكيين فى القرن التاسع عشر انظر : [٢٦٦] ص ٢٢١ •

٨ ــ عن « المشكلة الحسابية » للاشتراكية انظر : [١٣٣] الفصل ٢٦ المعنــون : « The Impossibility of Economic Calculation Under Socialism » ، خاصة ص ٦٨٩ ــ ٦٩٩ ، كذلك [١٢٠] ص ٥٢ ــ ٦٥ و ٢٤١ • ص ٢٢٣ •

٩ ــ بالنسبة لتحول بولندا الى اقتصاد السوق « East Europe Joins the Market and Gets a preview of the Pain » فى نيويورك تايمز ٧ يناير ١٩٩٠ ص ٢٢٤ •

١٠ ــ عن تدبير رأس المال اللازم لاقامة المصانع عن طريق خفض مستوى معيشة الفلاحين : [٣٧٧] ص ٢١٢ ــ ٢٢٩ ، وتفاصيل أوفى عن نظرية بريو برازينيسكى المسماة « التراكم الاشتراكى البدائى » فى [٣٥١] ص ١٣٦ ــ ١٨٠ ص ٢٢٥ •

١١ ـ هل مات الحلم الاشتراكى ؟ يحاول بعض الاشتراكيين والشيوعيين الغربيين – بعد أن انتبهوا متأخرين الى ظهور النظام الجديد لخلق الثروة وما يرتبط به من تغيرات – أن يعيدوا تنظيم أنفسهم حول أفكار جديدة ، انظر : « It's the End of the Road for Communism » وهو مقتطف من حديث لـ Martin Jacques المسئول عن Marxism Today ، أوردته السنداى تايمز اللندنية فى عدد ٢٦ نوفمبر ١٩٨٩ ٠ يؤكد هذا الكاتب على قضايا البيئة والمساواة بين الجنسين وضرورة نهاية المركزية ومساعدة « المجتمع المدنى » ، بيد أنه يعارض الفردية مشيرا الى أن « الاشتراكية هى الاعتماد المتبادل والتضامن والمساواة وبعث الجماعية » ٠ ص ٢٢٧ ٠

الفصل الثاني والثلاثون

سلطة التوازن

١ ــ عن تنامى القدرة العسكرية الهندسية انظر :
« Last Indian Contingent, « India Rejects Jepanese Criticism »
Leaves Maldives » وكلاهما فى Jane's Defence Weekly
، ١٨ نوفمبر ١٩٨٩ ، كذلك « The Awakening of an Asian Powed »
فى مجلة تايم ، ٣ أبريل ١٩٨٩ و « India is Reportedly Ready
to Test Missile, With Range of 1500 Miles» فى نيويورك تايمز ،
٣ أبريل ١٩٨٩ ٠ ص ٢٣٠ ٠

٢ ــ اشارة وليم وبستر ، مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ،
الى انتشار الصواريخ الباليستية انظر : « Third World Missile-Making
Prompts Compaign by C.I.A. » فى نيويورك تايمز ، ٣١ مارس ١٩٨٩ ٠
ص ٢٣٠ ٠

٣ ــ عن احتمال استيلاء متطرفين اسلاميين أو متمردين عسكريين
على الأسلحة النووية فى الاتحاد السوفيتى انظر :
« U.S. Worried by Nuclear Security in Unstable Soviet Empire »
فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٥ ديسمبر ١٩٨٩ ص ٢٣٠ ٠

٤ ــ مقولة شينتارو ايشيهارا الشهيرة عن قدرة اليابان على الاخلال
بتوازن القوة العسكرية العالمى وذلك ببيعها الرقائق الالكترونية المتطورة
للاتحاد السوفيتى انظر : [٣١٨] ص ٣ ــ ٥ ، كذلك « Seeing a
Dependent and Declining U.S., More Japanese Adopt a Nationalistic
Spirit » فى نيويورك تايمز ، أول سبتمبر ١٩٨٩ ص ٢٣١ ــ ص ٢٣٢ ٠

٥ ـ عن أخطار حدوث انهيار مالى على نطاق عالمى انظر :
« A Post-Panic System » بقلم ألفين توفلر في نيويورك تايمز ، ٢٥ أكتوبر ١٩٨٧ ، كذلك تحذيرات آن جرينسبان ، مدير بنك الاحتياط الفيدرالى الأمريكى ، من احتمال حدوث انهيار مالى على نطاق واسع وردت فى :
« Market Globalization Risky, Greenspan Says » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٥ يونيو ١٩٨٩ ص ٢٣٢ .

٦ ـ اقتراح وضع ضوابط على الميزانيات والسياسات الضرائبية لدول الجماعة الأوروبية ورد فى « تقرير ديلور » ، الذى أجازته بالاجماع لجنة من خبراء الجماعة الأوروبية ومسئولى المصارف المركزية فى أبريل ١٩٨٩ ، انظر « Sovereignty and Fiscal Policy » في فاينانشيال تايمز ، ١٨ يوليو ١٩٨٩ ص ٢٣٣ .

الفصـل الثـالث والثـلاثون

ثالوث : طوكيـو ـ برلين ـ واشنطن

١ ـ عن الانفاق العسكرى اليابانى : نتيجة لضغوط واشنطن على اليابان من أجل « تقاسم عبء » الدفاع ظلت الميزانية العسكرية اليابانية فى زيادو مستمرة حتى انهـا الآن تتجاوز نظيرتها فى فرنسـا وألمانيا الغربية ، وتعادل أو تقل قليلا عن الميزانية العسكرية البريطانية (تبعا لأسعار تحويل العملات وغيرها من العوامل) · ولا تتفوق على اليابان فى ذلك تفوقا واضحا الا الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى · لمزيد من التفاصيل انظر : [٢٨٥] ، كذلك « The State of Japan's Military Art » بقلم (Katherine T. Chen) فى IEEE Spectrum سبتمبر ١٩٨٩ ، و « Guess Who's Carrying a Bigger Stick ? » بقلم Peter Hartcher فى World Press Review يوليو ١٩٨٨ وكذلك [٢٨٣] ص ٢٣٧ ·

٢ ـ عن ظهور صناعة عسكرية متطورة فى اليابان انظر : « The State of Japan's Military Art » بقلم (Katherine T. Chen) فى IEEE Spectrum سبتمبر ١٩٨٩ ، و « The Sun Also Rises Over Japan's Technology » فى الايكونوميست ، أول أبريل ١٩٨٩ · كذلك أيضا ، المفاوضات الخاصة باقامة مشروعات مشتركة فى مجال الصناعات الحربية بين شركتى ميتسوبيشى اليابانية ودايملر ـ بنز الألمانية (المالكة لشركتى (ميزر شميت) و (دوتش ايروسبيس)) هذه المفاوضات أثارت قلق العديد من الأوروبيين ، وجسد ذلك مقـال « Colossal Mariage » فى مجلة لوبوان الفرنسية ، ١٢ مارس ١٩٩٠ ص ٢٣٨ ·

٣ ـ عن تصريح رئيس وزراء اليابان الأسبق نوبورو تاكبشيتا بأن اليابان فى حاجة الى رفع مسـتوى قوتها العسـكرية للتوازن مع قوتهـا الاقتصادية : « Japan : A Superpower Minus Military Power » فى لوس انجلوس تايمز ، ١١ سبتمبر ١٩٨٨ ص ٢٣٨ ·

٤ ــ عن انخفاض معدلات الادخار فى اليابان « ? Japanese Thrift « The Stereotype Suffers a Setback » فى بزنيس ويك ، ١٤ أغسطس ١٩٨٩ ، و « U.S. is Getting Whet It Asked for In Japan » لوس أنجلوس تايمز ، ٧ فبراير ١٩٩٠ ص ٢٣٩ ·

٥ ــ حول ارتفاع نسبة العلماء والمهندسين فى القوة العاملة اليابانية انظر « R & D in Japan VS. The United States » فى مجلة IEEE Spectrum ، فبراير ١٩٨٩ ص ٢٤٠ ·

٦ ــ بشأن نتائج مشروع « الجيل الخامس » المخيبة للآمال انظر : « What Happened to the Wonder Child ? » بقلم Stuart Dambrot فى Business Tokyo ، فبراير ١٩٨٩ ، كذلك « Fifth Generation Computer's Make U.S. Debut » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٢ أكتوبر ١٩٨٩ . ص ٢٤١ ·

٧ ــ عن استطلاع آراء كبار التنفيذيين اليابانيين حول تقدم الولايات المتحدة واليابان فى مجال الكمبيوتر والبرامج الاعلاماتية : « Technology Leadership : The Votes are in » بقلم Booz-Allen Hamilton فى Information Industry Insights ، العدد ١٨ ، ١٩٨٨ ص ٢٤١ ·

٨ ــ الشعب اليابانى أكثر شعوب العالم نهما لقراءة الصحف : « Millions a Day » بقلم Anna-Maria Waldmueller فى World Press Review ، أبريل ١٩٨٨ ص ٢٤٢ ·

٩ ــ عدد الطلاب اليابانيين فى أمريكا والطلاب الأمريكيين فى اليابان : « U.S. Failing to Close its Education Gap With Japan » فى لوس أنجلوس تايمز ، ٧ يناير ١٩٩٠ ص ٢٤٣ ·

١٠ ــ مقولة لينين حول أوروبا موحدة مأخوذة من : « Sotziol-Demokrat » العدد ٤٤ أغسطس ١٩١٥ ، وانظر أيضا أعمال لينين الكاملة ص ٢٤٦ ·

١١ ــ حول اقتراح كول بانشاء جيش أوروبى انظر : « Kohl Praises Prospect of European Army » فى فايننشيال تايمز ، ١٤ ديسمبر ١٩٨٨ ص ٢٤٨ ·

١٢ ــ عن تكاليف أوروبا المحتملة نتيجة انسحاب الولايات المتحدة عسكريا منها انظر : [٢٨٧] صفحة ٣٧ ص ٢٤٨ ·

١٣ ـ الاحصائيات الخاصة بالجيوش الفرنسية والألمانية مأخوذة من : [٢٨٦] صفحات ٤٧ ـ ٤٨ و ٥٩ ـ ٦٤ ص ٢٤٨ .

١٤ ـ بشأن النقاش حول تخفيضات محتملة فى الموازنة انظر :
« Changing Attitudes in a Changing Europe leave the Bundeswehr at the Crossroads » فى Die Zeit (هامبورج) ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ . ص ٢٤٨ .

١٥ ـ عن سياسة فرنسا الرامية الى موازنة القرات الألمانية :
« «Return of the «German Menace» » بقلم Wolfgang J. Koschnick فى Worldview ، يناير ـ فبراير ١٩٧٧ ص ٢٤٨ .

١٦ ـ بشأن « الوعود البراقة » للمجموعة الأوروبية ، انظر :
« Social Dimension to the Internal Market » وهو تقرير صادر عن (Commission of the European Communities) (بروكسل) ، ١٤ سبتمبر ١٩٨٨ ، خاصة صفحة ٤ ص ٢٥١ .

١٧ ـ عن تزايد البحوث والتطوير فى أوروبا انظر :
« Brussels Proposes Big Rise in High-Tech Research » فى فاينانشيال تايمز ، ٢٦ يوليو ١٩٨٩ ص ٢٥٣ .

١٨ ـ حول براءات الاختراع التى يملكها العلماء الألمان وفوزهم بجوائز نوبل فى العلوم انظر : « Ein Wissenschaftswunder ? » فى الايكونوميست ، ١١ نوفمبر ١٩٨٩ ص ٢٥٣ .

١٩ ـ عن انهيار شركة Nixdorf الألمانية للكمبيوتر ومتاعب شركة Norsk Data النرويجية انظر : « Siemens Takeover of Nixdorf : Creates a Giant » فى Die Welt (بون) ، ١٣ يناير ١٩٩٠ ، كذلك « Norsk Data Suffers Further Losses » فى فاينانشيال تايمز ، ٧ فبراير ١٩٩٠ ص ٢٥٤ .

٢٠ ـ عن نظرية أوروبا كقلب العالم ، انظر : [٣٣٦] و [٣٠٢] . ص ٢٥٥ .

٢١ ـ عن حاملات الطائرات الأمريكية ، انظر [٢٨٦] ص ٢٥٥ .

٢٢ ـ بيانات الواردات والصادرات الأمريكية مأخوذة من تقرير لوزارة التجارة الأمريكية يحمل عنوان: « U.S. Foreign Trade Highlights 1988 » ، أيضا البيان الصحفي لمكتب الاحصاء الأمريكي ، الصادر في

١٦ فبراير ١٩٩٠ تحت عنوان : « U.S. Merchandise Trade December, 1989 » انظر كذلك « New ITA Report Shows Major Improvement in U.S. Trade Performance in 1988 » في Business America ، ٦ نوفمبر ١٩٨٩ ، صفحة ٦ و ١٢ ص ٢٦٠ ــ ص ٢٦١ ٠

٢٣ ــ عن براءات الاختراع : زادت براءات الاختراع الأمريكية الممنوحة لمواطني الدول الأجنبية زيادة ثابتة منذ عام ١٩٦٥ ، ففي ذلك العام لم تتجاوز نسبة هذه البراءات ٢٣٪ ، غير ان هذه النسبة تضاعفت بحلول عام ١٩٨٩ ص ٢٦١ ٠

٢٤ ــ حول المقارنات في مجال صناعة الكمبيوتر انظر : « Chiffres Clés de l'informatique mondiale » بقلم Michel Solis و Bénèdicte Haquin في Informatique ٥١ (باريس) ، ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩ ، و « Staying American » في الايكونوميست ، ١٩ أغسطس ١٩٨٩ ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ ٠

٢٥ ــ عن المقارنة بين عدد العلماء والمهندسين في الولايات المتحدة واليابان انظر : « R & Din Japan VS. The United States » في IEEE Spectrum فبراير ١٩٨٩ ص ٢٦٢ ٠

٢٦ ــ عن رقيقة IBM الالكترونية ذات القدرة التخزينية ١٦ مليون بيت : « IBM Announces Memory Chip Breakthrough في لوس أنجلوس تايمز ، ١١ فبراير ١٩٩٠ ص ٢٦٣ ٠

٢٧ ــ حول نمو سوق البرامج الاعلاماتية راجع : Competitive Software Industry Suits up for Global Hardball » في Insight بقلم Jeff Shear ، ١٠ يوليو ١٨٩٩ ص ٢٦٣ ٠

٢٨ ــ عن شهادات الدكتوراه في اليابان : فضلت اليابان زيادة عدد حملة الماجستير بدلا من حملة الدكتوراه وتشير الاحصائيات ، عن الفترة من ١٩٧٥ الى ١٩٨٨ ، الى أن نسبة الزيــادة في عــدد حملة البكالوريوس كانت لا تتعدى ١٧٪ والدكتوراه ٢٦٪ ، بينما بلغت بالنسبة لحملة الماجستير ٨٤٪ ، ص ٢٦٤ ٠

٢٩ ــ بشأن تحالف أوروبا والولايات المتحدة ضد اليابان انظر : « The Changing Nature of the Relationship with America » في Stuttgarter Zeitung ١٩ يناير ١٩٩٠ ، ويعبر المقال عن وجهة نظر أوروبية واسعة الانتشار ص ٢٦٦ ٠

الفصــل الرابــع والثــلاثون

المصــــارعون العالميـــون

١ ـ حول قضية سلمان رشدى انظر « Unrighteous Indignation »
وكذلك Christian C. Muck في Christianity Today ، ٧ أبريل ١٩٨٩ ،
وكذلك « Hunted by an Angry Faith » في مجلـة تايم ، ٢٧ فبراير
١٩٨٩ ، راجع أيضا « Freedom-to-Write Bulletin » في (Pen
American Center) مارس ١٩٨٩ ، و « Pen Defends Rushdie »
الربيع ١٩٨٩ ، (International Pen U.S.A. Center West) . ص ٢٧١ ـ
ص ٢٧٢ .

٢ ـ عن الدبلوماسية الكاثوليكية : « Inextricably Involved »
في America ، ٢٣ مايو ١٩٨٧ ، و « No Place to Run » في مجلة
تايم ، ٨ يناير ١٩٩٠ ، و « Pope Warns Against Divisions in the East »
في نيويورك تايمز ، ١٤ يناير ١٩٩٠ ، و « Pope Urges United Christian
Europe » في انترناشـــونال هـيرالد تريبيون ، ٢٢ أغسطس ١٩٨٩
ص ٢٧٣ .

٣ ـ عن وثيقة عام ١٩١٨ المنسية والداعية الى انشاء دولة أوروبية
مسيحية عظمى انظر : [٢٣٤] ص ٢٥٦ ، و « Pope, Visiting France.
Calls for a United Euurope » في نيويورك تايمز ، ٩ أكتوبر ١٩٨٨ -
ص ٢٧٣ .

٤ ـ عن ظهور ٦٠٠ شركة كبرى متعددة الجنسية انظر :
« Come Back Multinationals » في الايكونوميست ، ٢٦ نوفمبر ١٩٨٨ -
ص ٢٧٥ .

٥ ـ حول عدم انتماء الشركات عبر القومية لجنسية محددة انظر :
Kenichi Ohmae بقلم «Borderless Economy Calls for New Politics»
في لوس أنجلوس تايمز ، ٢٦ مارس ١٩٩٠ ، أيضـــا « ? Who is Us »
بقلم Robert Reich في Harvard Business Review يناير ـ فبراير ١٩٩٠
ص ٢٧٥ .

٦ ـ قصة السير فرانسيس دراك مأخوذة من [٥٨٧] صفحة ٢٨ ـ ٢٩ ص ٢٧٧ .

٧ ـ عن خطة الملياردير الأمريكى Ross Perot لانقاذ مستخدميه الأسرى فى ايران « Ross Perot to the Rescue » بقلم Ron Rosenbaum في Esquire ديسمبر ١٩٨٠ ، أيضا « Perot's Mission Impossible » في نيوزويك ، ٥ مارس ١٩٧٩ ص ٢٧٧ .

٨ ـ مقولة الكاتب الفرنسى شـــارل مورا مأخوذة من : [٢٩١] صفحة ٦ ص ٢٨١ .

BIBLIOGRAPHY

PHILOSOPHY OF POWER

1. Aron, Raymond **Main Currents in Sociological Thought,** Vol. II (New York, Basic Books, 1967). **(Les Etapes de la pensé sociologique).**

2. ——— **Politics and History** (New Brunswick, N.J. Transaction Books, 1984).

3. Bentham, Jeremy and John Stuart Mill, **The Utilitarians** (New York, Anchor Books, 1973).

4. Berger, Peter L., and Richard John Neuhaus, **To Empower People** (Washington, D.C., The American Enterprise Institute for Public Policy Research n.d.).

5. Bodenheimer, Edgar, **Power, Law and Society** (New York, Crane, Russak, n.d.).

6. Bogart Ernest L., and Donald L. Kemmerer, **Economic History of the American People** (New York, Longmans, Green, 1946).

7. Bottomore, T.B., **Elites and Society** (New York, Basic Books, 1964).

8. Burnham, James, **The Machievellians** (New York, John Day, 1943).

9. Calvert, Peter, **Politics, Power and Revolution** (Brighton, Sussex Wheatsheaf Books, 1983).

10. Canetti, Elias, **Crowds and Power** (New York, Seabury Press, 1978).

11. Crozier, Brian, **A Theory of Conflict** (London, Hamish Hamilton, 1974).

12. Duyvendak, J. J., ed., **The Books of Lord Shang** (London, Arthur Probsthain, 1963).

13. Field, G. Lowell, and John Higley, **Elitism** (London, Routledge & Kegan Paul, 1980.)

14. First, Ruth **Power in Africa** (New York, Pantheon Books, 1970).

15. Galbraith, John Kenneth, **The Anatomy of Power** (Boston, Houghton Mifflin, 1983).

16. Hutschnecker, A., **The Drive for Power** (New York, M. Evans, 1974).

17. Janeway, Elizabeth, **Man's World, Woman's Place** (New York, Delta Books 1972).

18. ———— **Power of the Weak** (New York, Alfred A. Knopf, 1980).

19. Jouvenel, Bertrand de, **On Power** (Boston, Beacon Press, 1969).

20. Keohane, Robert O., and Joseph S. Nye, **Power and Interdependence** (Boston, Little, 1977).

21. Konots, Alkis, ed., **Domination** (Toronto, University of Toronto Press, 1975).

22. Kropotkin Peter, **Kropotkin's Revolutionary Writings** (New York, Vanguard Press, 1927).

23. Machiavelli, Niccolo, **The Prince** (New York, Pocket Books, 1963).

24. May, Rollo, **Power and Innocence** (New York, Delta Books, 1972).

25. Milgram, Stanley, **Obedience to Authority** (New York, Harper Colophon, 1974).

26. Mills, C. Wright, **The Power Elite** (New York, Oxford University Press, 1956).

27. More, Sir Thomas, **Utopia** (New York, Washington Square Press, 1965).

28. Mudjanto, G., **The Concept of Power in Javanese Culture** (Jakarta, Gadjah Mada University Press, 1986).

29. Nagel, Jack, H., **The Descriptive Analysis of Power** (New Haven, Yale University Press, 1975).

30. Nietzsche, Friedrich. **The Will to Power** (New York, Vintage Books, 1968).

31. Osgood, Robert E., and Robert W. Tucker, **Force, Order, and Justice** (Baltimore and London. The Johns Hopkins Press, 1967).

32. Pye, Lucian W., with Mary W. Pye, **Asian Power and Politics** (Cambridge, Mass, The Belknap Press, Harvard University Press 1985).

33. Rueschemeyer, Dietrich, **Power and the Division of Labour** (Cambridge, Polity Pres, 1986).

34. Russel, Bertrand, **A History of Western Philosopfy** (New York, Simon and Schuster, 1972).

35. ————, **Power** (London Unwin Paperbacks, 1983).

36. Rustow, Alexander, **Freedom and Domination** (Princeton, Princeton University Press 1980).

37. Siu, R.G.H., **The Craft of Power** (New York, John Wiley and Sons, 1979).

38. Tzu, Sun, **The Art of War** (Oxford, Oxford University Press, 1963).

39. Waal, Frans, de, **Chimpanze Politics** (New York, Harper & Row, 1982).

40. Wing, R.L., **The Tao of Power** (Garden City, N.Y., Doubleday, 1986).

BUREAUCRACY AND SOCIAL ORGANIZATION

41. Becker, Gary S., **A Treatise on the Family (Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1981).**

42. Chackerian, Richard, and Gilbert Abcarian, **Bureaucratic Power in Society** (Chicago, Nelson-Hall, 1984).

43. Crozier, Michel, **l'Entreprise à l'écoute (Paris, Interéditions,** 1989).

44. Dale, Ernest, **The Great Organizers** (New York, McGraw-Hill, 1960).

45. Davis, Stanley M., **Future Perfect (Reading, Mass., Addison,** Wesley, 1987).

46. Denhart, Robert B., **In the Shadow of Organization** (Lawrence, The Regents Press of Kansas, 1981).

47. Donzelot, Jacques, **The Policing of Families** (New York, Pantheon, 1979).

48. Dror Yehezkel, **Public Policymaking Reexamined** (New Bruns wick, N.J., Transaction Books, 1983).

49. Galbraith, John Kenneth, **The New Industrial State** (New York, New American Library, 1985).

50. Goldwin, Robert A., ed., **Bureaucrats, Policy Analysis, Statesmen: Who Leads** ? (Washington, D.C., American Enterprise Institute for Public Policy Research, 1980).

51. Gross, Ronald, and Paul Osterman, eds. **Individualism** (New York, Laurel, 1971).

52. Heald, Tim, **Networks,** London, Hodder & Stoughton, Coronet Boks, 1983).

53. Heilman, Madeline E., and Harvey A. Hornstein, **Managing Human Forces in Organizations** (Homewood, III., Richard D. Irwin 1982).

54. Hyneman Charles S., **Bureaucracy in a Democracy** (New York, Harper and Brothers, 1950).

55. Kahn, Robert L. and Elise Boulding, eds., **Power and Conflict in Organizations** (New York, Basik Books, 1964).

56. Kennedy, Marilyn Moats, **Office Politics** (New York, Warner Books 1980).

57. ———, **Powerbase** (New York, Macmillan, 1984).

58. Knight Stephen, **The Brotherland** (London, Granada Books, 1985).,

59. Le Play, Frederic, **On Family, Work, and Social Change** (Chicago University of Chicago Press, 1982).

60. Mant, Alistair, **Leaders We Deserve** (Oxford, Martin Robertson, 1983).

61. Mills, C. Wright, **White Collar** (New York, Oxford University Press, 1965).

62. Mintzberg. Henry, **Power In and Around Organizations** (Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall, 1983).

63. Nachmias, David, and David H. Rosenbloom, **Bureaucratic Government USA** (New York, St., Martin's 1989).

64. Palazzoli, Mara Selvini, et al., **The Hidden Games of Organizations** (New York, Pantheon Books, 1986).

65. Quinney, Richard, The **Social Reality of Crime** (Boston, Little, Brown, 1970).

66. Rosenberg, Hans, **Bureaucracy, Aristocracy and Autocracy** (Boston, Beacon Press, 1958).

67. Toffler, Alvin, **Future Shock** (New York, Bantam Books, 1971).

68. ————, Previews and Premises(New York, Bantam Books, 1983).

69. ————, **The Third Wave** (New York, Bantam Books, 1981).

70. Weber, Max, **Economy and Society,** Vols. I and II (Berkeley, University of California Press, 1978).

71. Welch, Mary-Scott, **Networking** (New York, Warner Books, 1980)

72. Yoshino, M. Y., and Thomas B. Lifson, **The Invisible link** (Cambridge, Mass., M.I.T. Press, 1986).

BUSINESS ECONOMY FINANCE

73. Adams, Walter and James W. Brook, **Dangerous Pursuits** (New York, Pantheon Books, 1989).

74. Aguren, Stefan, et al., **Volo Kalmar Revisited : Ten Years of Experience** (Stockholm : Efficiency and Participation Development Council, 1984).

75. Aliber, Robert Z., **The International Money Game** (New York, Basic Books, 1973).

76. Applebaum, Herbert, **Work in Non-Market and Transitional Societies** (Albany, State University of New York Press, 1984).

77. Attali, Jacques, **les Trois Mondes** (Paris, Fayard, 1981).

78. Batra, Raveendra N., **The Downfall of Capitalism and Communism** (London, Macmillan Press, 1978).

79. Baudrillard, Jean, **The Mirror of Production** (St. Louis, Telos Press, 1975).

80. Belshaw, Cyril S. **Traditional Exchange and Modern Markets** (London, Prentice-Hall, 1965).

81. Bhagwati, Jagdish, **Protectionism** (Cambridge Mass., M.I.T. Press, 1988).

82. Brenner, Y.S., **Theories of Economic Development and Growth** (London, George Allen & Unwin, 1966).

83. Bruck, Connie, **The Predators' Ball** (New York, Simon and Schuster, 1988).

84. Canfield, Case, **The Incredible Pierpont Morgan** (New York, Harper & Row 1974).

85. Casson Mark, **Alternatives to the Multinational Enterprise** (London Macmillan Press, 1979).

86. Clough, Shepard B., Thomas Moodie and Carol Moodie, eds., **Economic History of Europe** : Twentieth Century (New York, Harper & Row, 1968).

87. Cornwell, Rupert, **God's Banker** (New York, Dodd, Mead, 1983).

88. Crowther Samuel, **America Self-Contained** (Garden City, N.Y., Doubleday, Doran, 1933).

89. Denman, D.R., **Origins of Ownership** (London, George Allen & Unwin, 1958).

90. Diwan, Romesh, and Mark Lutz, eds., **Essays in Gandhian Economics** (New Delhi, Gandhi Peace Foundation, 1985).

91. Dressler, Fritz. R. S., and John W. Seybold, **The Entrepreneurial Age** (Media, Pa., Seybold Publications, 1985).

92. Ehrlich, Judith Ramsey, and Barry J. Rehfeld, **The New Crowd** (Boston, Little, Brown, 1989).

93. Evans Thomas G., **The Currency Caronsel** (Princeton, N. J., Dow Jones Books, 1977).

94. Frank, Charles R. Jr., **Production Theory and Indivisible Commodities** (Princeton, Princeton University Press, 1969).

95. Friedman, Alan, **Agnelli** (New York, New American Library, 1989).

96. Galbraith, John Kenneth, **Money : Whence It Came Where It Went (Boston,** Houghton Mifflin, 1975).

97. Giarini, Orio, ed., **Cycles, Value and Employment** (Oxford, Pergamon Press, 1984).

98. ————, **The Emerging Service Economy** (Oxford, Pergamon Press, 1987).

99. ————, and Jean Remy Roulet, eds., **l'Europe face à la nouVelle économie de** service (Paris, Presses Universitaires de France, 1988.

100. Giarini, Orio, and Walter R. Stahel, **The Limits to Certainty : Facing Risks in the New Service Economy** (Geneva, The Risk Institute Project, n.d.).

101. Gib, George Sweet, and Evelyn H. Knowlton, **The Resurgent Years** : 1911-1927 (New York, Harper and Brothers, 1956).

102. Gregerman, Ira B., **Knowledge Worked Productivity** (New York, A.M.A. Management Briefing, 1981).

103. Gurwin, Larry, **The Calvi Affair** (London, Pan Books, 1983).

104. Gwynne, S. C., **Selling Money** (New York, Weidenfeld and Nicolson, 1986).

105. Herman, Edward S., **Corporate Control, Corporate Power** (New Yok, Cambridge University Press, 1981).

106. Jackson, Stanley, **J. P. Morgan** (New York, Stein and Day, 1983).

107. Jones, J. P., **The Money Story** (New York, Drake Publishers, 1973).

108. Josephson, Matthew, **The Robber Barons** (New York, Harcourt, Brace & World, 1962).

109. Kahn, Joel S., and J. R. Llobera, **The Anthropology of Pre-Capitalist Societies** (London, Macmillan Press, 1981).

110. Kamioka, Kazuyoshi, **Japanese Business Pioneers** (Singapore, Times Books International, 1986).

111. Kanter, Rosabeth Moss, **Men and Women of the Corporation** (New York, Basic Books, 1977).

112. Keen, Peter G. W., **Competing in Time** (Cambridge, Mass., Ballinger, 1986)

113. Kenwood, A. G., and A. L. Loughteed, **The Growth of the International Economy** 1820-1960 (London, George Allen and Unwin, 1973).

114. Keynes, John Maynard, **The General Theory of Employment, Interest, and Money** (New York, Harbinger Books 1964).

115. Kindleberger, Charles P., **Manias, Panics asnd Crashes** (New York, Basic Books, 1978).

116. Knowles, L. C.A., **The Industrial and Commercial Revolutions in Great Britain During the Nineteenth Clntury** (New York, E.P. Dutton, 1922).

117. Kornia, Janos, **Anti-Equilibrium (Amsterdam, North-Holland** Publishing 1971).

118. Kotz, David M., **Bank Control of Large Corporations in the United States** (Berkeley. University of California Press, 1978).

119. Lamarter, Richard Thomas de, **Big Blue** (New York, Dodd, Mead, 1986).

120. Lavoie, Don, **National Economic Planning : What Is Left ?** (Cambridge, Mass., Ballinger, 1985).

121. Le Clair, Edward E., Jr., and Harold K. Schneider, **Economic Anthropology** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1968).

122. Lens, Sidney, **The Labor Wars** (Garden City, N. Y., Doubleday, 1973).

123. Levin, Doron P., **Irreconcilable Differences** (Boston, Little-Brown, 1989).

124. Levinson, Harry, and Stuart Rosenthal, **CEO** (New York, Basic Books, 1984).

125. Loebl, Eugen, **Humanomics** (New York, Random House, 1976)

126. Maccoby, Michael, **Why Work** (New York, Simon and Schuster, 1988).

127. Madrick, Jeff **Taking America** (New York, Bantam Books, 1987).

128. Mattelart, Armand, **Multinational Corporations and the Control of Culture** (Atlantic Highlands, N.J. Humanities Press, 1982).

129. Mayer, Martin, **The Bankers** (New York, Weybright and Talley, 1974).

130. McCartney, Laton, **Friends in High Places : the Bechtel Story** (New York, Simon and Scuster, 1988).

131. McQuaid, Kim, **Big Business and Presidential Power** (New York, William Morrow, 1982).

132. Meyers, Gerald C., and John Holusha, **When It Hits the Fan** (London, Unwin Hyman, 1986).

133. Mises, Ludwig von, **Human Action** (New Haven, Yale University Press, 1959).

134. Mohn, Reinhard, **Success Through Partnership** (New York, Doubleday, 1986).

135. Monden, Yasuhiro, et al., **Innovations in Management** (Atlanta, Industrial Engineering and Management Press, 1985).

136. Moskowitz Milton, **The Global Marketplace** (New York, Macmillan, 1988).

137. Mueller, Robert K., **Corporate Networking** (New York, Free Press, 1986).

138. Naniwada, Horouo, **The Crisis** (Tokyo, The Political Economic Club, 1974).

139. Naylor, R. T., **Hot Money** (New York, Simon and Schuster, 1987).

140. Noonan, John T. Jr., **Bribes** (New York, Macmillan, 1984).

141. Nussbaum, Arthur, **A History of the Dollar** (New York, Columbia University Press, 1957).

142. O'Driscoll, Gerald P., Jr., and Mario J. Rizzo, **The Economics of Time and Ignorance** (Oxford Basil Blackwell, 1985).

143. O'Toole, Patricia, **Corporate Messiah** (New York William Morrow, 1984).

144. Peacock, William P., **Corporate Combat** (New York, Facts on File, 1984).

145. Polanyi, Karl, **The Great Transformation** (Boston, Beacon Press, 1957).

146. Pye, Michael, **Moguls** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1980).

147. Raymond, H. Alan, **Management in the Third Wave (Glenview, III. Scott, Foresman, 1986).**

148. Robertson, James, **Power, Money and Sex** (London, Marion Boyars, 1976).

149. ———, **Profit or People** ? (London, Calder & Boyars, 1974).

150. Ropke, Wilhelm, **Economics of the Free Society** (Chicago, Henry Regnery, 1963).

151. Saeed, Syed Mumtaz, **The Managerial Challenge in the Third World** (Karachi, Academy of Ideas, 1984).

152. Sampson, Anthony, **The Money Lenders** (New York, Viking Press, 1981).

153. Schumpeter, Joseph A., **Ten Great Economists** (New York, Oxford University Press, 1965).

154. Sculley, John, With John A. Byrne, **Odyssey : Pepsi to Apple** (New York, Harper & Row, 1987).

155. Singer, Benjamin D., **Advertising and Society** (Don Mills, Ontario, Addison-Wesley, 1986).

156. Smith, Adam, **The Wealth of Nations** (New York Modern Library, 1937).

157. Sobel, Robert **IBM, Colossus in Transition** (New York Bantam Books, 1981).

158. ————, **The Money Manias** (New York, Weybright and Talley, 1973).

159. Soule, George, **Ideas of the Great Economists** (New York, Mentor Books, 1955).

160. Staff, Robert, and Francis Tannian, **Externalities** (New York, Dunellen, n.d.).

161. Stadnnichenko, A., **Monetary Crisis of Capitalism** (Moscow, Progress Publishers, 1975)

162. Stevens, Mark, **The Accounting Wars** (New York, Macmillan, 1985).

163. Stewart, Alex, **Automating Distribution : Revolution in Distribution, Retailing and Financial Services,** Japan Focus (London; Baring Securities 1987).

164. Toffler, Alvin, **The Adaptive Corporation** (New York, Bantam Books, 1985).

165. Tosches, Nicks, **Power on Earth** (New York, Arbor House, 1986)

166. Toyoda, Eiji, **Toyota : Fifty Years in Motion** (Tokyo, Kodansha, 1987).

167 Woo, Henry K. H., **The Unseen Dimensions of Wealth** (Fremont, Cal., Victoria Press, 1984)

168. Zaleznik, Abraham, and Manfred F. R. Kets de Vries, **Power and the Corporate Mind** (Boston, Houghton Mifflin, 1975).

169. Zuboff, Shoshana, **In the Age of the Smart Machine — The Future of Work and Power** (New York, Basic, Books, 1988).

MEDIAS

170. Bailey, George **Armageddon in Prime Time** (New York Acon Avon Books, 1984).

171. Barnouw, Erik, **Mass Communication** (New York, Rinehart, (1956).

172. Biryukov, N. S., **Television in the West and Its Doctrines** (Moscow, Progress Publishers, 1981).

173. Enzensberger, Hans Magnus, **The Consciousness Industry** (New York, Seabury Press, 1974)

174 Freches José, **la Guerre des images** (Paris, Editions Denoël, 1986)

175. Gourévitch Jean-Paul, **la Politique et ses images** (Paris Edilig, 1986)

176. Grachev, Anderei, and N. Yermoshkin, **A New Information Order or Psychological Warfare ?** (Moscow, Progress Publishers, 1984)

177. Orwell, George, **1984** (New York, New American Library, 1961).

178. Ranney, Austin, **Channels of Power** (New York, Basic Books, 1983).

179. Stephens, Mitchel, **A History of the News** (New York, Viking Press 1988).

180. Whittemore, Hank, CNN : **The Inside Story** (Boston, Little, Brown, 1990).

POLITICS, GOVERNMENT AND STATE

181. Allison, Graham T. **Essence of Decision** (Boston, Little, Brown, 1971).

182. Bennett, James T., and Thomas J. Dilorenzo, **Underground Governemnt** (Washington, D.C., Cato Institute, 1983).

183. Bergman, Edward F., **Modern Political Geography** (Dubuque, Ind., William C. Brown, 1975).

184. Boaz, David, ed., **Left, Right and Babyboom** (Washington, D.C. Cato Institute, 1986).

185. Bruce-Briggs, B., ed. **The New Class ?** (New York, McGraw-Hill, 1979).

186. Cao-Garcia, Ramon J., **Explorations Toward an Economic Theory of Political Systems** (New York, University Press of America, 1983).

187. Capra, Fritjof, and Charlene Sprentnak, **Green Politics** (New York, E. P. Dutton, 1984).

188. Carter, April, **Authority and Democracy** (London, Routledge & Kegan Paul, 1979) .

189. Chesneaux, Jean, **Secret Societies in China** (Ann Arbor, University of Michigan Press, 1971).

190. Coker, F. W., **Organismic Theories of the State** (New York, AMS Press, 1967).

191. Commanger, Henry Steele, ed., **Documents of American History** (New York, F. S. Crofts, 1943).

192. Crozier, Michel, **The Trouble With America** (Berkeley, University of California Press, 1984).

193. Ford, Franklin L., **Political Murder** (Cambridge, Mass., Harvard university Press, 1985).

194. Franc, Thomas, M., and Edward Weisband, eds., **Secrecy and Foreign Policy** (New York, Oxford University Press, 1974).

195. Gingrich Newt, **Window of Opportunity**. (New York For Books, 1984).

196. Greenberger, Martin, Mathew A. Crenson, and Brian L. Crissey, **Models in the Policy Process** (New York, Russel Sage Foundation, 1976).

197. Greenstein, Fred I., **Leadership in the Modern Presidency** (Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1988).

198. Henderson, Nicholas, **The Private Office** (London, Weidenfeld and Nicolson, 1984).

199. Hess, Stephen, **The Government/Press Connection** (Washington, D.C., The Brookings Institution, 1984).

200. Johnson, Chalmers, **Revolutionary Change** (Boston, Little, Brown, 1966).

201. Kernell. Samuel, and Samuel L. Popkin, **Chief of Staff** (Los Angeles, University of California Press, 1986).

202. King, Anthony, ed., The **New American Political System** (Washington, D.C., American Enterprise Institute for Public Policy Research 1979).

203. King, Dennis, **Lyndon La Rouche and the New American Fascism** (New York, Doubleday, 1989).

204. Krader, Lawrence, **Formation of the State** (Englewood Cliffs, N.J. Prentice-Hall, 1968).

205. Kyemba, Henry, **State of Blood** (London, Corgi Books, 1977).

206. Laski, Harold J., **The American Democracy** (New York, Viking Press, 1948).

207. ————, **Authority in the Modern State** (Hamden, Conn., Archon Books, 1968).

208. Lebedoff, David, **The New Elite** (New York, Franklin Watts, 1981).

209. Lindblom, Charles E., **Politics and Markets** (New York, Basic Books, 1977).

210. Mafud, Julio, **Sociologia del personismo** (Buenos Aires, Editorial Americalee, 1972).

211. Matthews, Christopher, **Hardball** (New York, Summit Books, 1988).

212. Morgan, Robin, **The Anatomy of Freedom** (Garden City, N.Y., Doubleday, Anchor Press, 1984).

213. Navarro Peter, **The Policy Game** (New York, John Wiley and Sons, 1984).

214. Nelson, Joan M., **Access to Power** (Princeton, Princeton University Press, 1979).

215. Neustadt, Richard E., **Presidential Power** (New York, John Wiley and Sons, 1960).

216. Oppenheimer, Franz, **The State** (New York, Free Life Editions, 1914).

217. Perlmutter, Amos, **Modern Authoritarianism** (New Haven, Yale University Press, 1981).

218. Perry, Roland, **Hidden Power** (New York, Beaufort Books, 1984).

219. Ponting, Clive, **The Right to Know** (London, Sphere Books, 1985).

220. Reed, Steven R., **Japanese Prefectures and Policymaking** (Pittsburgh, University of Pittsburgh Press, 1986).

221. Regan Donald T., **For the Record** (San Diego, Harcourt Brace Jovanovich, 1988).

222. Reszllr, André, **Mythes politiques modernes** (Paris, Presses Universitaires de France, 1981).

223. Rubin, Barry, **Secrets of State** (New York, Oxford University Press, 1985).

224. Sagan, Eli, **At the Dawn of Tyranny** (New York, Random House, 1985).

225. Savas, E. S., **Privatizing the Public Sector** (Chatham, N.J., Chatham House, 1982).

226. Spencer, Herbert, **The Man vs the State** (London, Watts, 1940).

227. Stockman, David A., **The Triumph of Politics** (New York, Harper & Row, 1986).

228. Straussman, Jeffrey D., **The Limits of Technocratic Politics** (New Brunswick, N.J., Tranasction Books, 1978).

229. Tower, John, et al., **The Tower Commission Report : President's Special Review Board** (New York, Times Books, 1987).

230. Wolferen, Karl van., **The Enigma of Japanese Power** (New York, Alfred A. Knopf, 1989).

231. Woronoff, Jon, **Politics the Japanese Way** (Tokyo, Lotus Press, 1986).

RELIGION

232. Appel, Willa, **Cults in America** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1983).

233. Bakunin, Michael, **God and the State** (New York, Dover Publications, 1970).

234. Barthel, Manfred, **The Jesuits** (New York, William Morrow, 1984).

235. Breton, Thierry, **Vatican** III (Paris Laffont, 1985).

236. Chai, Ch'u, and Winberg Chai, **Connfucianism** (New York, Barron's Educational Series, 1973).

237. Gardner, Martin, **The New Age : Notes of a Fringe Watcher** (New York, Prometheus Books, 1988).

238. Hoffer, Eric. **The True Believer** (New York, Harper & Row. 1966).

239. Holtom, D.C., **The National Faith of Japan** (London, Kegan Paul, Trench, Trubner, 1938).

240. Illich, Ivan, **Celebration of Awareness** (New York, Doubleday, 1970).

241. Levi, Peter, **The Frontiers of Paradise** (New York, Weidenfeld & Nicolson, 1987).

242. Lo Bello, Nino, **The Vatican Papers** (London, New English Library, 1982).

243. Martin, Malachi, **The Jesuits** (New York, Linden Press, 1987). français : les Jésuites).

244. Mortimer, Edward, **Faith and Power** (New York, Vintage Books, 1982).

245. Murakami Shigeyoshi, Japanese **Religion in the Modern Century** (Tokyo, University of Tokyo Press, 1983).

246. Murphy, Thomas Patrick, ed., **The Holy War** (Columbus, Ohio State University Press, 1976).

247. Pipes, Daniel. **In the Path of God** (New York, Basic Books. 1983).

248. Rodinson, Maxime, **Islam and Capitalism** (New York, Pantheon Books, 1973).

249. Sardar, Ziauddin, **Islamic Futures** (London, Mansell Publishing, 1985).

250. Schultz, Ted, ed, **The Fringes of Reason** (New York, Harmony Books 1989).

251. Swidler, Leonard, ed., **Religious Liberty and Human Rights in Nations and in Religions** (Philadelphia, Ecumenical Press, 1986).

252. Thomas, Gordon, and Max Morgan-Witts, **Pontiff** (New York, Doubleday, 1983).
253. Tsurumi, Kazuko, **Aspects of Endogenous Development in Modern Japan**, Part II, **Religious Beliefs : State Shintoism** vs. **Folk Belief** (Tokyo, Sophia University, 1979).
254. Wright, Robin, **Sacred Rage** (New York, Linden Press, 1985).
255. Yallop, David A. **In God's Name** (New York, Bantam Books, 1984).

ARMY

256. Aron, Raymond, **On War** (New York, W. W. Norton, 1968). en français : **De la guerre).**

257. Baynes, J.C.M., **The Soldier in Modern Society** (London, Eyre Methuen, 1972).

258. Best, Geoffrey, **War and Society in Revolutionary Europe, 1770-1870** (Bungay, U.K., Fontana Paperbacks, 1982).

259. Blight, James G., and David A. Welch, **On the Brink** (New York, Hill and Wang, 1989).

260. Creveld, Martin Van, **Command in War** (Cambridge, Mass, Harvard University Press, 1985).

261. Cross, James Eliot, **Conflict in the Shadows** (Garden City, N.Y., Doubleday, 1963).

262. De Gaulles, Charles, **The Edge of the Sword** (Westport, Conn., Greenwood Press, 1975).

263. Dixon, Norman, **On the Psychology of Military Incompetence** (London, Futura Publications, 1976).

264. Fletcher, Raymond, **£60 a Second on Defence** (London, Macgibbon & Kee, 1963).

265. Ford, Daniel, **The Button** (New York, Simon and Schuster, 1985)-

266. Gabriel, Richard A., **Military Incompetence** (New York, Hill and Wang, 1985).

267. Geraghty, Tony, **Inside the S.A.S.** (New York, Ballantine Books, 1980).

268. Kaplan, Fred, **The Wizards of Armageddon** (New York, Simon and Schuster, 1983).

269. Levy, Jack S., **War in the Modern Great Power Syrtem 1495-1975** (Louisville, University of Kentucky Press, 1983).

270. Liddell Hart, B.H., **Europe in Arms** (London, Faber and Faber, 1957).

271. Mackenzie, W.J.M., **Power Violence, Decision** (Middlesex, Penguin Books, 1975).

272. Millis, Walter, **The Martial Spirit** (Cambridge, Mass. Literary Guild of America, 1931).

273. Morison, Samuel Eliot, **American Contributions to the Strategy of World *War* II** (London, Oxford University Press, 1958).

274. Moro, Comodoro R. Ruben, **Histoica del conflicto del Atlantico sur** (Buenos Aires, Ecsuela Superior de Guerra Aerea, 1985).

275. Organski, A.F.K., and Jacek Kugler, **The War Ledge** (Chicago, University of Chicago Press, 1980).

276. Pfannes, Charles E., and Victor A. Salamona, **The Great Commanders of World *War* II**, Vol. III, **The Americans** (Don Mills, Ontario, General Paperbacks, 1981).

277. Portela, Adolfo, et al., **Malvinas su advertencia termonuclear** (Buenos Aires, A-Z Editora, 1985).

278. Price, Alfred, **Air Battle Central Europe** (New York, The Free Press, 1987).

279. Rivers, Gayle, **The Specialist** (New York, Stein and Day, 1985).

280. Sadler, A.L., trans **The Code of the Sámurai** (Rutland, Vt., and Tokyo, Charles E. Tuttle 1988).

281. Sharp, Gene, **The Politics of Nonviolent Action** (Boston, Porter Sargent, 1973).

282. Starr, Chester G., **The Influence of Sea Power on Ancient History** (New York, Oxford University Press, 1989).

283. **Defense of Japan.** White Paper from the Defense Agency, Japan, translated into English by the **Japan Times** (Tokyo : Japan Times, 1988).

284. **Discriminate Deterrence** (Washington, D.C., The Commission On Integrated Long-Term Strategy, 1988).

285. **The Military Balance, 1989-1990** (London, International Institute for Strategic Studies, 1989).

286. **A Quest for Excellence,** Final Report to the President (Washington, D.C., The President's Blue Ribbon Commission on Defense Management, 1986).

287. **Strategic Survey, 1988-1989** (London, International Institute for Strategic Studies, 1989).

INTERNATIONAL RELATIONS

288. Adams, James, **The Financing of Terror** (London, New English Library, 1986).

289. Amin, Samir, **Accumulation on a World Scale** (New York, Monthly Review Press, 1974).

290. Bibo, Istvan, **The Paralysis of International Institutions and the Remedies** (New York, John Wiley and Sons, 1976).

291. Blazy, Jean-Claude, **le Petit Livre rouge du nationalisme** (Paris, Nouvelles Editions Debresse, n.d.).

292. Booth, Ken, **Strategy and Ethnocentrism** (London Croom Helm, 1979).

293. Brown, Lester R., et al., **Stateof the World, 1990** (New York, W. W. Norton, 1990).

294. Burnham, James, **The War *We* Are In** (New Rochelle N.Y., Arlington House, 1967).

295. Burstein, Daniel, **Yen !** (New York, Simon and Schnster, 1988).

296. Buruma, Ian, **God's Dust** (New York, Farrar Strans & Giroux, 1989).

297. Chafetz, Ze'ev, **Members of the Tribe** (New York, Bantam Books, 1988).

298. Close, Upton, **Behind the Face of Japan** (New York, Appleton-Century, 1934).

299. Colby, Charles C., ed., **Geographic Aspects of International Relations** (Port Washington, N.Y., Kennikat Press, 1970).

300. Crenshaw, Martha, ed., **Terrorism, Legitimacy, and Power** (Middletown, Conn., Wesleyan University Press, 1983).

301. Davidson, William H., **The Amazing Race** (New York, John Wiley and Sons, 1984).

302. Dorpalen, Andreas, **The World of General Haushofer** (Port Washington, N.Y., Kennikat Press, 1942).

303. Elon, Amos, **The Israelis Founders and Sons** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1971)

304. Emmott, Bill, **The Sun Also Sets** (New York, Times Books, 1989).

305. Gilpin, Robert, **U.S. Power and the Multinational Corporation** (New York, Basic Books, 1975).

306. ———, **War and Change in World Politics** (Cambridge, Cambridge University Press, 1981).

307. Glenn, Edmund S., and Christine Glenn, **Man and Mankind** (Norwood, N.J., Ablex Publishing, 1981).

308. Hall Edward T., and Mildred Reed Hall, **Hidden Differences** (New York, Anchor Press, 1987).

309. Harris, Marvin, **Culture,** People, Nature, 2d ed (New York, **Harper & Row, 1975).**

310. Hofheinz, Roy, Jr., and Kent E. Calder, **The Eastasia Edge** (New York, Basic Books, 1982).

311. Hoyt, Edwin P., **Japan's War** (New York, McGraw-Hill, 1986).

312. Huppes, Tjerk, **The Western Edge** (Dordrecht, the Netherlands, Kluwer Academic Publishers, 1987).

313. Kaplan, David E., and Alec Dubro, **Yakuza (Menlo Park, Cal.,** Addison-Wesley, 1986).

314. Margiotta, Franklin D., and Ralph Sanders, eds., **Technology, Strategy, and National Security** (Washington, D.C., National Defense University Press, 1985).

315. Mende, Tibor, **From Aid to Re-colonization** (New York, New York University Press, 1981).

316. Miller, Abraham H., **Terrorism and Hostage Negotiations** (Boulder, Col., Westview Press, 1980).

317. Miller, Roy Andrew, **Japan's Modern Myth** (New York, Weather hill, 1982).

318. Morita, Akio, and Shintaro Ishihara, **The Japan That Can Say « No »** (Washington, D.C., English translation and edition attributed to the Pentagon, 1989).

319. Morita, Akio, Edwin M. Reingold, and Mitsuko Shimomura, **Made in Japan** (New York E. P. Dutton, 1986).

320. Nakdimon, Shlomo, **First Strike** (New York Summit Books, 1987).

321. Nixon, Richard, **Nor More Vietnams** (New York, Arbor House, 1985).

322. Ohmae, Henichi, **Beyond National Borders** (Homewood, Ill., Dow Jones-Irwin, 1987).

323. ————, **Triad Power** (New York Free Press, 1985).

324. Palmer, John, **Europe Without America ?** (Oxford, Oxford Univesity Press, 1987).

325. Park, Jae Kyu and Jusuf Wanandi, eds., **Korea and Indonesia in the Year 2000** (Seoul Kyungnam University Press, 1985).

326. Pepper, David, and Alan Jnnkins, eds., **The Geography of Peace and War** (New York, Basil, and Blackwell, 1985).

327. Priestland Gerald, **The Future of Violence** (London, Hamish Hamilton, 1974).

328. Pujol Davila, José, **Sistema y poder geopolitico** (Buenos Aires Ediciones Corregidor, 1985).

329. Rangel, Carlos, **The Latin Americans : Their Love-Hate Relationship with the United States** (New York, Harcourt Brace Jovanovich, 1979).

330. ————, **Third World Ideology and Western Reality** (New Brunswick, N.J., Transaction Books, 1986).

331. Rosecrance, Richard, **The Rise of the Trading State** (New York, Basic Books, 1986).

332. Said, Abdul A., and Luiz R. Simmons, eds., **The New Sovereigns** (Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall, 1975).

333. Sampson, Geoffrey, **An End to Allegiance** (London, Temple Smith, 1984).

334. Soto, Hernando de, **The Other Path** (New York, Harper & Row, 1989).

335. Sterling, Claire, **The Terror Network** (New York, Berkley Books 1981).

336. Strausz-Hupe, Robert, **Geopolitics** (New York, G.P. Putnam's Sons, 1942).

337. Suter, Keith, Reshaping the Global Agenda (Sydney, U.N. Association of Australia, 1986).

338. Talbott, Strobe, **Deadly Gambits** (New York, Alfred A. Knopf, 1984).

339. Tsurumi, Shunsuke, **A Cultural History of Postwar Japan** (London, KPI, 1987).

340. Walter, Ingo, **Secret Money** (London, George Allen & Unwin, 1985).

341. Wanandi, Jusuf, **Security Dimensions of the Asia-Pacific Region in the 80's** (Jakarta, Centre for Strategic and International Studies, 1979).

342. Wiarda, Howard J., **Ethnocentrism in Foreign Policy** (Washington, D.C., American Entreprise Institute for Public Policy Research 1985).

343. Wyden, Peter, *Wall* (New York, Simon and Schuster, 1989).

344. Young, George K., **Finance And World Power** (London, Thomas Nelson, 1968).

SOCIALISM & MARXISM

345. Aganbegyan, Abel, ed., **Perestroika 1989** (New York, Charles Scribner's Sons, 1988).

346. Althusser, Louis, and Etienne Balibar, **Reading Capital** (New York, Pantheon Books, 1970).

347. Amalrik, Andrei, **Will the Soviet Union Eurvive Until 19٨٤ ?** (New York, Perennial Library, 1970).

348. Baldwin, Roger N., ed., **Kropotkin's Revolutionary Pamphlets: A Collection of Writings by Peter Kropotkin** (New York, Dover Publications, 1970).

349. Brzezinski, Zbigniew, **The Grand Failure : The Birth and Death of Communism in the 20th Century** (New York, Charles Scribner's Sons, 1989).

350. ————, and Samuel P. Huntington, **Political Power : USA/USSR** (New York, Viking Press, 1963).

351. Cohen, Stephen F., **Bukharin and the Bolskevik Revolution** (New York, Alfred A. Knopf, 1973).

352. ————, and Katrina Vanden Heuvel, **Voices of Glasnost** (New York, W. W. Norton, 1989).

353. Daniels, Robert V., **Russia : The Roots of Confrontation** (Cambridge, Mass, Harvard University Press, 1985).

354. De Brunhoff, Suzanne, **Marx on Money** (New York, Urizen Books, 1976).

355. Carrère d'Encauses, Hélène, **Confiscated Power** (New York Harper & Row, 1982).

356. Fine, Ben, and Laurence Harris, **Rereading Capital** (London, Macmillan Press, 1979).

357. Fletcher, Raymond, **Stalinism** (Heanor, U.K., Byron House Publications, n.d.).

358. Frankel, Boris, **Beyond the State ? Dominant Theories and Socialist Strategies** (London, Macmillan Press, 1983).

359. Friedgut, Theodore H., **Political Participation in the USSR** (Princeton, Princeton University Press, 1979).

360. Frolov, I., **Global Problems and the Future of Mankind** (Moscow, Progress Publishers, 1982).

361. Gorbatchev, Mikhail, **Selected Speeches and Articles** (Moscow, Progress Pubishers, 1987).

362. Grachev. Andrei, **In the Grip. of Terror** (Moscow Progress Publishers, 1982).

363. Hamrin, Carol Lee, **China and the Challenge of the Future** (San Francisco, Westview Press, 1990).

364. James, Donald, **The Fall of the Russian Empire** (New York, Signet Books, 1982).

365. Kraus, Richard Curt, **Class Conflict in Chinese Socialism** (New York, Columbia University Press, 1981).

366. Lichtheim, George, **The Origins of Socialism** (New York, Free-derick A. Praeger, 1969).

367. Loebl, Eugen, **Stalinism in Prague** (New York, Grove Press, 1969).

368. Marx, Karl, **Capital,** Vol. I (New York, International Publishers, 1939).

369. ————, F. Engels, and V. Lenin, **On Historical Materialism, A Collection** (Moscow, Progress Publishers, 1972).

370. McMurtry, John **The Structure of Marx's World-View** (Princeton University Press, 1978).

371. Muqiao, Xue, **China's Socialist Economy** (Beijing, Foreign Languages Press, 1981).

372. Pan, Lynn, **The New Chinese Revolution** (Chicago, Contemporary Books, 1988).

373. Possony, Stefan T., ed., **The Lenin Reader** (Chicago, Henry Regnery, 1966).

374. Poster, Mark, **Foucault, Marxism and History** (Oxford, Polity Press, 1984).

375. Rigby, T. H., Archie Brown, and Peter Reddaway, eds., **Authrity, power and Policy in the USSR** (London, Macmillan Press, 1980).

376. Sassoon, Anne Showstack, **Approaches to Gramsci** (London, Writters and Readers Publishing Cooperative Society, 1982).

377. Sherman, Howard, **Radical Political Economy** (New York, Basic Books, 1972).

378. Sik, Ota, **The Communist Power System** (New York, Praeger Publishers, 1981).

379. Starr, John Bryan, **Continuing the Revolution : The Political Thought of Mao** (Princlton, Princeton University Press, 1979).

380. Wilson, Dick, **The Sun at Noon** (London, Hamish Hamilton, 1986).

381. Zamoshkin, Yu. A., **Problems of Power and Management Under the Scientific Technological Revolution** (Moscow, Soviet Sociological Association, 1974).

FASCISM

382. Beradt, Charlotte, **The Third Reich of Dreams** (Wellingborough, U.K., Aquarian Press, 1985).

383. Friedlander, Saul, **Reflections on Nazism** (New York, Avon Books, 1984).

384. Glaser, Hermann, **The Cultural Roots of National Socialism** (Austin, University of Texas Press, 1978).

385. Gregor, A. James, The Fascist Persuasion in Radical Politics (Princeton, Princeton University Press, 1974).

386. ———, **The Ideology of Fascisn** (New York, The Free Press, 1969).

387. Hitler, Adolf, **Mein Kampf** (Boston, Houghton Mifflin, 1971).

388. Laqueur, Walter, **Fascism : A Reader's Guide** (Berkeley, University of California Press, 1976).

389. Lewin, Ronald, **Hitler's Mistake** (New York, William Morrow, 1984).

390. Mosse, George L., **The Crisis of German Ideology** (London, Weidenfeld and Nicolson, 1964).

391. Reveille, Thomas, **The Spoil of Europe** (New York, W. W. Norton, 1941).

SECRET SERVICE & ESPIONAGE

392. Aburish, Said K., **Pay-Off : Wheeling and Dealing in the Arab World** (London, Andre Deutsch, 1986).

393. Andrew, Christopher, **Secret Service** (London, Heinemann, 1985).

394. ————, and David Dilks, eds., **The Missing Dimension** (Chicago, University of Illinois Press, 1984).

395. Ball, Desmond, **Pine Gap** (Sydney, Allen & Unwin, 1988).

396. ————, J. O. Langtry, and J. D. Stevenson, **Defend the North** (Sydney, George Allen and Unwin, 1985).

397. Brown, Anthony Cave, **Bodyguard of Lies** (New York, Bantam Books, 1976).

398. ————, "C" (New York, Macmillan, 1987).

399. Burrows, William E., **Deep Black** (New York, Random House, 1986).

400. Caroz Yaacov, **The Arab Secret Services** (London, Corgi Books, 1978).

401. Costello, John, **Mask of Treachery** (New York, William Morrow, 1988).

402. Coxsedge, Joan, Ken Coldicutt, and Gerry Harant, **Rooted in Secrecy** (Capp, Australia, Balwyn North, 1982).

403. Deacon, Richard, « **C** » : **A Biography of Sir Maurice Oldfield.** (London, McDonald, 1985).

404. ————, **A History of Russian Secret Service** (London Frederick Muller, 1972).

405. Donner, Frank J., The **Age of Surveillance** (New York, Alfred A Knopf, 1980).

406. Felix, Christopher, **A Short Course in the Secret War** (New York, Dell Publishing, 1988).

407. Garwood, Darrell, **Undercover : Thirty-five Years of CIA Deception** (New York, Grove Press, 1985).

408. Godson, Roy, **Intelligence Requirements for the 1980's** (Lexington, Mass., Lexington Books, 1986).

409. Halamka, John D., **Espionage in the Silicon Valley** (Berkeley, Cal., Sybex, 1984).

410. Henderson, Bernard R., **Pollard. The Spy's Story** (New York, Alpha Books, 1988).

411. Knightley, Phillip, **The Second Oldest Profession** (New York, A. W. Norton, 1986).

412. Laqueur, Walter, **A World of Secrets** (New York, Basic Books, 1985).

413. Levchenko, Stanislav, **On the Wrong Side** (Washington, D.C., Pergamon-Brassey's 1988).

414. Levite, Ariel, **Intelligence and Strategic Surprises** (New York, Columbia University Press, 1987).

415. Marenches, Count de, and Christine Ockrent, **The Evil Empire** (London Sidgwick and Jackson, 1986).
secret des princes).

416. Pacepa, Ion, **Red Horizons** (London, Hodder and Stoughton, Coronet Books, 1989).

417. Perrault, Gilles, **The Red Orchestra** (New York, Pocket Books, 1969).

418. Phillips, David Atlee, **Careers in Secret Operations** (Bethesida, Md., Stone Trail Press, 1984).

419. Pincher, Chapman, **Too Secret Too Long** (New York, St. Martin's Press, 1984).

420. Plate, Thomas, and Andrea Darvi, **Secret Police** (London, Robert Hale, 1981).

421. Prouty, Fletchrr L., **The Secret Team** (Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall, 1973).

422. Richelson, Jeffrey **(American Espionage and the Soviet Target** (New York, Quill, 1987).

423. ————, **Foreign Intelligence Organizations** (Cambridge, Mass., Ballinger, 1985).

424. ————, **The U S. Intelligence Community** (Cambridge Mass, Ballinger, 1985).

425. Rositzke, Harry, **The KGB** (New York, Doubleday, 1981).

426. Seth, Ronald, **Secret Servants** (New York, Farrar, Straus and Cudahy, 1957).

427. Shevchenko, Arkady N., **Breaking with Moscow** (New York, Alfred A. Knoph, 1985).

428. Shultz, Richard H., and Roy **Godson, Dezinformatsia** (New York, Berkley Books, 1986).

429. Suvorov, Viktor, **Inside Soviet Military Intelligence** (New York, Berkley Books, 1984).

430. ————, **Inside the Aquarium : The Making of a Top Spy** (New York, Berkley Books, 1987).

431. Toohey, Brian, and William Pinwill, **Oyster** (Port Melbourne, Australia, William Heinemann, 1989).

432. Turner, Stansfilld **Secrecy and Democracy** (Boston, Houghton Mifflin, 1985).

433. West Nigel, **The Circus** (New York, Stein and Day, 1983).

434. ————, **Games of Intelligence** (London, Weidenfeld and Nicolson, 1989).

435. Woodward, Bob, **Veil** (New York, Simon and Schuster, 1987).

436. Wright, Peter, and Paul Greengrass, **Spycatcher** (New York, Viking Press, 1987).

KNOWLEDG & SOCIETY

437. Afanasyev, V., **Social Information and the Regulation of Social Development** (Moscow, Progress Publishers, 1978)..

438. Alisjahbana, S. Takdir, **Values As Integrating Forces in Personality, Society and Culture** (Kuala Lumpur, University of Malaya Press, 1966).

439. Attali Jacques **Noise (Minneapolis, Univeristy of Minnesota** Press, 1985).

440. Bacon, Francis, **A Selection of His Works** (Indianapolis, Bobbs-Merrill Educational Publishing, 1965).

441. Bok, Sissela, **Secrets** (New York, Vintage Books, 1984).

442. Cherry Kittredge, **Womansword** (Tokyo Kodansha International, 1989).

443. Cirlot J. E. **A Dictionary of Symbols** (New York, Philosophical Library ,1962).

444. Coser Lewis **A., Men of Ideas** (New York, Free Press, 1970).

445. Curtis James E., and John W. Petras, eds., **The Sociology of** Knowledge (New York, Praeger, 1970).

446. De Huszar, George B.. ed., **The Intellectuals** (Glencoe, III., Free Press of Glencoe, 1960).

447. Doi, Takeo, **The Anatomy of Dependence** (Tokyo, Kodansha International, 1985).

448. Duke, Benjamin, **The Japanese School** (New York, Praeger, 1986).

449. Ekman, Paul, **Telling Lies** (New York, W. W. Norton, 1985).

450. Everhart, Robert B., ed., **The Public School Monopoly** (Cambridge, Mass., Ballinger, 1982).

451. Feigenbaum, Edward: Pamela McCorduck and H. Penny Nil, **The Rise of The Expert compagny** (New York, Times Books, 1988).

452. Foster. Hal, **Postmodern Culture** (London, Pluto Press, 1985).

453. **Focault. Michel, Power, Truth, Strategy** (Sydney, Feral Publications, 1979).

454. Gardner, Howard, **The Mind's New Science** (New York, Basic Books, 1985).

455. Gouldner, Alvin W., **The Future of Intellectuals and the Rise of the New Class** (New York, Continuum Books, 1979).

456. Habermas, Jurgen, **Knowledge and Human Interests** (Boston, Beacon Press, 1968).

457. Hansen, Robert H., **The Why, What and How of Decision Support** (New York, AMA Management Briefing, 1984).

458. Hoffman, Lily M., **The Pilitics of Knowledge** (Albany, State University of New York Press, 1989).

459. Keren, Michael, **Ben Gurion and the Intellectuals** (Dekalb, Ill., Northern Illinois University Press, 1983).

460. Kindaichi, Haruhiko, **The The Japanese Language** (Rutland, Vt. Charles E. Tuttle, 1978).

461. Konrad, George, **Antipolitics** (New York, Harcourt Brace Jovanovich, 1984).

462. Konrad, George, and Ivan **Szelenyi, The Intellectuals on the Road to Class Power** (New York, Harcourt, Brace Jovanovich, 1976).

463. Kraemer, Kenneth L., et al., **Datawars** (New York, Columbia University Press, 1987)

464. Lakatos, Imre, and Alan Musgrave, eds., **Criticism and the Growth of Knowledge** (London, Cambridge University Press, 1979).

465. Lamberton, D.M. ed., **Economics of Information and knowledge** (Middlesex, U.K., Penguin Books, 1971).

466. Lyotard, **Jean-François, The Post-Modern Condition** (Minneapolis, University of Minnesota Press, 1984).

467. Machlup, Fritz, **Knowledge : I3ts Creation, Distribution,** and **Economic Significance**, Vol. I (Princeton, Princeton Press, 1980).

468. ————, **The Production and Distribution of Knowledge in the United States** (Princeton, Princeton University Press, 1962).

469. Noer, Deliar, **Culture, Philosophy and the Future** (Jakarta, P.T. Dian Rakyat, 1988)

470. Ohmae, Kenichi, **The Mind of the Strategist** (New York, Penguin, 1983).

471. Ong, Walter J., **Orality and Literacy** (London, Methuen, 1982).

472. ————, ed., **Knowledge and the Future of Man** (New York, Clarion Books, 1968).

473. Paulos, John Allen, **Innumeracy** (New York, Hill and Wang, 1988).

474. Popper, K. R., The **Open Society and Its Enemies,** Vol. I (London, Routledge and Kegan Paul, 1962).

475. Powers, Richard Gid, **Secrecy and Power : The Life of J. Edgar Hoover** (New York, Freee Press, 1987).

476. Scott, D. R., **The Cultural Significance of Accounting** (Columbia, Mo., Lucas Brothers, n.d.).

477. Singer, Kurt, **Mirror, Sword and Jewel** (Tokyo, Kodansha International, 1973).

478. Sowell, Thomas, **Knowledge and Decisions** (New York, Basic Books, 1980).

479. Strehlow T.G.H., **Songs of Central Australia** (Sydney, Angus and Robertson, 1971).

480. Swetz, Frank J., **Capitalism and Arithmetic** (La Salle, Ill., Open Court, 1987).

481. Taylor, Stanley, **Conceptions of Institutions and the Theory of** Knowledge (New Brunswick, N.J., Transaction, 1989).

482. Tefft, Stanton K., **Secrecy : A Cross Cultural Perspective** (New York, Human Sciences Press, 1980).

483. Van den Berg, Jan Hendrik, **Medical Power and Medical Ethics** (New York, W. W. Norton, 1978).

484. Whitehead, Alfred North, **The Function of Reason** (Boston, Bacon Press, 1958).

COMPUTERS & COMMUNICATIONS

485. Acco, Alain, and Edmond Zuchelli, **la Peste informatique** (Paris, Editions Plume, 1989).

486. Arnold, Erik, and Ken Guy, **Parallel Convergence : National Strategies in Information Technology** (London, Frances Pinter, 1986).

487. Ashby, W. Ross, **Design for a Brain** (London, Chapman and Hall, 1978).

488. Berlin, Isaiah, **Against the Current** (New York, Viking Press, 1955).

489. Berlo, David K., **The Process of Communication** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1960).

490. Cherry, Colin, **World Communication : Threat or Promise ?** (London, Wiley-Interscience, 1971).,

491. Civikly, Jean M., **Messages** (New York, Random House, 1974).

492. Duncan, Hugh Dalziel, **Communication and Social Order** (London, Oxford University Press, 1962).

493. Goodman, Danny, **The Complete Hyper Card Handbook** (New York, Bantam Books, 1987).,

494. Goulden, Joseph C., **Monopoly** (New York, Pocket Books, 1970).

495. Hemphill, Charles F., Jr., and Robert D. Hemphill, **Security Safeguards for the Computer** (New York, AMA Management Briefing, 1979).

496. Johnson, Douglass W., **Computer Ethics** (Elgin, III., Brethren Press, 1984).

497. Kaligo, Al, Lou Baumbach, and Joe Garzinsky, **Telecommunications Management : A Practical Approach** (New York, AMA Management Briefing, 1984).

498. Kitahara, Yasusada, **Information Network System** (London, Heinemann Educational Books, 1983).

499. Landau, Robert M., **Information Resources Management** (New York, AMA Management Briefing, 1980).

500. Levy, Steven, **Hackers** (New York, Dell, 1984).

501. Marchand, Marie. **The Minitel Saga** (Paris, Larousse, 1988). en française : **Minitel**).

502. McLuhan Marshall and Bruce R. Powers, **The Global Village** (New York, Oxford University Press, 1989).

503. Mortensen, C. David, **Communication** (New York, McGraw-Hill, 1972).

504. Pool, Ithiel de Sola, **Technologies of Freedom** (Cambridge, Mass., Belknap Press of Harvard University Press, 1983).

505. Poppel, Harvey L., and Bernard Goldstein, **Information Technology** (New York, McGraw-Hill, 1987).

506. Shannon, Claude, and Warren Weaver, **The Mathematical Theory of Communication** (Urbana, University of Illinois Press, 1949).

507. Smith, Alfred G., ed., **Communication and Culture** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1966).

508. Spacks, Patricia Meyer, **Gossip** (Chicago, University of Chicago Press, 1985).

509. Strassman, Paul A., **Information Payoff** (New York; Free Press, 1985).

510. Tarde, Gabriel, **On Communication and Social Influence** (Chicago, University of Chicago Press, 1969).

511. Wilcox, A. M., M. G. Sade, and P.A. Ramsdale, **Command Control and Communications** (New York, Brassey's Defense Publishers, 1983).

512. Wilmot, William W., and John R. Wenburg, **Communicational Involvement : Personal Perspectives** (New York, John Wiley and Sons, 1974).

513. Winograd, Terry, and Fernando Flores, **Understanding Computers and Congnition** (Reading Mass Addison-Wesley, 1986).

SCIENCE & TECHNOLOGY

514. Colombo, Unberto, et al., **Science and Technology Towards the XXI Century and Their Impact Upon Society** (Milan, The Pirelli Group, n.d.).

515. Drexler, K. Eric, **Engines of Creation** (New York, Another Press. 1986).

516. Driakhlov, Nikolai, **The Scientific and Technological Revolution: Its Rss. Design for a Brain** (London, Chapman and Hall, 1978).

517. Illich, Ivan, **Tools ffo Conviviality** (New York, Harper & Row, 1973).

518. Langone, John, **Superconductivity** : The New Alchemy (Chicago, Contemporary Books, 1989).

519. Melvern, Linda, David Hebditch, and Nick Anning, **Techno-Bandits** (Boston, Houghton Mifflin, 1984).

520. Mendelssohn, Kurt. **The Slcret of Western Domination** (New York, Praeger, 1976).

521. Murayama, Janet H., and H. Guford Stever, eds., **Globalization of Technology** (Washington, D.C., National Academy Press, 1988).

522. Nicolis, G., and I., Prigogine, **Self-Organization in Nonequilibrium System** (New Yirk, John Wiley and Sons, 1977).

523. Prigogine, Ilya, **From Being to Becoming** (San Francisco, W. H. Freeman, 1980).

524. ————, and Isabelle Stengers, **la Nouvelle Alliance** (Paris, Editions Gallimard, 1979).

525. ————, **Order Out of Chaos** (New York, Bantam Books, 1984).

526. Tuck Jay, **High-Tech Espionage** (London, Sidjwick and Jack son, 1986).

527. **The Scientific-Technological Revolution and the Contradictions of Capitalism**, International Thecritical Conference, Moscow, May 21-23, 1979 (Moscow, Progress Publishers 1982).

HISTORY & BIOGRAPHY

528. Allen, Frederirk Lewis, **The Lords of Creation** (New York, Harper & Brcthers, 1935).

529. Attali, Jacques, **A Man of Influence : Sir Siegmund Warburg** 1902-1982) (Bethesda, Md., Adler & Adler, 1987).

530. Ayling, S. E., **Portraits of Power** (New York, Barnes and Noble, 1963).

531. Braudel, Fernand, **Afterthoughts on Material Civilization and Capitalism** (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1977).

532. ————, **Capitalism and Material Life 1400-1800** (New York, Harper Colophon Books, 1973).

533. ————, **The Mediterranean**, Vol. 1 (New York, Harper & Row, 1972).

534. ————, **The Mediterranean** Vol. II (New York, Harper & Row, 1972).

535. ————, **On History** (London, Weidenfeld and Nicolson, 1980).

536. ————, **The Structures of Everyday Life,** Vol. I (New York, Harper & Row, 1981).

537. Burke, John, **Duet in Diamond** (New York, G. P. Putnam's Sons, 1972).

538. Bury, J.P.T., ed., **The New Cambridge Modern History** (Cambridge, Cambridge University Press, 1971).

539. Cashman, Sean Dennis, **Amlrica in the Gilded Age** (New York, New York University Press, 1984).

540. Center for Medieval and Renaissance Studie, UCLA, **The Dawn of Modern Banking** (New Haven, Yale University Press, 1979).

541. Chernow, Ron, **The House of Morgan** (New York, Atlantic Monthly Press, 1990).

542. Cook, Don, **Charles de Gaulle** (New York, G. P. Putnam's Sons, 1983).

543. Cooper, A. Duff, **Talleyrand** (London, Cassell, 1987).

544. Corey, Lewis, **The House of Morgan** (New York, G. Howard Watt, 1983).

545. Crankshaw, Edward, The Fall of the House of Habsburg (New York, Penguin Books, 1983).

546. Crozier, Brian, **The Masters of Power** (Boston, Little, Brown, 1969).

547. Curtin, Philip D., **Cross-Cultural Trade in World History** (Cambridge, Cambridge University Press, 1984).

548. Custine, Marquis de, **Journey for Our Time : The Journals of the Marquis de Custine** (London George Prior, 1980).

549. Dodd, Alfred, **Francis Bacon's Personal Life-Story,** Vol. 1 (London, Rider, 1949).

550. ————, **Francis Bacon's Personal Life Story,** Vol. II, (London Rider, 1986).

551. Elias, Norbert, **Power and Civility** (New York, Pantheon Books, 1982).

552. Eyck, Erick, **Bismarck and the German Empire** (New York and London, W. W. Norton, 1950).

553. Febvre, Lucien, and Henri-Jean Martin, **The Coming of the Book** (London,, New Left Books, 1984).

554. Green, A. Wigfall, **Sir Francis Bacon** (Denver, Alan Swallow, 1952).

555. Hammer Armand, with Neil Lyndon, **Hammer** (New York, G. P. Putnam's Sons, 1987).

556. Hook, Sidney, **Out of Step** (New York, Carroll & Graf, 1987).

557. Isaacson, Walter, and Evan Thomas **The Wise Men** (New York, Simon and Schuster, 1986).

558. Johnson, Paul, **Intellectuals** (New York, Harper & Row, 1988).

559. Kapuscinski, Ryszard, **The Emperor** (New York, Harcourt Brace Jovanovich, 1983).

560. ————, **Shah of Shahs** (New York, Harcourt Brace Jovanovich, 1985).

561. Kennedy, Paul, **The Rise and Fall of the Great Powers** (New York, Random House, 1987).

562. Kerr, Clark, et al., **Industrialism and Industrial Man** (Harmondsworth, U.K., Penguin Books, 1973)

563. Kula, Witold, **An Economic Theory of the Feudal System** (London, NLB, 1976).

564. Lacouture, Jean, **The Demigods** (Nlw York, Alfred A. **Knopf**, 1970).

565. Markham, Felix, **Napoleon** (New York, Mentor Books, 1963).

566. Mazlish, Bruce, **James and John Stuart Mill** (New York, Basic Books, 1975).

567. McNeil, William H., **The Pursuit of Power** (Chicago, University of Chicago Press, 1982).

568. Mee, Charles L., Jr., **The End of Order** (New York, E. P. Dutton, 1980).

569. Metcalfe, Philip, **1933** (Sag Harbor, N.Y., Permanent Press, 1988).

570. Millar, Fergus, **The Emperor in the Roman World** (Ithaca, N. Y., Cornell University Press, 1977).

571. Myers, Gustavus, **History of the Great American Fortunes** (New York, Modern Library, 1937).

572. Nicholls, A. J., **Weimar and the Rise of Hiter** (London, Macmillan, 1979).

573. Nixon, Richard, **Leaders** (New York, Warner Books, 1982).

574. ————, **The Memoirs of Richard Nixon** (New York, Grosset and Dunlap, 1978).

575. Norwich, John Julius, **Venice : The Rise to Empire** (London, Allen Lane, 1977).

576. Nystrom, Anton, **Before During, and After 1914** (London, William Heinemann, 1915).

577. Schevill, Ferdinand, **A History of Europe** (New York, Harcourt Brace 1938).

578. Schlereth, Thomas J., **The Cosmopolitan Ideal in the Enlightenment Thought** (Notre Dame, Ind., University of Notre Dame Press, 1977).

579. Schmidt-Hauer, Christian, **Gorbatchev** (Topsfield, Mass., Salem House, 1986).

580. Seward, Desmond, **Napoleon and Hitler** (New York, Viking Press, 1988).

581. Stephenson, Carl, **Mediaeval Feudalism** (Ithaca, Cornell University Press, 1967).

582. Stern, J. P., **Hitler** (London Fontana/Collins, 1975).

583. Tapsell, R. F., **Monarchs, Rulers, Dynasties and Kingdoms of the World** (London, Thames and Hudson, 1983).

584. Thompson, E. P., **The Making of the English Working Class** (New York, Vintage Books, 1963).

585. Walker, James Blaine, **The Epic of American Industry** (New York, Harper & Brothers, 1949).

586. Ward, J. T., **The Factory System,** Vol. I (Newton Abbot, U.K., David and Charles 1970).

587. Weatherford, Jack, **Indian Givers**. (New York, Crown Books, 1988).

588. Wendt, Lloyd, and Herman Kogan, **Bet A Million ! Indiana-**polis, Boobs-Merrill, 1948).

589. Wheeler, George. **Pierpont Morgan and Friends** (Englewood Cliffs, N. J., Prentice Hall, 1973).

590. Wilson, Derek, **Rothschild : The Wealth and Power of a Dynasty** (New York, Charles Scribner's Sons, 1988).

591. Wilson, George M., **Radical Nationalist on Japan : Kita Ikki 1883-1937)** (Cambridge, Mass,, Harvard University Press, 1969).

592. Wittfogel, Karl A., **Oriental Despotism** (New Haven, Yale University Press, 1964).

اقرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـترديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر ألـن
المرشـد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهـرام	بيـل شـول وأدبنيت
فن الترجمـة	د· صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكرف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز في عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج٠ دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د٠ جوهان دورشز
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د٠ السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د٠ مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٣ ج	فرانكلين ل ٠ باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف ٠ س
أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س ٠ م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د٠ سمبسون
الشارع المصرى والفكر	د٠ أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون يوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل
	شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر ٠ بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخي عند الاغريق	أرنولد توينبي
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / مونى براخ وآخرون

دليـــل تنظيـم المتـاحف	آدامز فيـليب
سـقوط المطر وقصص أخـرى	نادين جورديمـر وآخرون
جماليـــات فن الاخـــراج	زيجمـونت هبنـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ســتيفن أوزمنت
الحملة الصـــليبية الأولى	جـوناثان ريـلى سـميث
التمثيـل للسـينما والتليفزيون	تـونى بـار
العثمـــانيون فى أوربا	بـول كولنـــر
صـــناع الخـــلود	موريس بيـــر برايز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ)	الفـــريد ج ٠ بتـــلر
رحـــلات فارتيمـا	رودريجـــو فارتيمـا
انهم يصـــنعون البشر (٢ جـ)	نانس بكـارد
فى النقد السـينمائى الفرنسى	اختيار/ د٠ رفيق الصـــبان
السـينما الخيـالية	بيتـــر نيكوللز
الســـلطة والفـــرد	برتداند راصـــل
الأزهـــر فى ألف عـام	بينـــارد دودج
رواد الفلســـفة الحـــديثة	ريتشـــارد شـاخت
ســـفر نامة	ناصر خسرو عـــلوى
مصر الرومانيـة	نفتـــالى لـويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جـاك كرابس جونيـــور
الاتصال والهيمنة الثقـــافية	هـــربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآســـيوية	اختيار / صـــبرى الفضـــل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ جـ)	أحمـد محمـد الشـنوانى
الشموس المتفجرة	اســـدق عظيمـــوف
مدخـل الى علم اللغـــة	لوريتـو تـود
حـديث النهـر	اعـداد/ سوريال عبـد الملك
من هم التتـــار	د٠ أبرار كريم الله
ماســـتريخت	اعداد/ جابر محمـد الجـزار
معـالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ ٠ ج ٠ ولـــز
الحمـــلات الصـــليبية	ســـتيفن رانســـيمان
حضـارة الاسلام	جوستـاف جرونيبـاوم

رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشارد ف . بيرتون
الحضارة الاسلامية	أدمز متز
الطفل (٣ ج)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقي	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج . كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف . م . بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكي	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج ستاينر
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ . ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب . ناش
انواع الفيلم الأميركي	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ ج	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف يندهام
المرأة الفرعونية	كريستيان ديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى

رقم الايداع بدار الكتب ٣٥٥٤ / ١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 4734 — 6

هذا الكتاب خلاصة لنظريات توفلر عن المستقبليات في عصر تتالى فيه الأحداث بسرعة مذهلة وقد لمس توفلر في كتابه هذا جوهريات «الفكر المعلوماتي الجديد» وطرح نهجا في إستكشاف معالم ثورة المعلوماتية وقد جمع توفلر ما بين صفات المراقب المدقق للإنجازات العلمية والتكنولوجية وأيضا للتحولات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عنها وصفات المحلل القادر على إكتشاف أنماط جديدة مستمدة من دراسة هذه التحولات البالغة التعقيد والحداثة.

محمد سيد أحمد

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب